رسالة الأخلاق

تأليف

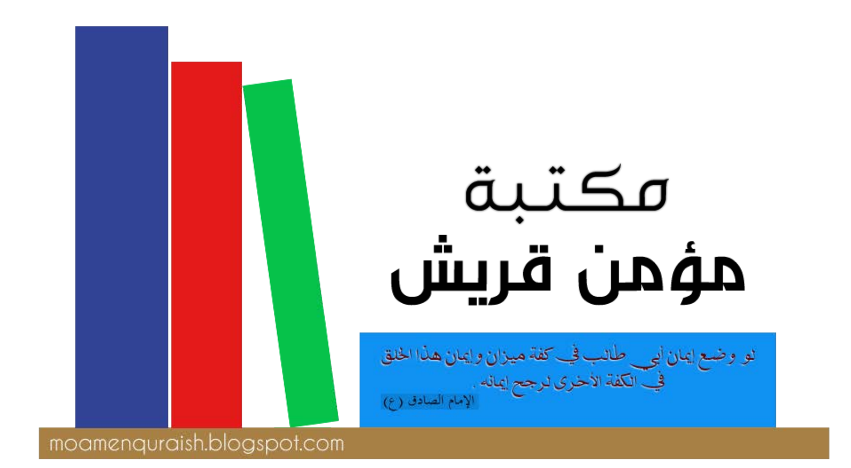
السيّد مجتبى الموسوي اللاري

إعداد

لجنة التعريب والتحقيق في الدار الإسلامية

محمد هادي اليوسفي الغروي





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

رسالة الأخلاق

تأليف

السيّد مجتبى الموسوي اللاري

إعداد

لجنة التعريب والتحقيق في الدار الإسلامية

محمّد هادي اليوسفي الغروي

الدار الإسلاميّة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م



كورنيش المزرعة، بناية الحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فرع ثاني: حارة حريك، شارع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
ص.ب: ١٤٥٦٨ - تلكس: ٢٣٢١٢ - غدير

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق مجموعة من التصورات والمفاهيم ، تقود الأحاسيس والعواطف ، وهي عوامل عظيمة ، مؤثرة ، وبوضوح في نظام حياة الأمم . لذلك فإن مسألة قيادة الأحاسيس والعواطف ، والحيلولة دونها ، من أن تفرط أو تفرّط ، من أهم الأمور الأساسية في حياة الإنسان .

وإذا عرفنا أن الإنسان يعيش باستعداداته النفسية في كل لحظة من حياته ، وأن العقل الذي يضيء صعيد حياة الإنسان ، من الممكن أن تخرج الغرائز الأصلية التي هي المصدر لحركة الإنسانية ، عن أن تكون وسائل تنفيذ ، ليكون إنحرافها محدداً مدار نفوذ العقل .

وإذا عرفنا مدى المسؤولية الكبرى التي يتحملها الأخلاقيون ، في قيادة أحاسيسهم ، وعواطفهم ، والآخرين .

إذا عرفنا كل ذلك ، إنكشف لنا الدور المهم للأخلاق في الحياة ، كما اتضح لنا بعدها ، أن التربية من دون رصيد معنوي ، لا تستطيع دفع مصادمات الغرائز للأخلاق ومن هنا ، وجب التحصّن المعنوي ، الذي يتوفر عن طريق الترجمة

العملية لما يؤمن بـه الإنسان من مبـادىء ، علماً أن أهم ضمان لتنفيذ الأصول الإنسـانية ، وأكـبر رصيد للفضـائل الأخـلاقية ورأس كـل المبادىء هـو الإيمـان الـديني الحقيقي الـذي يؤمّن للإنسان القدرة والمناعة ، في مقاومة الغرائز والأحاسيس .

إن الإيمـان بـالله الخـالق ، العـالم بـالسرائـر والضـمائـر ، والاعتقـاد بالثـواب والعقاب ، وبـالأفكار والمفـاهيم الطاهـرة السليمة ، يمكّن الإنسان من إطـلاقه لإقـامة الشخصيـة الخيّرة والمجتمع السليم ، بعيداً عن الدوافع الشريرة المضرة .

ومن هنا كانت بعثة الأنبياء لا سيـما رسول الله (ص) ، من أجـل تربيـة الإنسان ، وتعليمـه ، للوصول بـه إلى الأهـداف العالية ، وتزكية فكره من الدّنس والأرجاس .

وها هي الدار الإسلامية ، التي عوّدت القرّاء على نشر كل مـا يخدم الإسـلام والمسلمين ، تضـع هذا الكتـاب (رسـالـة الأخلاق) لمؤلفه السيد مجتبى الموسوي اللاري ، بين يديك ، أملاً منها أن تكون ساهمت الآن ، كـما ساهمت من قبـل ، في المشـاركة بتحسـين أوضاع البيئـة البشرية ، بـدءاً من إصـلاح الـنفس ، والإسـتزادة مـن الخـصـال الخـيرة الـطاهـرة ، بالاستعدادات والقـوى النفسية ، أمـلاً بالـوصول إلى تكـامل النـوع الإنساني ، وإصـلاح المجتمـع إنمـا هـو ثمـرة تكـامـل أفراده .

إن الدار الإسلامية ، وهي تنشر هذا الكتاب ترجو من الله سبحانه أن يتقبله الناس بقبول حسن والله من وراء القصد .

الدار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنّي بعثت لأتمّم لكم مكارم الأخلاق »

(حديث شريف)

تقـديـم

نحن ندرك بل نُحِسّ بـوضوح أنّ كـل شيء في هذا العـالم في حالـة تحوّل وتغيّر ، وأنّ عامل التجديد في الحياة أصل ابتنى عليه نظام قانون الخلقة .

وكما نعتقد بثبات قانون التطوّر في الحيـاة ، علينا أن نؤمن بثبـات نوع من المعاني ومفاهيم خاصة في هذا العالم ، وأنّها ثابتة لا تزول . وهذه الأصول الثابتة هي قوانين الفضائل الأخلاقية ، التي لا بدّ لنا ـ بحكم عقولنا ـ من اتّباعها ، بل نحن مكلفون ـ عقلاً ـ بأن تكون عيشتنا في هذه الحياة في ظلالها .

إنّ من أهمّ العـوامـل التي تكمن وراء تـوفيق المجـتمعـات البشريـة وانتصـاراتها وانتكـاساتهـا هي العوامـل الأخلاقيـة ، بل لهـا من الآثار الحـاسمة والواضحة والـظاهرة في نـظام حياة الأمم بحيث لا تُبقي لأحـد مجالاً للتشكيـك والترديد .

إنّ الطبيعة الحقيقيـة للإنسـان مستعدة للتكـامل [illegible] ـا لا نهاية لـه ، وإن قواه واستعداداته وإرادته وكراهته قد أودعت وتخمّرت فيه من أن يدرك الإنسـان شخصيته الواقعية .

إنّ مسألة قيـادة الأحاسيس والعـواطف ، والحيلولة دونها من أن تُفـرط أو تفرّط ، من أهم الأمور الأساسية في حياة الإنسان بنظر التربويين الأخصّـائيين .

ـ وإنّ التكامل في الإستعدادات النفسية للإنسان كرأسمال لا ينفد عنده ، وإنّ تربيتها ونموّها لأهم بكثير من كل ما يتعلمه من العلوم والمعارف على مختلف المستويات ، فإنّه إنّما يعيش باستعداداته النفسية في كل لحظة من حياته .

وإنّ العقل وإن كان يضيء صعيد حياة الإنسان بنوره الطبيعيّ الوضاء ، إلّا أن من الممكن أن تخرج الغرائز الأصيلة ، وهي مغروزة في ذات الإنسان ، والتي هي المصدر لكل حركة في حياته ، تخرج عن أن تكون وسائل تنفيذ للعقل ، فيكون انحرافها عن وضعها الطبيعيّ يحدّد مدار نفوذ العقل ، بحيث يتابع الإنسان ميولاً له هي على خلاف العقل ، بل حتى مصالحه الشخصية . من هنا بإمكاننا أن ندرك الدور المهم للأخلاق في الحياة ، ومدى المسؤولية الكبرى للمسؤولين عن الأمور التربوية .

نعم إنّ العمل بالأصول الأخلاقية ـ من ناحية أخرى ـ تستلزم تحمّل سلسلة من المناظرات والحرمان ، ففي كثير من الموارد يقع التضادّ بين ميول الإنسان وبين تلك الأصول ، ولا يمكن إشباع تلك الميول إلّا بالإعراض عن تلك المقررات الأخلاقية بل سحقها ، وهنا نقول : أجل ، إنّ التربية من دون رصيد معنوي لا تستطيع دفع مصادمات الغرائز للأخلاق ، فالذين ليسوا في حصن من المعنويات سيسقطون صرعى ضحايا الضغط الشديد لميولهم وأهوائهم ؛ وذلك لأنّ قوّة هذه التربية غير المعنوية سوف لا تكون راسخة مقاومة بحيث تتمكن من أن تتقدم بصاحبها في كل حال على خلاف مجاري دوافعه الغريزية .

إن أهم ضمان لتنفيذ الأصول الإنسانية ، وأكبر رصيد للفضائل الأخلاقية هو « الإيمان الديني » الذي يؤمّن الإنسان في ميدان مقاومة الغرائز والأحاسيس .

أجل ، بالإيمان بالله الخالق النافذ حكمُه في جميع الوجود ، والعالم بسرائر الضمائر ، وبالاعتقاد بالثواب والعقاب في يوم المعاد ، وبالأفكار والمفاهيم

الطاهرة والسليمة ، يتمكن الإنسان من أن يطلق ربقته من دوافعه الشريرة والمضرة .

وإنّ الهدف من بعثة الأنبياء ولا سيما رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إنّما هو تربية الإنسان وتعليمه للوصول به إلى الأهداف العالية ، وتزكية فكره من الأرجاس والأنجاس .

إنّ الثورة الأخلاقية في الإسلام التي قامت على يد الرسول الكريم كانت ثورة لوحدها ولا نظير لها من حيث البناء والعمق والأصالة . كانت لوحدها من جهة شمولها واستيعابها لجميع الجوانب الدقيقة واللطيفة للنفس الإنسانية ، وأنّها تبذل عناية خاصة بكل حركة وفكر وإدراك نابع من دخيلة نفسه . وقد كان الأثر الذي انتجته هذه البعثة الأخلاقية على النفس الإنسانية وواقع الحياة ، هو أن انتشلت تلك الأمّة الذليلة التي لم تكن لها أية قيمة من حضيض المذلّة إلى أوج السموات ، وبلغت بذلك المجتمع المنحطّ إلى أن حمل بيده مشعل الهداية إلى الإيمان وبه أسّس أسس حياة جديدة في العالم ، وأخذ يخطو في طريق الرقّي والكمال حتى أصبح النموذج الأخلاقي للإنسان ، نموذجاً لم نجد في طول التاريخ له مثيلاً .

وحتى اليوم ـ حيث يسود الغرب في القرن العشرين الخواء والفراغ وضياع المعنويات حينما يلجأ إلى الإسلام من يحاول أن يجد إلى التربية الروحية سبيلاً ، يحدث الإسلام فيهم ثورة روحية بحيث يعترف العلماء الامريكيون بأنّه حينما يعتنق السود في تلك القارة الإسلام يحدث به في جميع شؤون حياتهم ثورة عميقة وبنّاءة . بينما نعلم نحن أن إيمانهم لا يخلو من نقصان .

من ذلك ما قاله البروفيسور (اريك لينكلن) رئيس الفرع الديني من علوم الاجتماع بالجامعة الأمريكية ، بشأن أثر الإسلام في أمريكا :

« إنّ أثر الإسلام في السود بأمريكا كان أثراً خارقاً للعادة ؛ فإنّهم قبل أن

يسلموا كانوا يعيشون في أسوأ الأوضاع ، بينما هم الآن بحالة اقتصادية واجتماعية راقية .

فلا أثر في أسر السود المسلمين لما نجده في الشباب الأمريكي من الفساد والإنحراف الذي قد أوحش المجتمع الأمريكي ، بل إنّ أفراداً من المعتادين غير المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام تلقّوا من التعليمات بعد أن أسلموا ما توفّقوا معها إلى أن يتركوا اعتيادهم ، وبنوا منهم أفراداً يُرجى منهم الخير في المجتمع . إنّ السود المسلمين في أمريكا لا يحاولون إيذاء الآخرين ، وإنما هم إذا أحسّوا بخطر يهدّدهم يدافعون عن أنفسهم بما أوتوا من حول وقوّة وبشدة تامّة ، وهم موفّقون في ذلك دائماً »[1] .

إنّ القوانين والأنظمة الوضعية في العالم ، لا تتمكن من أن تنفذ إلى أعماق ضمير الإنسان والذي هو مصدر كل حركاته ومساعيه ، لتعبّىء طاقاته لبناء مجتمع سالم ، ولتربّي الإنسان على الأوصاف السماوية بحيث تصبح الآفاق في نظره وسيعة بعيدة مترامية الأطراف .

إنّ الإنسان قد تركّب من قوتين مختلفتين متفاوتتين : الجسم والروح ، فله جانب سماوي وآخر أرضي ، فهو أبدي خالد وهو فانٍ ميت أيضاً .

إنّ الذين يفكرون بأسلوب التفكير العلمي والتجريبي العملي ، يعلمون جيّداً أنّ هذين الجانبين متقاربان بحيث إذا حدث أيّ انحراف في أحدهما ظهر أثره في الجانب الآخر . وعلى هذا فأي برنامج كان متوجّهاً إلى جانب واحد من وجوده ، لم يضمن السعادة الشاملة للبشر ، وذلك لعدم انطباقه مع واقعه القائم .

نحن اليوم لا نرى في النظام الفكري للمجتمعات البشرية تعادلاً وتوازناً ، بل نراهم جميعاً على اتجاهات منحرفة إفراطاً أو تفريطاً ؛ فإنّهم

---

(١) نقلاً عن جريدة اطلاعات ـ الإيرانية ـ الصادرة في ٢٦ شهريور ١٣٥٤ هـ ش برقم ١٤٨١٢ .

يتّجهون إمّا إلى الجانب المحسوس والماديّ لذواتهم أو إلى الجانب العقلي والنفسي لها فحسب ، فهم إمّا على أصالة وجود الإنسان أو أصالة المادة .

بينما التفت النظام التربوي في الإسلام إلى طبيعة البشر حسب فطرته وخلقته الأزلية كما هي ، فهو يعرّف الإنسان بواجباته وتكاليفه أكثر من أي مدرسة تربوية أو أخلاقية . وإن هذه المدرسة الأخلاقية الأصيلة والشاملة ، مجموعة من قوانين عامة وخاصة كلية وجزئية للحياة الفردية والاجتماعية ، بأبعادها المادية والمعنوية ، تضمن إنقاذ البشر وانتصارهم، وبذلك يتمكن أفراد المجتمع من أن يصبحوا باتّباعها من السعداء ذوي القيم السامية .

ومن أجل تحسين أوضاع البيئة البشرية ، يجب أن نبدأ بالإصلاح من أنفسنا . ولا ريب في أنّ الإنسان لو تصدّى لإصلاح ذاته بصفته خلية من خلايا المجتمع ، وسعى بغاية الأناة والشهامة في الإستزادة من الخصال الخيّرة الطاهرة ، واستعداداته وقواه النفسانية ، كان من المجاهدين في سبيل تكامل النوع الإنساني ؛ فإنّ إصلاح المجتمع إنّما هو ثمرة تكامل أفراده .

وأنا آمل أن تكون مواضيع هذا الكتاب الذي أخذ رصيده من المصادر الإسلامية الثرية ، وفي ضمن ذلك عرض نظريات وآراء علماء الغرب على الأحاديث الدينية مرشداً أخلاقياً مفيداً ، وأن يكون مفيداً لتسليط الأضواء على الأهداف التربوية الأصيلة . فإن يكن حالفني التوفيق في أن أكون في هذه المجموعة عارضاً لطرف من الحقائق العظيمة التي وصلتنا من قادة الأخلاق والإنسانية ، فأنا جدّ سعيد بذلك .

ولا يفوتني القول بأنّ خلاصة من هذا الكتاب ـ ولعلّه أقل من ثلث المجموع ـ قد طبعت سابقاً في المجلة القيّمة (مكتب اسلام) العلمية الدينية (بالفارسية) وها هو بمجموعه اليوم بين يدي القرّاء الأعزّاء .

أسأل الله العلي القدير الذي منه كل شيء ، ولسنا نحن منه إلاّ كظل على

جدار ، أسأله التوفيق والسعادة للبشرية في ظـل تعاليم الإسـلام المتكفّلة بسعادة الإنسانية .

صيف عام ١٣٥٣هـ ش
السيد مجتبى الموسوي اللاّري

***

طبيعة الإنسان
والقوى المودعة فيه

* اتجاه الإنسان إلى الكمال .
* تزكية النفس عامل الكمال .
* دراسة عوامل الجرائم .
* أسمى تكاليف الإنسان .
* هل في البشر مجرمون بالفطرة ؟
* الفطرة الطاهرة غير الملوّثة .
* الحرية ، والقيود .
* العادات ودورها البنّاء والهدّام .
* النظام التربوي في الإسلام .
* الطفولة والعادات .

إتّجاه الإنسان إلى الكمال

إنّ كـل إنسان يفتـح عينيه عـلى هـذا العـالم الـواسـع ، وفي أيّ نـوع من الأوضاع والأحوال الفردية والاجتماعيّة، يحبّ الكمال لنفسه بحكم فطرته وبمقتضى عقله . فهو يهوّن على نفسه الآلام والأتعاب بأمـل المستقبل الأفضـل ، يتّجه من نقطة البداية الناقصة نحو الكمال ، وكل خـطوة يخطوهـا يتكامـل فيها ، وهـو بما يحمل من أبعاد أفكاره وروحه سوف يكون تكامله جذريّـاً وقويـاً وسريعاً بحيث يحاول التقدم نحو الأبدية .

إنّ غريزة حبّ الكمال ليست قويّة في الإنسان فقط ، بل هي مودعـة حتى في وجود الحيوانات ، فهي أيضاً تحـاول طرد جميـع الموانـع عن طريقهـا نحوه ، ومن ذلك فرارها عمّا يضرّها لتطرد نحو هدفها الغريزيّ لها . بل إنّ جميع ظواهر الحيـاة الطبيعيـة من الذرّة الصغـيرة جدّاً إلى عـالم الكـواكب والمجـرّات ، كلهـا أعضاء لهذه القافلة العظيمة نحو الكمال .

كتب أحد العلماء يقول :

« قد أودع في الحنطة حركة ذاتية نحو العطاء الأكثر ، وفي الورد الأحمر مـا يـزيد في جمـاله وعـطره ، وللبشر حركـة حسب اللبّ والحبّ . فإذا رأينـا آفة في نتائج القمـح أو جمال الـورد وعطره أو طهـارة روح البشر ، لم يكن لنا أن نـرى ذلك على حساب الحركات الذاتيـة لهذه الـوجودات ، بـل إنّما هي بعلّة خـلاف عارض على تلك الحركة الذاتية .

والآن نستطيع أن ندرك أنّ كلمة الهدف إلى أيّ مدى تساعدنـا في تشكيل

الفكر الصحيح ، فهي التي تجعلنا ندرك أنّ هذا العالم الـذي لا نرى أنفسنـا إلاّ من الأعضاء الصغار فيه ، عالم أخـلاقي هادف ، وأننـا لسنا نعيش أبـداً في عالم مضطرب مظلم . وعلينا أن نعلم أنّ وراء هذه الحركات محـرّكاً ، وأنّ وراء كـل شيء شعوراً وفكراً عـظيماً ، ويكفينـا أن نعتقد بـأنّ الحياة أمـر عظيم جليـل . وعندئذٍ ـ وعلى الأقل ـ نستطيع أن نستعد للمواكبـة والانسجام مـع تلك الـروح العامة في العالم ، ونعلم أنّ خلافه يضرّنا في حياتنا هذه »[1] .

إنّ التكامل المادّيّ للإنسان خارج عن حدود اختياره ، بينما الكمال النفسي في اختياره ، وعلى هـذا فلا ينبغي للبشر أنّ ينحـرف عن سنّة التكـامل في هـذه الحيـاة المتكاملة ، فيبقى نـاقصاً في نـظام تكامـل العالم . ومن البـديهي أن كمال النفس أمر غير مادي ، وأنّ الإنسان يتوفّق إلى الاكتشافات المادية بوسيلة التجربة والدراسة ، ولكنّه قط لا يستطيع أن يجعل نفسه على سبيل الكمال فيرتقي بها إلى أوج الرقي بأساليب مادية .

من اجل أن يصل الشجر إلى كماله عليه أن يكـافح ما يعترض طـريقه من الأحجار والآفات الأرضية والسماوية ممّا يسد دربه إلى الكمال ، وينتفع ممّـا يسبّب رشده ونموّه كـالماء والشمس والهـواء . والإنسان كـذلك عليـه أن يجهّز نفسـه في مسيرة الكمال لأبعاده الوجودية (الجسم والروح والفكر) بالعوامل والدوافـع التي من شأنها أن تسوقـه أو تقوده إلى الأبـدية والـلانهاية ، فيستخـدمها للتـوصل إلى ذلك الهدف ، وأن يستعدّ لمكافحة تلك العوامل التي من شأنها أن تعرقل مسيرته للتوصل إلى ذلك المقصد .

إن أبعاد وجود الإنسان يجب أن تنظّم بحيث يستطيع معها أن يقضي جميع حاجاته المادية والمعنوية ، وبانتظام أمره بمقياس صحيح ودقيق يعيش عيشة لائقة بـه ، فيتشكل بـه وبأضرابـه مجتمع منـظّم بعيد عن الصِـدام والـظلم والعـدوان

---

(١) نقلاً عن « دائرة المعارف البريطانية » .

والجهل والجريمة ، وبذلك يصل الإنسان إلى الطهر والنور والرّقي الفكري وقمة الإنسانية السامية .

إنّ الوجود الإنساني كأنّه نظام يضجّ بأنواع الغرائز ، هذه الميول لو كانت على طبيعتها المعتدلة لم تكن ضارّة يجب أن تُهمل ، بل لكل ميل من هذه الميول وكل دافع من هذه الدوافع في نظام الوجود الإنساني دور حيوي مهم جدّاً . أجل إنّ إشباع الغرائز بصورة مطلقة مهملة من دون أيّ قيد أو شرط سيكون ضد تكامل أصحابها ، فإنّ غرائز الإنسان لو كانت حرّة لا قيد عليها أصبح صاحبها عبداً لتمنيّاته وشهواته الوحشية وميوله الأوّلية الخام من دون تربية ، وبذلك يسقط من قمة الإنسانية والفضيلة والحرية إلى حضيض المذلّة والضياع ، تماماً كالحيوان المطيع لميوله الهوجاء ، في حين أنّ الإنسان المطيع لعقله والمراعي لمصالحه بإمكانه أن يعرض عن شهواته الضارّة ويستجيب لميوله النافعة المفيدة ؛ فإنّه كما أنّ في الإنسان غرائز مادية تتطّلع فيه ، كذلك فيه غرائز مفيدة وإيجابية بالنسبة إلى الحقائق الواقعية تتراءى لأصحابها ، وتبدي من نفسها أقوى الطاقات المعنوية التي بإمكانها أن تخلق الطهر والشرف والصدق والكمال .

تزكية النفس عامل الكمال

لا ريب في أنّ الإنسان إذ يريد أن يتّبع في حياته أصولاً خاصة ، سواء أكانت أصولاً دينية أو غيرها ، لزم أن يكون له خطّ سير معيّن . ولازمة اتّخاذه لذاك الخط هي أن يسير إلى جهة الهدف ، وأن يباعد أموراً توافق أهواءه الزائلة ولكنّها تباين الأصول التي اتّخذها وهدفه في الحياة .

وعلى هذا فإنّ تزكية النفس وامتلاك زمامها من لوازم وضروريات حياة الإنسان الذي يريد أن تكون له حياة إنسانية معقولة ، إنّ الإنسان موجود له ميول لا نهاية لها ، وهو معها مجهّز بقوّة الفكر ، فلو لم يعترف لنفسه في حياته

بضوابط وقيود لأصبح وحشاً مفترساً سفّاكاً بل مصّاصاً للدماء ، يورث الدمار والضّياع .

إنّ تكامل الإنسان وعظمته لا ترتبط بأمور مادية لا تُحدث أثراً سوى بعض الأثر في مشاعره ، وحتى الرّقي العلمي لا يمنح الإنسان كمالاً من جميع الجهات ، بل إنّ الكمال الحقيقي للإنسان إنّما يحصل حينما ينقذ نفسه من مضائق الشهوات واللذائذ الجسمانية، ويخطو خطوات جادّة في سبيل الإنسانية والارتقاء بمستوى شعوره وتهذيبه لنفسه ، ويحاول التعرّف على الفكر الأسمى والأُفق الأوسع من منافعه ومصالحه الشخصية .

إنّ لفكرة الكمال المطلوب جذوراً عميقة في نفس الإنسان وإلاّ لما كان يفتّش عنه وهو في دور الطفولة ، وإنّ أشعة القيم السامية من الجاذبية بحيث ينجذب الإنسان إليها بإرادته واختياره ، إنّ حبّ الكمال ينبع من عمق الباطن ثم يبدأ السعي وراءه للحصول عليه ، كل هذا سمة أنّ لحبّ الكمال قاعدة في باطن الضمير ، وما إن يجد فرصة مناسبة يبدأ بالتجلّي والظهور .

إنّ عضلات الجسم تتقوّى بالرياضة ، والخصائص النفسانية كذلك ، إذا أردناها أن تتقوّى كان علينا أن نحملها على الرياضة وبذل الجهد ، مع فارق هو أنّ القوّة الجسدية البشرية محدودة بحدود تتناسب مع قوى عضلات البدن وقدرة خلاياها ، في حين أنّ ما يُرى في تاريخ البشر ممّا يعجز العقل عن تعقّله ، كل ذلك من آثار قوّة الروح المتكاملة ، والتي هي عظيمة ومحيّرة في قدرتها في ظلّ التحرّر التدريجي من القيود والموانع المادية ، وعلى أثر اتّساع أفق الفكر والمعرفة . والحقّ أنّ الروح الإنسانية خلقة عظيمة ومحيّرة ، وهي تبدي نفسها باقتدارها وفعاليّاتها وتفوّقها على الماديّات ، ولا سيما بقدرتها على أن تبلغ بالإنسان من حضيض الضعف والقصور إلى أوج التعلّق بالقدرة الإلهيّة .

طبيعي كما أنّه لا بدّ للجسم من تحمّل شيء من الصعوبة ومشقّة في أدائه

لبعض وظائفه الحيوية ، كذلك على الروح أن تتقبّل تعباً وألماً في سبيل تكامل الأخلاق والنماذج العالية منها .

إنّ كل الأفكار والعقائد والنظريات المختلفة بشأن التربية ، تدور حول محور النفس الإنسانية ، إذ هي التي تتقبّل التهذيب ، تتعالى وتكتسب الصفات الإنسانية السامية ومبادىء الفضائل ، وتعشق الكمال المعنوي ؛ وأخيراً فالروح الإنسانية هي التي وضعت للإنسان سلسلة من القواعد الأخلاقية التي لا حظّ لسائر الحيوانات فيها ولا حاجة لها فيها .

يقول العالم الفرنسي (الدكتور كارل) :

« يجب أن نتعوّد لنكون كما نعرف النور من الظلمة والصوت عن السكوت بكل دقة ، أن نميّز الخير عن الشر ، ثم نلتزم بفعل الخير وترك الشر ولكن ترك الشر يستلزم نظاماً جسمانياً ونفسانياً خيّراً . ولا يمكن الكمال الأسمى للجسم والروح إلاّ بمساعدة تزكية النفس فلا يجوز أيّ إفراط في قضاء أوطار النفس على من يريد تكاملها . إنّ هذا الوضع النفسي (الفسيولوجي) هو ما يُبتنى عليه الركن الأساسي للشخصية الإنسانية ، وهو كقاعدة أو مطار لتسامي الروح الإنسانية منها .

إنّ طريق الكمال يتّجه إلى أعلى دائماً طوال القرون ، ولذلك ينزلق منه في أثناء الرحلة كثير من المسافرين ، فإمّا إلى الأهوار ، أو المهاوي السحيقة ، أو على ضفاف الحقول أو على شواطىء الأنهار ، فينامون إلى الأبد ، في فرح وترح ، وغنا وفقر ، وسلامة ومرض ، ومع هذا عليهم أن يداوموا مسعاهم فيقوموا بعد كل سقوط ، فيحاولوا الحصول على الإيمان والشوق وطلب الإرادة ، وروحية التعاون وحبّ الآخرين ، وأخيراً البساطة والوضوح »[1] .

إنّ الإنسان اليوم في عيشته الفردية والاجتماعية ، الجسمية والنفسية ، يفتقد

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگی : ٩٩ ـ ١٠٠ .

التقدير والنظام والتوازن الدقيق . وإذا عطّل البشر خصائصه الإنسانية ، وأهمل بل قمع جوانبه اللطيفة والحسّاسة والحيّة في كيانه ـ والتي هي من لوازم خلافته البديعة في صعيد الحياة ـ أنكر أو تنكّر لكرامة الإنسانية ، وحطّم فطرته وطينته الطبيعية . ونظّم برنامج حياته على أساس الهوى والإحساس . . ففي هذه الحالة وقد نقض وانحرف عن المنطق الصحيح لوجوده . . فإنّ فطرته الإلهيّة ستغرّمه على أسلوب تفكيره هذا وسلوكه غير الأصولي ، غرامةً كبرى قطعاً ، وستنتقم منه بشدّة .

بل ها هي البشرية اليوم تدفع غرامة كبرى لجريمتها هذه ، على حساب راحتها وسعادتها وخصائصها . وقد ظهر أثر هذه الإضطرابات والإنحرافات على صورة جرائم مختلفةَ ، فلعلّه لا تمضي على المجتمعات البشرية دقيقة واحدة لا تحدث فيها جريمة كبرى من السرقة والعدوان و. . . و. . . وهذه مسألة هي إحدى أكبر مشاكل أمم العالم ، وعلينا أن نعدّها مشكلة الإنسانية الكبرى ، والتي ملأت الدنيا ظلماً وجوراً ، وإنّ ما يُصرف سنوياً للحدّ من الجرائم والجنايات أو تعقيب المجرمين وعقوبتهم ، يشكّل رقماً هائلاً جدّاً . .

وعلينا أن نفتّش عن إحدى العوامل في شيوع القساوة واللامبالاة في العلاقات الإنسانية ، وفقدان الشعور بالمسؤولية في الضمير الأخلاقي الإنساني في المجتمع الغربي . . نفتّش عنه في أسلوب تفكير بعض فلاسفتهم ومربّيهم . إنّ (نيتْشه) الفيلسوف الألماني المعروف قد بنى فلسفته على أساس التفوّق العنصريّ والقسوة ، وكم حدث من جرّاء هذا سفك موحش للدماء في حروب مدمّرة في هذا القرن الأخير .

يقول هذا الفيلسوف الغربي :

« علينا أن نقذف بالرأفة والرّقة من قلوبنا جانباً ؛ فإنّ الرأفة من العجز ، وإنّ التواضع والطاعة من الذلّة ، وإنّ الحلم والعفو والإغضاء من الوهن وفقدان الهمّة . فلماذا نقتل نفوسنا ؟ بل علينا أن نربّيها فنقدّسها ونعبدها ، أما

الضعيف والعاجز فعلينا أن نتركه ليموت وحده »[1] .

دَراسة علل الجرائم

بـدراسة علل ارتكـاب الجرائم ونفسيّـات المجرمـين ، علينا أن نـرى هل خلق هؤلاء الجُناة كذلك بالفـطرة ؟ هل أنّ المتلوّثـين بأنـواع المفاسـد وهم دائماً يـزاولون ويمـارسون الجـرائم ولدوا مـع هذه الـروحية كـرأسمال لحيـاتهم ؟ أو أنّ مصدر مفاسدهم أمراضاً نفسية ؟ وما هي طرق علاجها ؟ .

نعم ، بعض الأخصـائيّين في هـذا الفنّ ذهبوا إلى أنّ طـائفـة من الأفـراد المفسدين والجُناة قد وُلدوا كذلك جُناةً ، وأنّ ارتكاب الجريمة قد أودع كوديعة في طبيعتهم ، ولهؤلاء الأفـراد خصـائص ظـاهـريـة غـير طبيعيـة ، فبـالإمكـان أن نشخّصهم ونميّزهم عن سائر الأفراد ، فهم كما يقولون « جُناةٌ بـالفطرة » . كـان يُصرّ كثـيراً على هـذه النظريـة عالم الجـرائم الإيطالي الشهـير (لومـبروزو) وقـد وجدت نظريته هذه هواةً كثيرين ، وكانت قد اجتـذبت إليها للدفـاع عنها كثـيراً من كتّاب عصره .

ولا شك أنّ الإنسان موجود يتقبّل النصيحة ، وهو بإرادتـه واختياره يقـوم بتنفيـذ شـطر من الأمـور الخـيرة ، ويكفّ نفسـه عن ارتكـاب سلسلة من أمـور أخرى ، وتحكم الضرورة بأنّ هـذا الموجـود لا بدّ وأن يكـون ذا إرادة واختيار ، وإلّا كان لغواً توجيه أي نُصح وموعظة أو هداية إلى موجود مقهور مجبور ليس له ، أيّ اختيار ولا يحكم مصيره بنفسـه . والعلماء ذوو الصلاحيـة قد عـرفوا البشري حرّاً ومسؤولاً عن أعماله .

إنّ علماء الأخلاق الذين يعقّبـون مساعيهم الإرشـادية لإسعـاد الإنسان ، والذين يرون ذلك الهدف الغائي لهم ، هؤلاء قد قرروا جميع تعاليمهم الأخلاقية

---

(١) بالفارسية : سير حكمت در أروپا . المجلد الثالث .

على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكلفونه بأن يتعلّم أموراً تؤثر في نجاح سعيه لتحصيل السعادة ، وأن يجتنب سلسلة من الأعمال السيئة .

إنّنا إذا جعلنا أوضاع الأطفال الذين يعيشون في المصحّات العقلية والسجون ودور تربية الأحداث ، موضع التحقيق والدراسة ، إتّضح لنا أن هؤلاء قد تربّوا في أحضان أسر ملوّثة أو غافلة عن واجباتها ، وهم بدورهم لم يتعرفوا على الطهارة والنزاهة بتجربتهم .

إنّ أكثر الذين لا يُعرضون عن ارتكاب أيّ جرم ، ويلوّثون أيديهم بالجنايات والجرائم ، هم ممّن كان مسقط رؤوسهم في عوائل لم تتصف بالفضائل الأخلاقية ولم تتمتّع بالعواطف الجيّاشة والدافئة ، بل كانت متلوّثة بأنواع المفاسد ، أو ممن عاش في مجتمع منحط أخلاقياً، فالعوامل والدوافع العائلية والاجتماعية هي التي تسبّبت في ترجيحهم للشرّ على الخير ، وأن يختاروا طريق الفساد على طريق الطهر والنزاهة .

أسمى تكاليف الإنسان

إنّ أهمّ وأقوم وظيفة للإنسان هي التربية ، وقد أدرك قيمتها منذ بدء فجر الحياة ولهذا فهو بنسبة إدراكه لحقيقة وظيفته ورسالته في الحياة اتّخذ لنفسه أهدافاً وقواعد متناسبة مع جوّه النفسي الذي يعيش فيه ، مهما كانت أهدافه تلك أو قواعدها صحيحة أو باطلة .

نحن نشاهد اليوم جيداً ما أوجدته المدارس المختلفة في العالَم من تحوّلات وتغييرات عجيبة في طول الزمان وفي تاريخ البشر ، والتي قد غيّرت صورة حياتهم ، والذي نجده في الواقع الخارجيّ بالدراسة والمطالعة هو أنّ البشر لم يخلق في ذاته شرّيراً وشيطانياً ، ولو كان في أصل خلقته مخلوقاً شرّيراً لكانت كل المساعي التربوية باطلة وبلا ثمر ، ولذهبت مساعي جميع الأنبياء الإلهيين ، والقادة التربويّين ، أدراج الرياح . ولو كان القتل وسفك الدم قد عجن بطينة

الناس في « جزيرة العرب » فكيف كان يمكن لرسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحدث ثورة شاملة في روحيات الناس هناك ، وأن يغيّر ذواتهم وماهياتهم ؟! .

صحيح أنّ الإنسان في المراحل الأولى من وجوده إنّما هو بقواه وميوله المادّيّة ، فقواه البدنية هي التي تظهر إحداها بعد الأخرى وتبدأ بفعالياتها من حين أن يفتح عينه على هذه الحياة ، ولكنّه بإزاء القوى المادّيّة له إمكانات واستعدادات وسيعة للتكامل والتعالي المعنوي ، وقد تمكّنت لذلك في وجوده مقدّرات وأشواق أقوى من الضرورات المادية ، والقوى في صرفها تتلوّن بألوان مختلفة وتعمل في مجاري مختلفة كذلك . وإن كانت هذه المرحلة لا تتجلّى إلاّ بعد سائر المراحل الطبيعية في الإنسان ، ولكنّها من طبيعته على أيّ حال ، فإنّه بإمكان الأهداف السامية أن تسخّر سائر القوى وتستخدمها لأهدافها . ولكنّ ذلك بحاجة إلى مساعدات مؤثّرة من الخارج وقيادة وعناية ، ولولا ذلك لابتلت أيضاً بالإنحراف .

والعون المساعد من الخارج ليس أمراً افتراضياً غير طبيعي ، بل هو جزء من الفطرة الطبيعية البشرية ، تماماً كتعليم الطفل ليتكلم ، في حين أنّه يستصحب معه الاستعداد للكلام منذ يوم ولادته ، وهو له قدرة طبيعية .

والقرآن الكريم يرسم للإنسان ـ بوصفه أكرم مخلوق ـ مسار خطاه إلى التكامل بقوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ** ﴾[1] . و ﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** ﴾[2] .

على الإنسان في سعة الحياة للعروج إلى الحي... الدة اللانهائية ، أن يستلهم من برامج الأنبياء الإلهيّين ، وهي مدرسة تربوية أصيلة وثقافة جامعة

---

(١) سورة الانشقاق : الآية ٦ .

(٢) سورة النجم : الآية ٤١ .

شاملة كاملة ، وذلك لكي تتّقد في باطنه الإمكـانات الـربّانيـة ، وبها يتمكّن من أن ينال الانتصار والنجاة والكمال .

كتب (غوستاف لوبون) يقول :

« لقـد عرفت الفلسفـة بعد معـانـاة طـويلة أن لا طـريق لهـا إلى مـا وراء الـطبيعة ، وعـلى هذا فـلا بدّ لنـا من اتّباع أوامر الأطبّاء النفسـانيين ، العـالمين بخصائص الروح الإنسانية ، وهم يتكفّلون بتكامله الروحي والمعنـوي . وهؤلاء الأطبّـاء النفسانيـين والروحـانيّين هم الأنبيـاء الإلهيّون ورسـل الله تعـالى ، فهم الذين يعرضـون على البشر مـا يحملونه لإصـلاحه من منبـع الوحي والإلهـام من برامج السعادة ، كي يبلغوا به إلى كماله اللائق به » .

للتعريف بالإنسان يذكّر القرآن الكريم بكلا جانبي الطبيعة الإنسانية[1] .

والقـرآن الكـريم يشـير إلى حقيقـة : أنّ الإنسـان إن لم يكن تحت تـربيب أساسيّة ، تقدّمت عليه القوى الجيّاشة وأضعفت وجدانه وضميره والقـوّة العقلية فيه ، وسخّرت سائر أحاسيسه النفسية واستخدمتها لأغراضهـا ومقاصـدها ، إنّ أكبر معجزة جرت في تكوين الإنسان هي أنّه ذو طبيعة ذات جانبين ، ولهذا فـلا ينبغي أن نغفـل عن طاقتـه لتقبّل ألـوان مختلفـة ، وإمكـانيّـة قيـادتـه في مسـيرة خاصّة .

قال علي (عليه السلام) :

« إنّ بـذوي العقـول من الحـاجـة إلى الأدب كـما يـظمـأ الـزرع إلى المطر »[2] .

إنّ أسس التربية إن لم تُبتنَ على أساس عناصر تقوم بتعـديله ، بل كـانت

---

(١) سـورة الزخـرف : الآية ١٤ . وسـورة إبراهيم : الآيـة ٣٣ . وسورة التـين : الآية ٤ . وسـورة الإسراء : الآية ٦٩ .

(٢) غرر الحكم : ص ٢٢٤ .

قوى الإنسان متحرّرة عن كل لون من ألوان التربية والتعديل ، لبقي الإنسان وللأبد تحت وطأة الضرورات البدائية .

من هنا فإنّ كل أعمال الإنسان إمّا هي صالحة أو طالحة سيّئة ، فهو إمّا يُثاب عليها أو يجازى ويعاقب ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ **قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها** ﴾[1] .

والجزاء يبتنى على أساس إمكانيّة تمييز الإنسان بين الخير والشر ، كما تسقط عنه المسؤولية فيما لو كان فيه نقص بالنظر إلى قواه البدنية أو الفكرية . أمّا نظرية بعض المدارس الفكرية الحديثة التي تبرّىء المجرم بسبب أنّه يقع ضحيّة مفاسد المجتمع أو القيادة المنحرفة والفاسدة ، والتي تنظر إلى الإنسان مع ما له من قوّة الإدراك الفطري مخلوقاً سلبيّاً ضعيفاً ، أما هذه النظرية فلا يمكن أن نحسبها حقيقة علمية . أجل ليس لأحد أن ينكر خطر التربية وأهمية القيادة ،وأن يغضّ النظر عن المسؤولية الكبرى التي هي على عاتق المجتمع والبيئة ، ومع أنّ المسؤولية تتقسّم على مختلف العلل التي ترتبط بارتكاب الجريمة ، مع ذلك لا يعني هذا أن ننفي المسؤولية عن عامل الجريمة ومرتكبها .

لا شك أنّ هناك عدداً من المجرمين يتقبّلون الإصلاح بشيء من الإرشاد والهداية ، هؤلاء هم الذين يصابون بشيء من الأمراض النفسية ، وتنبعث جرائمهم من أمراضهم النفسية هذه الخفيفة ، أو قد يصابون بهذه الحالات على أثر مجالسة أناس متلوّثين . هؤلاء يجب أن يعالجوا بأسرع ما يمكن .

ولكن بصورة عامّة لا يمكن لردود الفعل القوية والضغط الشديد في مكافحة الجرائم أن تكون السبب الكافي لاقتلاع جذور الجرائم . نعم من الضروري أن يعاقب المجرم لحصانة الفرد والمجتمع عن عدواه ، فإنّ العقوبة هي النتيجة وردّ الفعل الطبيعي لعمل المجرم نفسه ، وهي ضرورة لاستقرار

---

(١) سورة الشمس : الآيتان ٨ ـ ٩ .

التـوازن والعدالـة في المجتمع الإنسـاني ومن أجل أن لا تبتـلى الحياة الاجتـماعية بالمخاطر . ولكنّها ليست كافية لوحدها . فأكـثر ضرورة منها هـو إعادة النـظر في تربية المجرمين تـربية جـديدة ، من أجـل أن يتغيّر خط سـيرهم السيّء في الحياة بفضـل ثـمار الـتربيـة المفيـدة ، ولكي لا تسـري منهم روح التعـدّي عن حـدود القوانين إلى سائر أفراد المجتمع .

هل يوجد في البشر مجرمون بالفطـرة ؟

يردّ العلماء اليوم ما كان يعتقده (لوم بروزو) وأتباعه الذين كانوا يقـولون بوجود الجُناة بالفطرة بين البشر . إنّ (لـوم بروزو) كـان طبيباً يخـدم في الجيش الإيطالي ، واسترعت انتباهه كثرة الوَشْم « بالخال » على أبدان الجُناة والمجرمين ، واستنبط من هنا أنّ لأبدان المجرمين درجةً أقل من الحسّـاسية بـالنسبة إلى سـائر الأفراد العاديّـين ، وأنّ نقص الحسّاسيـة الأخلاقيـة فيهم إنّما هـو نتيجة نقصـان الحساسية البدنية . ثم شرّح مخّ أحد قُطّاع الطرق وتوصّل إلى أنّ هناك بين مخّـه ومخّ الحيوانات الفِقَرية مشابهة من عدّة جهات . وكان هـذا من مقدّمـات ظهور نظرية « ظهور الصفات الوراثية الكامنة » . ويرى (لوم بروزو) عدّة خصـائص تدلّ على الصفة الخاصة بالإجرام الفطري ، والرؤوس غير الـطبيعية في الكِـبَر أو الصغر ، والشعر المجعّد ، وعدم توازن الرؤوس مع الوجـوه ، والجباه المنـدحرة إلى الوراء ، والحواجب المدوّرة ، والعيون الغـائرة ، والآذان الكبـيرة ، والأذقان الناتئة المتقدمة إلى الأمام .

فإذا اجتمعت عدّة من هذه الصفات والخصائص في إنسان مـا كان لنـا أن نحكم عليـه بأنّـه جانٍ ومجـرم بالفـطرة بالقـطع واليقين ! وكـان هو يسمّي هـذه الخصائص بإسم : « سِمات الإنحطاط » .

ويقول الدكتور (كارل الفرنسي) :

« لا يوجد في البشر مجرم بفطرته كما يقول به (لـوم بروزو) ، بـل الحقيقة

هي أنّ كثيراً من المجرمين أناس طبيعيون وعاديّون ، بل لبعضهم ذكاء خارق للعادة ! بحيث عجز علماء الاجتماع عن مقابلة هؤلاء والسيطرة عليهم في السجون . إنّ لكثير من قُطاع الطرق الذين تنشر المجلّات عنهم كل يوم أخباراً جديدة عن سرقاتهم ، لكثير منهم ذكاء وعواطف وجمال طبيعي ، بل قد يفوق بعضهم الحدّ الطبيعي ، ولكنّهم محرومون من المواهب الأخلاقية . وكثير منّا أيضاً من يظهر فيهم بعض العوارض النفسية .

إنّ هذا الإضطراب وفقدان التوازن في عالم الفكر والشعور ، لهو من أبرز مظاهر العصر الحاضر . ومع وجود بعض الموفّقية في سبيل ضمان السلامة البدنية والجسمية لسكّان المدن الكبار ، مع ذلك لم يمكن تنمية النشاطات الفكرية والأخلاقية مع كل ما يصرفونه من المبالغ الطائلة للتربية والتعليم . إنّ مظاهر الشعور تفتقد التوازن حتى في كثير من الشخصيات الاجتماعية البارزة ! فالأعمال الأصلية لهم لم تنتظم فيهم على أحسن ما يُرام ، فليس فيها القوة اللازمة بل وحتى جودة الماهية ، بل قد يفتقدون واحدة أو عدّة من خصائصهم .

إنّ أكثر الناس فائدة وأسعد الناس ، إنّما هم الذين تنسجم وتتوازن وتتعادل فيهم نشاطاتهم الفكرية والأخلاقية بعضها مع بعض . وإنّ عنصر التفوّق المعنويّ في هؤلاء على غيرهم إنّما يكمن في كيفية نشاطاتهم وتعادلها . يجب أن يكون هدفنا من التعليم هو تربية أفراد متعادلين في أفكارهم ، فإننا إنّما نتمكن من أن نؤسس الحضارة الكبرى على أكتاف هؤلاء الناس المتعادلين »[1] .

وكتب أحد علماء النفس المعاصرين يقول :

« لقد أصبح اليوم من الثابت المتفق عليه والذي لم يبق فيه أقل مجال للتشكيك هو أنّه لا يوجد في البشر إنسان شرّير بالذات ، نعم يوجد أناس مرضى النفوس .

---

(١) بالفارسية : إنسان موجودنا شناخته : ١٥٠ . معرّب كتاب : الإنسان ذلك المجهول .

إنّ إدراك هـذا المعنى من الأهميّة بحيث نستـطيع معهـا القـول بـدون أيـة مبالغة :

إنّه ليس هناك أي اختراع أو كشف منذ بداية خلقة البشر وحتى الآن أكثر أثراً في سعادة البشر من معرفة هـذه الحقيقة . بمعنى أنّ النـاس إذ يدركـون هذه الحقيقة بصورة واقعية ، وإذ تبتنى أسس نظام المجتمـع وأجهزة الإدارة فيـه على أسـاس هـذه الحقيقـة ، حينـذاك يَعتـدل ويَتـوازن القسم الأعـظم من الآلام ، والشقاء ، والعداء ، والمنـازعات فيهم . وذلـك لأنّه حينـما يعلم الجميع بـأنّ : البخل ، والحسد ، والجبن ، والتزوير ، والإجحاف ، والتلوّن والنفاق ، ومئات العيوب الأخرى من هذا القبيل ، إنّما هي نتائج منطقية « للآلام النفسيـة » وأنّها قابلة للعلاج كالزكام وآلام الحنجرة وسوء الهضم وغيرها . . .

حينئذٍ نحصل على فائدتين مهمّتين قطعاً :

إحداهما : إنّه حينئذٍ سيقوم نفس هؤلاء المرضى « مرضى النفوس » الـذين يصفـونهم اليـوم بـأنّهم « أشرار » سيقـومـون بمعـالجـة نفـوسهم بكـل أمـل ، وسيصبحون أناساً صالحين .

ثانيهما : إنّه سوف لا ينظر الناس إلى هرلاء الأشخـاص المرضى « مـرضى النفوس » بنظرة سيّئة وبغيضة ، بـل على أنّهم « مـرضى » يجب العطف عليهم . ومن نافلة القول أن نقول بأنّ البون بين هاتين النظرتين وآثارهما ونتائجهما كالبون بين الأرض عن السماء .

هذه المعاني هي المعاني التي تسود في أكـثر مدارس الأمم الـراقية بـل وحتى في سجونها ، وتعمل عليها تدريجيّـاً ، وتصل بهـا إلى نتائـج مفيدة للغـاية . وإنّ من وظيفة الكتّاب الذين يريدون الخير لـلإنسانيـة أن يقومـوا بنشر هذه الحقـائق المفيدة جدّاً أكثر فأكثر ، كي يفيد منها جميع جوامع العالم اليوم »[1] .

---

(١)بالفارسية : روان كاوى : ٧ .

إنّ هذه النظرية العلمية والفلسفية التي تُنسب إلى العلوم الحديثة اليوم ، لها في النصوص الدينية الإسلامية سابقة ترجع إلى قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

فإنّ القرآن الكريم يصف جماعة المنافقين في نفاقهم وأحقادهم وأذاهم بأنّهم مرضى : ﴿ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾[1] .

بينما كان أتباع الأديان وبعض الأخلاقيين يصفون ضمير الإنسان بأنّه رجس نجس متلوّث .

ويقول (جان ديوبي) : « هناك مثل معروف يقول : شوِّهوا سمعة الكلب ثم اصلبوه شنقاً فإنّه سوف لا يعترض عليكم أحد ! والأخلاقيون المحترفون كذلك لا زالوا يصفون الطبيعة الإنسانية وكأنّها كلبة مكلوبة عُرفت بسوء السمعة ، وقد جعلوها معرضاً لأنواع اللوم والعتاب ، من دون أن يعترض عليهم أحد . إنّكم إذا نظرتم إلى تاريخ علم الأخلاق شاهدتم أنّه قد نظر إلى طبع الإنسان بالتشكيك بل الوحشة منها وسوء النظرة إليها ، وأن طبع الإنسان وصف لديهم منذ البدء بهذه الصورة القبيحة والوقحة !! .

وقد أصبح البحث عن سُبل الاستيلاء على هذه الطبيعة الجامعة الشغل الشاغل والوحيد للأخلاق ، بحيث اعتقد البعض بأنّ طبيعة الإنسان لو لم تكن بهذه المثابة من النقص والضعف والإنحطاط ، لما كانت الأخلاق تجد لها وجوداً وكياناً .

وأخذ بعض الكتاب ذوي الأفكار الأكثر نضوجاً ، ينسبون هذه النظرة القاتمة إلى طبع الإنسان ، ينسبونها إلى أتباع الأديان والمتعصّبين من المؤمنين بها ، ويقولون :

إنّ هؤلاء من أجل أن يعظّموا الخالق أكثر فأكثر ، قاموا بوصف الإنسان

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠ .

مهما أمكن بالخفّة والدناءة . ومن الإنصاف أن نعترف بأنّ هـذا الكلام صحيح إلى حدّ مّا ، فإنّه لا شبهـة في أنّ أهل الـديانـة ينظرون إلى نفس الإنسـان بنظرة أكثر ازدراءً من الكفّار وغير المتديّنين . والحال أنّ هذه النظرة السيّئة في غير محلّها جـدّاً ، فإنّـه إذا كانت النفس الإنسـانية من السـوء والشرّ إلى هـذه الـدرجـة ، فكيف هم يقـومـون بـتزكيـة أنفسهم كـما يـدّعـون ، ثم يقـومـون بـإرشـاد الآخرين »[١] .

الفطرة الطاهرة غير الملوّثة

قال رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« كـل مـولـود يـولـد عـلى الفـطرة حتى يكـون أبـواه يهـوّدانـه أو ينصّرانه »[١] .

وقال علي (عليه السلام) في وصيّته لولده :

« وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ، ما ألقي فيها من شيء قبلَتْه ، فبادرتُك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك »[٢] .

ففضلاً عن أنّ الإنسان لا يولد مجرماً ، هناك في نظام وجود أي إنسان قوّة مودعة تجرّه إلى جانب الخير والصلاح ، وكلّما انحرف عن مساره الأصلي ردّته إلى حالته الأولى . وكما يصطلح الفلاسفة : كل طبيعة تبتـلى بما يقهـرها يقـوى فيها ميل شديد للعودة إلى الحالة الطبيعية .

كـان جماعـة من الفلاسفـة منذ القـدم يقولـون بأنّ العقـل النظريّ أسمى القـوى البشرية ، في حـين أنّ مستوى الإدراك لهـذه القوة محـدود ، وليست لهـا ضـمانات كثـيرة للتنفيـذ ؛ فـإنّ العقـل النـظريّ لا نفـوذ لـه في بعض الأمـور ؛

---

(١) بالفارسية : أخلاق وشخصيت ١٨ .

(١) بحار الأنوار : ٢ : ٨٧ .

(٢) نهج البلاغة .

كالأحكام العادلة ، وإدانة المجرمين والمذنبين ، وإصدار الأوامر في سبيل إسعاد الآخرين . ولهذا فإنّه يجب أن يكون في ضمير الإنسان قوة أخرى مستقلة عن العقل النظري ، تكون منشئاً لكثير من أحاسيس الخير والإيثار وحبّ الكمال ، كي نتمكن أن نفسّر بها ما يقوم به من عمل أخلاقي .

والقرآن الكريم يعلن : أنّ حبّ الإيمان ، وكذلك كراهية الكفر والفسوق والعصيان ، مستودع في ضمير الإنسان ؛ وأنّ الله تعالى لم يخلق طينة الإنسان مختمراً بالعقيدة بالمبدأ ومعرفته سبحانه فحسب ، بل زيّن قلوب البشر بحبّ الخير والصلاح ، وأبلغه أنّ كراهيته للكفر والفسوق والعصيان والشرور من فطرته ، بحيث تنجذب روحه لا شعورياً ـ تقريباً ـ إلى سلسلة من الفضائل الإنسانية : ﴿ **ولكنّ الله حبّبَ إليكم الإيمان وَزَيّنَهُ في قُلُوبِكُمْ ، وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ وَالفُسُوقَ والعِصْيانَ** ﴾ .

أي كما قال الشاعر الشيرازي حافظ :

« كلّ حبٍّ في ضميري نحو ربّي
إنّما جئت به منه ، بلا أيّ تكلّف »[1]

ويقول (برتراند راسل) :

« في القديم كانوا يفكّرون أنّ الفضائل تبتنى على أساس الإرادة ، وكانوا يفترضون أنّ وجود الإنسان مليء من الميول الشرّيرة ، وإنّما نشرف عليها بقوّة مجرّدة هي الإرادة ، وكان يبدو للنظر أنّ اجتثاث هذه الميول الشرّيرة من المستحيلات ، وأنّ ما نستطيعه بهذا الصدّد إنّما هو الإشراف عليها بالإرادة فقط .

---

(١) الأصل :

اينهمه مهرو وفائى كه ميان من وتوست
باخود آوردم از آنجا نه به خود بربستم

والتعريب للمعرّب .

كان حال الإنسان لديهم يُشبه بالمجرم والبوليس تماماً ، وكأنّه لم يتصوّر أحدهم أن يخلو المجتمع يوماً ممّن يستعدّون بطبيعتهم للإجرام ، ولذلك كان أفضل ما كانوا يقومون به هو تأسيس العدد الكافي من مراكز البوليس ، بحيث يخاف أكثر الناس من أن يرتكبوا الجرائم ، وإذا وُجد من نشز من هذا الخوف وارتكب الجرم ابتلي بالجزاء .

بينما لا يعتقد بهذه النظرية « علم النفس الجنائي » بل يرى أنّ بالإمكان في كثير من الأحوال أن نحول دون طغيان الميول الشرّيرة عن طريق التربية اللائقة . وكل ما يمكن تطبيقه في المجتمع كان بالإمكان تطبيقه على نفوس الأفراد أيضاً »[1] .

ويقول (جان جاك روسو) :

« إنّ الشاب الناشيء في سعادة ساذجة ، سوف ينجذب في نموّه الطبيعي إلى جهة الأحاسيس الناعمة واللذيذة ، وسوف يرقّ قلبه كذلك لآلام أبناء نوعه من البشر . إنّه يلتذّ برؤية صديقه ، ويحبّ الإنسانية من شغاف قلبه ، ولا يكون مستعداً لأن يفعل فعلاً يؤذي به الآخرين . نعم من الممكن أن يغضب أحياناً ، إلّا أنّه يكون سريع الرضا بعد الغضب ، وسيجبر ما كسَرَ ، وكما يجبر ما قام به من إساءة ، كذلك يعفو عن أخطاء الآخرين بسرعة .

إنّ دور المراهقة ليس دور الحقد والإنتقام ، بل هو دور المواساة والعطاء والسخاء . أجل إنّي أؤكّد على هذا وأنا مطمئن إلى أنّ التجربة أيضاً ستؤيّد هذا . إنّ الطفل لا يولد شرّيراً ، فهو إن حافظ على عصمته الأولى إلى العشرين من عمره ، كان أفضل وأسخى وأحبّ وأعطف إنسان . وأنا أعلم أنّك لم تسمع مثل هذا الكلام حتى اليوم ، وليس هذا من جرم الفلاسفة ، فإنّهم قد ابتلوا في حياتهم الدراسية بكل فساد ، ولذلك فهم لا يدركون مثل هذا الكلام »[1] .

---

(١) بالفارسية : در تربيت : ٢٥ .

(١) نقلاً عن الترجمة الفارسية لكتاب : أميل : ٢٩ .

وكتب (والدو أمرسون) يقول :

« إنّ الفضائل موجودة في النفوس القوية ، وهي محيطة بها ، فالنفس الإنسانية تسعى وراء الطّهر والعدل والخير ، وهي أسمى من كل ذلك . وعلى هذا فنحن إذ نريد الدّعوة إلى الفضيلة وتركنا الكلام عن طبيعة الروح الإنسانية ، لكنّا قد حططنا من مكانتها . إنّ الطفل الذي يتربّى تربية حسنة ، يتّصف بجميع الفضائل الطبيعية ، دون أن يكون قد جهد في الحصول عليها . أنتم تكلّموا مع قلب الإنسان فإنّكم ستجدونه ذا فضيلة لا محالة »[1] .

بناءً على هذا ، طبقاً لنظرية الإسلام ، والعلماء الواقعيين اليوم ، فإنّ الإنسان إنّما يولد بفطرة طاهرة ونفس سليمة حسب قوانين الوراثة ، وإنّ حالات الفساد فيه عارضة عليه وغير أصيلة فيه . وإنّ العدول عن الطرق الطبيعية الأصيلة ، والإنحراف في العمل بالغرائز لا يؤدّي إلى ظهور الأمراض النفسية فيه فحسب ، بل سوف يؤدّي إلى سدّ السبُل على مسار النفس بعقد خاصّة ، وإلّا فإنّ الإنسان حسب ميوله الأصلية مستعدّ لأن يسير نحو كماله بخطوات سريعة وصريحة .

ويجب أن نلتفت إلى أنّ للمحيط آثاراً مختلفة على خلايا المخّ ، تماماً كاختلاف أثر المحيط في نموّ النباتات المختلفة .

إنّ كل إنسان يعيش بخلايا مخّ يخصّه هو منتقلاً إليه من آبائه وأمّهاته وفقاً لقانون الوراثة ، ولا يستوي نوع خلايا المخّ وكيفية تركيبها في أيّ إنسان في العالم ، بل الاختلاف فيها بيّن من حيث الفسلجة ونوع الهورمونات الداخلية .

إنّ المحيط كما يؤثّر على بذرة أيّة نبتة أثراً خاصّاً ، كذلك لا يكون أثره على خلايا المخّ أثراً واحداً ، بمعنى أنّ العيش في محيط خاص سيتأثّر بأثر خاصّ ، وستتشكل فيه بذلك شخصية خاصة ، لا يمكن قياسها بشخصية

---

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعى : ٣٥٠ .

أخرى . وحتى نرى أنّ ابنين من أب وأم واحدة ، مع أنّ المتوقع فيهما ـ بفعل اشتراكهما في الوراثة والمحيط بحسب الظاهر ـ أن يكون لهما خصائص مشتركة ، مع ذلك نرى نوعاً من التباين العجيب من حيث الخصائص فيهما .

إنّ دعوة الأنبياء الإلهيين تبتنى على أساس الفطرة التوحيدية والفطرة الأخلاقية ، فإنّ هذه الأصول الطبيعية هي التي تشكّل القاعدة الأساس لتربية الإنسان بمساعدة عقله . وإنّ الدور الكبير للأنبياء الإلهين في رسالتهم وبرامجهم التبليغية ، إنّما هو في إيقاظهم للفطرة في أفراد الإنسان كرأسمال مدخّر فيهم ؛ فمن الممكن أن تصبح أشعة الإندفاعات الفطرية ذات شعاع ضعيف حسب المواقع الخاصّة وعلى أثر مختلف العوامل في كيان الإنسان ، لكن لا يمكن أن تموت الواقعية الفطرية فيه ، بل بقيت ماهيّة الفطرة ثابتة مستقرة فيه رغم جميع المشاكل والموانع التي عرضت لها في طول التاريخ ، وعلى أيّ حال فإنّ الإنحراف عن مسيرة الفطرة لا علاقة له بأصل نظام الفطرة وما لها من طبيعية واقعية .

إنّ هذا الموضوع في غاية الأهميّة لنا،وهو أنّنا بمساعدة فطرتنا بإمكاننا أن نحاول تربية أنفسنا وتزكيتها ، ولكن علينا أن لا ننسى أنّ الغرائز الجامحة تؤثر بقدرتها وخشونتها في فطرتنا ضعفاً وفتوراً ، فنحن إن لَم نتمكّن من أن نجري بها في مسارها الصحيح ، وأن نفيد منها بصورة معتدلة ، وأن نكبح ما فيها من جُماح . . إن لم نستطع ذلك فإنّها سوف تحلّل قوانا الفطرية وسوف لا نقدر على أن نستثمر من ذلك الرأسمال الباطني المثمر .

وإنّ إيجاد التوازن في الأحاسيس والأعمال يستلزم أن نعرف نقطةَ الاعتدال ، وكذلك يستلزم السعي المتواصل والدؤوب والتضحية الكثيرة .

كما يقول (أرسطو) :

« إنّ الفضيلة هي الحدّ الوسط بين رذيلتين إحداهما الإفراط والآخر التفريط ، وذلك أنّ ميزة الفضيلة هي ذلك الحدّ الوسط في الأفعال أو

الإنفعالات . ولهذا فإنّ الصلاح ليس أمراً سهلاً ، فـإنّ معرفـة الحدّ الـوسط في كل شيء أمر شائك ، كما أنّ معرفة مركز الدائرة ليس أمراً سهلاً لكـل أحد إلّا أن يكون عارفـاً بالأمـر . فإنّـه وإن كان يبـدو لكل أحـد أن التأثّـر والغضب ، وكـذلك صرف المـال ، أمور اعتيـادية ميسـورة ، إلّا أنّ القيام بهـا بـالنسبـة إلى الـطرف المناسب ، وبـالمقدار المنـاسب ، وفي الوقت المنـاسب ، وحسب المحرك والدافع المناسب ، ليس أمراً سهلاً لكل أحد ، ولهذا فإنّ الصلاح قليل وشريف جليل .

فمن كـان يهدف الـوصول إلى الحـدّ الوسط كـان عليه قبـل كـل شيء أن يبتعد عن كل ما له مضادة أكثر وأكبر مع ذلك الوسط . كما يقول (كاليسپو) في موعظته :

« إبتعدوا بالسفينة عن المستنقعات ذات الزبّد والـوغف » كذلـك علينا أن نميل بأنفسنا إلى جانب الضدّ عما نشتهيـه ، كي نكون بـالإبتعاد عن خـطر الخطأ نقترب من الحدّ الوسط، تماماً كما يفعل النجّار بالأعواد والأخشاب المحدودبـة . علينا في كل شيء أن نحذر مما يلذّ لنا أكثر من أي شيء آخر ، فإنّ حكمنا بشأن ما نشتهيه سوف يكون حكمـاً محايـداً عادلاً ، أمّـا إذا ابتعدنـا عن ملذّاتنا كـان احتمال الضلال فينا أقلّ الجملة . بهذه الطريقـة فقط نكون قـادرين ـ أفضل مـا يكون ـ على أن نصل إلى الحدّ الوسط »[1] .

إنّ تربية الروح وتكاملها يجب أن يصبح هدفنا الأهمّ في الحيـاة ، وإنّ من تكليفنا أن نفتح نوافذ قلوبنا وعقولنا لتقبّل الخير والصدق والحبّ والرحمة ، فـإنّ هذه أمور تمنحنا الوضوح والجلاء ، وتُرضي عنّا الله سبحانه وتعالى .

إنّ أكثر الناس يسعون ويضحّون من أجل أن يُعدّوا لأنفسهم أنواع وسائل لراحة في الحياة ، ومن أجل الحصـول على الأمـور الماديـة ، وهم في هذا التعب

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعى : ٤٧ ، ٤٨ .

والعناء حتى عتبة الموت ، وحتى أنّهم يحرّمون على أنفسهم في ذلك الراحة التي هم يسعون لها ، وهم يتصوّرون في كل ذلك أن تلك الوسائل المادية ستكون هي وسائل السعادة لهم .

في حين أنّ هذه الفكرة سهو وخطأ بل إنّ السبب في شقاء أكثر الناس هو هذه الفكرة الخاطئة ، على هؤلاء أن يصدّقوا أنّهم قد تاهوا عن الطريق وأنهم قد ابتعدوا عن سبيل السعادة والموفّقية ، فإنّه لا يتمكن أحد من أن يحصل على حياة هادئة بدون اضطراب بالسعي وراء اللذائذ العابرة وحتى الثروة غير المحدودة . إنّ الحياة الإنسانية لا تتواجد من هذه الطريقة ولا تُصبح على نشاط ونضارة ، بل العكس الصحيح ، فإنّها سوف تذبل بذلك وتفنى ! .

إنّ الذي يسعى وراء السعادة من خلال اللّذات سوف لا يتمتع بشيء سوى الحيرة والضلال والضياع والاضطراب ، إنّ الشهوات النارية والميول الصبيانية التي تطغى في كل آن في كيان الإنسان ، إن لم نقيّدها بسلاسل العقول ، فإنّها سوف تتغلّب على ضمائرنا فتستعبدنا لغاياتها ، وكلّما قلّلنا من أهوائنا الهوجاء اقتربنا بنفس النسبة نحو السعادة . وبكلمة نقول : إنّ الشقاء ، والآلام ، والحيرة والضياع وكل ما يعتمّ آفاق حياتنا فإنّما هي من جرّاء استيلاء الأهواء على كياننا ووجودنا .

الحرية والقيود

في هذه الموارد لا معنى للتفاضل بين الحرية والقيود ، بل التفاضل إنّما هو بين قيد وقيد آخر . وبعبارة أخرى : ليست الحرية في كفة ميزان والقيد في كفّة أخرى من الميزان ، بل يمكن أن نقول إنّما هي حرية وحرية أخرى ؛ فالبشر حرّ أن يختار بين الحرية الإنسانية والحيوانية أو أحدهما . نعم قيود الإنسان هي العقيدة والأخلاق والفضائل ، وقيود الحيوان هي الغرائز والشهوات غير المتناهية . فالذي يستجيب لنداء الأهواء النفسانية فيطيعها وينقاد لها دون

الالتفات إلى عواقب الأمر ، يكون قد توصّل إلى حريّة بمعنى أنّه قد تحرّر من أزمة الضوابط الإنسانية ، وتحرّر من قيود الدين والأخلاق . إنّه قد فقد قدرة المقاومة أمام مغريات النفس ، ولا يتمكن من المقاومة أمام قوى الغرائز . ولكن هذا المنطق المُغري أي التحرّر من كل القيود من أجل تحقيق الشهوات الغريزية ، ليس منطقاً حقيقياً ، بل إنّ الإنسان بفعله هذا يكون قد نقض وجوده من دون التفات وشعور ، فإنّه يكون قد انحرف عن الغاية المنطقية لوجوده ، وسوف لا يكون مصيره في نهاية الطريق سوى السقوط والهلاك .

أمّا ذلك الإنسان الذي يعقد مع الله عقداً ثم لا يفكّر مدى حياته في نقضه ، يكون قد صرف قواه في مسار صحيح قد أراده بعزم راسخ وقلب قوي ، وكلما كان الإيمان فيه راسخاً كان أشد ثباتاً على عهده وميثاقه ، وهو يُحسّ بالحرية الواقعية أمام أقوى الدوافع وأغراها ، أي يكون محرّراً من ضغط الأهواء ، متحرّراً من الانقياد والإستسلام أمام جاذبيّتها . وإذا أراد الإنسان أن يعمل جاهداً في سبيل الحصول على شرف حريته الواقعية والحقيقية ، كي يصبح قوة فاعلة في عالم الوجود ، فيبلغ بسيره على طريق الكمال إلى ما يليق به منه ، فإنّه سوف لا يخضع لمنطق لا ينسجم مع المكانة الواقعية للإنسان .

إنّ شطراً مهمّاً من الأحكام الدينية تتعلق بتحديد الغرائز وتعديلها ، وتنمية المعنويات العالية ، وأيّ قوة ما عدا الإيمان الذي يستقر في قلب المؤمن المتديّن يمكنها أن تقوم بتعديل الغرائز الحيويّة ، وأن تمنع البشر عن الإنحراف بفضل أثرها المعنوي فيهم ؟ .

من أجل الحدّ دون اختلال النظام وتوسّع الجرائم،ولكي يصان المجتمع من آثار الجرائم والتعدّي على حدود القوانين ، لا بدّ من إيجاد إحساس باطنيّ بالمسؤوليّة ، ولا ينشأ هذا الإحساس بالمسؤولية إلاّ عن الإيمان ، الذي بإمكانه أن ينظّم سلوك الإنسان وأفكاره وحالاته . وإنّ الإسلام ـ عن طريق الإيمان بالله ـ قد اتّخذ التدابير اللازمة لتربية الناس وإصلاح أوضاع الحياة الاجتماعية

والإقتصادية ، من أجل المنع من حدوث الجرائم والضلالات ، ولذلك في الإسلام أحسن الأساليب : فهو من ناحية يعد الصالحين أفضل المواعيد ، ومن ناحية أخرى : ينبّه على أشدّ العقوبات لمن يخضع لعتوّ الغرائز فيتلوّث بأرجاس المعاصي وأنجاسها . إنّ هذا الأسلوب يسبّب في أن يسلك الإنسان سبيل الكمال الأخلاقي باندفاع كثير ، وإنّ خوفه من العقاب سيمنعه من التلوّث بالصفات القبيحة والذّميمة .

العادات ، ودورها المخرّب أو البنّاء

إنّ للجوانب الإيجابية أو السلبية للعادات دوراً أساسياً في تقدم الإنسان وتكامله ، أو انحرافه وانحطاطه ، وبالسير والدراسة في التواريخ بإمكاننا أن نقف على حقيقة ما في العادات من عوامل مهمة ومؤثّرة في تعيين مصائر الأمم والمجتمعات البشرية .

إنّ قوة المقاومة المعنوية أمام الحوادث المؤلمة والمشاكل والمصاعب ، وإنّ الحصانة الطبيعية أمام الجوانب السلبية للحوادث وإحباط آثارها ، كل ذلك من نتائج الجوانب الإيجابية للعادات النفسانية .

ولكن ما أوسع الأضرار الناجمة عن الجوانب السلبية للعادات ، وكم لها من خسائر لا تُجبَر . . فكما أنّ العادة تمثّل دوراً مهماً في تذليل المصائب المؤلمة ليمكن تحمّلها ، وفي إحباط جوانبها السلبية ؛ فهي أيضاً تعدّ عاملاً قوياً في إحباط الآثار الإيجابية والمفيدة للحقائق والواقعيات بالنسبة إلى النفس الإنسانية .

إنّ العادة تمنع من إدراك القيمة الواقعية للأشياء ، وكثير من الأصول والسنن المادية والمعنوية ، وكثير من النقاط المفيدة والإرشادية . إنّها لا تدع الإنسان ليبصر الواقع ببصيرته ويُحسّ بأهمّيتها . ولا حاجة لبيان هذا الموضوع إلى ذكر أمور علمية دقيقة وعميقة . إنّ كثيراً من أهمّ وأظهر المظاهر الغريبة في نظام الخلقة ، بقيت غير معروفة للبشر عدّة قرون طويلة ، لا لشيء سوى اعتياد

الرأي العام بمظاهر تلك القوانين الطبيعية . وكثيراً مّا اتّفق ـ في المقابل ـ أن ظفر الإنسان بمقاليد نجاحات كبرى وانفتحت لـه طرق التقـدم والرقي بفضـل تفكّر ساعة أو حتى إلتفاتة خاصّة على خلاف الجري العادي .

ومن الممكن أن يواجه العـلم أيضاً موانع نفسيـة يفقد العـلم مع مـا له من قيمة وفعاليـة ، حتى يكون من حيث أثـره هو والجهـل على مستوى واحد، إذ أنّ العـادة السلبية تـوجب انحراف صـاحبها في العمـل ، وتمنع من استمـرار الآثار المعنوية والضمانات التنفيـذية للعلوم ! هنـاك كثير من العلماء يصبحـون أسراء في محاصرة عاداتهم بحيث لا يقدرون على العمل بعلومهم وبصائرهم وعلى تنفيـذها في أعمالهم وأفعالهم في صعيد الحياة ، أو أن يعملوا بهـا في سبيل إصـلاح أوضاع الآخرين ، أو أن يمنعوا أو يمتنعوا عن العمل بأمور يعلمون بمفـاسدهـا وأضرارها مئة بالمئة ، ومع ما لهم من قوة مقاومة كافية . إنّ هذا الضلال والضيـاع والغفلة إنّمـا ينجم عن العادات النفسـانية التي تؤدّي إلى المقـاومـة السلبيـة أمـام العقـل والعلم ، وتقف بصاحبها في مسيرة الكمال في الحياة الروحية .

كم هناك من الأطبّاء الأخصّائيين من توصل في اختصـاصه إلى تقـدم كبير بينما أصبح علمه بالنسبة إليه من حيث الأثـر الروحي صفـراً أي بلا أثـر ، فلا ضمان لتنفيذ علمه في مقام تعديل سلوكه .

لا يحصر الإسـلام كـل ميـزة في العلم ، بـل إنّمـا يجعـل العلم سبيـلاً إلى المعـرفة بـالخالق ، ثم وسيلة لنيـل الكمال والـرقي المعنوي ؛ فـإنّ هـذه الفضيلة (العلمية) من دون الوصول إلى رتبة المعرفة بـالخالق وطيّ مـراحل الكـمال ، لا يمكنها أن تكون فـاعلة مؤثّرة في صعيـد الكمال الـروحي . ولذلـك نرى القـرآن الكريم ينتقد العلماء غير العاملين بعلمهم بقوله سبحانه : ﴿ **يا أَيُّها الـذَّينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة الصف : الآيتان ٢ ،٣ .

إن تأكيد الإسلام على التعقل والتفكر في كل موطن وموقف ، لما يبيّن أهمية التفكير في الوقاية من احتمال الابتلاء بالعادات السلبية ، وكذلك في تصعيد قوة المقاومة أمام العادات الذّميمة ومكافحة آثارها السيّئة . إنّ التفكير في مقابلة أية عادة لهو جهاد مثمر وفعّال ، يوسّع في دائرة بصيرة الإنسان ، وعامل مهم في تقوية الإرادة .

وبما أنّ كثيراً من أنواع الإنحرافات في مختلف الأصعدة ، إنّما هي نتائج عدم التفكير المنطقي والصحيح ، وإنّ كثيراً ممّن تركوا طريق الهداية والرشاد إلى سُبل الضلال إنّما هو لمسامحتهم في التفكير وعدم دقّتهم في ذلك ؛ لذلك بإمكاننا أن ندرك جيّداً لماذا قرّر الإسلام أن يعلن بأنّ « تفكّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »[١] .

إنّ هذا الأسلوب من الفكر هو العامل الأساس في تحطيم أساس الغفلة والجهالة ، ورفع ما هنالك من حُجب بين الحق والحقيقة والروح الإنسانية ، وهو ممّا يرسّخ الإيمان ويجذّره في أعماق قلب الإنسان ، وهكذا لا يبقى مجال لورود البدع والسنن الخاطئة إلى باطن كيان الإنسان .

حينما يصل الإنسان على أثر التعقل والتفكير إلى معنى حقيقة مسلّمة ، فالإرادة التي تتكوّن له كنتيجة لتفكيره الصحيح لا الخيالات الواهية ، تستطيع أن تجعل كل أعماله وأفعاله تحت مراقبة تامة .

إنّ العلم غير الفعّال ، يمكنه عن طريق التفكير أن يتبدّل إلى علم فعّال ، ويجد حياته كمعاني ومفاهيم مؤثّرة ، تكون مصدر آثار وافرة كثيرة مفيدة .

إنّ الصفات الذميمة ، أو المزايا الأخلاقية السامية ، إذا تجذّرت في باطن كيان الإنسان عن طريق الممارسة والتدريب ، تصبح كالخصائص الطبيعية والذاتية النافذة ، فمع أنّها عادات مكتسبة مع ذلك إذا أصبحت كالأخلاق

---

(١) حديث نبوي شريف .

والسجايا الثابتة ، وجرت في مجاري الإنسان كغرائزه الطبيعية أخذت تحرّك وتدفع الفعاليات الباطنية ، واجتذبت صاحبها إلى طريقها بكل شدّة واقتدار .

وروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أنّه كان يقول :

« ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز »[1] .

ويقول (مان) في كتابه عن (أصول علم النفس) :

« إنّ العادات التي وجدت في البداية تحت تأثير دافع خاص ، من الممكن أن تثبت هي بعد أن ينعدم ذلك الدافع . وهنا علينا أن نقول : إنّ العادة أصبحت تسوق نفسها بنفسها (أي تندفع بذاتها) وقد اصطلحوا على هذا باسم : الذاتية الفعّالة ، أو الفعل الذاتي ؛ إذ بدل أن تكون العادات تابعة للحاجات أو ميول أو آمال الإنسان ، تكون تاركة لها ومنفصلة عنها بنوع من الاستقلال .

نحن نتعلم أن نقضي حاجاتنا باستعمال طريقة خاصة ، ومن الممكن أن تترسّخ لدينا هذه الطريقة الخاصة بحيث كأنّنا لا نتمكن نحن من أن نقضي حاجاتنا بطريقة أخرى مهما كانت تلك أيضاً ممكنة في حدّ ذاتها ، وحينئذٍ نقول : إنّا قد اعتدنا على تلك الطريقة الخاصة . إنّ العادة تجعلنا على طريقة معيّنة كأنّنا نضطر أن نسير عليها ، وفي كثير من الأحيان يكون الخروج عنها شاقّاً علينا . هذه الظاهرة يقال لها : العادة ، وكأن العادة أصبحت هي دافعاً من الدوافع أو باعثاً ثانوياً في النفس .

إنّ بعض الناس قد يغيّرون من عاداتهم ، وقد تغيّر الحوادث الطارئة مسيرة حياتهم إلى مسيرة جديدة ، ولكن لا يمكننا أن ننكر أنّ النفس الإنسانية تقاوم ما هو جديد عليها وكأنّها تستوحش من التغيير والتبديل ؛ وعلى الذين يريدون أن يغيّروا سلوك كبار السنّ أن لا يغفلوا عن هذه النقطة »[1] .

---

(١) بحار الأنوار ١٧ : ٢١٧ ط قديم .

(١) بالفارسية : أصول روانشناسی : ١٣٩ ، ١٤٠ .

مع أنّ العادة في فطرة الإنسان موهبة إلهيّة تنفّذ شطراً مهمّاً من مساعيه في الإبداع والاختراع ، ومع كل ما لها من عظمة في الآثار ، فإنّها إن لم يتّصف صاحبها بثقافة كافية بل كاملة ، فمن الممكن أن تصبح اندفاعاً خدّاعاً مضلّلاً يؤدّي بروح الإنسان إلى الفساد .

حينما طلع الإسلام في الحياة الجاهلية ، كانت تحكمها أنواع من العادات الضارة ، ممّا كان يعدّ كلّ واحدة منها لوحدها سبباً لضياع أمّة وسقوطها .

في ذلك العصر المظلم حيث كان إدراك الإنسان وشعوره قد مُسِخ تحت وطأة العادات الباطلة والأخلاق القبيحة والنجسة ، أيقظ الإسلام ـ بنهضته الكبرى والتي لم يسبق لها مثيل ـ ذلك المجتمع الغافل بل النائم ، ودعا الناس إلى ترك تلك العادات والمراسم الخاطئة والبدع المخالفة للعقل والوجدان .

وترك ذلك المجتمع الذي كان يسبح في أنواع الموهومات والسنن الجاهلية كل تلك المراسم والعادات والتقاليد البالية التي دأب عليها آباؤه وأجداده ، واتّخذ طريقة جديدة تخلو من ظل تلك السنن والبدع الاجتماعية الباطلة ، وتحفل بكل ما فيه سعادته ، وذلك على أثر تلقّيه لتعاليم رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) ، الذي كان قد تربّى بعيداً عن استيلاء أي نوع من أنواع العادات الإكتسابية ، حرّاً من قيود تلك السنن الباطلة التي لا أساس لها .

وكان أسلوب قائد الإسلام العظيم في إنقاذه لذلك المجتمع من أسر المراسم والسنن الباطلة ، والذي كانت قد مُسخت حواسُّه الظاهرة والباطنة وذلك باعتياده بتلك العادات الباطلة ؛ بحيث كانت قد انسدّت في وجوههم طرق الكمال . . كان أسلوبه بعبارة واضحة : أن رفع عن أعينهم تلك الحجب والموانع التي كانت تمنع اندفاع نفوسهم ، واجتذب التفاتهم إلى ما في المحسوسات والمشاهدات من دلائل ، وبهزّة عنيفة لأفكارهم وعقولهم أعاد ارتباط

ما انفرط من حلقات أفكارهم بمساعدة بعض البراهين والـدلائل المتقنـة ، وبهذه الطريقة أرشدهم إلى إدراك الواقع وكشف الحقائق والمسلّمات العقلية .

وكان أخيراً أن أزال عن عقولهم ما كان قد علق بهـا من تلويث الخرافـات والأوهـام ، وأنقذ البشريـة من تلك الجهالـة والضلالـة الشاملة ، بتلك النهضـة التاريخية الكبرى .

لم يكن هناك في ذلك العصر المظلم أيّ عامـل أمام تلك البـدع الضارّة ، يقـوم بقطع سلسلة الأوهـام السـائـدة ، ويمكّن الإنسـان من أن يقـوم بـدراسـة خلفيـات تلك السنن الرائجـة ، ويربط بـين بصـيرة الإنسـان وعقله وواقعيـات الحياة .

أمّا الإسلام فإنّه وقبل أن يبدأ ببناء مجتمع سعيد ، اتّخذ تكتيكـاً خاصّـاً ، فقد بدأ بالعادات ـ سواء ما كان يرتبط منها بأساس الفكر والعقائد ، أو التي كانت تتعلق بالأعمال والسلوك ـ فذوّبها وأفناها ، وقطع جذورها بنسبة مـا كانت تحمـل من مخاطر وأضرار : فبدأ ببعضها بضربـة قاضيـة كالشرك بـالله ومـا يتعلق بـه من آثار .

أمّا بالنسبة إلى العادات الاجتماعية الـذّميمة التي كـانت ترتبط بـأوضاعهم المعيشية والمالية والإقتصادية ، كالرّق والرّبا وشرب الخمر ، مع ما لهـا من سلطة عـلى أفكارهم وإدراكـاتهم ، أمّـا بـالنسبـة إلى هـذه فقـد اتّخـذ طـريقـة المـداراة والتـدرّج ، وأقدم عـلى تفنيدهـا حسب المراحـل مرحلة فمـرحلة . وهكذا ملك الناس أنفسهم وحصلت الأرضية الكافية لتزكيتها والتسـامي بها بصـورة كاملة . وهذه هي أثمر الطرق والأساليب لبناء مجتمع جديد بأفراده وأحواله .

كتب البروفيسور (كارل) العالم الفرنسي الشهير يقول بهذا الشأن :

« قبل كل شيء يجب أن نرفع الموانع التي تمنع من تربيتنا الروحيـة ، وقبل أن نتقدّم في طريق السموّ النفساني علينـا أن نترك العـادات والعيوب التي تعـوق

تسامي نفوسنا ، أمّا بعد أن نرفع هذه الموانع عن طَريقنا فعلينا أن نبدأ بالتسامي الرّوحي حسب طبيعة الحياة الأصيلة .

يمتاز الإنسان بميزة عجيبة هي أنّ بإمكانه ـ إن أراد ـ أن يبني بدنه وروحه بمساعدة شعوره الحيّ واليقظ ، ولكن لا بدّ لهذا البناء من تقنية خاصة ، إنّ بإمكاننا أن نتعلم طريقة إدارتنا لأنفسنا كما بإمكاننا أن نتعلم طريقة قيادة الطائرات ، ولكن إنّما يتمكن من ذلك من كان يمتلك نفسه . ليس ضرورياً أن نكون علماء أو أذكياء جدّاً من أجل أن نزاول التسامي الرّوحي ، بل يكفي أن نريد ذلك فقط . ولا شك أنّه لا يمكن لأحد أن يسلك هذا السبيل لوحده ، بل كل إنسان يمكن أن يصبح في لحظات من حياته بحاجة إلى الهداية والموعظة من قبل الآخرين ، إلاّ أنّه لا يمكن أن نستمدّ من أحد في تربية وتنظيم الفعّاليات الفكرية والعاطفية والتي هي جوهرة شخصية الإنسان .

وليس الأصل الأول في ذلك تربية القوى العقلية ، بل هو إحكام نسيج العاطفة في النفس لحمةً وسدى ، فإنّ العواطف هي التي تستند إليها سائر العوامل النفسانية الأخرى . وإنّ ضرورة الحسّ الخُلقي في الإنسان ليست بأقل من ضرورة حواس السمع والبصر »[1] .

ويقول علي (عليه السلام) :

« غالبوا أنفسكم على ترك المعاصي ، يسهل لكم مقادتُها إلى الطاعات »[2] .

وقال (عليه السلام) أيضاً :

« غالبوا أنفسكم على ترك العادات ، وجاهدوا أهواءكم ، تملكوها »[3] .

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگی : ٩٨ ، ٩٩ .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٥٠٨ .

إنّ الإسلام يفيد من العادة كوسيلة مؤثّرة في تربية نفوس البشر وتنفيذ البرامج التي تحفل بسعادة الإنسان ، فهو حينما يُوجد علاقة حيّة بين قلوب الناس مع ربّهم ويبذّر فيهم بذور الخير والفضيلة ، أبدلها فيهم إلى عادة جارية ، والعادات الدينية تنبع من عمق العلاقة القلبية ومن باطن الضمير ، ثم تتبدّل هذه الإرادة القلبية إلى أعمال معيّنة لها حدودها وخصوصياتها الواضحة ، ثم تتحوّل تدريجيّاً إلى عادات عن كامل الإدراك والوعي والدّقة ، وهي مع ذلك لا تحمل على الإنسان ضغطاً لا يطاق .

الطفولة والعادات

تُعد الوصايا الإسلامية بصدد تعويد الأطفال على العبادات والفضائل الإنسانية ، وإبعادهم عن التلوّث بالذنوب والمعاصي ، عاملاً قوياً في تثبيت أساس الإيمان والطهارة ودعمها في كيان نفوسهم . وإنّ تطبيق هذا البرنامج التربويّ الخاصّ سيحبط فيما بعد إلى حدّ بعيد تلك الآثار الضارّة الناجمة عن مفاسد المحيط والبيئة في نفوس الأطفال .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً »[1] .

وكان الإمام السجّاد (عليه السلام) يقول وهو ينصح أبناءه :

« إتّقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جدّ وهزل ، فإنّ الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير »[2] .

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) يقول :

---

(١) مستدرك الوسائل ١ : ١٧١ ط قديم .

(٢) وسائل الشيعة ٣ : ٢٣٢ ط قديم .

« بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة »[1] .

ويقول (برتراند راسل) :

« إنّ اكتساب أية عادة سيئة سيكون سدّاً دون اكتساب العادات الحسنة في أوان الطفولة ، ولهذا فإنّ تكوّنّ العادات في أوان الطفولة يعدّ أمراً مهمّاً جدّاً ؛ فإنّ عاداتنا الأولية لو كانت حسنة كنّا عن سماع اللوم والتقريع بمنجاة ومنأى . أضف إلى ذلك إنّ العادات المكتسبة في أوائل الأعمار سوف تكون في الأدوار اللاحقة من الحياة كالغرائز تماماً في أثرها واستيلائها ، أمّا العادات المضادة لها التي قد نكتسبها فيما بعد لا يمكن أن تصل إلى تلك الدرجة من الأثر والاستيلاء على صاحبها . وهكذا وبهذا الدليل يجب أن نجعل موضوع العادات الأولى مورد العناية الكاملة »[2] .

***

(١) فروع الكافي ٦ : ٤٧ .

(٢) بالفارسية : درتربيت : ٥٨ .

لسعادة الإنسان رصيدان :
هما العقل والوجدان

* الميزة الكبرى للبشر .
* أبعاد العـقـل .
* هل الضمير هو الغرائز المكبُوتَة ؟ .
* أبعاد أحكام الــوجـدان .
* القرآن الكريم ، ونداء الفطرة .
* رصيد العقل والضمير .
* السفسطة وأخلاق الذرائع والحجج .

الميزة الكبرى للبشر

لقد زرع الله في كيان الإنسان بذور ميول مختلفة ، لكـل واحدة منهـا دور مهمّ في ضـمـان رقيّ الإنسان وسعادته في الحياة ، وإنّ أكبر قوة محرّكة في إطارات الحياة وحركات الأفراد لهي تلك الميول النابعة من باطن كيان الإنسان .

وما دامت علاقة الإنسان بالحياة ثابتة فإنّ فؤاده لا يزال يتمنّى عليه الأماني والآمال ، ولا تزال تستعر في كانون فؤاده دائماً شعـل الشهوات والآمـال ، وإنّ ما يذلّله عـلى نفسه من الآلام المتـوالية والمشـاق القائمـة إنّما هـو من أجل إقنـاع وأشبـاع تلك الأهواء النفسيـة ، وكلما حقّق إحـدى آمـالـه نبتت في قلبـه شهـوة أخرى فنفخت في جسمه روح الحركة والنشاط ، وحملته على فعّالية جديدة .

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف طريق السعادة بالهداية الطبيعية في ذاته ، فيسلك سبيلها . نعم بإمكـان الحيوان أن يـطوي طريق كـماله بمـا له من هـداية تكـوينية ، وهـو من أجل وصـوله إلى كـماله الـلائق به يعتمـد على غـرائـزه التي بمساعدتها يمنح حياته الإنضباط والنظام ، وقد تعيّنت حدود تكـاليف كل طـائفة منها على أساس قانون الغرائـز ، وهي في غنى عن التربيـة والتعليم للتعرف عـلى طريقة عيشتها في الحياة . ولكن الغريزة لا يمكنها أن تتكفّل بـدور قيادة الإنسـان كالحيوان ، فتمنعه من الإنحراف والسقوط ، بل إنّ العقل هو أول هادٍ للإنسـان ميّزه عن صفوف الحيوانات ، وهو الذي يفتح أمامه طريقة حياتـه الكريمـة ، فهو عن طريق عقله وفكره يمكنه أن يعرف سبيل سعادته ، فيخطو في طريق السعادة بخطوات ثابتة حتى يصل إلى كماله اللائق به .

إنّ قافلة البشرية إنّما تتقدم نحو الكمال في ظلال العقول والأفكـار ، وهي تحلّ مشاكلها في الحياة بمساعدة العقـول ، وبفضلها تسخّـر كل يـوم متراسـاً من متاريس الحياة في ساحة مواجهة مشاكل الطبيعة .

إنّ هناك في ساحة باطن الإنسان حرب سجال بين الأهواء والعقل، وتحاول كـل واحدة من هـاتين القـوتين جـاهدة أن تهـزم الأخرى . ونحن من أجـل أن نتمتّـع بمنافـع القوى البـاطنة ونبقى في أمن من أضرارهـا علينا أن نجعـل أزمـة أهوائنا بيد العقل ، وأن نحمل سائر غرائزنا وقوانا على الطاعة الكاملة للعقـل ؛ فـإن هذا الـرأسمال الخـطير والثمين يعـرّفنا المخـاطر عـلى ما هي عليهـا وبصورة واقعية ، وبتعليمنا طريقة الإفادة الصحيحة من القـوى المودعـة فينا يمنـح حياتنـا نظاماً وانضباطاً كما ينبغي .

طبيعي أنّ مستـوى الأهواء ليس عـلى نمط واحـد في مختلف فصـول عمـر البشر ، بل تختلف الميول والغرائز في الإنسان على مـدى حياتـه وحسب اختلاف أوضاعه وأحواله .

وكما يمكن للإنسان أن يؤسس أساس سعـادته في ظـل عقله بإرادة قـوية ، وأن لا يدع ذلك العدو الداخلي الخطـر يستولي على روحـه ؛ كذلـك من الممكن أن يركع أمام عتوّ الغرائز ، فيسقط في نهاية أمره في المهاوي المظلمة والموحشة من الفساد والضلال . فهو إن كان يريد سعادته عليه أن يصنع لنفسـه أمام الأهـواء الفاتنة « درعـاً حصيناً » . فـيرسم لنفسه مسـيرته منـذ البدايـة ، ويعلم إلى أين ينتهي هذا الخط الملتوي مثلاً ، وبإقرار النظام في أفكاره يستمري ربيع حياتـه في ظـلال التقى والفضائـل ، وبـدون « التضحيـة والفـداء » كضرورة في الحيـاة لا يتيسّر للإنسان أن يقضي عمره طاهراً وفخوراً .

إنّ من يولي أصول الفضائل الإنسانية منـذ بدايـة حياتـه العقلانيـة عنايـة خاصة ، فيعوّد نفسه على الإجتناب عن الرذائل ، فإنّ طاقاته الروحية ستنمو فيه على أحسن نظام ، وسيتيسّر له الإستمرار على هذه المسيرة في المراحـل الآتية من

عمره ، وبالعبور عن الحدود الدقيقة والحسّاسة لمرحلة الشباب ، سيقلّ خطر الإنحراف ، وسيجد الإنسان نوعاً من الحصانة دون المفاسد إلى بعض الحدود .

إنّ الحرية المطلقة في إشباع الشهوات بالإضافة إلى أنّها تترك آثاراً سيّئة على شخصية الإنسان ونفسيّته ، تزلزل أساس الأمن في المجتمع أيضاً ؛ ولهذا فنحن إنْ أردنا أن نحافظ على نظام المجتمع ونصل بأنفسنا إلى سعادتها ، كان علينا أن نغضّ النظر عن شطر من أهوائنا .

يقول البروفيسور (كارل) :

« نحن لم نتعلّم بعدُ أنّنا كما نخضع لقوانين النقل والفيزياء ، كذلك علينا أن نستسلم أمام قوانين الحياة ؛ وهناك كفاحاً مريراً بين حرية الإنسان والقوانين الطبيعية ، كفاح نرى إنسان اليوم ضحيةً له ، فإن الإنسان يريد استقلاليةً مطلقةً كما يشاء، ولكنّه لا يستطيع أن يفيد من حرّيته في حدود المناطق الممنوعة بدون أيّ خطر يهدّده .

إنّ الحرية تشبه الديناميت ، فهي وسيلة مفيدة ومؤثرة ولكنها خطِرة أيضاً فعلى من يُريد الإفادة منها أن يتعلم طريقة استعمالها ، والذي يمكنه أن يفيد منها هو العاقل ذو الإرادة القوية . ولهذا نقول : إنّ العمل وفق القوانين الطبيعية يستلزم تحديد نطاق الحرية ، وكذلك لا يمكن الحصول على الموفّقية في الحياة من دون انتظام وانضباط ذاتيين .

إنّ المنافاة الموجودة بين حرية الإنسان والقوانين الطبيعية تستوجب التدريب على تزكية النفس ، من أجل أن ننقذ أنفسنا وما يتعلق بنا من أخطار حوادث الحياة . علينا أن نقاوم كثيراً من ميولنا وتمنّياتنا، وبدون التضحية ببعض ما نريد لا يمكن أن ننسجم مع نظام العالم ، وكأنّ التضحية قانون من قوانين الحياة ، فبالإمتناع عن إشباع بعض الأمنيات نتمكّن أن نضمن سلامة قدراتنا وقوانا ، وبدون العفو والتضحية ببعض الأغراض فلا جمال ولا قدس ولا عظمة للحياة .

على الجميع أن يضحّوا ببعض ما يريدون ، فإنّ التضحية بذلك إحدى ضرورات حياة الإنسان ، ولقد تجلّت هذه الضرورة منذ أن استخلف العقل الحرّ بدل الغريزة المندفعة ذاتياً في أسلوب أجدادنا القدماء (؟) إنّ الإنسان مهما أراد أن يفيد من كل حرّيته سحق حرمة القوانين الطبيعية ، وواجه بذلك عقوبة شاقّة »[١] .

أبعاد العقل

إنّ العقل من أكبر النعم التي وهبها الله للإنسان فجعله مرفوع الرأس كريماً : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون** ﴾[٢] .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« أفضل حظّ الرجل عقله ، إن ذلّ أعزّه ، وإن سقط رفعه ، وإن ضلّ أرشده ، وإن تكلم سدّده »[٣] .

وقد وصف الإسلام العقل بأنّه حجة باطنة ، فقد قال الإمام الكاظم (عليه السلام) :

« إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة: فأمّا الظاهرة: فالرسل والأنبياء والأئمة. وأمّا الباطنة : فالعقول »[٤] .

ولعدم التساوي في عقول الناس ، واختلافهم في مراتب إدراكاتهم ، لذلك سوف لا يكون أي واحد منهم مسؤولاً يوم القيامة إلاّ بمقتضى عقله فقط ؛ كما قال الإمام الباقر (عليه السلام) :

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگی : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) سورة الملك : الآية ٢٣ .
(٣) غرر الحكم : ٢١٢ .
(٤) أصول الكافي ١ : ١٦ .

« إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قـدر ما آتـاهم من العقول في الدنيا »[1] .

إنّ البشرية اليوم بما رأت من العقل من نتائج عجيبة وثمرات غريبة فـإنّها افتتِنت به ، وجعلت الاكتشافـات العلمية هي الأهـداف النهائيـة لحياتهـا ، ومن هنا فقد أوردت ضربة لا تُجبر على دور العقل في حياة الإنسان . إنّ هذا الافتتان صار سبباً في إهمال القوة التي تتعلّق بمبدأ الوجود وسائر الأمور غـير المحسوسـة . ولو كان هذا الإنسان المفتون المخدوع يرى الآفاق البعيـدة ، ويطوي السـاحات الواسعة غير المحسوسة بخطوات أخرى لما كان يقتنع قطعاً بمـا يرى من عجـائب العقول وغرائبها .

والإسلام له الإلمام التام بقيمـة العقل وميـدان عمله ، ولذلـك فهو يجعله تحت عنايته التربوية ، ويُرشده ليفكّر في حقـائق الوجـود بكل دقـة وإمعان . إنّ القرآن يأمر العقل أن لا يتّبع شيئاً مـا لم يثبت له بصـورة يقينية ، ومـا لم يكن له دليـل واضح فـلا يقبله : **﴿ ولا تقف ما ليس لـك بـه علم إنّ السّمـع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾**[2] .

إنّ هـذا التصريـح يؤكّـد عـلى ضرورة التحقيق الكـافي في الإقتنـاع بـأيّ موضوع ، وكذلك ينبّـه على خـطأ أولئك الـذين لا يبنون أفكـارهم على أسـاس العلم واليقين بل يتّبعون الظنون والأوهام : **﴿ إن يتّبعونَ إلاّ الظّنّ وإنّ الظّنّ لا يُغني مِنَ الحقّ شيئاً ﴾**[3] .

وبـأسلوب الإستدلال العلمي الـرّصين يهـدم أسس المعقولات المبنيّـة على التقليـد الأعمى والظنـون ، وينبّه المقلّدين إلى أنّ التقليـد الأعمى لسـيرة الآبـاء والأجداد ضلال مبين :

---

(١) أصول الكافي :

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

﴿ قالوا : بل نتّبعُ ما ألفَيْنا عليه آباءَنا * أوَلَوْ كان آباؤُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[1] .

إنّ هذا الإرشاد وهذه الهداية هي من أجل فتح العيون وتصحيح مسير العقل وطرد الظنون ، وهكذا يعوّد العقل على الإنضباط في نشاطاته ، لينظّم بدوره مختلف القوى والأفكار التي هي تحت إرادته .

إنّ ما يريده الإسلام من التفكير ليس هو التفكير الذهّني المجرّد والبعيد عن الواقع المحسوس ، أي الفكر الفلسفيّ الصِّرف . إنّ القرآن بذكره لآيات الخلقة ومظاهرها يوقظ العقل ، ليستخدم الإنسان قواه الشاعرة للتفكير العميق بشأن آيات حكمة الله وعظمته في نظام الكون ، فيدرك الحقيقة بفكر حرّ وبعيد عن الخيالات ، ولا يتيه في وادي الأوهام ، بل يتصل إدراكه بالحق المطلق المحيط على جميع عالم الوجود . وهذه هي الفضيلة العُليا للعقول .

وبهذا الصدد كتب (أسپينوزا) الفيلسوف الأوروبي يقول :

« إنّ أعلى ما تقوى أذهاننا على تفهّمه هي فكرة وجود « الله » أي ذلك الوجود المطلق اللانهائي الذي لا شيء بدونه بل ولا يتصور شيء من دونه . ولهذا فإنّ ما يفيد الأذهان ، أو قل ما هو أكبر خير لها ، هو العلم بوجود الباري تعالى . وكذلك إنّما يعمل الفكر بما يفهمه ، وهنا يمكننا أن نقول : إنّه عمل بما فيه فضيلته ، فالفضيلة المطلقة للأذهان هي الفهم أو قل التفهّم ، ولكن قد أثبتنا آنفاً إنّ أسمى ما يمكن للذهن أن يتوصل إليه هو فكرة « الله » ولذلك نقول : إنّ أسمى فضيلة للفكر هي معرفة الباري تعالى »[2] .

إنّ الهدف من التفكير في الإسلام هو إصلاح عقل الإنسان وبناء أساس الحياة على قواعد الحق والعدل ؛ فحينما يحصل الإنسان على نتيجة فكرية يكون

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

(٢) بالفارسية : فلسفة نظري : ٩٧ .

قد توصل إليها بعمق فكره ، عليه أن ينقلها من القوة إلى الفعل ، وأن يفيد منها في حياته الواقعية والعملية ، فيجب أن يستوعب ذلك الإيمان المحرّك مجموعة أفعاله ومشاعره وأفكاره ، فيقوم بالجهاد الجادّ للإنتصار على كل أمر باطل يذهب بالقيمة الواقعية للإنسان .

مع أنّ العقل خير هادٍ وأكبر ملاك للتشخيص ، مع هذا نجده يقلّ ضوءه ببعض الكدورات فإنّ الأهواء حينما تستر العقل بستارها الصفيق فتمنع عن انتشار أشعته ، فإنّه يفتقد قدرة القيادة حينئذٍ . والقرآن الكريم ينبّه إلى الدور المخرّب للأهواء في العقول فيقول : ﴿ فإنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواؤَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ الله ، إنّ الله لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱتّبع الذّين ظَلَمُوا أهواءهم بغير علم ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰواتِ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ ، وأَضَلَّهُ الله على علم ﴾[4] .

لا شك أنّ الإستيلاء على الأهواء أمر صعب جدّاً ، فلا يمكننا أن نحول دون طغيانها ونُخضِعها لعقولنا إلّا بالمجاهدات والمساعي المتواصلة ، وبهذا الطريق فقط نتمكّن من أن نعدّل الميول النفسانية وشهواتها ، فنسمح لأنفسنا أن تتمتع ببعض ذلك بطريق صحيح ومناسب .

روى الشيخ الصدوق في كتابه (معاني الأخبار) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خاطب أصحابه الراجعين من جبهة القتال فقال :

---

(١) سورة القصص : الآية ٤٩ .

(٢) سورة الروم : الآية ٢٨ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ٧٠ .

(٤) سورة الجاثية : الآية ٢٢ .

« مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر »
قيل : يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « جهاد النفس »[1] .

إنّما ينال مقام جوار رحمة الله من يكون رقيباً على ميوله الجامحة والخَطِرة ، فلا يدع هواه يتسلّط على عقله فيجرّه أو ينحرف به إلى طرق غير نظيفة وغير طاهرة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[2] .

هل الضمير هو الغرائز المكبوتة ؟

إنّ الضمير الأخلاقي عامل مهمّ في تعديل الغرائز النفسانية، كان الإنسان من أول يوم أن قدم فيه إلى هذه الكرة الترابية وبدأ الحياة ، وحتى اليوم ، وقد مضى على خلقه زمان طويل ، كان ولا يزال يميل إلى حسن الفعال وينفر من سيّئاتها ، وهو يصغي في ذلك إلى نداء باطنيّ يُدعى : الضمير الأخلاقي ؛ فحياته العقلانية كانت مسايرة لحياة ضميره ووجدانه في طول زمانه .

فهو منذ أن عرف الأشواك عن الأزهار أبعد تلك عن نفسه وتمتّع بهذه ، ومنذ أن كان يُميّز بين الطاهر النظيف والنجس المتلوّث ، كذلك كان لا يخطىء في معرفة الخير والشر .

إنّ طبيعة الضمير الإنساني لهي من أروع ظواهر عالم الطبيعة في خلقة الله تعالى .

إنّ الإنسان في حال اعتداله النفسي يفرح بالعدل والأمانة ، وينفر من الظلم والخيانة ، وحتى إنّ اليقين الوجداني أكثر وضوحاً من اليقين العقلاني الذي هو مظهر للكشف عن الواقع ، فإنّ الأمور التي يدركها الإنسان خارج

---

(١) معاني الأخبار : ١٦٠ .
(٢) سورة النازعات : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

وجوده فيعكسها على مرآة ذهنه ويضفي عليها ضوء اليقين بعقله ، يعلم هو جيّداً أنّها أرقام من الواقع الخارجي البعيد عن ذهنه . في حين أنّ هذا اليقين حينما يتواجد بوجدانه وضميره فهو أكثر قرباً والتصاقاً من مظهر المشاهدة والعيان ، وكأنّه يُحسّ بأنّ الموضوع المعلوم له بضميره هو جزء من وجوده وكيانه تماماً .

بينما نرى بعض العلماء النفسانيّين مثل (فرويد) وأتباعه ، ينكرون فطرية الضمير الأخلاقي ، ويرون أنّ ما يُسمّى بالضمير الأخلاقي إنّما هو مجموعة الميول المكبوتة في طول الحياة الاجتماعية والتي تكدّست في باطن الإنسان . وبعبارة أخرى يقولون : ليس الضمير الأخلاقي شيئاً سوى مكبوتات الرقابة الاجتماعية وإلّا فهي ليست لها جذور عميقة في باطن ذات الإنسان .

كان (فرويد) في دراساته النفسية التحليلية يبحث عن الجذور الجنسية ، ولا يلتفت إلى العوامل الأخرى كمصادر للحركات والنشاطات الشرّيرة والخيّرة .

إنّنا لم نجد في العالم أمّة ترى الخيانة ونقض العهود والمواثيق والظلم والجور شرفاً ونزاهة ، والأمانة والوفاء بالعهد والوعد والعدل شرّاً وحراماً ، وتبحث عن سعادتها في ظل الرذائل والسيّئات وسوء الأخلاق .

وإنّما يمكن افتراض صحة نظرية (فرويد) فيما إذا كان الإنسان قد تعلم الخير والشر من مظاهر هذا العالم ، ولا يمكن أن نرى أنّ ما يذعن به كل إنسان على الأرض من الصالحات والسيّئات ، وحتى من لم تصله أشعة تعاليم الأنبياء والمصلحين ، نراها وليدة الميول المكبوتة بالرقابة الاجتماعية .

إنّ (فرويد) حينما أنكر الضمير الأخلاقي حسب ما هو مذكور في البحوث الأخلاقية ، وحينما أهان الإنسان حيث رآه مجموعة من الغرائز والميول ، فقد أنكر طبعاً جميع القيم الأخلاقية ، بل قد سحق المعنويات والاتجاهات النزيهة التي لها نشاط جدّي في أعماق النفس الإنسانية ، ورأى أنّ نتائجها الصادرة عنها التي هي عبارة عن العدالة والرحمة والخير والبرّ والتعاون ومساعدة

القوي للضعيف والعاجز ، رآها ألفاظاً فارغة وغير مفهومة .

وعلى أساس هذه النظرية فمن دون أن تكون الميول الغريزية والدوافع الفطرية الطبيعية مكبوتة مقموعة في الإنسان فإنّه لا يستطيع أن يخطو إلى عالم المعنويات خطوة واحدة ولا يتمكن من أن يغضّ النظر عن اللّذائذ بإرادته ، بل إنّما يمتنع بضغط القوى الخارجة عن نفسه فحسب .

إنّ الضمير الأخلاقيّ لو كان ظاهرة منعكسة عن القوى الخارجة عن وجود الإنسان ، لما وجدنا أي تفسير لما يقوم به من يغضّ نظره عن كثير من لذائذه بل يتحمل الآلام والمشاقّ في سبيل الصالح العام أو المصالح العالية ، والوصول إلى أفكاره والنيل بأهدافه السامية ، ممّا ليس له فيه أية منفعة فرديّة أو مصلحة شخصيّة ؛ فإنّ ذلك لا ينسجم مع تفسير (فرويد) لأمثال هذه التضحيات بأنّها خداع اللاشعور البشريّ لمواكبة الميول المكبوتة ! ومع هذا التفسير السخيف ستبقى عظمة الإنقياد أمام الضمير والوجدان كطلسم معقّد لا ينحلّ بأي تحليل .

إنّ أبطال قيادة الإصلاح في التاريخ البشري كانوا يسوقون الناس إلى عالَم النزاهة الإنسانية ، فهم بدورهم لم يكونوا ينقادوا لطاعة قادتهم بضغط أقوياء المجتمع عليهم أبداً ، بل إنّما كان ذلك بإرادتهم .

إنّ الإنسان بإرادته واختياره وبحبّه للكمال يطوي طريق الفضائل الإنسانية ، وكذلك يصرف نظره عن تنفيذ بعض رغباته الشهوانية ، وهو في ذلك يستجيب للأحاسيس الإنسانية النزيهة بكل شوق ورغبة ، ومن دون أن يصطدم في ذلك بمقابلة بعض العقد النفسية ، فيقوم بأداء خدمات خيّرة لم تجبره عليها القيود الدينية أو العرفية الاجتماعية .

هذه حقائق واقعية تسجّل علينا أنّ الضمير الأخلاقي في الإنسان ليس مخزناً للشهوات المكبوتة ، بل تختزن فيه أيضاً الأهداف السامية والوصول إلى الكمال المطلوب . وإنّ في باطن الإنسان حالة ذاتية هي مصدر لكل أعمال

الخير . فهذا هو الضمير الذي يذكّره بأنّه لا ينبغي له أن يجتذب كل شيء إلى نفسه ، وأن يتّبع ميوله النفسية فحسب .

إنّنا نجد في صعيد الحياة الدنيا من يرى الحياة بعيداً عن مقتضيات ضميره عاراً عليه ، وبعيداً عن شرف نفسه ، فهو مستعد لأنّ يغسل يده من حياته دون أن يخالف أو يواجه ضميره ووجدانه . وحينما يبادر هؤلاء إلى عمل أخلاقي خيّر اندفاعاً بذلك الدافع الذاتي ، يُحسّون من جمال ذلك الفعل ما لا يستعدون معه لمبادلة تلك اللحظة من حياتهم مع كل العالم .

ولو كان القرار أن يوكّل الإنسانُ إلى نفسه ، بل يُفهّم أن ليس هناك أي قيم مقدسة وراء جلبك للمنافع ودفعك للأضرار عن نفسك ، لما كان العالم هذا يصل إلى ما وصل إليه اليوم من تقدّم وتكامل في العلوم والصناعات .

أبعاد أحكام الوجدان

قلما يخطىء الضمير في أحكامه . أمّا أخطاء الإنسان في حياته الاجتماعية فهي مسبّبة عن أخطاء الحواسّ أو إدراكات العقل في تشخيص الموضوعات ، أو تقاصر قوة المقاومة في الضمير أمام الأهواء الجامحة والميول الطاغية العاتية .

إذن فهذه الكثرة من الأخطاء في مختلف الشؤون الإنسانية ليست من خطأ الضمير أو تقصيره ، إذ ليس لهذه القوة الفطرية أي عمل خارج إطار نشاطه وهو : أن يدرس ما تحرزه الحواسّ والعقل من موضوعات وقوانين فيصدر حكمه بشأنها .

إنّ الفطرة السليمة والنزيهة تحاول التجنّب عن الذنب مهما أمكنها ، ولكنّها من الممكن أن تتلوّث بالجرائم والذنوب على أثر عوامل معيّنة ، فيتلطّخ ثوب صاحبها بلطخة من عار المعاصي . ولكنّه ما إن يفرغ من الجريمة ويرجع إلى الحديث مع نفسه التي هي من قيم الإنسان ـ ويدرس لوث الجريمة الحادثة ، فإنّه سيُحسّ بسعر حرارة من أعماق ذاته يحرق روحه بل وحتى جسده ، وتستولي

عليه حالة من الخجل والندم المؤلم . هذا هو الضمير الذي يدينه بجريمة ثم ينهال عليه باللّوم التشديد ، ويجلده بسياط الحسرة والندامة الملتهبة .

ليس الضمير مرشداً مضموناً وأميناً في صعيد الحياة فقط ، بل هو شاهد وفيٌّ وعادل يشرف على أعمال صاحبه ويراقبها ويشهد طبقها تماماً مئة بالمئة . فمن الممكن أن يتكلم المرء بخلاف ما في قلبه ، أو أن يستولي ويهيمن على حركاته تماماً بحيث لا يترك شيئاً من أسراره تظهر في فلتات لسانه أو أعماله . . ولكنه لن يتمكن من أن يُخرس نداء الوجدان إلى الأبد ، أو أن يسكته عن تقريعه باللوم والتأنيب والعتاب ، وليس بالإمكان أن نخدع الوجدان نعم قد يكون بالإمكان أن نمنع عن نشاطه بالخداع والتزوير فينام عن القيام بمهامّه ، ولكنّه بعد يقظته ودراسته لصحيفة أعمال صاحبه سيعلن عن القبيح منها بكل صراحة تامة ، وسيعاقب صاحبه بسياط الحسرة والندامة بكل قسوة وشدّة .

لا شيء أحبّ إلى الإنسان من نفسه ، ولهذا فإنّ الذي يرى من وخز ضميره أشدّ العذاب النفسي سيسأم من نفسه ويتنفّر ، وسيُحس بأنّ هذا هو ذلك الذنب وتلك الجريمة قد اتصلت الآن ببدنه فهي تحرقه بلهيبها المحرق . وعلى هذا فإنّ الضمير أكبر عامل تنفيذيّ للحدّ من الجرائم والذنوب .

لكن إذا كانت الإصابات التي تصيب الشخص فوق طاقته وأكثر من ظرفيته واستيعابه ، توتّر الضمير توتّراً شديداً جدّاً ، وإذا كان ضغط الضمير شديداً على النفس أثّر في النفس بالإنحراف فتحدث فيه أمراض واختلالات نفسيّة .

إنّ بعض المجانين الذين أجريت البحوث والدراسات على حالاتهم الروحية ، أثبتت البحوث أنّهم قد فقدوا عقولهم من جرّاء العذاب والضغط الشديد عليهم من ضمائرهم ، على أثر اقترافهم للجرائم .

قد تكون الميول وشهوات النفس من القوة والضغط بحيث يحاول الإنسان مخادعة الوجدان ومنعه عن نشاطه . ومن خصائصه العجيبة أنّه يتمتع بقوة

مقاومة شديدة أمام الميول القوية أيضاً ، فهو ما لم يختل نشاطه أمام ضغط الدوافع العارمة يواصل جهاده ونشاطه ولا يهمل تكليفه مهما أمكن .

يقول (هانري باروك) :

« إنّ قوة مقاومة الضمير الأخلاقي قوة مقتدرة ، حتى إنّه حينما يقلّ نفوذ أشعته بحيث لا يكاد يُرى ، مع ذلك فهو بعدُ يراقب الأمر بيقظة ، وحينما يصعب أمره نراه يبدأ ببث شعاعه الباهر مرة أخرى »[1] .

وأخيراً نقول : من يعرض عن أمر ضميره فينحرف عن الصراط المستقيم لفطرته سيصبح في عذاب الاضطراب النفسيّ ، والعكس صحيح ، فمن سمع مناغاة ضميره واتّبع أمره سيتمتّع بالراحة وسكون النفس ، مما يسعى الإنسان التائه أن يحصل عليه باحثاً عنه في السراب .

القرآن ونداء الفطرة

يرى كثير من العلماء اليوم أنّ نظرية (فرويد) مردودة ويرون أنّ الضمير الأخلاقي هو جزء من طينة بناء الإنسان . إنّ المفكرين الذين أفادوا من عقول نشطة وسليمة دائماً لمعرفة الإنسان والكون ، أخذوا يؤكّدون على إثبات ظاهرة الوجدان وأساليب الضمير الأخلاقي ، وإنّ لإرادة الخير واجتناب السوء والشر في كيان الإنسان جذوراً فطرية ، وإنّها قد أودعت في باطن كل إنسان من قبل الخالق القدير ، كرأسمال لسعادته .

ونحن هنا ، وفي ذيل الآيات القرآنية الكريمة نعكس نظريات العلماء والمحقّقين الغربيّين :

إنّ القرآن الكريم يرى تلك القوة الذاتية التي تدرك الخير والشر جيّداً ، من فيض الإلهام الإلّهي ، حيث يقول تعالى : **﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا**

---

(١) بالفارسية : بيماري‌هاي روحي وعصبي : ٧٣ .

فُجورَها وتَقْواها ﴾[1] .

ويقول (جان جاك روسو) :

« صحيح أنّ الإنسان ـ أيّ إنسان ـ لا يمدّ يده إلى أيّ عمل بدون أن يستهدف سعادة نفسه ، ولكن علينا أن لا ننسى أنّ هناك سعادة معنوية هي من اللذّات الرّوحية ، يضحّي الأخيار بأنفسهم في سبيل الوصول إليها . وعلى هذا نقول : فهؤلاء هم قُساة القلوب الذين لا يعملون إلاّ بهدف الوصول إلى النفع المادّي لأنفسهم .

وليس عمل الضمير نوعاً من أحكام العقول ، بل هو وليد نوع من الإحساس الفطري الذاتي ، وعلى افتراض أنّا لا نستطيع أن نتوصّل إلى ماهيّة الضمير وأصله حسب وسائلنا الطبيعية ، فإنّ في باطننا ما يشهد بوجود الوجدان في كيان الإنسان .

أيها الضمير ،

أيّتها الغريزة الملكوتية ،

أيها النداء السماويّ الخالد ، أيها الهادي والمرشد الأمين لهذه الموجودات الجاهلة والقليلة العقل !

أيها الوجدان العاقل الحرّ ! يا من يحكم بالخير والشر من دون خطأ في قضائه . .

أنت الذي تقرّب العبد من ربّه ، تهذّب طبعه ، وتوفّق بين عمله وقانون الأخلاق . .

إن لم تكن أنت فأنا لم أكن أحسّ بوجدان في ذاتي يجعلني أفضل من البهائم ؛ وإنّما كنت أمتاز عنها بفهمي وعقلي الناقص وغير المنظّم ، وأضلّ بما فيه من نقص وإعواز فأُخطىء ، وكنت انتقل من خطئي إلى خطأ آخر .

---

(١) سورة الشمس : الآية ٨ .

ولله الشكر إذ نجونا من شر الإستدلالات الفلسفية الموحشة ! وذلك يعني أنّ بإمكاننا أن نعيش بإنسانيتنا من دون التفاخر والتفاضل بهذه المصطلحات المبهمة ، ولا حاجة لنا اليوم أن نصرف أعمارنا لقراءة الكتب الأخلاقية المعقّدة ، بل بجهد أقل نتمكّن من أن نجد طريقنا بين الطرق الملتوية من مختلف العقائد ، بهداية قائد معتمد أمين .

لكن لا يكفي وجود هذا المرشد الهادي فينا فقط ، بل علينا أن نعرفه جيّداً فنتّبعه . وإذا كان هو يحادث القلوب فلماذا لا يسمع حديثه إلاّ قلوب قليلة ؟ .

نعم ؛ من كثرة طردنا له وقهرنا إيّاه فإنّه لا يحادثنا أوْ لا يردُّ جوابنا ، ومن كثرة الإهانة به أصبح من الصعب حضوره وإن كان من الصعب طرده أيضاً . كما يصعب على من افتقد اللذات الروحية أن يجدها مرّة أخرى »[1] .

ويقول البروفيسور (فريدمان) :

« إنّ نداء الضمير جزء من الشخصية الإنسانية ، وليس شيئاً يحصل بالتربية والتعليم . من توصّل إلى مقام في المجتمع أو كان قائداً فيهم ، فإنّما الضمير هو الذي يأخذ بيده إلى الخير ويبعده عن الشر ولا غير »[2] .

ويقول عالم نفساني آخر :

« ليس الضمير الأخلاقي ردّ فعل مصطنع ، بل هو عامل إنساني طبيعي وعميق ، ولا يستطيع الإنسان ـ مهما تظاهر بصورة أخرى ـ أن يعدم ضميره أو أن يخنقه . وإنّ ثبات الضمير الأخلاقي الخارق للعادة حتى في الأمراض الشديدة وحتى في الأمراض الروحية والجنون ، وبقاءه حتى بعد ذبول العقول ، كل ذلك مما يشهد للضمير بأهميّته الكبرى ومرتبته العالية في الروح الإنسانية .

---

(١) بالفارسية : أميل : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) بالفارسية : روانشناسي در خدمت سياست : ٣٢ .

وقد يتساءل بعض العلماء : أليس الضمير الأخلاقي وليد التعليم والتربية الدينية ؟ وللإجابة علينا أن نتذكّر أنّ علماء الآثار قد عثروا في الآثار التي تعكس المراسم القديمة على ما يصوّر الضمير في صورة الاستيعاش في حالة الاستغفار في القبائل القديمة ، والعابدة للأوثان ، مما يشهد بقدم الضمير منذ بداية البشر . وإنّ إنكار هذا الواقع يساوي أن لا نفهم من شخصية الإنسان شيئاً »[1] .

والله تعالى بعد ذكره لنعمة العين واللسان والعقل في الإنسان ذكر نعمة هدايته إيّاه للخير والشر فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾[2] ومنه يستفاد بوضوح أنّ الإنسان إنّما تعلم التمييز بين الخير والشر في مدرسة الخلقة : ﴿ **إنّا خلقناه من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾[3] .

وكتب (صموئيل اسمايلز) يقول :

« إنّ العقول العالية والأفكار السامية من دون إرشاد الوجدان وهداية الضمير ، إنّما هي بمثابة أنوار ساطعة قد تسبّب في ضلال الإنسان وضياعه ، فالضمير هو الذي يقوم به على ساقه وبإرادته مستقيماً وثابتاً .

إنّ الضمير هو معلّم القلب في الأخلاق ، وهو يعلّم الإنسان السلوك الصحيح ، وأسلوب الفكر السليم ، والإيمان الثابت ، والحياة العفيفة ، ولا تبلغ الأخلاق الفاضلة في نموّها ورشدها إلى حدّ الكمال إلّا بتأثيره النافذ في أعماق الإنسان »[4] .

وقال تعالى : ﴿ **لا أُقْسِمُ بيوم القِيامَةِ وَلا أُقْسِمُ بالنّفْسِ اللوّامَةِ** ﴾[5] .

---

(١) بالفارسية : بيماري هاي روحي وعصبي : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة البلد : الآيات ٨ ، ٩، ١٠ .

(٣) سورة الإنسان : الآية ٢ .

(٤) بالفارسية : الأخلاق : صموئيل اسمايلز : ٧ .

(٥) سورة القيامة : الآيتان ١ ـ ٢ .

في هـذه الآية ذكـر الله ذلك النـداء الباطنيّ الـذي يرتفـع من عمق ضمير الإنسان بالذمّ واللّوم فيعذّبه بذنوبه ، ذكره الله بعنوان ﴿ النفس اللّوامة ﴾ وهذه القوّة اللّوامة الباطنية هي التي سمّاها علماء النفس اليوم « بالضمير الأخلاقي » .

يقول البروفيسور (أتوفر يدمان) :

« كثيراً ما نجد من يقضي ساعات كثيرة في البارات أو الحانات بشرب المشروبات الكحولية ، أو على طاولات القمار ، أو التنيس ، وهو في ذلك يعاني من آلام باطنية ذاتية تؤذيه دائماً ، فلا يلتذّ من نزهته ، وذلك لأنّ هناك نداء في باطنه يناديه بالذمّ واللّوم يقول له : أنت تقضي عمرك بالبطالة ! ولا يزال هذا النداء يرنّ في شعور ضميره أو « الكونسيانْس » .

وقد تتواجد فيه بدل تلك الألعاب الترفيهية والتسلية فكرة تقول له : من الأفضل أن تشتغل بتربية أبنائك ، ومن الأفضل أن تشتغل بالزراعة والفلاحة وتربية الورود والأزهار والرياحين . . وهنا يهديه ضميره الحيّ واليقظ إلى أعمال صالحة تفيده ويتمتع بها الآخرون ، وهنا يقيس الإنسان نفسه بالآخرين فيسمّت به ضميره . وكلما كانت طاعته واستماعه لنداء ضميره أكثر وأقوى كذلك كانت قدرته الروحية والمعنوية أفضل وأكثر استمراراً ودواماً ، وكلّما كان الإنسان أقل التفاتاً وطاعة لنداء الوجدان كان بنفس النسبة أكثر غلظة وخشونة »[١] .

وقد تتعثر رجل الرجل بغفلة في لحظة خاطفة فيستسلم لأهوائه ، فإنّه سيعاني من الحسرة في عمره ما يؤدّي به إلى التعاسة والشقاء ، كما قال علي (عليه السلام) :

«كم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً »[٢] .

إنّ المجتمع البشريّ قد أفاد من ضمير أفراده في جميع الأدوار التاريخية

---

(١) بالفارسية : روانشناسي در خدمت سياست : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) الكافي ٢ : ٤٥١ .

أمّا الذين لا يتمتّعون بالإحساس الوجداني في أعمالهم فلا يفرّقون بين خير وشر ، وإنّما يرون حياتهم في الأكل والنوم والشهوة ، فهم مستسلمون لأمواج الغرائز الحيوانية كقطعة خشبة ، فهم لا يعتمد عليهم في مجتمعهم ، فإنّه حينما يفوّض إلى شخص عمل لا يضمن تنفيذه إلّا الضمير ، كان من الواجب أن نطمئن إلى أنّه سيعمل بتكليفه ، وإلّا كان بعيداً عن العقل والمنطق أن يحوّل العمل إلى من نشك في انصياعه لأحكام الضمائر ، فضلاً عمن يضادها ويخالفها في أعماله .

وقد أولى الإسلام عناية خاصة بالضمير الأخلاقي ، وأرشد إلى أنّ السموّ النفّسي في الفكر والعمل الفردي والاجتماعي إنّما هو في العمل بالوجدان الأخلاقي . يسعى الإسلام في تعاليمه أن يربّي في باطن الإنسان وازعاً أخلاقياً يردعه عن إيذاء الآخرين حتى في حالات الغيظ والغضب ، ويحذّر الناس عن ذلك فيقول : ﴿ **ولا يجرمنّكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[1] .

وهذا يعني أنّه لا يحق لأحد وعلى أيّ حال أن يعتدي على حقوق سائر الناس بحال من الأحوال .

إنّ القانون يمنع الإنسان عن ارتكاب ما يخالفه بما له من سلطة على خارج ذات الإنسان ، وبما أوتي من وسائل محدودة . أمّا الإسلام فبإهتمامه بتربية ضمائر أفراده فإنّهم ـ حسب تربيته ـ يدركون بوجدانهم أنّ عليهم أن يمتنعوا عن ارتكاب بعض الأعمال كي يمكن لهم التقرّب المعنويّ إلى بارئهم . ولا شك أنّ هذا الإباء بداعي الخُلق والعقيدة أكثر إطمئناناً وأقرب إلى الأهداف التربوية

إن الإسلام يرى أنّ من الممكن تحقق أهداف الحياة السامية في ظل التعاون والعلاقة والمودّة والمحبّة بين الفرد وأبناء نوعه ، فهو يدعو الناس إلى هذه

---

(١) سورة المائدة : الآية ٧ .

الفضائل وأنّ يؤسّسوا علاقاتهم مع الآخرين على أسس المحبة والتعاون .

وهكذا يُحسّ المسلم أنّه يتّصف في الإسلام بالنورانية إلّا فيما إذا لم يألُ جُهداً في التعاون والمحبة بالنسبة إلى سائر الناس برضا نفسه وطيب خاطره .

يُحدّث الإمام الصادق (عليه السلام) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يقول :

« للمؤمن على المؤمن سبعة حقوق واجبة من الله عزّ وجلّ عليه . الإجلال له في عينه ، والودّ له في صدره ، والمواساة له في ماله ، وأن يحرم غيبته ، وأن يعوده في مرضه ، وأن يشيع جنازته ، وأن لا يقول بعد موته إلّا خيراً »[١] .

وإنّما يسمع الإنسان نداء الفطرة ويدرك الخير والشر ، فيما إذا لم يحجب فطرته شيء حاجب ، أمّا الضمير المقيّد بسلاسل الأسر والمغلولة يداه ورجلاه في حلقات الأهواء وحبّ الجاه ، فإنّه لا يمكنه أن يبدي وجهه وصورته الواقعية . وفي الاضطرابات الثوريه والحربية والحالات غير الإعتيادية ، يصطدم الضمير بضربات ثقيلة تؤدّي إلى توقّف نشاطه . وتنجم المفاهيم الخاطئة وغير القيّمة كأقوى الدوافع في الإنسان ، وقد يصاب الضمير في هكذا ظروف بالقلق والاضطراب مما قد يسبّب للبشرية خسائر لا تجبر .

والبون بين الإنسان الذي يتمتّع بضمير حيّ ويقظ والإنسان الذي لا ضمير له كالبون بين السماء والأرض ، والتضاد والإختلاف بينهما أكثر من الفارق بين الإنسان وأيّ وجود آخر . فإذا أحرقت النار ـ بما لها من خاصية الإحراق ـ جسم إنسان ، كان ذلك أثرها الذاتي ، وهي لا تشعر أنّ جسم موجود حيٍّ كالإنسان سيتأثر بشعلاتها المحرقة ، فيُحسّ بالألم والعذاب بشدة . . في حين أنّ

---

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٦١ ـ كتاب العشرة .

الإنسان الذي لا ضمير له يشعر بما يفعله ، فإنّ ظلمه وإيذاءه للآخرين مما يقدم عليه عمداً .

إنّ تكرار الذنوب ممّا يغطّي على وجه الفطرة الطاهرة بركام من السُحب المظلمة . إنّ المجرم الجاني يرتكب جرائم مفجعة كثيرة من دون أن يُحسّ من عمله القبيح بأقل عذاب روحي أو ألم نفسي . هذه حالة استثنائية . أي فوق العادة ، تسمى « الساديسم » .

إنّ المجتمع إنّما ينال العدالة الاجتماعية فيما إذا كان الناس فيه يخضعون لعامل باطنيّ فيهم يُشرف على أعمالهم ويمضي فيها بحكمه فيطيعونه ، ولو كان الناس أمّة واحدة بوحدة حقيقية هي تلك التي تفسّر إنسانيتهم ، لم تكن المسالمة بينهم أمراً مقدوراً فقط بل كان كل واحد منهم كأنّه عضو مع سائر الناس من جسد واحد ، أو كأنّهم كلهم قطع غيار لآلة واحدة .

رصيد العقل والضمير

حينما تحاول الميول والأهواء الجامحة الطاغية أن تكسر أجنحة العقل والضمير فتأسر الإنسان في مصيدتها « فالإيمان » خير رصيد بالإمكان أن نلتجىء إليه . إنّ الإيمان أكبر حام ورصيد للعقل والضمير ، فهما وبحماية الإيمان قادران على أن يكبحا جُماح الغرائز ويقمعا طغيانها في كل حال ، ويقابلان قوة الميول المتخاصمة ، وأن ينتصرا في كل معركة خطِرة ، وإنّ الإنسان المجهّز بسلاح الإيمان يكون كما يعبّر القرآن الكريم **﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾**[1] .

إنّ مهمة العقل النظري ـ وهو الأساس في الفلسفة الإلٓهية والعلوم الرياضية والطبيعية ـ هي أن يصدّر أحكاماً بشأن الأمور الواقعية . أمّا العقل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

العملي ـ وهو أساس علوم الحياة ـ فمورد أحكامه هي تكاليف الإنسان ووظائفه ، فالطريقة العملية التي يتّخذها الإنسان في حياته تكون مورداً لأحكام العقل العملي .

وإنَّ من إحدى العوامل المهمّة التي لها الأثر الأكبر في بصيرة العقل ووضوح رؤيته ، لهي التقوى ؛ فما يقال : من أنّ التقوى تنوّر العقول وتفتح على صاحبها نوافذ الحكمة ، لا يقصد بالعقل فيه العقل النظري بل العقل العملي ، بمعنى أنّ الإنسان عن طريق التقوى يشخّص الطريقة الصحيحة في الحياة ، ويتعرّف بها على دائه ودوائه .

وحيث أن منطقة نفوذ أحكام العقل العملي هي ميول الإنسان وشهواته وأحاسيسه ، لهذا فلطغيان الأهواء والميول أثر قطعي في العقل وأسلوب الفكر العملي للإنسان الذي عليه أن يتفهّم مفاهيم الخير والشر في الوظائف والتكاليف ، وهي التي توجب ضباباً كثيفاً أمام مصباح العقول المنيرة ، فتمنع من نفوذ أشعّتها .

فما نراه في النصوص الإسلامية أنّها تصِف الأهواء بأنّها أعداء العقول ، إنّما هو بلحاظ أنّ الأهواء تحبط آثار العقول وتورد الضّعف في قدرتها وقواها .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك »[١]

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

« الهوى عدوّ العقل » .

ويقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

---

(١) نهج الفصاحة : ٦٦ .

« أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »[1] .

أمّا إذا كانت التقوى حاضرة فإنّها تقيّد الهوى وتذلّله ، فيتحرّر العقل منطلقاً . ومن هنا يمكننا أن ندرك أثر التقوى في زيادة بصيرة العقل ووضوح رؤيته .

يصف رسول الله المؤمن فيعدّد من خصائصه أنّه :

« لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب ، لا يجور ولا يتعدّى ، ولا يقبل الباطل من صديقه ، ولا يرد الحق على عدوّه »[2] .

والإنسان إذ جعل الله له العقل والضمير كلّ منهما كرأسمال كبير فيه ، جعله في كمال الحريّة في الإفادة منهما . ولا ينافي هذه الحريّة التامّة أن يقهر الإنسان بعض ميوله الطبيعية فتكون طبيعته مقهورة للجزء الآخر من وجوده أي العقل والضمير الأخلاقي .

وإذ لا تزاحم بين العقل والضمير وبين الأهواء النفسية الجامحة ، فلِلعقل والضمير نفوذهما وحكمهما ، وكانت الطاعة لهما أمراً يسيراً ، بل كانت القدرة لهما أكثر من القوى الخارجة عن كيان الإنسان ، إذ يتصوّر الإنسان أنّ أحكام العقل والوجدان إنّما هي أحكام يصدّرها هو ، ولهذا فليس له أن يثور على نفسه وأن يعرض عن طاعتهما .

ولكن تحدث المشكلة الكبرى حينما يستلزم اتّباعهما قمع إحدى الغرائز وكبح جُماحها ، وكثيراً ما تتحطّم قوة مقاومة العقل والضمير أمام قدرة الغرائز الجامحة ، وتضطّر إلى الإنسحاب أمامها وتصبح هي الحاكمة المطلقة في الساحة . فالغرائز والأهواء تهدّد البشر على كل حال .

---

(١) غرر الحكم : ١٩٥ .

(٢) بحار الأنوار ١٥ : ٨٢ .

إلّا أنّ الذي يتعبّد بأوامر الله تعالى ، الذي يجد للإيمان جذوراً ثابتة في أعماق قلبه ، والذي له عناية خاصة بالجوانب الدينية ، فهو بالإستناد إلى هذا الإيمان سيسود على أهوائه المفسدة ويردّ الباطل منها ، وهو مستعد بكل قواه للمقاومة أمام الغرائز الجامحة الطاغية .

السفسطة واختلاق الذرائع والحجج

إنّ طاعة أوامر العقل والضمير ومقتضيات الإنصاف والعدالة ليست أمراً ساذجاً وبسيطاً ، ولذلك نرى كثيراً من الناس حيث يجب عليهم في مقام دركهم للواقع ، واكتشافهم للحقائق المتفق عليها ، أن يذعنوا لنداء الوجدان والضمير الحسّاس والعقل السليم ، ويغضّوا النظر عن بعض منافعهم ومصالحهم الشخصية ، في قبال المسؤوليات الأخلاقية والدينية والعلمية ، لا يرضون بتقبّل ما عليهم من أضرار في وظائفهم وتكاليفهم . وعدم رضاهم هذا يحملهم في مضائق الحياة ـ التي هي بدورها وليدة انعدام الشهامة الأخلاقية والإيمان الواقعي الحقيقي فيهم ـ يحملهم على أن يسحقوا ضمائرهم ، ثم لإنقاذ أنفسهم من الضغوط النفسية يسلكون سبيل العقول الناقصة والفكر العاثر .

وبديهيّ أنّ الشخص إذا عمل بهذه الطريقة غير اللائقة في عدة موارد ، فوجد الوهن والفشل في النشاط العقلي له ، اعتاد على السفسطة في قبال العقول السليمة والمنطق الصحيح ، ويصبح هذا الأمر له كعادة سلبية مستمرة، ثم تظهر بعد ذلك كصفة ثابتة عليه .

وهناك فرقة أخرى يحاولون من أجل الفرار عن نقل المسؤوليات والابتعاد عن الإعتراف بالأخطاء والعثرات ، يحاولون أن يلقوا المسؤولية على عاتق الآخرين ، وفي المواضيع المختلفة في المراحل الحسّاسة والظريفة في الحياة يحاولون اختلاق الذرائع والحجج لصالحهم ، ليحوّلوا الأحكام لما ينفعهم في جانب واحد .

وليست هذه الذرائع والحجج بل الأدلة والبراهين والأحكام الناشئة عنها لعدم التفات أو مسامحة في المواضيع الدقيقة للمسألة ، بل نحن نرى عملياً جميع المنحرفين وكلّ أهل الضّلال الذين لا مجال لأي شك أو ترديد في فجائع أعمالهم ، نراهم يتوسّلون بأنواع الأساليب السلبية للإستدلال الباطل ، من أجل تبرير أعمالهم اللاإنسانية التي ارتكبوها .

كتب (دايل كارنيجي) بهذا الشأن يقول :

« عندي رسائل ملفتة للنظر وجميلة أحياناً من مدير السجن المعروف (سينك سينك) يقول فيها :

قليل أولئك المجرمون في (سينك سينك) ممّن يرى نفسه شرّيراً فاسداً ، بل هؤلاء يرون أنفسهم كالآخرين أُناساً سالمين ، يتذرّعون بالحجج والأعذار لأعمالهم ، ويبيّنون عللها وعواملها وأنّهم كانوا مجبرين مضطرين مثلاً بأن يكسروا القاصة فيسرقوا ما فيها من نقود وأموال أو أن يرتكبوا القتل في سبيل ذلك .

إنّ أكثر المجرمين يحاولون أن يبرّروا أعمالهم التي ارتكبوها ضد مصالح الآخرين والمجتمع ، يبررونها حتى لإقناع أنفسهم لا الآخرين فقط ، وفي النتيجة يقولون إنّ أخذهم وحبسهم على خلاف الحق والعدل ! .

فلو كان أكثر الأشقياء الذين هم الآن في السجون خلف قضبان الحديد هكذا يرون أنفسهم أبرياء ، فما هي عقيدة سائِر الناس الذين نواجههم كل يوم بشأن أنفسهم »[١] .

نعم كل من يتلوّث بنقض القرارات الاجتماعية ويخالف قوانين الأخلاق العامة ، في بداية الأمر يُحسّ بالألم ووخز الضمير . . ولكن على أثر تكرار العمل ينتفي قبحه والآثار السلبية المترتبة عليه فإنّه سيأنس بها بالتدريج ، وسيفتقد ما كان عنده من ردّ فعل نفسي حتى في المراحل الحسّاسة والجديرة بالتوقف عندها ،

---

(١) كيف نكسب الأصدقاء . بالفارسية : آئين دوست يابى : ١٧ .

ويُحسّ بالأمن من أن يتأثر نفسياً أو يتألم لذلك أبداً .

أمّا القرآن الكريم فقد وصف هؤلاء الأشقياء الذين يفتقدون عقولهم اليقظة وضمائرهم الحيّة والحسّاسة بما يرتكبونه من أخطاء في سبيل مصالحهم الشخصية ، والذين يغطّون في نوم عميق من الغفلة والإنحطاط بحيث لا يستطيع أيّ شيء على أن يحملهم على التعقل والفكر الصحيح لتشخيص الحق عن الباطل . . يصف القرآن الكريم هؤلاء بأنّهم أضلّ من الأنعام :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

***

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

تربية الشخصية .. وتكاملها

* مقياس تقييم الإنسان .
* أصالة العامل النفسي في التربية .
* تكامل الشخصية في النظام التربوي الإسلامي .
* أثر العقل والإيمان في بناء الإنسان .
* أضرار الأفكار الشرّيرة .
* علاقة الأهداف بنموّ الشخصية .
* علاقة النشاطات النفسانية والفيسيولوجية .

مقياس تقييم الإنسان

إنّ الـذي يميّـز أفـراد البشر بعضهم عن بعض ، وبـه يمكن التـوصّـل إلى معرفة الموقعيّة الحقيقية والقيمة الذاتية لكـل أحد ، هـو « الشخصية» . مـع شبه الأشخاص بعضهم ببعض من حيث الصفات النـوعية وردود الفعـل المشتركـة ، ومن جهة الجوانب العامة للحياة الاجتماعيـة ، مع ذلـك فإنّ لكـل فرد كيفيـات خاصّة من حيث الخصائص الطبيعيـة والتربـوية ، ولكـل منهم صفات إيجـابية ، وفي كيان كل منهم فردية تميّزه عن سائر المشاركين إيّاه في الإنسانية .

إنّ البحث عن الشخصية ليس بحثاً عن بعض الخواصّ المجرّدة للأفراد ، بل إنّ ما يدخل في مفهوم الشخصية هو كل ما يشكل فرداً من الأفراد ، وتكمن في مفهـوم الشخصية أيضـاً هويـة الأفراد أي تمـايـز الأفـراد بعضهم عن البعض الآخر ، فإنّ مجموعة متنوعة من الصفات والدوافع الذاتية الباطنيـة تحدث تـأليفاً يشكل شخصية متميّزة . والصفات التي تعـدّ جزءاً من مقـوّمات الشخصيـة إنّما هي الصفات التي تتمتع بنوع من الثبات والدوام .

مع أنّ الأصول التي تتحكّم في نموّ الشخصية وتكاملها هي أصـول واحدة في الجميع ، إلاّ أنّها حينما تطبّق على فردين لا تثمر نتيجة واحدة ، فحينـما نقارن شخصية أحدهما بالآخر نشاهد بينهما اختلافاً وتفاوتاً ظاهراً .

وبالإمكان أن نقيس الجوانب المحسوسة للشخصية بتجميـع الأجوبـة على أسئلة خاصة ، نقيم تلك الشخصية بها ، ولكن ليس بـالإمكان أن نقيّم ونقـدّر الجوانب العميقة الباطنية والدوافع والدواعي الخفية ببساطة .

ولبعض الصفات في بناء الشخصية أهمية أكثر من غيرها ؛ فالصفات التي تتصف في الأخلاق مثلاً بالخير أو الشر لها أهمية أكثر بالنظر إلى بناء الشخصية ، وفي الواقع إنّ سجايا الإنسان ونزعته هي شخصيته التي تدرس من خلال الأخلاق .

وإنّ أثر الشخصية ونوعها ومقياسها ، وإنّ اكتساب الأوصاف والخصائص المؤسّسة في باطن الإنسان ـ بالقوة ـ أكثر أهمية وأعمق في سعادة الأفراد أو شقائهم وبؤسهم وتعاستهم .

إنّ نموّ شخصية أي فرد وتأصّل المزايا النفسية فيه ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدى ومستوى ارتباطه وتقييمه للأمور والأشياء من حوله ، فمن الطبيعي أن يوفّق الفرد ويلائم بين شخصيّته والأشياء التي له عناية خاصة بها ، وينظّم أعماله وسلوكه بشكل منسجم ومتناسب مع أكبر قيمة عرفها في الحياة . وإنّ تفاوت واختلاف القيم تعرّفنا بأسلوب الفكر واختلاف نفسية الناس ، ومن هنا بإمكاننا أن ندرك القيمة الحقيقية لكل إنسان ، وأن نقيّم شخصيته بهذا المقياس .

فمثلاً : من يبني ـ في تصوّره ـ أساس سعادته على أسس القيم المادية وكميّتها وكيفيّتها ، وله في سبيل الوصول إلى هذه الأهداف سعي متواصل ودؤوب ، بينما هو معرض عن القيم الواقعية للحياة التي هي أسس السعادة الواقعية له ، إن هذا يكون قد حطّم شخصيته الإنسانية . كثير أولئك الذين يسعون طول أعمارهم للحصول على القيم المادية ، في حين أنّهم غير مستعدين أن يصرفوا شطراً قصيراً من أعمارهم للحصول على السجايا الروحية السليمة ، التي هي للإنسان كنزه الثمين .

للعلماء النفسانيين نظريات مختلفة بشأن مدى ارتباط الشخصية بالأمور الاجتماعية ولا سيّما ما يتعلق منها بعلم النفس الاجتماعي : فبعضهم يرى الشخصية : نتيجة النظام الجسماني والوراثي للشخص ، بينما يتصور آخرون منهم : إنّ ظواهر الشخصية إنّما هي مظاهر لأمور اجتماعية . وأنا أرى أنّ

النظرية الواقعية في هكذا مسائل مختلف فيها إنّما هي في أمر بين هاتين الفرضيّتين :

فالبيت والأسرة ، والمدارس ، والمحيط الاجتماعي ، ثلاث عوامل قويّة في بناء الشخصية وصنع أخلاقه وصفاته الإنسانية .

وفي علم النفس الحديث يهتمّون اهتماماً بالغاً بما يسمّونه العامل المجهول في تكوين الشخصية ، فيرون أنّ هذا العامل المجهول عنصر أساسي في تكوين شخصية الفرد ، فإنّه بإمكانه أن يغيّر مجرى العوامل الأخرى فيصنع من الفرد شخصية أخرى غير مرتقبة .

ولا شك في أهميّة آثار العوامل الاجتماعية في تكوين الشخصية ، فكثير ممّا للإنسان من كيان شخصية إنّما هي انعكاسات يتقبّلها من خارج وجوده ، وقليل أولئك الذين يتمكنون من أن يقاوموا نفوذ آثار المحيط فيهم ويسبحون في مواجهة أمواجها .

يقول (مان) في أصول علم النفس :

« إنّ لآثار المحيط في بناء شخصية أفراد البشر أهمية كبرى ؛ فلو كان أحدنا مولوداً بين قبيلة من قبائل الأسكيمو ، لكانت له شخصية متمايزة كل التمايز عمّا له اليوم من شخصية ، ولم نكن نختلف عمّا نحن عليه اليوم في الملبس والمسكن والمنطق والمطعم ، بل كانت تصوّراتنا عن أنفسنا وعن العالم حولنا وعن موقعنا في هذا العالم ، تصوّرات أخرى مختلفة تماماً .

وقد أكّد علماء النفس على أهميّة الأطر الثقافية والاجتماعية في تكوين الشخصية ؛ ليست علاقة الفرد بثقافة أخرى ومجتمع آخر كانت تصنع منه شخصية أخرى فحسب ، بل حتى أن يكون الفرد من أهل أية ناحية من بلاده ، ومترعرعاً في أية أسرة ، وأن يكون أبواه معه أو منفصلين عنه وكيف يعيشان ، وأية مدرسة كانت تربيته ، وأيّ نوع من أترابه كانوا يعاشرونه ، وماذا رأى وماذا سمع . . لكل هذه الأمور أثر يعتدّ به في بناء شخصيّته . إنّ أثر العوامل

الاجتماعية في تكوين الطفل تبدأ منذ ميلاده ، ويستمر هذا الأثر ما دام حيّاً »[1] .

هناك نشاطات غريزية كثيرة يمكن تربيتها وفق مقتضيات المحيط وأوضاعه ، ومن أجل تصعيد النشاط المولّد فيها علينا قبل كل شيء أن نحاول إصلاح تلك الأوضاع ، التي تحرّك هذه النشاطات الذاتية أو توهنها وتضعفها . ومن أجل أن نجد طريق النفوذ التربوي في العادات علينا أن نحلّل جيّداً آثار أيّ عمل بشري فنفهم : كيف يمكننا أن نزيد في رغبة أو نحدّ من حدّتها وقوّتها واتّساعها ؟ .

إنّ دور الطفولة الأولى هو أهم أزمنة تقولب الإنسان من حيث النموّ العاطفي ، ومن أجل تشكيل المجتمع الأفضل المطلوب ، فالتربية الأولى للطفل من خلال أبيه وأمّه أو سائر الأفراد القريبين إليه ، يقولب له قالبه ، ولمقال وأفعال المربّين الأثر القطعي في تعيين خط سيره وأسلوب حياته ، وهي التي تفتح فيه طاقاته الأولى وتنمّي شخصيته . وأيضاً فإنّ أخطاءهم في أساليب التربية تحطّم شخصية الأطفال وتميت ما فيهم من استعداد .

كما أنّ الفسيل الذي يخرج رأسه لتوّه من التربة يستطيع الإنسان أن يميل به بكل بساطة إلى أي ناحية أرادها ، وأن يجعل نموّه ورشده على أيّة حالة هو يريدها .

وكما يكون جمال الشجرة منوطاً على ما يوليها صاحبها من العناية بها في صغرها . . كذلك بإمكاننا أن نعينّ اتجاه شخصية كل إنسان منذ أدوار حياته الأولى ، وأن نجعلها شخصية إيجابية من خلال تكييف الأوضاع والمقتضيات . حتى إننا إذا عرفنا وضع أسرة ما وموقعية طفل في أسرته ، كان بإمكاننا أن نرسم صورة متكاملة نسبيّاً عن شخصية الطفل وكيفية ردود الفعل لديه في مواجهة

---

(١) بالفارسية : أصول روانشناسى : ١٥٦ ، ١٥٧ .

حوادث الحياة غير المؤاتية له ، ولنا أن نبحث عن العلّة في عدم تقدم فرد أو مجتمع في الحياة ، نبحث عمّا في شخصيّته من نقص وعوز .

إنّ الذين يحيطون بما يعتلج في نفوسهم من انفعالات نفسية في نشاطاتهم وأعمالهم ، سيزدادون إحساساً باستقلاليّتهم واعتماداً على أنفسهم وثقة أكثر بشخصيّتهم ، وفي النتيجة يصبحون أكثر إنتاجاً من أولئك الذين يقصّرون في توقّعاتهم على خارج كيانهم ، فإنّ قصر النظر على الخارج من كيان النفس يقصر بالإنسان عن أن يدرس نفسه جيّداً .

إنّ لحالة التفكير والملاحظة الدقيقة دوراً مؤثّراً في توسعة الذهن وانفتاح العقل ، ويرفع من قيمة الشخصية ، وبإمكانها أن تزيّن الشخصية في المجتمع بالفضل والكمال .

وحينما يتابع السطحيّون محاولاتهم لإرضاء شهواتهم النفسية الباطلة ، ويتوسّلون بأمور مختلفة لقضاء حاجاتهم ، نرى أصحاب الهمم العالية تزيد رغبتهم في الإفادة من اللّذات المعنوية ، وذلك لاستنادهم إلى عقول راجحة فيهم . ولهذا نقول : إنّ الذين يتمتّعون بقوة التفكير وعقل فعّال ، وهم يزاولون أفكارهم العالية في كل فرصة مؤاتية ، هم أقرب إلى السعادة لا محالة .

يقول (شوبن هاور) :

« إنّ من أهم العوامل في سعادة الإنسان : طبيعة هادئة ، ورؤية متفائلة ، وقوة واقتدار .

بإمكان العاقل وهو في حالة عزلة تامة ، أن يوفّر لنفسه أحلى ساعات حياته بمساعدة أفكاره وتصوراته ، بينما الجاهل مهما غيّر في برامج سفراته السياحية وتحمّل لذلك أفدح التكاليف ، فإنّه لا يستطيع الانفلات من الكسل الذي يؤذي روحه وجسمه . والرجل المتفائل الحليم بإمكانه أن يقضي حياته حين فقره بقناعة وأناة ، بينما الحريص حتى لو حصل على ثروة الدنيا والآخرة فإنّه لا يزال في مَلَل وعدم قناعة .

إنّ صاحب العقل السليم والفكر القوي يحرز ويحذر من هذه اللّذات المادية الفانية ، التي ينتحر بعض الناس للوصول إليها . كما قال (**سقراط**) وهو يشاهد معرضاً للمجوهرات الكمالية الجميلة : كم يوجد في هذا العالم من أشياء لا حاجة للإنسان إليها .

ولهذا نقول : إنّ أهم عامل يؤثّر في سعادة الإنسان هي شخصيّته الذاتيّة »[1] .

لا ينبغي أن نرى الشخصية ذات بعد واحد فنجعل بعده ذلك ملاكاً ومقياساً وشاخصاً للتقييم ؛ فإنّ هذا التصوّر الخاطىء يسبّب اضطراباً في التقييم وبعداً عن الواقع فيه .

كثير من الذين يصابون بنقيصة في شخصيّتهم يغفلون عن القدرة العجيبة فيها على جبران ما نقص منها في سائر أبعادها وجوانبها ، بل لا يفرّقون بين أن تنقص إحدى جوانب شخصيتهم أو فقدانها نهائياً ، وبذلك يصابون بألم نفسي شديد ، وقد تؤدّي هذه الحالة بهم إلى مفاسد ومخاطر لا تُجبر .

هناك أناس يتمتّعون بذهن وقّاد ولكنهم في نفس الوقت يعانون من نقص في القيام ببعض الأفعال ، وهذا يوجب اختلالاً في نشاطهم وتقدّمهم . وقد يحملون بعض عوزهم النفسي على سوء الحظّ ، ومن هذا الطريق يحاولون أن يلقوا مسؤولية عوزهم على سائر العوامل ، ولهذا فهم لا يزالون يحملون ثقل هذا الأعواز والضعف في طول عمرهم ، بينما كان بإمكانهم أن يجبروا ما فيهم من عوز نفسي بصرف قليل من قواهم وإرادتهم الجادّة .

أنتم مهما سترتم ما فيكم من نقص ، وكلما سمحتم للأفكار الضارة أن تَشْغَل ذاكرتكم ، كنتم قد ساعدتم هذه النقائص على البقاء . إنّ للموفّقية في أعمال الإنسان علاقة عضوية بقراراته هو ، فإنّ إمكانيّة تربية النفس إمكانية غير

---

(١) بالفارسية : أفكار شوبن هاور ٥٢ .

محدودة ونتائجها نتائج إيجابية عالية . والمهمّ في الفكر أنّ الفرد أيّ نوع من الإنسان يريد أن يكون ؟ وهذه الحقيقة تتجلّى في الذهن حين اتّخاذ القرارات الحيويّة بشأن اختيار خطّ سير خاصّ في الحياة بين خطوط كثيرة تبدو له .

وإنّ بين الغرائز تجاذباً ونزاعاً شديداً ، فغريزة تسوقنا إلى هدف من طريق ، وغريزة أخرى تجرّنا إلى طريق يخالف تلك الطريقة السابقة ، والمهم على الفكر أن يجد جامعاً مشتركاً بين الطرق المختلفة . وكذلك علينا أن نعينّ ما يترتّب على بعض هذه الميول من نجاح وموفّقيّة .

وهكذا علينا أن نلتفت إلى أنّه لا يوجد هناك شخصية متكاملة وراء أفعال الشخص وسلوكه ونشاطاته ، بل إنّما تتركّب الشخصية من أساليب السلوك والعادات المعقّدة وغير الثابتة ، التي قد انسجم بالتدريج بعضها مع بعض . وكلّما ابتلينا بمجاذبة في الذهن حاول الفكر أن يقرر بين عوامل الاختلاف نوعاً من التعادل والتوازن وبذلك ينقذ نفسه من شرّ تلك المجاذبة والنزاع . وللوصول إلى هذا الهدف قد يُصلح بين الميول المختلفة ، ولا أقل من أن يوجد في الإنسان نوعاً من الطمأنينة والرضا المؤقّت .

كما أنّه عند ظهور أقل خلل في الجسم تقوم ردود الفعل الطبيعية بوظيفة إيجاد المعادلة فيه بصورة تلقائية ، كذلك يقوم الفكر بما أوتي من حول وقوة ووسيلة لحلّ المسائل المعقّدة ودرء الأخطار عن نفسه . فبعض هذه الأساليب التي يقوم بها لإيجاد التعادل والطمأنينة في الذهن القلق والمضطرب تكون أساليب معقولة ومرضية ، وبعضُها الآخر ضارّاً وغير معقول .

أما علماء النفس فإنّهم يقومون بتحليل خاصّ بهذا الصدّد فيقولون :

« من الطرق لدرء الخطر هو أن نواجه المنازعات الذهنية وعواقبها بمنتهى الشهامة والصراحة ، فنقلّل من شدّة هذه المجاذبة وما تستدعيه بعض العقد النفسية ، ونقرّر بينها صلحاً بحيث يكون بإمكانها أن تدخل في قبول الضمير بلا مزاحمة .

ولكننا غالباً لا نستطيع أن نجد طريق حلّ مثاليّ لرفع هذه المنازعات الذهنية ، فنتوسّل بوسائل اضطرارية كالتراجع ، والإنطوائية وضدّها ، وخداع النفس .

وقد لا يعلم الشخص بما في ذهنه من نزاع وتجاذب أو لا يلتفت إليهما، وفي هذه الصورة يحدث للشخص نوع خاص من الأخلاق والسلوك لا يتناسب وشخصيّته الحقيقية ، وهو لا يعلم بدوام هذه الدوّامة في نفسه ، وفي النتيجة يقوم الضمير بالسير في إتّجاهين منفصلين لا انسجام بينهما ، فيصبح الشخص مزدوج الشخصية ـ أو قل منافقاً ـ في نظر الآخرين ! فالأفكار والأطروحات والتصاميم والميول تكون عنده مختلفة ومضطربة غير ثابتة دائماً .

هؤلاء الذين لهم شخصيّتان مختلفتان : فهم في الظاهر شيء وفي الباطن يقومون بأعمال قد لا يصدّقها الإنسان ، هؤلاء ، من هذه الطبقة .

فالسياسيّ الذي يدافع دائماً عن العمّال والكادحين صارخاً : « علينا أن نقوم بإغاثة هؤلاء الكادحين » فإذا بلغ غايته أقدم على ما يعقّد حياة هؤلاء العمّال ألف ضعف ، هؤلاء من هذه الطبقة التي لها تفكيران بل لها شخصيّتان متضادتان كلياً »[1] .

أصالة العامل النفسي في التربية

إنّ جميع المدارس الفلسفية والفكرية في العالم يرون أنّ التربية أهمّ وأسمى موضوع في قوام المجتمع الإنساني ، وليس لأحد أن يغضّ النظر عن دور التربية الأساسي في الحياة الأفضل لأفراد البشر . والمهم هو تحديد المعنى الواقعي والحقيقي للتربية ، وضوابط التربية وأصولها التي تعدّ موازين لتقييم الشخصية المعنوية للأفراد ، والتي بتنفيذها يهتدي الإنسان إلى الحياة الحرة والسعيدة .

(١) بالفارسية : روانشناسي براي همه : ٢٠٩ .

وحيث أنّ عنصري الروح والبدن يشتركان في وجود كيان الإنسان ، فنحن بصدد أنّ التربية بحاجة إلى عامل تربويّ تنمويّ يُوفّق بين ميول الجسم والروح معاً .

وبالقياس بين نظامي التربية : أعني النظام الدينيّ والنظام الوضعي البشريّ ، نستطيع أن ندرك جيداً أصالة وأولوية النظام الدينيّ ، فإنّ الدافع الديني دافع فطري يتكون في طينة الإنسان من قبل أن يصبح أسيراً في قيود الضلال والظلام .

إنّ العوامل الخارجية إن لم تحدث سدوداً وموانع في طريق الميول الفطرية ، كانت أشعتها تسطع على ضمير الإنسان وقلبه في أوّل وهلة ، وكان بذلك يوفّق بين نفسه وإرادته الذاتية الباطنية . وكلما ازداد إحساس الإنسان بهذه القوة الباطنية إنقاد إلى إطاعة أوامرها أفضل وأحسن .

ومن ناحية أخرى ، فإنّ الفلاسفة لا يستطيعون أن يصلوا إلى وحدة نظر في تهذيب نفوس البشر على أساس أسلوب فلسفي موحّد ، بما لهم من اختلاف في إدراكاتهم عن الكون والحياة والإنسان ، وعلى افتراض ظهور اتفاق لهم في وجهات نظرهم في الموضوع ، فإنّه ليس بالإمكان أن نجعل ذلك سبيلاً للوصول إلى تهذيب نفوس جميع البشر بعامّتهم غير القادرين على إدراك المواضيع والمفاهيم الفلسفية المعقّدة والمبهمة ، بينما القوة الأخلاقية الرادعة يجب أن تكون نابعة من عمق باطن الإنسان ، ليقوم بالإجابة المناسبة لكل ميوله الفطرية . أمّا الأوامر الأخلاقية الفلسفية التي هي وضعية بشرية ، فإنّها غير قادرة على أن تجد طريقاً إلى الحقيقة المنطوية في ذات الإنسان ، فهي لا تكفي لإصلاحه وإسعاده . وهم حتى لو تحمّلوا تلك القرارات فإنّما يتحمّلونها كعَبْءٍ ثقيل على كواهلهم في الظاهر وبكل كراهية في الباطن .

بناءً على ذلك ، فمن أجل أن يصل الإنسان إلى ما يرجوه من نتائج من مساعيه التربويّة ، علينا أن نعترف بتفوّق النظام التربوي الدّيني والدافع الديني

الـذي ينبعث من عمق باطن الإنسـان ووجدانـه ، والـذي هـو حقيقـة خـالـدة متمركزة في طينته وخميرته ، فهو متفوّق بذاته على كل الأساليب الأخـرى في مجال تربية النفس . وهكذا علينا أن نختاره على جميع ما عداه .

لهذه الحقيقة كان أن اعترف البشر ـ قبل أن يصبح أسيراً في مخالب المادية اعترف بهيمنة سلطته عليه ، واعتقد بتكاليفه الأصيلة في الحياة والتزم بها بشدة ، وأدركت الأرواح الطاهرة لذّة إطاعته واتّباع أوامـره ، بل وصـارت قلوبهم متيّمة بحبّه هائمة فيه .

والخلاصة : إنّ هـذه الطريقـة هي طريقـة الوحي والـرسالـة ، التي تسير بفـطرة الإنسان في مسـارِه الواقعي ، والتي يمكنهـا الإجـابـة عـلى جميـع جهـاتـه الذاتية ، والتي لا هدف لها سوى تنظيم طبيعته وإرشاده إلى جهة سعادته الخالدة والأبدية . وإذا أصبح هذا العامل الدينيّ أساساً للتربية كان بإمكـان كل إنسـان أن يتقدم في طريق الكمال مصوناً في ظلّه عن أيّ انحراف أو انجراف .

إنّ نـظرةً إلى هذه الحيـاة التقنية ، والتي هي ظـاهرة هـذا العصر الحـاضر التائه ، توضّح لنا هذه الحقيقة ، وهي : إنّ الإنسان مع ما توصّل إليه من تقدم ملفت للنظر في مجال العلوم العقلية والصناعية ، وما توفّق إليه في طريق اكتشاف أسرار الـطبيعة وحـلّ معضلات الحيـاة الماديـة ، مع ذلـك فإنّـه قد سلك سبيـل الإنحطاط في معرفـة نفسه ، فلم ينقـذ مهد تـربيته ونمـوّه ـ أي هذا العـالم ـ من الدّمار والشقاء ، بل أصبحت نفس هـذه المعارف والعلوم المختلفـة وسائـل دمار لتخريب الأوضاع والإخلال بالنظام ، وقد أسرت روح البشر في سـاحة حضـارة خادعة في حصار جاهلية عميقة .

إنّ العـالَم الغربيّ جعـل الإنسان ـ في تصنيعـه ـ وسيلة ، وجعل الـوسائـل أهدافاً ، وبنى المجتمعـات على أسـاس النزاع الفـرديّ أو الطبقيّ ، ولا ريب في أنّ كـلا هذين النـوعين من النـظام الاجتماعي لا يليقـان بالإنسـان ، ولا يكـون الإنسان إنساناً حتى يحلّ ما بينه وبين الحضارة من تناقض .

كتب (أريش فروم) يقول :

« إنّ هذه العلاقات القائمة اليوم ليست علاقات إنسانية ، بل هي علاقات بين أجزاء من الوجود . وتظهر أكثر صور هذا الوضع تخريباً في علاقة الشخص بنفسه ، فالإنسان اليوم لا يبيع البضائع فقط بل يبيع حتى نفسه ، فهو يُحسّ بنفسه وكأنّه بضاعة ! .

إنّ الذي يأكل من كدّ يمينه يبيع من قواه الجسديّة ، أمّا التجّار والأطباء والموظّفون أصحاب الياقات البيضاء فإنّهم يبيعون من « شخصيّتهم » إنّهم لبيع خدماتهم ومحاصيلهم لا بدّ لهم من شخصية مرغوب فيها تتمتّع بالقوة والابتكار . والذي يقدّر قيمة هذه الصفات ويعينّ الحاجة إليها إنّما هو السوق ، فإن لم ينتفع من الصفات التي يعرضها الإنسان فكأنّه يتصف بصفة أساساً ؛ تماماً كما أنّ البضاعة إذا كانت غير مرغوب فيها للبيع قيل فيها : إنّها لا قيمة لها حتى ولو كان ينتفع بها ، وبكلمة نقول : إنّه لا يمكن تقييم أيّ فردٍ ما من دون أن نحسب له الموفّقية والمحبوبية في السوق »[1] .

تكامل الشخصية في النظام الإسلامي

لكل موجود شخصية تخصّه ، ولا يمكن تصوّر أيّ شيء بدون أن نقدّر له شخصيّته ، وإنّما تتعلق الأحكام بالموجود المتشخّص بشخصيته . أضف إلى ذلك إنّ كمال كل شيء ظاهراً وباطناً إنّما يتحقّق فيها إذا كان يتمتّع بشخصية حسيّة ومعنوية .

أمّا الشخصية الحسيّة لأفراد الإنسان فأمر معلوم ، وأمّا الشخصية المعنوية لهم فهي تابعة للآثار الإنسانية وكمالاتها الروحية ، لكيلا ينحصر وجودهم في حصار شخصيّتهم المحسوسة ، وكما ينطبق هذا الواقع على الأفراد كذلك

---

(١) بالفارسية : گرميزاز آزادى : ١٢٩ .

يصدق هذا بشأن الأمم والأقوام المختلفة ، بما لهم من خصائص ، في كل مناطق الأرض .

وترتبط الشخصيّة المعنوية لمختلف المجتمعات بمستوى إدراكهم للحقائق وأساليب سلوكهم في الحياة ، وما يتّخذونه من طرق العيش فيها .

ولنموّ الشخصية علينا أن نلحظ جميع الجوانب ومختلف المزايا الإنسانية ، وأن نلتفت إلى جميع أبعاد الشخصية بعين واحدة ، كي يتحقّق فيها التوازن النسبي كأمر ضروري لنموّ الشخصيّة وتعادلها ، ولتصبح الشخصية متوازنة منسجمة .

أمّا الإسلام فقد اهتمّ بمجموعة الخصائص البشرية التي أودعت فيه بالفطرة ، وينظر الإسلام إليه وهو يلاحظ جميع قواه المحرّكة له ، ومع ما له من المعرفة التامّة بطاقاته واستعداداته التي مُنحت له . وقد أدّاها حقوقها بما قرّر لها من إرشاد وهداية وتعديل ، لا يقمع فيه استعداداً مما قد يؤدّي إلى تقليل في قيمته الواقعية ، ولا يولي أحدها اعتباراً أكثر مما هي عليه بلا داع ، بل يلاحظ حدود كل واحدة منها لصلاح حال الإنسان في إفادته منها ،كي تنمو فيها شخصيته على أحسن وجه ممكن .

وإنّ روح الإنسان ونفسه ، ككُل شيء آخر في الحياة ، في حال نموّ وتوسّع بدورهاوتحت أوامر فطرته الطبيعية ، وكلما يخطو بالإنسان خطوة ينمو أكثر فأكثر .

فالإنسان في أوان الطفولة يكون متوسّعاً في الخيال ، وتكون هرموناته قاصرة ، ولذلك فهو أقرب إلى عالم الحسّ من عالم المعنى ، ولكنّه تدريجيّاً يتّجه من السّذاجة إلى التعقيد ، فيرفع يده عن الأمور الساذجة ويبدأ بأعمال كبيرة وواسعة نسبيّاً ، ويخلط الخيال بالواقع ويقترب من التعقّل والتفكير ، وهو في نتيجة هذه الحركة يزداد نضجاً وبناءً آناً فآناً .

هذا النموّ المطرد إن لم يقع في مدار الهداية الملكوتية الإلّهية فلا يتغذّى منها جيّداً ، فإنّه سيتّجه إلى السقم والضعف وحينئذٍ يكون بحاجة إلى العلاج ، فكما

أنّ في فطرة البشر استعداداً للصعود كذلك فيها استعداد للسقوط أيضاً، وكلاهما فطريّان وأصيلان فيه ، أي لم يُحمل عليه أيّ منهما من خارج نفسه ، والفطرة لا تتغيّر فيه في أيّ اتّجاهها المتقابلين ، وبرغم ما يطرأ عليها من تغيير في الصور والأشكال .

إنّ الهداية الإسلامية أسمى وأقوم هداية له إلى كماله ونموّ شخصيّته وسموّ فطرته ، وخير تعبئة لعناصر الوجود الإنساني ، على ما لخلقته الطبيعية من أسلوب ونظام .

إنّ النموّ الواقعي للشخصية في نظر الإسلام إنّما هو في هدايته إلى الحق والحقيقة وإتصاله بجلال الحق سبحانه وجماله . وإنّ الذي يتغذّى جيّداً من أصول الإسلام سيطرد كل ثناء باطل عليه يؤدّي إلى ضلاله . وكذلك يرفض عبودية الإنسان للإنسان ، أو عبوديته لشهواته الدنيئة وأهوائه أو سائر قوى العالم .

في إطار هذا الهدف يجب أن تنمو شخصية الإنسان ويرقى شعوره وإدراكه ، فإنّ الذي علّمه طريق هذا الرقيّ هو الذي خلقه ، ذلك الخالق العالم بطينته وحاجاته في الحياة .

على كل فرد أن يعرف فلسفة وجوده ، وموقع الإنسان في هذا الوجود ، كي يصل بهذه المعرفة إلى دور الإنسان وحدود مسؤوليّاته وعلاقاته بعالم الوجود .

طبيعي يجب أن تعقب هذه المعرفة الحركة ، أي يجب أن تتبدل المعرفة فيه إلى قوة محرّكة ومتقدّمة ، كي ينبعث باطن الإنسان لتحقيق هدف الوجود الإنساني فيه ، كما هو مقدّر ومقرّر في أطروحة السماء ، فيصل بذلك إلى حياة عالية خالدة تساوي مستواه الأصلي الرفيع وهي تلك الطينة الإلهية في الإنسان.

لقد جاء الإسلام ليصنع أمّة لوحدها ، تحمل راية الدين والنظام الإلهي في الأرض ، وتقود البشرية وتنقذها عن الطرائق والمدارس الضالة التي تؤدّي به

إلى الهلاك ، وذلك بما يحمل من رؤية كونية صحيحة هي أكبر وسيلة لتقدم الإنسانية .

رؤية كونية منسجمة ومتلائمة مع جميع أركان الشخصية أي العلم والمعرفة والفكر والإحساس ، وسائر عناصر الإدراك والوجود الإنساني ، ليوجد في حياة البشرية نماذج قيمة لا مثيل لها ، سواء من حيث الفكر والروح أو الحركة والعمل .

والإسلام يذكّر الإنسان بأنّ إشباع النفس بشهواتها يجعل الروح في غطاء من الغيوم السوداء ، وستختفي بذلك نورانيّتها ـ وهي ما يقودُه فيها إلى الكمال الإنساني ـ في خضم هذه الغيوم المظلمة .

فمن أجل أن يبني الإنسان أساس شؤونه الواقعيّة يجب أن تُزاح هذه الغيوم ، لكي يتمكّن من أن يشخّص تلك القيم الواقعية والحقيقية المفيدة بصورة صحيحة ، وأن ينظر إلى الحياة نظرة إيجابية ، ويحقق الغايات من دوافع التكامل في كيانه في خطّ تربويّ صحيح .

وبكلمة ، فإنّ الإسلام يصنع إنساناً ذا بُعدين : بُعدٌ ـ أو جانب ـ فيزيقي يفيد به مما يجده في ساحة الأرض والطبيعة . وبُعدٌ ـ أو جانب ـ آخر أبديٌ هو البعد المعنوي ، وهو الذي يمتدّ به في الحياة الخالدة التي لا موت فيها . ويذكّره الإسلام أنّ في جثمانه هذا الترابيّ المادّي نوراً أو نفخة إلٰهيّة أو ناراً مقدسة تتأجّج وتستطيع أن تبلغ به إلى مقام الخلافة الإلٰهية العالية .

أثر العقل والإيمان في بناء الإنسان

إنّ الإسلام يرى للقوة العقلية أصالة في بناء كيان الإنسان ، ويؤكّد على اتّباعها في السلوك العملي والتفكير الحرّ في هذه الطرق الضيّقة في الحياة ، كي يكتسب الإنسان نوراً من قوة إدراكه ، فيحقق به الإنسانية في وجوده ومجتمعه .

وفي نفس الوقت لا يعتمد الإسلام على هذا العنصر الأصيل اعتماداً كليّاً

مبالغاً فيه ، ولا يراه كافياً لإطفاء نار الغرائز .

ويجب أن يكون دور العقل في تحوّلات الحياة بعيداً عن الجمود ، قادراً على أن يصعد بالإنسان من مستوى الحياة الحيوانية إلى ما فوق سلطة الأهواء وحكومة الغرائز .

ولا يتلخّص التمايز بين الإنسان وسائر المخلوقات في إدراكه العقلي والحسيّ فحسب . بل هو يتفوّق على سائر الحيوانات بإيمانه وإدراكه الخاصّ به . ولهذا فهو مسؤول في نظام الخلقة ، وعليه أن يُجري إيمانه وإدراكه الخاصّ في اضطرابات الحياة وفي كل سلوكه وأعماله الفردية والاجتماعية ، على مستوى شؤونه الإنسانية .

إنّ الإنسان لسعادته وفلاحه بحاجة إلى عامل معنوي به يستطيع أن يحصل على رؤية واضحة ، وذلك العامل الذي يمنحه الوضوح في الرؤية هو بصيرته بالنسبة إلى قدس الله سبحانه ، التي هي الوسيلة الوحيدة لإزاحة ستائر الغفلة والإنحرافات عن أعين النفس ، والتي تدفع بالإنسان إلى مستوى الإنبعاث المعنوي .

للإيمان بالله قيمة ذاتية في حياة الإنسان ، وله آثار إيجابية وافرة ، وهو منبع الحرية الفردية والرقيّ الإنساني ، وله دور حسّاس في تطور الشخصية الإنسانية .

وحينما تبدو آثار الإيمان بالله في جميع شؤون الحياة ، فإنّها تحدّ من ضغط الغرائز الحيوانية بصورة قطعية ، وتنقذ الإنسان من المخالب المهولة للنفس الأمّارة ؛ فإنّ نتائج الإيمان بالربّ تقود إلى الثبات والصبر والمقاومة في مواجهة اللذائذ المادية الفانية ، وتقود إلى انبساط النفس . في حين أنّ الإعراض عن الله والمعنوية ، والاتّجاه إلى اللذّات ، يستتبع الجمود العاطفيّ وهبوط الشخصية المعنوية ، ويهبط بالبشر عن المرتبة السامية للفضيلة والإنسانية ، إلى المرحلة الدانية من الغفلة والوحشية .

أمّا الأنظمة التربوية التي هي من صنع أفكار الإنسان وصياغته ، فليس لها تلك القدرة الكافية على أن تحدّ من غلواء النفس والحرص البشريّ العاتي ، إذ إنّ النظام التربوي والعلمي الحديث إنّما يستلهم من قوتي العقل والعلم ، من دون الإيمان بالله تعالى .

ويقول الفيزيائي الألمانيّ المعروف (ماكس بلانك) :

« إنّ الإنسان من أجل حياته اليومية بحاجة إلى أصول ضرورية ، هي أكثر ضرورة له من عطشه إلى المعرفة العلمية ، ولا بدّ أن تقع تلك الأصول تحت تصرّف الإنسان ، ناشئة من منشأ هداية أخرى سوى الجهاز العقلي فيه .

يجب أن يترك العقل مجالاً لقانون الأخلاق ، وكذلك المعرفة العلمية تترك مجالاً للعقيدة الدينية »[1] .

وعلى هذا فما لم تسطع أنوار الهداية في آفاق الأرض ، ولم تحيى القلوب بنموّ الدوافع الدينية ، فإنّ الأصول والأسس الوضعية البشرية لا تستطيع أن تحدث في المجتمع الإنساني حالة قوية ليتصف بالخصال السامية ، وليتحمّل ثقل الحضارة والمسؤوليات الكبيرة .

ونلاحظ أنّ الإسلام لم يأمر أتباعه بالإبتعاد عن اللذائذ المشروعة التي خلقها الله لعباده ، أبداً .

أجل ، إنّ القرآن الكريم يقول من ناحية : إنّ الإنغماس في أمواج الأهواء العاتية والغطّ في نوم الغفلة عن واقعيات الحياة ، والتفكير المحدود بالمادة فقط ليس مما يناسب ساحة الإنسانية السامية : ﴿ **زُيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المئاب** ﴾[2] .

---

(١) بالفارسية : علم به كجا ميرود : ٢٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣ .

ولكنّه من ناحية أخرى لا ينفي أثر المادّة في حياة الإنسان ولا يراها غير مقبولة أي لا يراها مرفوضة بالكليّة ، بل يرفض الإنطوائية السلبية والحرمان من اللذائذ المشروعة : ﴿ **قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟! قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] .

والاستسلام أمام اللذائذ المادية الفانية يعني تذليل العقول وجعل المادّة أصلاً في الحياة . إنّ زينة متاع الدنيا إنّما تخيّم على قلوب أهل الخُواء والضلال من غير ذوي الإرادة الجدّية ، فتحول دون إشعاع الأنوار الإلّهية فيها ، وبذلك تبقى محرومة عن الأفكار البنّاءة من حيث لا تشعر .

وبناءً على هذا ، فإنّ الإسلام يمنح الإنسان الشخصية السليمة ، وقوة الفكر ، والثبات على القيم السامية ، لكي يؤدّي الإنسان دوره الأساس في بناء نفسه ومجتمعه بصورة صحيحة ، ولكي يتحرّر من أسار الأهواء من دون أن يحرم من اللذائذ المادية .

إنّ الإنسان الذي يعرّفه الإسلام نموذجاً كاملاً للتربية التامة ، إنّما هو عنصر متفكر إيجابيّ فعّال ومهذّب ، إنّه إنسان يُرى فيه الإعتدال والإنسجام في إدراكه وأفكاره وسلوكه ، وفي كل جوانب حياته . وإنّ روحه الحرة والمربّاة جيّداً تقيم فيه توازناً لا يتمكن به الإنسان من أن يمتنع عن الإنغماس في عالم المادة والتمتّعات الأرضية في سبيل أهدافه المقدسة فحسب ، بل يقدر به على أن ينتشل نفسه من ثقل التربة فيصعد بها إلى أوج الرقيّ والكمال .

وإنّ أولى مراحل الرّقيّ إلى الكمالات والفضائل الإنسانية في تعاليم الإسلام هي تزكية النفس ، وقد ذكرت في القرآن الكريم كمقدمة لتعليم الإنسان وحصوله على المعارف العلمية :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

﴿ هـو الـذي بعث في الأميّـين رسـولاً منهم يتلو عليهم آيـاتـه ويـزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[1] .

وإنّ هـذا الأصل الأسـاس « تزكيـة النفس » لهو مقيـاس تُقاس بـه حقيقة الإنسـان ، ولا قيمة في الإسـلام لمقياس العلم والقـدرة المـاديـة لقيـاس حقيقـة الإنسـانية ، إذ هو مقياس لجانب واحد أو جانبين من حقيقـة الإنسان ، فهـو غير جامع لجوانبه وأبعاده ، وكلما تطرّق الخطأ إلى المقاييس كانت النتائج خاطئة وغير صحيحة بنفس النسبة .

نعم ، إنّ العلم من مميّـزات الإنسـان ، وهـو من نتـائجـه ومحـاصيله الأصيلة ، وأسس الحياة تبتنى على أساس العلوم أيضاً . ولكنّ الإنسـان لو كـان غنيّاً في جانب إنسانيته الأصيلة التي تصعـد به من عـالم المادة إلى العـالم الأعلى ؛ كان قادراً على ترميم ما له من عـوز من العلوم والمعارف بكل سهولة ويُسر . في حين أنّه لا يقدر على ترميم ما فيه من عـوز في إنسانيته بواسطة العلم فقط .

نعم ، لو تسامى الإنسان بمقياس الإنسـانية وعن طـريق تهذيب النفس ، وأفـاد إلى جانب ذلـك من العلم ، فقد استـطاع أن يـرقى ويتكـامـل من جميـع الجهات .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في قيمة تهذيب النفس وكسب الفضائل الأخلاقية :

« لو كنّا لا نـرجو جَنّـة ولا نخشى ناراً ولا ثـواباً ولا عقـاباً ، لكـان

---

(١) سورة الجمعة : الآيـة ٢ من الشائـع أنّهم يستنبطون من تقـدم التزكيـة في لفظ الآيـة عـلى تعليم الكتـاب والحكمة : أن الـتزكيـة مقـدمـة للتعليم ، وقـد تكـررت الآيـة هكـذا في ١٦٤ من آل عمران ، ولكنها في ١٢٩ من سـورة البقرة جـاءت : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمـة ويزكّيهم ﴾ وفي سورة الجمعة وآل عمران تقدم تلاوة الكتاب على التزكية ، ففي الاستنباط ما ترى بل الأولى أن نفهم التزكية غاية لتلاوة الكتاب ، وتلاوة الكتاب مقدمة للتزكية والتعليم ـ المترجم .

ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق ، فإنّها ممّا تدلّ على سبيل النجاح »[1] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً يقول :

« غالِب الشهوة قبل قوّة ضراوتها ، فإنّها إن قويت ملكتْك واستقادتْك ولم تقدر على مقاومتها »[2] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« عبد الشهوة أذلّ من عبد الرّق »[3] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من غلب شهوته صان قدْره »[4] .

ويقول (ويل دورانت) :

« إنّ دوافعنا ودواعينا كالرياح التي تنفع لدفع السفُن ، ولكن علينا أن لا نترك شراع السفينة لحالها ، وإلاّ جرّتنا معها كالأسرى والأرّقاء ، إنّ كل واحد منّا قد رأى في عمره أناساً أسارى في قيود الحرص أو الشهوة أو الغضب . إنّ الحرية التامة لكل واحدة من هذه الصفات هي أساس الفساد في أخلاق الإنسان . أظنّكم سمعتم قصة أبناء كورش ـ الملك الفارسي الهخامنئي ـ الذين كانت المرضعة والمربيّة لكل واحد منهم قد تركتهم بكل حرية ليفعلوا ما يشاؤون ، وكان بالتالي أن خرج كلهم فاسدين عاجزين .

إذن ؛ فتحكيم المعرفة على الميول والرغبات هو جوهر العقل وأساس ضبط النفس ، والتحكّم في النفس لهو أهمّ شيء لبناء الأخلاق »[5] .

---

(١) آداب النفس ١ : ٢٦ .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٤٩٨ ـ ٥١٠ .

(٤) مستدرك الوسائل ٢ : ٢٨٧ .

(٥) بالفارسية : لذات فلسفة : ٢٢٨ .

إنّ محـور الأعمـال ومـركـز المسؤوليـة في النـظام الـتربـوي الإسـلامي لهـو الإرادة ؛ لقد أُوتي الإنسان حريّة في تفكـيره وتنفيذه ، وهـو يرفـع رأسه فخـوراً بهذه المزيّة ، وذلك من أجل أن يجعل نشاطه ـ الذي هو الرصيد لرقيّه ـ في سبيل اكتساب الإنسانية الواقعية .

إنّ الإنسان وإن لم يكن متحرراً من الغرائز التي تحرّكه من الـداخل ، إلاّ أنّ له الحرية التامة في اختيار كيفية إجابتها أو استجابتها، وبالإرادة التي تسود منه على أفعالـه وحتى مشاعـره بإمكـانه أن يتـوجه إلى نشـاط فكريّ ونفسيّ سـامٍ ، فيصنع بذلك لنفسه شخصيـة ممتازة وكـريمة ، ولا يـزال كل يـوم يخطو متـواصلاً خطوات نحو السعادة الإنسانيـة والعزة الاجتـماعية في سبيـل نموّ شخصيتـه ، أو ينظّم خصائصه وفقاً للدوافع الفاسدة فيفسد شخصيّته ويضيّعها :

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« من استوى يومـاه فهو مغبـون ، ومن كان آخـر يوميـه خيرهمـا فهو مغبوط ، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون ، ومن لم ير الزيـادة في نفسه فهو إلى النقصان فالموت خير له من الحياة »[١] .

ويقول (جاكو) :

« من أجـل المنع عن حـدوث انشطار الشخصيـة وتعدّدهـا ـ الذي يـوهن فكرة التحكّم في النفس ـ علينا أن نتوسّل بتقسيم الأوقـات وتنظيمهـا بدقّة . فإنّ تنظيم الحياة وفق البرامج المعدّة من قبل يقلّل التأثّر بالدوافـع والمحرّكـات ، وهو أيضاً يجعل اللاشعور مستعداً لقبول الفكرة الناضجة .

ولهـذه الغـايـة يكفي أن نـترك الخيـال يتـأمّـل في كـل عمـل من الأعمـال المنظورة ، في أي وقت مناسب أو قبل النوم . فإنّ ذلك مما يولّد لدى عامله عادةً ثمينةً هي الانتظام .

---

(١) معاني الأخبار : ٣٤٢ .

إنّ فاقدي الإنتظام الذين لا يأملون أن يحصلوا عليه من أول يوم فجأةً سيشاهدون بداية لذلك تغيير ما اعتادوا عليه من عدم الانتظام ، وما يحصل من تقدم لهم في ذلك يأخذ بهم إلى التكامل في منحنيات مختلفة .

ولا عجب من هذا بل علينا أن نعلّم الفكر بعد دراسة المواضيع والتغيير فيها عدّة مرات سيحتلّ موقع القيادة وسيبعث على تحقق الغاية . إنّ الانتظام سيعدّ أرضيّة يزداد فيها النشاط اليوميّ ، وستكون هذه الزيادة متزامنة مع زيادة في وسائل الأعمال ، وتوسعة نطاق الإمكانات ، واكتساب المعلومات الأوسع ، وزيادة في الفرص المفيدة »[1] .

لا شك أنّ جهاد النفس الأمّارة ومشتهياتها الفاسدة في غاية الصعوبة ، وقد جعل الإسلام الإنتصار على هذه الميول النفسية من أهم علائم القدرة الإرادية في الإنسان . إنّ أكبر فخر للإنسان هو أن يبدأ برامج تربية النفس على التحكّم في الأهواء النفسية ، كي يصل إلى غاية الشخصية الواقعية .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« أقصرْ نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك ، واسعَ في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك »[2] .

ويقول الدكتور (كاريل) :

« إنّ النموّ المهمل للنفس سيبقى نموّاً ناقصاً ، فلا يصل الإنسان إلى كمال الرشد في شعوره إلّا بتدخّل إرادته . كلّ منّا يعلم أنّ نموّ الأعضاء والعضلات لا يكون إلّا عن طريق النشاط العمليّ ، ولا يمكن أن يصبح الشخص بطلاً رياضياً دون تدريب منتظم .

كذلك من أجل كمال قوة الشعور علينا أن نتحمّل المشاقّ في ذلك ؛ إنّ

---

(١) بالفارسية : تلقين بنفس : ٩٦ .

(٢) مستدرك الوسائل ٢ : ٣١٠ .

التلميذ إن لم يكن مريداً للتعلّم فإنّ أكثر الأساتذة كفاءة وقابليّة غير قادر على أن يعلّمه شيئاً . وإنّ قراءة مجموعة دراسات أخلاقية لا تجعل قارئها متّقياً ، ولا يمكن التحميل على الروح بدون إرادة جادة » .

ويقول (برغسون) : إنّ خلق الشخصية كاختيار الأخلاق إنّما يتحقق بإرادة صاحبها ، ومن أجل ذلك يجب على صاحبها أن يستنزف كل ما يحتوي الروح والجسم من قدرة وقوة وطاقة ، وأن ينظّم كيانه وحياته الداخلية بأحسن ما يُرام ، وأن يصنع في نفسه روحاً مقتدرة قوية .

أكثر ما يخرج الرجال الكبار من أسر صغيرة بل حقيرة ، وهذه حقيقة تاريخية تتحقق في تاريخ البشر كل يوم ، وكل إنسان جاهل أو عالم ، فقير أو غني ، شابّ أو شيخ ، بإمكانه إن أراد أن يؤجج ما يكمن في عمق ذاته من طاقات معنوية »[١] .

وعن علي (عليه السلام) أنّه قال :

« شر الفقر فقر النفس »[٢] .

ذلك أنّ الإنسان يصاب بالشقاء والتعاسة والبؤس من جرّاء النقائص النفسية أكثر من العوز المادّي . إنّ الروح إذا مرضت وأصيبت بالغموض والإبهام ، فإنّ الباطل والغلط سيتطرق إلى الفكر والإحساس ، وسيصاب الشخص بالأخطاء والعثرات في أفعاله وأعماله .

حينما يفتقد الإنسان بصيرة الروح والنظرة الواقعية ، فإنّه سوف يسيء الإفادة من العناصر المادية والقوى الداخلية .

إنّ الشخصية تنمو وفقاً لنظام القيم في الحياة ، وعلى هذا الأساس أيضاً تنمو فيها المزايا والصّفات. إنّ الإنسان إذا تعقّب الطهارة والفضيلة بكل ثبات

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ٦١ .

(٢) غرر الحكم : ٤٤٦ .

وقاطعية ، فإنّ أفكاره ستستعد لقبول مزايا الطهارة الروحية ، وكذلك إذا كان متتّبعاً للوث الأرجاس كان مستقبلاً مهاوي السقوط والهلاك ، ولا يمكن أن نتصوّر أن يكون الشخص متتبّعاً للأرجاس والأنجاس ولكنه مع ذلك يبقى طاهراً نزيهاً عملياً .

إنّ الإنسان لو لم يكتف من حريته بالمقدار المعقول ، ولم يحدّد مجال أعمال الدوافع الغريزية العاتية ، فإنّه يكون خاضعاً لعبودية الميول تابعاً منقاداً لها في كل حدب وصوب . وبديهي أنّ معنى ذلك هو إذلال النفس وتحقير الكرامة الإنسانية ، وهي ذلّة وحقارة تمنعها من الوصول إلى كمالها اللائق بها ، وإنّ فكره وروحه سوف لا يرقيان إلى الآفاق الأوسع والأكثر رحابة ، بل لا يميل بعد ذلك إلى الرقي عن مستوى الماديات ، حتى ولو كانت له القوّة الكافية لهذه الغاية .

إنّ الطريق الوحيد لإيجاد الموازنة والاعتدال بين عروج الروح وبين الأثقال والضغوط التي تهبط بروحه إلى الانحطاط والسقوط ، إنّما هو أن نقرّر ارتباطاً ثابتاً ودائماً بين الله والإنسان ، ومهما بعدت فكرة الله عن الإنسان اشتد الإنحراف في باطن الإنسان .

إنّ الإسلام يبذر في قلب الإنسان بذور النزاهة والتقوى ، ولا يقبل أي تفكيك بين العقيدة والعمل ، ويحاول أن يكون الإنسان في كل فكره وإدراكه يفكّر في الله مراقباً إيّاه ، بوصفه عالماً بأسرار قلبه وجميع أسراره الباطنية ، إلى جانب أنّه هو الذي يبعث فيه طلب رضا الله وحبّ الحق .

إنّ الفضائل الإنسانية ما دامت تفتقد قاعدة ثابتة ، فإنّه لا ثبات لها قطعاً ، إنّ العقيدة هي العون الطبيعي للفضائل ، والمساعد الذي ينفث فيها الحياة ويمنحها الصدق والخلوص .

وهكذا ـ وعلى أساس العقيدة ـ يُحسّ الإنسان بضرورة ثبات الطهارة والنزاهة في باطن ذاته ، دون أن يقيم الفضائل المقوّمة للشخصية الإيجابية على أساس الخيال وفي جوّ طوبائي ، بينما يكون سلوكه في مسالك أخرى ، وهو لا

يُريد أن ينفّذ المزايا الروحية في مسيرة الحياة .

إنّ من يكون لعبودية الله في عمق روحه جذور عميقة ، فإنّ قلبه يكون صافياً طاهراً بحيث لا يتلوث بالرذائل والأرجاس ، وسوف لا يحدث أيّ فصل بين عقيدته وعمله ، وإدراكه وسلوكه .

إنّ الإسلام من أجل تحديد أمواج الأهواء يفيد من قدرة التنظيم ، وهذا التحديد المنظّم الهادف يحاسب النفس على أساس قواعد وأصول قائمة على أساس الحكمة والتدبير . وهكذا يقرّر انسجاماً بين ميول الفرد المختلفة كشخصية مستقلة ، وكعضو في المجتمع ، وهو يوقفه في حدود يحافظ بها على الفرد أمام المجتمع والمجتمع أمام الفرد .

في حين أنّ الإنسان بطبعه يرجّح أحد هذين على الآخر فإمّا أن يضحّي بالفرد لغايات اجتماعية ، أو أن يحقّر المجتمع في قبال المصالح والمنافع الفردية .

وإذا تحقق هذا الانسجام في فكر الإنسان تنظّم على ضوئه الفرد والمجتمع واعتدلوا في سلوكهم وأفكارهم ، وعمل كل منهم بتكليفه وفق الطينة الفطرية التي أودعها الله تعالى فيه .

ولكن حينما تنسدّ البصيرة وتتجمّد الأفكار ، يبقى الإنسان في حرمان من إدراك الواقع ، ولا يستطيع بعد أن يدرك ماهناك من نقص وعوز في شخصيته، بحيث لو اطّلع على تلك النقائص وذلك العوز أصيب بالعجب وتنفّر من نفسه .

عن علي (عليه السلام) قال :

« لو عرف المنقوص نقصه لساء ما يرى من عيبه »[1] .

ويقول (شوپنهاور) :

---

(١) غرر الحكم : ٦٠٤ .

« إنّ الإنسان كما لا يُحسّ بوزن جسمه ، كذلك لا يرى العادات القبيحة والحركات غير المرغوب فيها والسلوك البذيء من نفسه ، وعلى العكس من ذلك يتوجّه دائماً إلى نقائص الآخرين وعيوبهم .

والآخرون كذلك يعكسون نقائصنا وعيوبنا كالمرآة ولكنّنا لا نشاهدها نحن ، وقد نظنّ أنّنا نرى في المرآة صور الآخرين فقط »[1] .

هنا علينا أن نوقظ النفس من نومتها لتفتح عيونها فتدرك الحقائق ، وإنّ هذه اليقظة تترك في ذات الإنسان أغرب الآثار وأعجبها ، فإنّها تُحسّ في هذه الحالة أنّها أدركت حياة جديدة وتجدّد حياتها مرة أخرى .

إنّ نفاذ البصيرة يؤثّر بصورة واسعة وشاملة في جميع مراحل الحياة ، وهكذا يصعد بالشخصية من الانحطاط إلى مستوى الكمال .

وعن أهمية دور الفكر في مختلف جهات الحياة يقول علي (عليه السلام) :

« عليك بالفكر فإنّه رشد من الضلال ومصلح الأعمال »[2] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« الفكر في الخير يدعو إلى العمل به »[3] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« خوض الناس في شيء مقدّمة الكائن »[4] .

وكتب الدكتور (ماردن) بشأن الفكر وما ينشأ منه من التوفيق يقول :

« إنّ الفكر في هذه الدنيا كالسكّان لكل شيء . ولكنّ هذه الحقيقة كانت قد بقيت غير ظاهرة بل بعيدة عن الأنظار مدّة طويلة من تاريخ البشرية، ثم لمّا

---

(١) بالفارسية : أفكار شوبنهاور : ٩٣ .

(٢) غرر الحكم : ٤٨١ .

(٣،٤) غرر الحكم : ٣٩٦ .

توصّلوا إلى أهميّة الفكر وأخذوا في تقديره وتقييمه تصوّروا أنّ ذلك شيء معيّن يخصّ نوادر الناس ، وفي هذه السنين المتأخرة توصّل الإنسان إلى أن يجعل الفكر موضع دراسة وتحقيق .

وقد أوضحت لنا هذه الدراسات أنّ بإمكاننا أن نعدّل من ميّزاتنا الأخلاقية بالإفادة من أفكارنا ، وأن نغيّر العوامل الخارجية في حياتنا أو أن نحدث تغييراً في تأثير هذه العوامل على نفوسنا ، وبالتالي نكتسب السعادة والموفّقية ، وإنّ تربية الفكر لا تحدّ بحدّ ، وإنّ نتائجه وآثاره لا تنتهي بعدد .

بالإمكان أن تكون الفكرة كقلم نحت تنحت في صخرة الحياة . ومن هنا علينا أن نصمّم على أن نوجّه أفكارنا نحو أفضل الغايات وأحسنها ، وأن نستعملها في سبيل الوصول إلى أقوم المقاصد وأثمنها ، ومن أجل تنفيذ هذا التصميم علينا أن نعمل بكل إرادتنا الجديّة .

عليكم أن تقتنعوا بسيادة الأفكار على مقدّراتكم بصورة مطلقة ، وأنّ لكل فكرة حظّاً في صنع مصيركم جميعاً .

عليكم أن تعتقدوا أنّكم إن قُدتم أفكاركم في السبل المناسبة كان في استقبالكم أحسن مصير وبشكل يسير وطبيعي جدّاً . إنّ الدور الذي يقوم به الفكر في الجوانب المادية والمعنوية سيظهر للبشر تدريجيّاً ، وسيتفق عليه الذين يختلفون فيما بينهم في مختلف المواضيع ، وإنّ نتائج التجارب العملية جعلت أكثر الناس تشاؤماً يعتقد بهذه الفكرة الحقّة ، وأيّدت نظريات المفكرين بهذا الشأن بصورة خاصة »[1] .

أضرار الأفكار الشرّيرة

كما أنّ الأفكار الإيجابية تقود الإنسان إلى الأعمال المثمرة ، كذلك الأفكار

---

(١) بالفارسية : بيروزى فكر : ٧ ـ ١٠ .

غير الطاهرة تجرّ الإنسان إلى التلوّث ، وذلك أنّ الإنسان موجود مفكّر ، يفكّر ثم يجعل أفكاره مورد التنفيذ والعمل ، فإذا فتحت الأفكار غير المشروعة طريقها إلى أعماق باطن الإنسان كالحشائش المهملة ، زاحمت شيئاً فشيئاً الأفكار الإيجابية والبنّاءة حتى تذهب بها نهائياً وتشغل مكانها ، فيستعد الشخص بفعل هذه الأفكار الشيطانية للقيام بأعمال غير محمودة توجب اسوداد القلب وضياع العمر والضلال في الحياة .

كل شيء سينمو ويكبر بالتدريج ، وسيثمر حلواً أو مرّاً . والفكرة السيّئة بذرة سوف لا تثمر سوى الأعمال السيئة . وإنّ الإنسان يتّبع أفكاره المتجذّرة في زوايا روحه بمرور الأيام والتي أصبحت في نفسه كشجرة ضخمة وقوية .

سُئل كبير : أين لنا أن نجد السعادة ؟ فقال : « نجدها في جمال الفكر الإنساني » وعلى هذا فعلى الإنسان أن يسدّ مجرى الماء من أوّله وأصله فلا يدع للأفكار غير الصالحة طريقاً إلى قلبه ، بل يعوّد نفسه على التفكير في الأمور المثمرة والقيّمة .

قال علي (عليه السلام) :

« عوّد نفسك الاستهتار بالفكر والاستغفار ، فإنّه يمحو عنك الحوبة ، ويعظّم المحبّة »[1] .

وقال (عليه السلام) :

« عوّدْ نفسك حسن النيّة وجميل القصد ، تدرك في مساعيك النجاح »[2] .

إنّ تغيير الخصائص التي حصلت للإنسان ليس من السهل واليسر ، ولكن إذا صرف الإنسان جُهداً ومساعي مستمرة لانعدام الأساليب غير الحميدة التي تؤدي بالإنسان إلى الإنحطاط والضياع ، فبالنظر إلى أهمية دور الاستعداد

(١، ٢) غرر الحكم : ٤٩٢ .

الإنساني لاكتساب العادات الحسنة ، تدرّجت الفضائل الإنسانية في طريقها إلى طبائع الإنسان .

وللبحث عن الخصائص الطاهرة علينا أن نلتفت بأفكارنا إلى المزايا المحمودة ، فبتلقين الفضائل الحميدة والخصال المجيدة إلى النفس والاستغراق والتوسّع فيها ، نستطيع أن نحصل على نتائج باهرة جدّاً .

كتب (كلمان جاكو) يقول :

« إنّ تلقين النفس يشكل جيشاً منظماً أمام العادات ، ولكنه بدل أن يهجم بجيشه هذا عليها يورد أفكاراً وخواطر في ضمير اللاشعور تضادّ الأفكار التي شكلت تلك العادات ، ومن خلال ذلك وبصورة تدريجيّة يُحدث عمل تفكيك الدماغ بين الأعمال الصالحة والطالحة . ولكن من أجل الوصول إلى هذه الغاية فإنّ أول شيء يجب أن يكون نصب أعيننا هو استذكار هذه الحقيقة بدقة : بإمكاننا أن نترك كل عادة ، وأنا بالذات استطيع أن أريح نفسي من شرّها نهائياً وأن أبلغ بذلك غايتي المنشودة . ويجب أن نستذكر هذه الحقيقة بصورة مكرّرة .

إنّ هذا اليقين ـ بناءً على قانون أثر التلقين ـ يجد بتكريره خصائص حقيقة مطلقة ، وضمير اللاشعور سيثبت هذا اليقين ، وسيذهب بإحساس أنّ العادات لا يمكن اجتنابها ولا مقاومتها ، هذا الإحساس الذي يمكن إحباطه وإبطاله كذلك عن طريق التجربة الصحيحة .

إننا لو نحلّل الرّضا العابر الذي يعرض لنا من العادة غير الحسنة ، لأيقنّا بتفاهته ، وأنّ الأفضل أن نلتذّ بدل ذلك بالاحتراز عمّا يلازم هذه الأخطاء من النقائص والعيوب[1] .

(١) بالفارسيه : تلقين بنفس : ١٠٢ .

علاقة الأهداف بنموّ الشخصية

إنّ الذي يرفع بالإنسان إلى مقامه السامي وبالتالي يؤدّي إلى نمو شخصيّته ، هو أن تكون له أهداف قيّمة في الحياة ، وكلما كانت الأهداف أسمى نمت شخصية الإنسان نمّواً أكثر وأوفر .

ولا ريب في أنّ للإسلام أهدافاً كبرى ، وآفاق رؤى واسعة وجامعة . إنّ المسلمين الذين تربّوا في ظلّ هداية رسول الإسلام العظيم وتعاليمه القيّمة ، أقاموا علاقات وثيقة بمبدأ الوجود ، فزكّوا بهدايته نفوسهم ، من خلال ذلك اتّصفوا بشخصية سامية متميّزة . وهذه المقاصد السامية والراقية هي التي تقدمت بهم إلى الأمام بصورة متواصلة .

يقول عالم النفس الأمريكي الشهير (ألپورت) :

« تُعَدّ المقاصد والغايات من الصّفات الخاصّة والمعقدّة للشخصية ، وإنّ وجود النية والقصد لدى الإنسان دليل على ما يستهدفه الفرد لهدايته في المستقبل ، وإنّ النية والمقاصد الفرديّة تختار الدوافع النافعة ، وتعيّن نوعية الإختيار ، والموارد المنهية والممنوعة ، وتترك آثاراً كثيرة في مسيرة النموّ والتكامل .

ويقيس (سپرانگر) السجايا الفردية بمدى اقترابها من نظام ذي قيم ثابتة ، ويقول : إن المهم هي الجهة والأهداف .

البناية التامة تكون ثابتة وراكدة ، ولكن البناية التي في بداية تكاملها تُرى وكأنّها في جهة أكمل منها في جهة أخرى ، ذلك لكي تهتدي إلى سبيلها وفق تقدّمها وانسجامها مع ذلك .

وعلى أيّ حال ، فحيث أنّ النموّ يستمر في جميع أعمار البشر فإنّنا نتوقّع أن نجد إحساساً دينيّاً متطوّراً في مراحل الشخصية المتقدمة ، إنّ عقل الإنسان البالغ ما دام في نموّه واطّراده فهو يحاول ما أمكنه أن يوسّع من قدرته المنطقية بالبراهين القياسية والإستقرائية ومقارنة الاحتمالات .

وحينما يستمر الإنسان في سعيه هذا ويوظّف قواه في ذلك ، فإنّه يدرك حاجته إلى الإيمان ، كي يفيد منه كوسيلة دفاعيه يحاول بها إبعاد الهزيمة عن عقله إنّه يفهم أنّه بحاجة إلى الإيمان من أجل الإنتصار على مشاكل هذه الحياة التي لا تلين .

إنّ أكثر المتديّنين يرون أنّ إيمانهم ناشيء من التوجّه إلى القوى الغيبية ما وراء الطبيعة ، أو أنّ الظواهر الطبيعية والحوادث الغريبة فيها ، زادت في اعتمادهم على القوى الغيبية وراء الطبيعة . وهكذا يجد الإنسان لنفسه هدفاً يكون له سنداً يزيده طمأنينة في الحياة ، على أثر ما يقوم به من سعي لمعرفة نظام عقيدة كاملة تربطه بنظام الوجود ككل .

إنّ الرؤية الكونية الخاصة في الأديان (المفروض أن تكون) سلسلة من الأصول العقائدية والأفكار والتصوّرات التي تحتوي وتهيمن على كل مراحل السلوك الإنساني .

إنّ الدّين يُعدّ الإنسان ويؤيّده للدفاع أمام القلق والإضطراب والتردد والخيبة ، وفي نفس الوقت يحدث في الإنسان حالة العزم والتصميم بالنسبة إلى المستقبل ، تمكّنه من أن يربط بين نفسه وبين نظام الوجود بما للكلمة من معنى »[1] .

العلاقة بين النشاطات النفسية والفيسيولوجية

لقد ثبت بالدراسة في التجارب العلمية أن الأمراض النفسية تؤثر في الجسم وتمرضه ، والنفس من ناحية أخرى تتأثر بالتفاعلات الكيماوية في الجسم ، ومن هنا يمكننا أن ندرك العلاقة المتبادلة بين حياة النفس والجسم .

على الرغم من أنّهم ينسبون هذه النظرية العلمية إلى هذه القرون بل

---

(١) بالفارسية ؛ رشد شخصيت : ٩٣ ـ ٩٨ .

السنين الأخيرة ، نرى التصريح بكلا الموضوعين في النصوص الإسلامية منذ أربعة أو ثلاثة عشر قرناً .

فقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال بشأن أثر الأمراض النفسية في الجسم :

« العجب لغفلة الحُسّاد من سلعة الأجساد »[1] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« الهمُّ يذيب الجسد »[2] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من أطاع غضبه تعجّل تلفه »[3] .

وعن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان ينوّه بالعلاقة بين التفاعلات الكيمياوية الجسدية بنفسانيات الإنسان وأخلاقياته إذ يقول :

« لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإنّ القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء »[4] .

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال :

« من تعوّد كثرة الطعام والشراب قسا قلبه »[5] .

وعن علي (عليه السلام) أنّه قال :

« التخمة تفسد الحكمة »[6] .

ويقول العالم الشهير البروفيسور (كاريل) :

---

(١) نهج البلاغة : ٥٠٨ ط ـ الصالح .

(٢، ٣) غرر الحكم : ٦٥٤ .

(٤) نهج الفصاحة : ٥٢١ .

(٥) نهج الفصاحة : ٥٧٣ .

(٦) غرر الحكم : ٢٤ .

« إنّ النشاطات النفسية ترتبط بالنشاطات الفيسيولوجية للجسم ، وبإمكاننا أن نشاهد بعض التغيرات العضوية حينما نعقّب الحالات النفسية المختلفة ، أو أن نشاهد كيفيات نفسية خاصّة متأثرة ببعض الأعمال العضوية . وبكلمة نقول : إنّ هذه المجموعة التي تشمل النفس والجسم ، تتأثر بالعوامل العضوية والنفسية وتتغيّر بها . إنّ مثل النفس والجسم كتمثال منحوت على حجر المرمر حيث لا يمكن تغيير شكل التمثال إلّا بكسر المرمر أو النحت فيه .

نحن نعلم أنّ أمراض المعدة والأمعاء والكبد كم تؤثر في شخصية المصابين بها ، فإنّ أعضاء الجسم ترشَح من نفسها بعض المواد إلى الدم لا شك أنّها تؤثر في النشاطات النفسية والمعنوية للإنسان .

إنّ الإرتباط بين نشاطات الشعور والنشاطات الفيسيولوجية لا يتفقّ مع النظرية القديمة التي كانت ترى محل الروح في المخ . إنّ الجسم في الحقيقة جوهرة فيها خلاصة القوى النفسية والمعنوية ، والفكر في التفسير : عبارة عن نتائج الغدد المترشحة الداخلية ومن قشر الدماغ ، وإنّ من الضروري تعاون جميع الجسم لانسجام الظواهر النفسية ، وبكلمة نقول : إنّ الإنسان يفكر ويقرر ، ويحبّ ويكره ، يتألّم ويفرح ، ويدعو ويتضرّع كل ذلك بالمخّ وبجميع أعضائه »[1] .

ويقول (كاردر مارفي) العالم النفسي المعاصر :

« في هذه العشر الأواخر من هذا القرن ظهر جليّاً كم تكون العواطف والنظريات ، أو الحب والبغض في البشر رمزاً عن التفاعلات الكيمياوية في الجسم .

إنّ الطبّ النفسيّ الجسميّ أثبت بوضوح ذلك الطريق المشترك والمتبادل بين الصحة البدنية والنفسية ، أي تلك العلاقة « **الفونك أسيوني** » بين

---

(١) بالفارسية ؛ إنسان موجود ناشناخته : ١٥٢ ـ ١٥٤ : الإنسان ذلك المجهول .

التفاعلات الكيمياوية البدنية مع الأمور النفسية من جهه ، وعلاقة التفاعلات النفسية بالتفاعلات الجسمانية من جهة أخرى ، فلا يمكننا بعد اليوم أن نصف الجهاز الحيوي الكيمياوي في الجسم بأنّه المفاعل الأصيل في تنظيم حياة النفس ، بل علينا كذلك أن نصف التفاعلات النفسية بأنّها تنظّم الجهاز الكيمياويّ في الجسم .

والأفضل أن نقول ـ كما ينوّه به المحقّقون من العلماء ـ أنّنا نواجه دائماً جهازاً واحداً مركّباً من نفس وجسم ، قد يتفوّق فيه الجانب النفسي وأحياناً يُكون الجانب الجسماني والكيمياوي في الدرجة الأولى عملاً وتأثيراً .

إنّ عبارة « إعرف نفسك » التي كان يقولها القدماء ، لم تعد اليوم تعطى معنى سلطة أصل غير مادّي على المادّة غير ذات الشعور من جانب واحد ، كما كان يعطي هذا المعنى في الأيام الماضية في القدم ؛ ولكنها كذلك أيضاً لا تعطي معنى يُشبه مزاعم الماديّين في القرن التاسع عشر إذ كانوا يقولون : كما أنّ الكبد ترشح مادّة الصفراء « البنكرياس » كذلك المخ يفرز الأفكار . بل نحن اليوم نطالب بقبول التعاون المتبادل بين أسلوبي معرفة الإنسان : الكيماوي والنفساني معاً »[1] .

***

---

(١) بالفارسية : راز كرشمه ها : ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .

دوران الحياة
على محور التكاليف

* الإنسان في حصار التكاليف .
* العمل من أجل تحقيق الأهداف السامية .
* كيفية الإفادة الصحيحة من الإرادة .
* دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية .
* دروس علّمها لقمان الحكيم .
* مراتب العبادة والشعور بالمسؤولية .

الإنسان في حصار التكاليف

من الحاجات الفطرية للإنسان حياته الاجتماعية مع سائر أبناء نوعه ، وهي من الميول الطبيعية فيه ، والعامل الطبيعي الذي يقوده لتحقيق ذلك .

ويقوم المجتمع البشريّ على محور مختلف الطبقات والأفراد ، فكل فرد في المجتمع يلتزم بمسؤولية وتكاليف خاصة عليه أن يقوم بأداء حصّته فيها ، وإنّما يدار المجتمع بصورة صحيحة فيما إذا آمن كل واحد من أفراده بمسؤوليّاته التي قام بقبولها في دائرة أعماله ، ثم لم تتجاوز نشاطاته حدود ما رسم لنفسه منها .

لا حدود لحياة الحيوان ولا قيود ، ولكن بخلاف الحيوان قد أحاطت بالإنسان مختلف القيود والقواعد والقرارات ، حتى بإمكاننا أن نقول إنّها قد شملت كل شؤونه وحياته ، وهذه الحدود وتلك القرارات هي التي تفصل بين صعيد حياة الإنسان عن الحيوان .

في حركة وسكون يجد الإنسان تكليفاً عليه ، وهذا هو النظام الذي تدار عليه حياة الإنسان . فالتكاليف تبدأ من أبسط مراحل الحياة وتمتد حتى آخر مرحلة منها ، ولا يمكننا في أيّة لحظة أن نرسم خطّاً فاصلاً بين الإنسان وكل تكاليفه فنقول بالفصل بينهما ، فمهما كانت قوته ، فهناك تكليف عليه . اللهم إلّا الموت ، فإنّه حينما يأخذ بتلابيب الإنسان يطوي صحيفة أعماله .

إنّ الإنسان يلتزم بفطرته بمسؤوليات وقرارات ، مع قطع النظر عن أحكام الأديان وأوامرها ، فإنّ التكليف ينشأ من علاقته بأوصافه وخصائصه

وعواطفه والغرائز المغروسة في نظام كيانه ووجوده ، وإن كانت دوافعه إلى أداء تكاليفه أموراً مختلفة . ولكن بالإمكان أن نقول : إنّ القواعد العقلية العامة هي محور التكاليف ، أمّا طاعة الأحكام الدينية فإنّها ترجع إلى اتباع القواعد والقرارات العقلية أيضاً ؛ فإنّ أحكام الأديان وأوامرها في أمور الحياة والمسائل الاجتماعية هي تفصيلات لإجمال المدركات العقلية .

وليست المشكلة معرفة التكاليف ، بل المشكلة الكبرى هي العمل بالتكاليف الشاقة ، وإنّما يتمكن الإنسان من الاقتراب إلى مرحلة الكمال في هذا المجال بالإيمان الراسخ والثابت والقوي ، ومراقبة النفس أمام الله في كل حال ، وتوطينها على التضحية في الأعمال .

إنّ المجتمع وإن كان صعيداً لنموّ الفضائل الإنسانية وتكاملها وظهورها ، لكنه كذلك هو جوّ يناسب ظهور كثير من الرذائل أيضاً . وإنّما يُصاب التكامل الاجتماعي بالتوقف والركود فيما إذا تجاوز كل واحد من الناس عن حدود وظائفه وتكاليفه ، وتناسى أو تنكر أو تجاهل لمسؤولياته الكبرى الملقاة على عاتقه .

حتى النبتة الصغيرة بحاجة إلى عناية خاصة كي تتحرك من مكانها فتصل في مراحل نموّها إلى كمالها اللائق بها ، والذي يثمر نموّ المجتمع وتكامله ليس هو موقعه الجغرافي وأوضاعه المادية ، بل هي أوضاعه الخاصّة التربوية والمعنوية التي يقوم على أساسها المجتمع الفاضل والرّاقي .

في المجتمع الذي تسود أفكار الناس فيه روح المعرفة بالتكاليف ، ستكون الطهارة والصدق في ضمائر القلوب والأعمال ، وفي الإدراكات والأفكار ، وفي جميع شؤون الناس ظاهرة للعيان . وفي مجتمع كهذا لا تنمو الخيانة والعدوان على حقوق الآخرين ، بل لا يسمح لها مجال للنموّ والظهور ، بل يقف كل واحد فيه أمام مفاسد الأعمال ويمنع عن شيوعها بين المجتمع .

إنّنا لا نضلّ إلاّ عند عدم اتّباعنا وطاعتنا لتكاليفنا . هناك كثير من الناس يحاولون ـ مع ما لهم من إمكانات من مختلف الجهات ـ أن يقتصدوا في الإفادة

من وجودهم ، ولهذا فهم يتهرّبون من المسؤوليات والأعمال التي تسلبهم بعض راحتهم ولذائذهم كما يزعمون ، ولا يرغبون في أن يخصّصوا قسماً من أوقاتهم بأمور يعود نفعها لآخرين .

إنّ هؤلاء ذوي الفكر الضيّق والنشاط المحدود ، والذين تدور أمورهم على محاور شخصية وجزئية ، سيتعوّدون على هذه الخصائص الروحية ، ولهذا فلا يتمكّنون من التعهّد بالأعمال الكبيرة والقيمة ، أو أن يبرزوا لوجودهم شخصيّةً أو قوى وطاقات .

وفي مقابل هؤلاء ، هناك جمع آخرون لا يتسامحون بالنسبة إلى مسؤوليّاتهم على أيّ حال من الأحوال ، ولا يصابون بالاضطراب والقلق على أثر التطورات والتغييرات . بل هم مستعدون دائماً أن يبادروا إلى المسؤوليات النافعة فيستقبلوها ويقوموا بكل جهودهم ومساعيهم فيها . إنّهم يتصوّرون أنّ خير إفادة من أجسامهم هو القيام بمهام مثمرة ومفيدة وإن كانت ذات مشقة ومستلزمة لصرف وقت وجهد كثيرين . وعلى هذا ، فكلما كان الإنسان أكثر رشداً وعقلاً وتمتّعاً برؤية عميقة ، كان اشتياقه إلى أداء تكاليفه أشدّ وأكثر .

السعي لتحقيق الأهداف السامية

إنّ ما يملأ حياة الإنسان أملاً هو السعي لتحقيق الآمال العالية والمثمرة ، على الإنسان أن يصمّم على أن يبلغ مقاماً يليق بإنسانيّته ، فيعمل بكل ما في وسعه لتربية نفسه والقيام بمهامّه وتكاليفه وخدمة مجتمعه وأبناء نوعه ، وأن يكون كما قال (حافظ) الشاعر الفارسي الشهير :

« لا تقل : لا أحاول الفتح المسـ ـدود من أمور الحياةِ
كُنْ رّيح الربيع يفتح أكما م الحياة بعد المماتِ »[1]

---

(١) أصله بالفارسية :

چو غنچه گرچه فرو بستگى است كارجهان
توهمچو باد بهارى گره گشامى باش !

والتعريب للمعرّب .

ويقول الدكتور (شوايترزر) :

« كثيراً ما نسمع هذا الكلام من أفواه بعض الناس يقولون : إنّي أُريد أن أقوم بعمل خير في حياتي ، إلّا أنّ مسؤوليّاتي وأعمالي قد حبستني ومنعتني من أن أحصل على توفيقي في هذا الطريق ، فقد غرقت حتى الحلقوم في مشاغل الحياة ، ولا تسنح لي فرصة أتمكّن فيها من تحقيق مفهوم لحياتي ! .

هذه من الأخطاء الشائعة الخطيرة ، فكم هناك من فرص كثيرة على باب دار كل واحد منّا ، يتمكن فيها من القيام بمهامّه فيحصل على رضا ربّه وضميره . ولا يجب على الإنسان من أجل أن يصل إلى هذا الرضّا ـ رضا الله والضمير ـ أن يغفل أو يتغافل عن تكاليفه العاديّة ، أو أن يقوم حتماً بأعمال كبيرة ملفتة للنظر .

وقد سمّيت أنا هذا العمل الرّوحي : « التكليف الثاني لكم » وإنّما عليكم أن تفيدوا من الفرص الكثيرة التي تسنح لكم وتعملوا بهذا التكليف ، وسوف تُتاح لكم فرص كثيرة في هذا السبيل ، وتتوفّقون لذلك توفيقاً تامّاً ، فإنّ جميع القوى المذخورة فيكم تقوم بتكاليفها . والذي يحتاج إليه العالم اليوم ويفتقده هو أن يكون له أناس يفكّرون في قضاء حاجات الآخرين ، وعند القيام بمهامّ من أجل الآخرين ستنزل رحمة الله على المعين والمستعين كليهما . أما وضغوط المجتمع الحديث الحاضر كما هي عليه اليوم ستفقدنا شخصيّتنا شيئاً فشيئاً ، وسنفتقد آمالنا في الإبداع والظهور ، ولهذا فإنّ بلوغ هذا المجتمع إلى الحضارة الحقّة سيتأخر ما دام الوضع هكذا .

وإنّ الخطأ الكبير لكل واحد منّا هو أنّنا نحيى بأعين غير بصيرة ، فلا نلتفت إلى الفرص الجيّدة التي تواجهنا ، نعم إذا فتحنا أعيننا وفحصنا ما حولنا ، لوجدنا ما حولنا كثيراً من الناس بحاجة إلى عوننا ، لا في الأعمال الكبيرة بل في أمور يسيرة جدّاً .

إننا يجب علينا أن نرهن وجودنا واسمى ما لدينا عندما نمدّ أيدينا لعون

الآخرين إلى حدّ التضحية والفداء . إنّ أصغر نقد تنفقه تلك المرأة الأرملة وهو كل ما لديها ـ يفضل كل ما ينفقه الأغنياء الأثرياء . كثيراً ما نسمع من يقول : « لو كنت ثرياً ذا مال لكنت أقوم للناس بكثير من الأعمال » ولكنّنا بإمكاننا أن نكون جميعاً أثرياء من حيث الحبّ والعطف والحنان لهم ، إنّنا لو اكتشفنا الحاجة الحقيقية للمحتاجين وحاولنا قضاءها نكون قد بذلنا في ذلك أعزّ شيء لدينا ألا وهو الحبّ لهم والعطف عليهم ، ممّا لا يقابله كل أموال الدنيا بأجمعها ! .

من الممكن أن تعجبوا كثيراً من اختياري العيش في غابات أفريقيا « الاستوائية » لكن عليكم أن تعلموا أنّكم ـ ومع بقائكم حيث بيوتكم ـ يمكنكم أن تكون لكم أغرب وأعجب حياة ، ذلك إذا حملتم أنفسكم على البحث والتنقيب وقمتم بالآلاف من أعمال الخير والعطف على الآخرين ، وهذا العمل الروحي بحاجة إلى جرأة وتضحية ورحابة صدر وقوة إرادة وتصميم على إسداء المحبة للآخرين ، وهو أكبر إختبار وامتحان للإنسان .

ولكن عليكم أن تعلموا أيضاً أنّكم في هذا « التكليف الثاني » والشاق بإمكانكم أن تجدوا السعادة الواقعية »[1] .

الإفادة الصحيحة من الإرادة

إنّ الإنسان حُرّ في أن يطيع أوامر ضميره أو يعصيها، وكل واحد منّا يملك نفسه وإرادته فبإمكانه أن يختار الطهارة والصدق ، أو الشهوات والميوُل اللامتناهية ، أو أن يختار شعار الفتوة فلا يقرب الظلم والجور ، وكذلك العكس ، فكل هذه الصفات والمزايا تحت إرادته واختياره ، وهو بإمكانه أن يحلّي نفسه بها بالسعي والمحاولات المتواصلة ، أو أن يختار عكس ذلك طريق الرذيلة والإنحطاط ، فينغمس في محيط مختلف الشهوات والميول الهوجاء .

---

(١) بالفارسية : كليدهاى خوشبختى ، من ٢٦٩ إلى ٢٧٧ .

إنّ قوة الإرادة موهبة إلهية لا ينبغي لنا أن نتركها بلا إفادة منها ، أو أن نصرفها في العمل بالنيّات والمقاصد النجسة واللاإنسانية ، بدلاً من أن نوظّفها في تكاليفنا . إنّ افتقاد الإرادة والضعف في اتّخاذ التصميم والقرار لهو أكبر سدّ دون العمل بتكاليفنا . وإنّ الإفادة من الإرادة بهداية الوجدان وإرشاد الضمير للكفاح ضدّ الشهوات وأهواء النفس وللإنتصار على عبادة النفس والأخلاق السيّئة ، صعبٌ في البداية جدّاً وهو بحاجة إلى روح التضحية ، ولكن بمواصلة السعي الدائب والدائم ستتقوّى روحيّة الإنسان تدريجاً وتنمو أخلاقياته الفاضلة ، فيصبح العمل بالتكليف له حينئذٍ كأمر عادي يتحمّله بيسر وسهولة .

إنّ الشعور بالمسؤوليات لو كان قوياً في كيان الإنسان لم تعد الموانع والمشاكل سبباً في انهزامه أمامها ، وإذا عقمت مساعيه ولم تثمر في مواجهة العوامل السلبية فلا أقلّ من أن يحصل على رضا ضميره ، وسيكون مرفوع الرأس في نفسه ، وذلك أنّه تحمّل خيبة الأمل والهزيمة من أجل أداء وظيفته .

ولقد كان من وصيّة شخصية كبيرة لابنه أن نصحه بقوله :

« يا بني : كن أنت فقيراً لا مال في يديك ، ودع الآخرين يثرون أمام عينيك بالخداع والتزوير والخيانة . عِش أنت بلا جاه ولا مقام ، ودع الآخرين يتسنمون المناصب العالية بالإصرار السّمج والإلحاح المُلح . عانِ أنت الآلام والخيبة ، ودَعِ الآخرين يبلغون أمانيهم بالخضوع والتملّق . أعرض أنت عن معاشرة كبار الرجال ممن يتفانى الآخرون للإقتراب إليهم .

من الأفضل لك أن تتقمّص لباس الفضيلة والتقوى . فإذا ابيضّ شعر رأسك ولم تُلوّث قطرة من سواد الفساد حسن صيتك وحجر شرفك فأدِّ حقّ شكر الله ، واستسلم للموت بقلب مبتهج وخاطر مسرور »[1] .

كما يفيد التنبيه والتوبيخ واللّوم في التقليل من المفاسد ، كذلك لا مجال

---

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل : ٨ .

للجدال في أثر التقدير والترغيب في زيادة الرغبة في العمل والنشاط في أداء التكاليف . ويل لأمّة يُشوّق فيها الخونة ويُهان فيها الخدمة ذوو الشعور بالمسؤولية ، ويطردون عن المناصب الحسّاسة في المجتمع . أمّة يبلغ فيها مقاصده من يجعل همّه الخداع والدّغل ، ويصل فيها إلى مراده من لا يتمتّع بأية قيمة من قيم الإنسانية . أمّة يكون على من يُريد أن يؤدّي رسالة الإنسانية فيها أن يبقى محروماً من كل شيء ، مثل هذا المجتمع سوف لا يبقى مجال فيه لنموّ الأخلاق والفضيلة .

وبديهيّ أنّ في مثل هذه البيئة سيتسرّب إلى أعماق النفوس الرغبة إلى التزوير والفساد والرّياء في أوسع نطاقها ، وسيسود الفساد وسيّئات الأخلاق بدلاً من النزاهة وفضائل الأخلاق ، وكم من طاهرين تقهقروا عن طريق الطهارة والتقوى تحت ضغط هذه الأوضاع العصيبة والمنهكة القوى ، فإنّ قليلٌ أولئك الذين يمكّنهم أن يحتفظوا ببطولتهم في مثل هذه البيئة الملوّثة ، وأن يعيشوا بين نلوّثات المجتمع بطهارتهم وتقواهم ، فليس كلّ واحد منّا بطلاً قهرماناً يستطيع أن يستمر في حياته الروحية بروح عالية وكريمة بين أناس منحطّين أذلّاء .

إنّ الإنسان العادي يحتاج في تربيته الفردية إلى مجتمع يستند إليه ، وهو بحاجة إلى نماذج بشرية صالحة تعرّفه بأمثولة السلوك الصحيح في حياته .

دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية

إنّ الشعور بالمسؤولية والتعهّد بالتكاليف التي تحيط بالشؤون الاجتماعية من كل جهة ، من أهمّ الأسس لسعادة الفرد والمجتمع ، والتربية الإسلامية تبتنى على أساس الشعور بالمسؤولية .

على كل مسلم أن يستند إلى إيمانه وعمله الصالح لتضمين سعادته في حياته ، ولا يجعل شيئاً آخر سواهما مستنداً لسعادته الواقعية .

والإمام السجّاد (عليه السلام) يصف تكاليف الإنسان في مختلف

الشؤون ، فيقول في إحدى كلماته القيّمة :

« إعلم رحمك الله : إنّ لله عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة تحرّكتها أو سكنة سكنتها ، أو منزلة نزلتها ، أو جارحة قلبتها ، أو آلة تصرّفت بها ، بعضُها أكبر من بعض »[1] .

ويرى الإسلام أنّ كل أحد مسؤول عن أعماله ، ولا يتحمل أيّ أحد حمل مسؤوليّة الآخرين ، فالقرآن الكريم يعلن : **﴿ من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فإنّما يَضِلّ عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾**[2] .

إنّ في أعماق كيان الإنسان قوةً تدعوه إلى أداء تكاليفه ومسؤولياته ، وحينما يتقبّل الإنسان دعوة ضميره ويبادر إلى أداء تكاليفه فإنّ تلك القوة الباطنية ستؤيّده ، وبعد فراغه من تكليفه تملأ نفسه سروراً وطمأنينة . هذه القوة هي الضمير والوجدان الناشيء من أعماق فطرة الإنسان والذي يحملنا على ترك السيّئات والعمل بالصالحات .

وقد يتصور أحد أنّ بإمكان الوجدان لوحده أن يضمن تنفيذ الخير على يد الإنسان ، وأن يكون مستنداً لأداء مختلف التكاليف ، فيغنينا عن اتّباع التعاليم الدينية .

ولكن الحقيقة هي أنّ الضمير الأخلاقي بما له من قيمة في ضمان سعادة الإنسان ، فهو لا يتمكن في جميع الأوضاع والظروف أن يمنع من سقوط الإنسان وانحرافه .

وعلينا فبل كل شيء أن نلتفت إلى دائرة عمل الضمير ، فإنّ أحكامه تختلف باختلاف العادات القومية والظروف الزمكانية اختلافاً كاملاً حتى في موضوع واحد تماماً .

---

(١) تحف العقول : ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٤ .

إنّ نشاط الضمير إنّما هو في الدعوة إلى أمور قد أقرّ بحسنها من قبل ذلك العرف والعادة والسنن الاجتماعية ، وإن كان ذلك الأمر قبيحاً في الحقيقة ، أو كان مذموماً مدحوراً لدى أمّة أخرى على أساس سننها وقواعدها وأعرافها . وقد زيّن الشيطان للإنسان في بعض أدوار الحياة البشرية أعمالاً هي من أقبح ما يكون في الحقيقة والواقع ، ولكن تحت ستار الأعمال الصالحة ، وتلقّاها الناس حينئذٍ بصفتها أعمالاً مقبولة لديهم .

ويذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة الواقعة فيقول : ﴿ **قل هل ننبّؤكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **ولكن قست قلوبهم ، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾[2] .

أضف إلى ذلك أنّ الوجدان والضمير من دون أن يستند إلى مستند خاص سوف لا يقدر على المقاومة في مواجهة كثير من أهواء النفس وطغيان الشهوات وحب الجاه والمال ، وهو في ساحة كفاحه مع الغرائز يفتقد شيئاً من قوة مقاومته ، وربّما أنجرّ إلى أن يركع لأول مجاهدة لميول النفس الأمّارة ، فإنّ النفس الخدّاعة بإمكانها أن تقلب الحقائق وتخدع الضمير وتخمد هذا المصباح المنير الذي يضيء باطن الإنسان .

نعم ، هذا هو « الإيمان » الذي يهدي الضمير ويرشد الوجدان ويكون مستنداً صحيحاً له وحاكماً على العادات والتقاليد القومية ، ولا يتكلّف بتنفيذ أوامر العرف والسنن الاجتماعية . إنّ الذين تيقّظت في ذواتهم فطرة التوحيد وآمنوا بالله إيماناً حقيقيّاً ، قد استجابوا لنداء ضمائرهم استجابةً تامّة ، ويرون إتّباعها إطاعة للهداية التكوينية الإلهية ، فلا يثقل على كواهلهم حمل التكاليف

---

(١) سورة الكهف : الأيتان ١٠٢ ، ١٠١٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٣ .

بل يمنحهم قوة ونشاطاً ، فيبادرون إلى أداء تكاليفهم بكل نشاط واشتياق .

وحينما لا يوجد تزاحم بين الوجدان والميول الغريزية فإنّ تبعية أوامر الضمير أمر يسير جدّاً، إنّما الصعوبة والإشكال فيها إذا كانت طاعة الضمير مستلزمة لقمع إحدى الشهوات النفسية ، إنّ قوة الغرائز بما لها من ساحة متاحة لجولانها ، حينما لا تكون مستندة إلى العقيدة بالدين فإنّها تتغلّب على الضمير والوجدان في الغالب ، وستكون الغلبة في الساحة للغريزة .

إنّ أيّة دعوة إنسانية لا تنشأ من الإيمان بالله سوف لا يكون لها مفهوم حقيقي في عالم الواقع الخارجي ، بل ليست سوى طوبائية جميلة .

إنّ الدعوات الإنسانية في الإسلام التي تحققت في عالم الواقع على هذه الأرض ، وفتحت لها صفحة مُشِعّةً في التاريخ ، إنّما تحققت بفضل هداية الأرواح إلى مبدأ التشريع وآفاق السعادة الإنسانية ، وبفضل إرشاد القلوب إلى ذات الحق سبحانه ، وإلّا فإنّ الإنسان لا يتقبّل الدعوات الإنسانية على كل حال ، ولا يستسلم أمام هذه الدعوات في كل موقع ، بل حينما تتزاحم التعاليم الأخلاقية مع مشتهيات النفس ، فمن أجل الوصول إلى ميوله وأهوائه سوف يسحق تلك التعاليم .

يقول (لكنت دونوئي) :

« إنّ بعض الأخلاقيّين بطبيعتهم من غير المتديّنين يقولون : إنّ المشكل الأساس هو إطاعة الأوامر الأخلاقية ، فلو استطعنا أن نعمل بها فلا حاجة إلى الدّين بعد ذلك . وهذا من نتائج الجهل بالفسيولوجية ، فإنّ الإنسان سيشك في اعتبار الأوامر التي يجهل مصادرها ومستنداتها . أضف إلى ذلك أنّ هذا الأسلوب من التفكير يدل على سوء الفهم لأصل المشكلة ، فإنّ الهدف هو أن يتكامل الإنسان من باطن ذاته ، وليس الهدف أن نحمل الإنسان على التحرك وفق الحركات الأخلاقية . فما لم يكن سلوك أي إنسان سمة كماله الذاتي العميق ، فإنّ أعماله تكون نوعاً من الالتزامات المصطنعة وفق القرارات والأعراف من دون

أن يكـون لها أصـالة ، ولـذلك فهي تـزول بأوّل ذريعـة . وحتى لو كـان تحميل الأحكام الأخلاقية على حسب ما يُرام ومهـما يكن لها من قيمـة عملية ، فـإنّها لا تقوم بالجدال الموفّق ضدّ الحركات الحيوانية »[1] .

أجل ، إنّ هذا هـو الإيمان الـذي يمنع من إفـراط الميول غـير المشروعة في اللحـظات الحسّـاسـة من الحيـاة ، وهـو الـذي يحـامي ويـدافـع عن الضمـير الأخلاقي . والمؤمنون ذوو القلوب الممتلئـة بحبّ الله تعالى ، يتمكّنـون من أداء تكـاليفهم المقدسـة في أحرج السـاعات وأكـثرها حسـاسيّة ، بفعـل هـذه القـوة المعنوية : قوة الإيمان بالله وأوامره .

يقول عالم النفس الغربيّ الشهير (ويليام جيمز) :

« إنّ الأخلاقيّ المحض (غير المتديّن) يطيع القوانـين العامـة والكليّة التي تسود الكائنات عالماً بها ومطّلعاً على ما يترتّب عليها ، ولكن هـذه الطاعـة تكون ثقيلة ومُملّة ، وليس في قلب صـاحبهـا أيّ اشتيـاق أو انـدفـاع ، ولا يفـارقـه الإحساس بأنّ هذه الأحكام هي كالنير على رقبته .

بينما تكون هـذه الطاعـة في الدّين بتقبّـل مندفـع يضفي على كـل شيء في الحياة الطيب والنشاط وحسن الاستقبال .

إنّ جميع مقاييسنا الأخلاقية هي كالخرق التي تغطّي أو تضمّد بها الجـروح والقـروح ، وإلاّ فليست هي بلسمـاً لتلك الجـروح . . وهنـا يُسرع الـدّين إلى إسعافنا في أمورنا المصيرية ، ففي الـدّين حالـة روحانيـة لا نجدهـا في أي مكان آخر »[2] .

---

(١) بالفارسية : سرنوشت بشر : ٢١٦ .

(٢) بالفارسية : ديـن وروان ، از : ويليام جيمز : ١٩ .

دروس علّمها لقمان الحكيم

من خلال آيات من القرآن الكريم نتعرّف على كلمات غنية بالمعارف ، ووصايا عميقة ومليئة بالحكمة ، ومواعظ حسنة من لقمان الحكيم إلى ولده ، خاطبه أبوه لقمان فرسم له الخطوط العريضة والتكاليف والوظائف المفروضة على كل إنسان عاقل في الحياة ضمن مواعظ مفيدة وتعاليم قيّمة :

١ ـ حقّ الله تعالى على الإنسان :

﴿ وإذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِه وَهُوَ ـ يَعِظُهُ ـ يا بُنيّ : لا تُشْرِكْ بالله إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾[(١)] .

٢ ـ حقّ الوالدين على الأولاد :

﴿ وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ، وفِصَالُهُ في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إليّ المصير ﴾[(٢)] .

٣ ـ تكليف الإنسان بالنسبة إلى سائر أفراد المجتمع :

﴿ يَا بُنَيَّ : أَقِمِ ٱلصّلاةَ ، وأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، وٱصْبِرْ عَلَى ما أصَابَكَ ، إنّ ذلك من عزم الأمور ﴾ [(٣)] .

﴿ وَلاَ تُصَعِّر خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً ، إنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[(٤)] .

﴿ وٱقْصِدْ في مَشْيِكَ وٱغْضُضْ مِنْ صَوتك ، إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوت الحمير ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة لقمان : الآية ١٢ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٣ .

(٣، ٤، ٥) سورة لقمان : الآيات ١٦ ـ ١٨ . ويلاحظ أن آية توصية الإنسان بشكر الوالدين مع شكر الله تعالى ، ليست من وصايا لقمان وعن لسانه ، وقد تراءت الحكمة في ذلك للمؤلف في أنّ لقمان هو الأب يعظ ابنه ، ولم يكن من المناسب أن تُعنون تكاليف الولد مع والديه والتأكيد على

مراتب العبادة والشعور بالمسؤولية

بما أنّ الاستعداد العقلي للناس ليس على مستوى واحد وأنّ بينهم اختلافاً كثيراً في مراتب الفهم والإدراك ، لذلك فقد دعا الناسَ أئمة الإسلام إلى الطاعة في تكاليفهم وفقاً لأساليب أفكار مختلف الطبقات بمختلف العبارات والكلمات . إنّ كيفية الدعوة الدينية على نحو يمكن أن يفيد منها كل عالم أو مفكر أو عاميّ أميّ :

فمثلاً : دعا الناس إلى تجارة لن تبور وذلك لأناس لا يهمّهم في حياتهم سوى أرباح مكاسبهم .

ودعا آخرين إلى جنّة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ، فيها النعيم الخالد ، وذلك لأناس يهمّهم التلذّذ بالنعم .

وهدّد آخرين بعذاب جهنّم الأليم ، وذلك لمن تكون همّتهم في الابتعاد عن الآلام .

وبديهيّ أنّ أكثر الناس لا يدركون المعاني الدقيقة ولا يمكنهم أن يستهدفوا أهدافاً أسمى من هذه ، فلا يمكن لأكبر عدد من الناس في المجتمع القيام بالتكاليف وتعميم الفضائل الأخلاقية إلّا بسلوك هذه السبل ، ذلك أنّ الطبيعة البشرية مليئة بنقاط الضعف والعجز ، ولذلك فقليل أولئك الذين يتمكّنون من أن يستهدفوا في أعمالهم في الحياة حسن ذات العمل والأهداف العليا .

والقسط الأوفر من التقدم السريع للاديان السماوية ونفوذها في قلوب أفراد المجتمع ، يرجع إلى أنّها تُولّي التقوى واجتناب الذنوب أهمّية خاصة ، بخلاف

= رعاية حرمته وآدابه وأداء شكره ، من قبل لقمان نفسه ، فذلك يعني أنّ لقمان يطالب ابنه بشكره والخضوع له وإكرامه . ولذلك كفّ لقمان عن بيان ذلك لإبنه ، وتكفّل به الله لجميع أبناء نوع الإنسان بالنسبة إلى والديهم ، وابن لقمان منهم ، فهو مكلّف كذلك برعاية هذا الدستور وأداء هذه الوظيفة بالنسبة إلى والديه أبيه وأمّه .

كثير من القوانين والقرارات البشرية . فالتقوى في النظام التعليمي لهذه الأديان ليس سبباً للنجاة من العذاب فحسب ، بل هي باعث على الثواب أيضاً والإنسان ـ من ناحية البناء النفسيّ ـ يبدي حساسية أكثر وردود فعل أقوى في مواجهة الثواب والعقاب ، وبالتالي سيكون له اندفاع واتّجاه أكثر لتقبّل أوامر المدرسة الدينية .

وقد رأت عدة من النصوص الإسلامية : أنّ الطاعة المطلقة لأوامر الله ، لا برجاء الثواب والخوف من العقاب ، إنّما يخصّ أفراداً من الناس تكون معرفتهم بذات الحقّ تعالى في مستوى رفيع جدّاً . إنّ أولئك الرجال الصادقين البالغين أسمى مراحل الإخلاص ، لا يفكّرون في شيء سوى حسن الطاعة وتحصيل رضا الربّ الجليل جلّ وعلا .

سُمّي هؤلاء في لسان الروايات الإسلامية بـ « الأحرار » بينما عبّر عمّن يعبدون ويطيعون طمعاً في الثواب ، بـ « التجّار » وعمّن يؤدّون تكاليفهم خوفاً من العذاب بـ « العبيد » .

فقد قال علي (عليه السلام) :

« إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التّجار ، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار »[1] .

وللعالم الإنجليزي المعروف (أويبوري) موضوع يتّفق مع مضمون هذا الخبر ، يقول :

« إنّ من تمتلىء روحه من محبّة الله فهو في الثناء على الله وعبادته ينبعث وكأنّه بلا إرادة واختيار ، لا برجاء الثواب ولا خوفاً من العقاب بل لله فحسب . وإنّ من يعمل عملاً صالحاً أو يغضّ النظر عن سيّئة برجاء الثواب

---

(١) نهج البلاغة .

وخوفاً من العقاب ، فليس له أن يغترّ بعمله وزهده هذا ، ولا يمكن أن يعدّ هذا من رجال الله ، بل هو تاجر يعمل لربحه واجتناب ضرّه ، وأجير يتحمل الألم انتظاراً للأجرة المترقبة .

نعم ، بالنظر إلى أولئك الذين يقتلعون جذورهم بأيديهم من جرّاء جهلهم ، وهم يلوّثون أرواحهم بدخان المعاصي السود ، ثم لا يقومون بعبادة الله أبداً . بالنظر إلى هؤلاء يمكن أن نعدّ الأجراء الذين إنّما يهتمّون بالثواب والعقاب ، في عداد الصالحين نسبيّاً . ولكن لا شك أنّ الذي أوجب أن نعدّهم مع الأخيار أمر حقير بل لا شيء في الحقيقة ! فما أجمل لو كانوا يصعدون بأنظارهم إلى أبعد من هذا المتسوى ، فكانوا يعبدون الله من جهة أنّه أهل للعبادة فقط .

إنّ أولئك الذين يصرفون أرواحهم وأعمارهم في سبيل الجمال والفنون المستظرفة ، لا ينتظرون من وراء ذلك نفعاً ، بل هم ينظرون إلى شيء آخر أسمى من أن يتلوّث بالأغراض المادية : إنّهم يبحثون عن الجمال لأنّهم يحبون الفنون الظريفة ، فهم يريدون أن يصيدوا طيور الجمال ذات الألوان الجميلة الخلّابة فيعرضوها على الآخرين .

فما أحسن لو كنّا نحن أيضاً في ديننا مثل أرباب الفنون الجميلة ، فنغسل أرواحنا من لوث الأغراض المادية ، فلا يكون نظرنا في عبادتنا لله لشيء سوى تقديس ذلك الجمال الأزلي . هذا هو الدين الحقيقي الذي يتمكن من أن يبلغ بأرواحنا إلى قمّة الكمال »[1] .

كلّما كان مستوى إيمان الإنسان بالله أسمى رأينا في أعمالهم آيات الإخلاص بنفس تلك النسبة العالية ، بحيث يكون السعي للحصول على رضا الله يسود على جميع مقاصد الإنسان ويغطّي على سائر الميول والرغبات ، فهم يقومون بأي عمل صالح بعيداً عن خوف العقاب أو رجاء الثواب .

---

(١) بالفارسية : در جستجوى خوشبختى : ٢٢٨ .

إنّ هذا الهدف الأخلاقي كريم وعزيز للغاية بحيث لا يقابله ولا يوازيه أيّ أمل أو أمنية ، وإنّما يتمكن من الاتّصاف بتبعيّته عدد معدود من نوابغ الأخلاقيين .

نعم ، يقول مولى المتقين أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في مناجاته :

« إلٰهي ما عبدتك ـ حين عبدتك ـ خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ، ولكنّي وجدَتك أهلاً للعبادة فعبدتك »[1] .

والقرآن الكريم ينقل عن لسان « سليمان » أنّه كان يقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ اشكرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيّ ، وأنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ ﴾[2] فجعل غاية عمله طلب رضاه تعالى ، فلتكن الأعمال قربةً إلى الله وطلباً لمرضاتِه .

وعلينا أن نلتفت إلى أنّ العبادة لا تنحصر في الإسلام في تلك الدقائق واللحظات التي يشتغل فيها العبد بمراسم العبادة وشعائرها ، بل إنّ العبادة في الإسلام أجمع وأوسع ، إذ هو يشمل جميع الشؤون ويستوعبها في برنامجه للسلوك في الحياة ، من العبادة الخاصّة إلى الفكر والإدراك ، وسائر الأعمال اليومية الجارية ، فما دام الهدف والوجهة إلى الله فإنّ العمل عبادة . وبعبارة أخرى : جعل الإسلام العبادة هي القاعدة الأصيلة والكبرى وعلى أساسها قرّر جميع برامج الحياة . وإلّا فليس لتلك المظاهر والمراسم في تلك اللحظات العابرة تلك الأهمية الكبرى ، بل المهم كل الأهمية أن يبتنى السلوك وكل شيء في هذه الحياة على تلك القاعدة بشكل صريح وواضح ، وأن يشهد العبد بعدم وجود أي مقام أو شخصية ذات قدرة سوى ذات الله المقدسة مستحقاً للعبادة ، ليس باللسان فحسب بل بالعمل وفي الحقيقة .

وكذلك ليست العبادة في منطق الإسلام بمعنى أن تسيطر الطهارة والتقوى

---

(١) نقلاً عن الحقائق ، للفيض الكاشاني : ٢٠٢ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٩ .

على قلبه في حين أداء الفرائض فقط ، فما أن تتم الفريضة تستولي على نفسه الرذائل والأرجاس وتستلب منه كل خير وصلاح . إنّه في الحقيقة كمسافر حائر لا يهتدي إلى التقدم نحو الهدف ، وأن يفيد من النور الذي يضيء له الطريق في ليالي الحياة المظلمة .

ونرى فيما يصرّح القرآن الكريم قوله سبحانه : **﴿ لَيْسَ ٱلبِرُّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلمَشْرِقِ وَٱلمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ ٱلبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَٱليَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلمَلائِكَةِ وَالكِتابِ وَٱلنَّبِيِّينَ ، وآتى ٱلمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوي ٱلقُرْبى وَالْيَتامَى وَالْمَساكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبيلِ وَالسَّائِلينَ وَفي ٱلرِّقابِ ، وَأَقامَ ٱلصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ ، وَٱلمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا ، وَالصَّابِرينَ في البأساءِ وَٱلضَّراءِ وَحِينَ ٱلبأس ، أُولئِكَ ٱلَّذينَ صَدَقُوا ، وَأُولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾**(١) .

إنّ الأصل الأساس في التربية الإسلامية هو أن يكون بين الإنسان وربّه إتصال دائم لا ينقطع ، وأن يكون خوف الإنسان وحبّه وتفويضه أمره إلى الله فقط ، فهو المرجع إليه ترجع الأمور كلها ، وعلى العبد أن يعمل بكل أوامره وأحكامه في جميع لحظات الحياة .

بمثل هذه العلاقة الحيّة والبالغة بين الله وقلوب العباد يتم كل شيء ويكمل ، وبدونه يخوي كل شيء ويبطل ، وإنّما يتّصف العبد بالأخلاق والفضائل وجميع خصال الخير بمدد ذلك المستند الحق سبحانه .

إنّ الفضائل الإنسانية في الواقع والحقيقة ليست إلاّ ما ينشأ من العقيدة بالله تعالى ومن أحكامه الأبدية ، ولا يمكن أن نتوقّع ظهور الفضائل الإنسانية الحقيقية ممّن لم تستقر قاعدة تربيته على أساس الارتباط الواقعيّ به سبحانه .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٦ .

أين منبع الأمن والطمأنينة ؟

* بحر الحياة المتلاطم .
* عوامل الآلام الرّوحية .
* التفكير المفرط في المستقبل المجهول .
* الأساليب المنحرفة .
* أثر الآلام النفسية .
* أثر الإيمان في طمأنينة النفس .
* تسليم الأمر إلى الله والرضا بقضائه .
* الأماني والآمال غير المحدودة .
* الإكثار من التفكير في المستقبل المجهول .
* الحلّ المطلوب للعُقد النفسية .
* إظهار السـرور .

بحر الحياة المتلاطم

إنّ الحياة بحر متلاطم ، وهي في تقلّب دائم بفعل أمواج الحوادث . فلا أحد يأمَن من أن تهجم عليه فجأة أمواج المصائب وهو على سطح هذا البحر العميق ، فإنّ اللذّة والألم في هذه الحياة كالشحنتين الموجبة والسالبة يواكبان عملهما في كل مكان . وفي إزاء الأفراح والمسرّات توجد الهموم والغموم ، وفي إزاء النشاط والشباب يوجد العجز والهرم . وعلى كل من يعيش في هذه الحياة أن يتحمل ثقل المصائب والآلام ، كما أنّ الذي يدخل البحر سيبتلّ بمائه لا محالة ، كذلك يواجه الإنسان في طول حياته سلسلة من الحوادث المؤلمة والمنهكة ، والحرمان والهزيمة ، وفقد الأعزّة ، وكثير من المشاكل الأخرى .

فمن ينجو بروحه من رؤوس فؤوس المصائب ؟ ومن ذا الذي لا يبتلّ حجره بأمواج الحوادث ؟ غاية الأمر أنّ أنواع المصائب والمشاكل تختلف في كل عهد عن الآخر ، وإلّا فإنّ الآلام والمشاكل ترافق الإنسان في جميع مراحل الحياة .

لم يكن في متناول البشر في أيّ دور من أدوار التاريخ من وسائل الرفاهية والراحة كما هو اليوم ، ولم يطّلع على أسرار الطبيعة المعقّدة كما قد اطّلع اليوم ، ولم ينتصر على مختلف العوامل المضادّة في الحياة كما انتصر اليوم .

إنّ البشر المتحضّر اليوم قد انتصر في ظل العلوم والمعارف وفي ضوء التقنية ، وبفضل استخدامه لمختلف القوى الطبيعية ، على كثير من مشاكله وصعوباته .

ولكنّه بإزاء هذا الانتصار العلميّ الباهر والتوفيق المشرق ، ومع ما له اليوم من مختلف وسائل العيش الأفضل ، ليس فقط لا يُحسّ في قرارة نفسه بالأمن وطمأنينة الخاطر ، والذي يشكل الأساس لحياة سعيدة ، بل هو كل يوم يبتعد عن منيته وهدفه وهي الحياة الهنيئة والعذبة ، فهو لا يرى أنّ هذه الحياة المادّية تمنحه الراحة وتوفّر له السعادة التي هو يسعى وراءها .

ليس بإمكاننا أن ننكر أنّ القلق النفسي والاضطراب في أكثر المجتمعات الراقية يزداد بشكل رتيب يتناسب اطّراداً مع تطوّر الظّواهر العلمية والصناعية والإقتصادية ، واتّساع رقعة الإمكانات الحضارية ووفور النعم . بحيث لم تعد زيادة عدد الباحثين والأطباء النفسيين تفي بالحاجة الحاضرة ، نظراً للزيادة المفرطة في عدد الإصابات النفسية .

كتب الدكتور (شنادير) بهذا الشأن يقول :

« ما الذي له السهم الأوفر في شقاء البشر من أيّ شيء آخر ؟

أنا بصفتي طبيباً أستطيع أن أجيب على هذا السؤال فأقول : هذا هو المرض العُضال المزمن . إنّكم إن تُفكّروا فيه تصابوا بشيء من الخوف ، فإنّ طبيعة الإنسان في معرض أكثر من ألف من مختلف الأمراض . واحدة منها أكثر شيوعاً من سائر الأمراض ، فواحد وخمسين بالمئة من المراجعين إلى الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية هم مصابون بهذا المرض ، وهناك من يقول إنّ عدد الإصابات أكثر من واحد وخمسين بالمئة بكثير .

أخذت تقارير من خمسمأة من المرضى المراجعين إلى عيادة (أوكسنر) في مدينة (نيو أورايان) وجاءت النتائج : إنّ أكثر من سبعة وسبعين بالمئة مصابون بهذا المرض . ومن الممكن أن يصاب به كل أحد وفي أيّ مرحلة من العمر والحياة . وبعد فاللازم لعلاج هذا المرض مصارف وتكاليف باهظة بل مدهشة .

وأمتنع أنا من أن أتسرّع في التصريح باسمه حذراً أن تتسرّعوا في إساءة الظنّ بي . وأذكر لكم خصائصه فأقول : إنّ أول خصيصة له هي أنّه ليس

مرضاً واقعياً ، وإنّما جرى على الألسن أن يسمّوه مرض أعصاب ، ويسمّونه اليوم مرضاً نفسياً جسمانياً . وليس هذا مرضاً بمعنى أن المصاب به يفكّر في أنّه مريض حقّاً ، بل هو يتألم منه كما يتألم أحدنا من داء كيس الصفراء .

وليس المرض النفسي الجسديّ شيئاً ناتجاً من الميكروب أو الفيروسات أو من النموّ الخارق لبعض أنسجة الجسم ، بل هو ينتج من الأحوال والأوضاع المعيشيّة اليومية ، فكلما غطّت الإنسان قشرة سميكة لا تخرق من المشاكل والوساوس النفسية ، بحيث لم يتمكن من أن يخرج فينطلق متحرّراً من قيودها ، وارداً إلى عالَم السرور والطمأنينة ، عند ذلك نطلق عليه أنّه مصاب بالمرض النفسي الجسدي »[1] .

ويقول (فرويد) :

« إنّ الإنسان الوحشيّ كان يُشبع غرائزه أحسن وأفضل من الإنسان المتحضّر اليوم ، وكانت حياته بعيدة عن القلق والإضطراب ، ولم يكن يُصاب بالأمراض الروحية ، ولكنّه منذ دخلت الصناعة والحضارة الحديثة بوّابة الوجود وأصبح البشر متحضّراً ، عرضت عليه أمراض نفسية شديدة »[2] .

عوامل الآلام النفسية

إنّ من عوامل القلق والاضطراب هو الاعتياد على طلب الزيادة ، ففي الأجواء التي تدور أفكار الناس على المحاور المادية ، وتكون فيها الثروة واللذّة الفانية هي مقياس السعادة والشقاء ، ويكون كل واحد فيها في سعي دائب ودائم لإشباع شهواته النفسية ، في هكذا مجتمع لا شك أنّ الحياة ستكون مليئة بالضغوط والآلام ؛ ذلك أنّ مساعي الإنسان مهما كانت واسعة فإنّها لا تقدر على كفاية حرصه وتحقيق كل آماله وأمانيه ، وكثيراً ما توجد بين ميوله وأهدافه

---

(١) بالفارسية : كليدهاى خوشبختى .

(٢) بالفارسية : روانشناسى در خدمت سياست : ١٣١ .

والوصول إليها سدود رصينة لا يقدر على اقتحامهـا وتجاوزهـا ، وبالتـالي يصاب بمختلف الآلام والوساوس ، وباضطراب أفكاره تتألّم نفسه وأعصابه بشدة . ومن ناحية أخرى فبما أنه قد علق آماله بأمور غير ثابتة هي معرضة للفناء والـزوال في كل لحظة ، فهي بما فيها من جمال زائل قد تعلق بها قلبـه لا تقدر عـلى أن تمنحه السكـون والطمـأنينة في حيـاته المليئـة بـالاضـطرابـات ، وطبيعي أنّ مثـل هـذا الإنسان لا يُحسّ في نفسه بالسعادة أبداً .

إنّ فكرة الفناء والزوال المطلق عامل مهم في إصابة النفس بـآلام مُنهكة ، وأنّه إذا افترض الموت آخر مـراحل الحيـاة ونهاية كـل شيء ، فـإنّ شبـح العدم المهـول سيخيّم عـلى النفس ، وسيجعـل أيّ نشـاط في الحيـاة مـرّاً ، واليـأس العارض له ولا سيّـما في آخر عمـره والضغوط النفسيـة بصورة عـامة ستجعله في معرض عذاب أليم .

كذلك الإضطراب الناتج من الخوف والشعور بمواجهة خطر مجهـول ، من دون أن يقدر على أن يعـينّ مصدر خـوفه المجهـول ، وسائـر الأفكار والخيـالات والأوهام ستزلزل استقرار نفسه ، وستصبح كمطارق ثقيلة تجعل أعصـابه المتعبـة تحت ثقلها ووطأتها .

فمنهم من يشكو من عدم الأمن على مالـه ويشكو المشـاكل الاقتصـادية ، فهو في قلق دائم ، ومنهم من يشعر بالخوف من كـثرة مالـه وثرائـه وقد حـاصرته آلاف المشاكل المالية . ومنهم من يتصوّر أنّ قيامه بالتزاماته المالية صعبة للغاية لمـا يواجه من مشاكل ، فهو لذلك يرى من حقّه أن يكون في خـوف دائم . ومنهم من يعتـاد الانتقاد والتـوقف على الأمـور الجزئيـة بحيث يتعب نفسه ومن حـولـه ويتبرّمون منه ، فهم لإبراز غضبهم يبحثون عن الذرائع والحجج ، من أجـل أن يبدأوا بالشكوى والأنين .

وفي ظلام الليالي المظلمة بالخصوص تتسم مشاكل الحيـاة بصُورة مهـولة ، في حين أن التعب الناتج من الأعمال اليومية يغطّي على عقله ، فيخمد عقله عن

إصدار الأحكام الصحيحة ، بينما الخيال باق على نشاطه وفعّاليته ، فعندئذٍ يرى الخيال والأوهام أنّ لا معارض لجولانها في ساحة أفكار الإنسان ، فتقوم بتعذيبه بشدّة .

إنّ من يقع ضحية الخوف والأفكار القلقة على أثر بعض أخطائه الصغيرة (أو الكبيرة) عليه أن يعلم أنّه إذا صدر منه ما كان ينبغي أن لا يصدر ، فإنّ حكّ الفكر بمبرد القلق والإضطراب ممّا لا عائد فيه. ثم هو لا يحقّ له أن يشكو ممّا يواجه من مصائب نتيجةً لأعماله السالفة ، فإنّ من غرس بذرة فعليه أن يحصد منتوجه ، فإن كان قد غرس بذر فساد فمن الجاني ؟ أفهل له أن يحمل ذلك على الدّهر فيتّهمه في ذلك ؟! .

إنّ الإنسان إذا أراد أن يخاف مما ارتكبه من الخطأ ويرى عواقبه وآثاره كبيرة أكبر من واقعها ، فإنّه ينشغل بذلك عن التفكير في العلاج ، إذ لا يمكن أن يفكر المرء في موضوعين .

من المسلّم به أنّه ليس بإمكان الإنسان أن يوفّق لحل مشاكل حياته بالقلق والاضطراب ، وأنّ التشويش لا يزيد في مهارة من ارتكب خطأً ليقوم بجبرانه ، وأنّه لا أثر للحسرة والأسف فيما سلف من ذلك ، وأنّ ذلك لا يُغيّر من كيفيّة سير الحياة الفائتة في ظلام العدم ، وأنّ النتيجة الوحيدة التي يحصل عليها الإنسان من هذه الأفكار السوداء هي أن تظلم حياته ويبطل نشاطه .

بل لا بدّ من استقرار الخاطر كي يتمكن الإنسان من أن يجد طريق الحلّ بتدبيره ، ثم يسعى لكي لا يتكرر خطأه. نعم بالفكرة الرشيدة يتمكّن الإنسان من أن ينظّم خصائصه الأخلاقية .

الإكثار من التفكير في المستقبل المجهول

إنّ لكميّة التفكير الذي يصرفه الإنسان في حاله أو مستقبله أثراً كبيراً في استقراره النفسي ، فهناك من يهتمّ بالنسبة إلى المستقبل أكثر من اللازم بكثير فهم

بالتالي يفتقدون فرصة التمتع بحاضرهم . أو لا يهدّدهم خطر في الحال الحاضر ولكنّهم يحذرون أن تصيبهم فتنة أو حادثة أليمة في المستقبل ، فتسيطر على نفوسهم وحشة كبيرة كما لو كان الخطر واقعاً حقيقة .

بينما علينا أن نلتفت إلى أنّ الماضي لا يؤثر في الحاضر ، ولا يمكننا التنبّؤ بالمستقبل ، إنّ ما ينبغي أن يؤلم الإنسان ويقلقه من حوادث المستقبل هو ما كان وقوعه قطعياً مئة بالمئة ، ومن نافة القول أنّ ذلك قليل جدّاً ، إذ قليلاً ما يتّفق أن يطابق وقوع الحوادث في المستقبل مع ما يتنبّأه الإنسان تماماً .

كتب أحد الدارسين في المؤسّسة الفنيّة لدايل كارينجي يقول :

« لاحظوا جيّداً أنّكم تتوجّهون بالتقدير بين أصدقائكم وحتى أقربائكم أصحاب الأفكار الإيجابيّة وتحبّون أن تكونوا معهم في الأكثر ، وتلاحظون أنّ فيهم كذلك أصحاب الأفكار السلبية ممّن تتبرّمون بوجودهم ومزاحماتهم .

إنّ أصحاب الأفكار الإيجابية أكثر سروراً وحيوية ونشاطاً ، إنّهم يقومون بأعمال وينجزونها ، ومن الطبيعي أن يكثر خطأهم أيضاً ، ولكنهم يتمتعون من الفكر ما يقفون به على أخطائهم فيصلحونها ، ولهم من الإرادة الجادّة ما يستأنفون به أعمالهم وجهودهم . إن هؤلاء لا يهدرون أوقاتهم بالقلق والاضطراب بالنسبة إلى ما قد لا يكون أصلاً .

إن في كل أربع وعشرين ساعة يدخل فضاء الأرض من الأحجار السماوية أكثر من عشرين مليون صخرة ، ولكننا لم نَر لحدّ الآن في أيّ مكان وزمان من يقتل بواحدة من هذه الصخور .

ويقول (مارك تواين) :

« أنا رجل كبير وأعرف كثيراً من المشاكل والمصائب وأعلم بها ، ولكنّي أعلم أنّ كثيراً منها لم تقع أصلاً .

إنّ الحياة نهر جار من المشاكل ، ولا بد لكل مشكلة من قرار مواجهة .

وإن كثيراً منها مما نهتمّ به ونسمح له أن يؤلمنا وأن يحطّم سعادتنا لعدة ساعات بل كل ذلك النهار ، هو في الواقع ممّا لا أهمية لـه ولا أثر ، ولكنّ المشكلة في الـواقع هي أنّنا لا نتمكّن من أن نفكّر في قلة الاهتمام بها في حينها »[1] .

وسواء تحقّقت تلك الأخطار أو لم تتحقق ، فإنّه لا فـائدة في ذلـك الخوف والقلق الحاضر سوى استنزاف شيء من القوى المعنوية والبدنية . إنّ من الممكن أن يواجه الإنسان في مختلف مراحل عمره حـوادث تسدّ عليـه طريق المـوفّقية في الحياة . لكن لا جديد في هذه الحوادث ، وهي تقع للجميع ، ولا نستطيع نحن أن نغيّر النواميس الكونية الطبيعية فنسخّرها لصـالحنا . لكن هـذا كله من الخطر الخارج عن كياننا .

ولا يقل الخطر الذي يهدّدنـا من الداخـل عن تلك الأخطار الخـارجية عن وجودنا، بل كثيراً ما يكون الخطر الداخلي أشدّ وأكثر من الخطر الخارجي. إنّ في داخل أي فرد منّا قوى هدّامة تهدّد استمرار حيـاتنا . وذلـك الخطر المتكـدّس في كياننا هو خطر القلق والاضطراب ، والذي قد يصاب به الإنسان وهـو لا يشعر بوجوده .

لو كانت تلك القوى الجسدية والفكريـة التي تنعدم بفعـل القلق والخوف من توهم الحوادث ، لـو كانت تصرف في الأعـمال الإيجابيـة كم كانت تثمـر من نتائج قيمة وملفتة للنظر .

ليتذكّر كل واحد منّا كم صرف من عمره الثمين في التفكير في كيفية مواجهة الحـوادث المحتملة ، وباستثنـاء مـوارد قليلة فـإنّ تلك المشـاكـل والمصـائب التي تصيبنا أقلّ بكثير من الآلام التي نتحمّلها بما نتصوره من حوادث المستقبل .

كتب (كرونين) يقول :

« أعدّوا فهرساً ممّا ترونه السبب في قلقكم واضـطرابكم ، فإذا رأينـا علل

---

(١) عن الترجمة الفارسية : تفكر صحيح : ١٠٨ .

القلق على الورق فإنّنا نلاحظ أنّها مجملة مبهمة بل لا أهمية لها . في أكثر الأحيان تنتظم صحيفة اضطراباتنا هكذا : أربعون بالمائة من المصائب التي لا تحدث أبداً ، وثلاثون بالمائة من الهموم والغموم الماضية والآتية ، ممّا لا يؤثّر فيه ما لو أجمع أهل العالم على التألم له ، واثنا عشر بالمائة من خوف لا أساس له على فقدان الصحة والعافية ، وعشرة بالمائة من المواضيع الجزئية التي لا أهمية لها ، وثمانية بالمائة فقط قد تكون أسباباً واقعية للقلق والإضطراب . إن التجربة تدلّنا بصورة قطعية إلى أن نحذف عدداً من أسباب القلق غير الواقعية ، فإنّ ما نخافه أكثر من كل شيء لا يتحقق منه شيء إلّا نادراً ، ومع ذلك فما أكثر ما نتجرعه من هستريا الأحزان على حالنا ومستقبلنا .

لنحدث تحوّلاً في حياتنا بأن لا نرى أنفسنا محوراً لها ، بل ندرك حقيقة أنّ وجودنا إنّما هو جزء من المجتمع البشري ، وأنّ حياتنا تتبع في خيرها وشرها للأسرة والجماعة والأمّة والفرق التي نحن ننتمى إليها .

إنّنا بعد أن نحلّل المشاكل فلا نجد لها حلاً ، فمن الكفر والإلحاد أن نبقي محزونين لذلك ، فإنّ هذا اليأس من فرج الله يحكي عن عدم الاعتقاد بالحاجة إلى عون الله تعالى . وسوف لا تنفع من يبقى رهين الأحزان أية حكمة أو فلسفة مهما كانت حكيمة عالية . إنّنا إذا اتّبعنا حكم العقل فعملنا بالحكمة في حياتنا بلغنا إلى قمة لا يبلغها عدوّنا ، وسنصل بذلك إلى حقيقة الراحة النفسية »[1] .

إنّ القلق الفكري يبدو أثره واضحاً في جميع الأعمال التي تتم باليدين ، وقد يتّجه الإنسان إلى ردود فعل وسبل منحرفة وطرق ملتوية غير معقولة . ومن أضرار اضطراب الفكر أنّه يفقد صاحبه الطمأنينة وإحساس الثقة .

لقد اعتاد كثير من الناس على أن يشكو دهرهم وحظّهم ، ولا يبدون

---

(١) بالفارسية : دانستينهاى جهان علم : ٤٨ ـ ٥١ .

الرضا من حياتهم ، إنّهم يتصورون أنّهم لا يستطيعون أن يتمتّعوا بحياتهم ما لم تستقم أعمالهم ، وما لم تكثر أموالهم وثراؤهم ، وما لم يمتلكوا وسائل الرفاه والراحة التامّة ، فهم يفتّشون عن السعادة في الآفاق البعيدة ، ولذلك فهم يخسرون رأسمال أعمارهم ـ وهي الدقائق التي تمرّ عليهم ـ لأحلام مستقبلهم .

في حين أنّهم لو كانوا يريدون سعادتهم واقعاً ، لكان بإمكانهم أن يكتشفوا السعادة في نفس حياتهم الآمنة وإن كانت حقيرة في جانبها الماديّ . فإنّ أساس الحياة إنّما يبتنى على اليوم الحاضر ، أما الغد الذي يأملونه وكأنّه يتجلّى لهم جنّة الحياة فإنّه ما إن يصل حتى يتجلّى لهم كجحيم هائل .

إنّ الذي يحسّ بالتعب والتبرّم من حياته الحاضرة فهو ينتظر في الآفاق المظلمة المجهولة أوضاعاً أجمل وأكمل ، عليه أن يتنبّه من نوم غفلته ويبحث عن أمله الضائع في نفس هذه الأيام المملّة الحاضرة لا في مرآة الخيال من المستقبل المجهول ، فإنّ الموانع التي يراها على طريقه دون تحقيق آماله إنّما هي من نتاج أفكاره هو ، وإن توفيقه وسعادته في باطن يومه الحاضر . فإن لم يغرس اليوم غرساً فإنّه سوف لا يحصد شيئاً ، وليس العمر مكرّراً كي نصحّح أخطاءنا فيما نستقبل من أعمارنا .

إنّ الإنسان العاقل يفيد أكثر إفادة من كل دقيقة تمر من عمره ، وكأنّها قطرات أمطار تصبّ في بحر العدم المظلم ، فهو لا يخسرها بلا فائدة ، ولذلك فهو كل يوم في تقدم ، وأفق حياته أكثر نوراً وإضاءة ، وروحه في معنوية وانفتاح وتوسّع . فهو يصون موقعه في مواجهة الحوادث المؤلمة كقطب الرحى ، فالحوادث إن مرّت عليه كالعاصفة فإنّه لا يزل ولا يتعثر ، بل يفيد منها أحسن إفادة ، فهو يأخذ منها دروساً من العظات والعبر ، ولا ينتظر أن يتغيّر العالم فيوافق أحلامه وتصوراته . وبالتالي فإنّه يُقضي ساعات عمره بحيث إذا انقضى كل يوم منها فإنّه لا يكون نادماً أو متحسّراً على ذلك .

وهناك آخرون لا يبالون بالحاضر والمستقبل ، إنهم لا يهمهم اليوم ولا

يحلمون ولا يأملون أملاً في المستقبل ، بل إنّهم لا قرار لهم فهم في حسرة دائمة على ما فاتهم من الفرص والمناسبات الذهبيّة التي قد دفنت في مقبرة العدم . فهم بدل أن يتابعوا سبيلهم في ساحة الحياة بكل ثقة وطمأنينة ، يتلفّتون إلى ما وراءهم ، كتائه في البيداء الشاسعة ، يعيدون النظر فيما واجهوه من حوادث مشؤومة وما كان لهم من أخطاء فيها ، وهكذا يخسرون بقية أعمارهم الثمينة ، وهم سوف يتحسّرون على ما يضيّعون من هذه الفرص من أعمارهم في المستقبل .

ولا شك أننا لا نحرز أيّ تقدم في أعمالنا بتذكّرنا للحوادث المؤلمة السالفة وأخطائنا فيها ، وتحرّقنا عليها بنار الهموم والغموم . أضف إلى ذلك أنّ الروح تتعب بهذا ، والطاقات تذهب هدراً ، ولا يقدر الفرد على اختيار سبيله الصحيح وفقاً لمصالحه .

ونحن حينما نقول إنّ عليه أن يلتفت إلى وقته الحاضر ، لا نعني بذلك أن يعمل اليوم عملاً سوف يرى ثماره المرّة غداً ، أو أن يوقد اليوم ناراً يحترق هو فيها غداً ، بل نقول : لا ينبغي أن يكون اليوم مضطرباً من خوف غده فيعدم راحته أسفاً على ما فات وحذراً ممّا سيمرّ .

اتّخاذ الأساليب المنحرفة

إنّ الحاجة والحرمان يولّدان الآلام . ولهذا نرى الناس دائماً في كفاح ضدهما ، أمّا الذين تؤمّن حاجاتهم الماديّة فهم يصابون بنوع من الكسل والملل والألم الروحي ، وللتخلّص ممّا يجدونه من قلق واضطراب يختارون طرقاً وأساليب حسب ميولهم وأهوائهم تؤدّي بهم في أكثر الأحيان إلى إهدار طاقاتهم الحيوية وقواهم العقلية ! فإنّهم مثلاً يلجأون إلى الكحول أو المواد المخدّرة الأخرى ، ويصابون بهذه الابتلاءات الجهنميّة ، وهم يزعمون التخلّص من آلامهم النفسية ولو لفترات قصيرة ! .

إنّ أكـثر هؤلاء إنّما يفكّـرون في هـذه الأحـوال ـ فـراراً من ضغط الهمـوم والغموم والأحزان ـ فيما قاله الشاعر الفارسي : « سـأتفق أنا والسـاقي للعتق من الـرّق » ! وهو لا يقصـد سوى أنّـه للإنعتـاق من رقّ الغموم ونـيران الأحزان لا سبيل له إلاّ اللّجوء إلى سكر الشراب وتخديره ! .

بينما الحقيقة هي أنّ هؤلاء يهدمون بذلك أساس سعادتهم بـأيديهم ، وإلاّ فـإنّه يعلم الجميـع أنّ الإبتـلاء والتلوّث بهـذه الأمـور للتخلّص من الاضـطراب والآلام الروحية ، سوف لا يثمر النتـائج المـرجوّة منهـا ، فبمحض ما يـزول أثر التخدير يحيط به ما كان فيه من الألم والعذاب ، ويضغط عليه الضغط الشديد . عـلى أنّ أثر هـذه المخدّرات يقـل شيئاً فشيئـاً مع استمـرار استعمالها تدريجيّـاً ، وستكون هي منشأ لكثير من الشقاء والأمراض تأخذ برقبته .

ويشرح بعض علماء النفس علل لجوء الإنسان إلى الكحول فيقول :

« إنّ شـاربي الكحول غـير قـادرين عـلى إشبـاع رغبـاتهم في هـذه الحيـاة المعقّدة ، ولذلك فهم للفرار من المشاكل من خلال التصوّرات الـواهية يلجـأون إلى شرب الميـاه الكحوليـة ، وهي تعـود بـالأثـر السيّيء عـلى الأعصـاب والمـخ سريعـاً ، والاعتياد عـلى ذلك يـوجب فساد الجهـاز العقلي لـديهم . والسكـران تصدر منه أعمال غير طبيعية مّما يعـود عليه بـأضرار لا يمكن استدراكهـا ليس في صحّتـه وسلامتـه فحسب ، بل إنّـه سوف لا ينجـو من مشاكله من خـلال هـذ السائل المضرّ والمسمـوم ، بل ينقص بـذلك من كـرامته لـدى أصدقـائه وأقـرانه وأقربائه وأسرته وعائلته وبيته . إنّه حينما يؤوب إلى حالته الاعتيادية تقصر طاقتـه عن مـواجهة مشـاكله . فهو بشربـه الكحول لا يحصـل عـلى أي تقـدم في حـلّ مشاكله ، وإنّما يضيف ذلـك إلى مشاكله وأتعابه ، وهذا مما يجره إلى الإقبال على الكحول مرة أخرى ! .

إنّ حـالات شارب الخمـر تُشبـه حـالـة المتخيّـل ، إلاّ أنّ لشرب الخمـور أضراراً جسدية أكثر ، ويجمع بينهما أنّهما لا يحاولان حلّ مشاكلهما بالطرق المعقولة

وإنّما هما يـريدان الفـرار بالخيـال ، وحيث أنّ هذا الفـرار لا يكون أبـدياً فـإنّهما سيرجعان إلى عالم الحقيقة والواقع وحينئذٍ يكون اصـطدامهما بـالواقـع أكثر حـزناً وكآبة من ذي قبل »[1] .

إنّ للأفكـار آثـاراً عميقة في الاستقـرار الرّوحي لـلإنسان ، وبكلمـة فإنّ الحالة الروحية لكل أحد ترتبط بطريقة وأسلوب تفكيره . وهناك مختلف العوامل التي تؤثر في طريقة وكيفية تفكير الأفراد ؛ فـالذي يتمتـع بعقلية فعّـالة نشـطة لا يتعرّض لعواصف القنوط المطلق ولا يُـظلم العالم في عينيـه بمحض ما ييـأس من الإفادة من عالم المـادة ، بل إنّـه سيسدّ منـافذ روحـه على الأمـور الماديـة ويحاول الإفادة من اللذّات المعنوية ، ولهذا فإنّه بـذلك يبعث بنفسـه إلى عالم يتحـرر فيه من أسر الآلام ويرتوي فيه بكأس السعادة . في حين أنّ أصحاب النظرة الضيّقة من أجل الإنطلاق من قيـود القلق يلجأون إلى الإفـادة من وسائـل عالم المـادة ، وحيث أنّ أهواء الإنسان في تحوّل وتغيير دائم ، والعـالَم بدوره لا يبقى فيـه شيء ثابتاً على حالة واحدة ، فإذا كانت سعـادة الإنسان مـرتبطة بـأمور أخـرى كانت كذلك في معرض الزوال والعدم . ولهذا فإنّ مثل هـذا الإنسان يكـون كالغـريق في بحـر محيط عميق يتشبّث بكل حشيش ، ويتـوسّل بـأمواج لا تقـوم بإنقـاذه ، وبـالتالي فـإنّ أيّاً من المـواد الفانيـة غير البـاقيـة لا تقـدر عـلى أن تمنحـه القـرار والثبات .

يشرح (كارلوس) شقاء هؤلاء فيقول :

« ترى أحدهم من أجل أن يفر من الكسل الذي يُحسّه يترك قصره الجميل ويتشبّث عبثاً بمختلف الوسائل . وآخر يبتعد عن زوجتـه وأولاده بسرعة ، وكـأنّه يُسرع إلى إطفاء حريق ، ولكنّه من دون أن يصل إلى هدفه يـواجه عـدوّه اللّدود أعني الألم والكسل الروحي فيه ، فيرجع إليهم بنفس السرعة التي فـرّ بها منهم ، وهو هكذا لا يزال كالمجانين في ضلال وضياع »[2] .

---

(١) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ٢٣٠ .

(٢) بالفارسية : أفكار شوبنهاور : ٦٤ .

الآلام النفسية وآثارها العميقة

إنّ الإنسان لا بدّ له في سبيل حصوله على حاجاته في حياته من تحمل كثير من المشاكل والآلام الجسدية والنفسية ، فإنّه من خلال هذا السعي الحثيث الذي يقوم به لإعداد وسائل راحته المادية ، تتعالى قواه العقلية والروحية ، ويتقدم نحو الكمال .

إنّ للمشاكل والآلام آثاراً عميقة وواسعة في حياة البشر ، فإنّ القوى النفسية تتهذّب تحت ضغط المصائب ، وتتجلّى في ظلام الآلام أكثر .

إنّ الإنسان لو لم يتألم من جهله منذ الأيام الأولى من حياته لما كان يحاول أن يعالج جهله هذا ، ولكان يبقى في ظلمات الجهل والتوحش ، ولما كنّا نرى اليوم أثراً من مظاهر عقله وذوقه وأخلاقه . إنّ إحساسه بألم الجهل هو الذي دفعه إلى أن يقوم بمقاومته والكفاح ضدّه .

إنّ أساس كل تكامل للإنسان وكل تقدم له في الأمور الفردية والاجتماعية والمدنية إنّما بُني على هذه القاعدة ومن خلال هذا المنطلق ، وإنّ أكثر الانتفاضات الاجتماعية الكبرى التي أصبحت عنواناً لتقدم الإنسان ومنطلقاً لتعاليه ، إنّما ظهرت نتيجةً لمشاكل وصعوبات لا تطاق . إنّ الصعوبات والحوادث المرة وإن كان ظاهرها مجّاً مرّاً ، واللذّات والشهوات وإن كانت عذبةً مرضيّةً ، إلاّ أنّ الواقع والحقيقة أن الأمر بالعكس تماماً ؛ فإنّ تبعيّة اللذّات والأهواء تستتبع الإنحطاط والشقاء والتعاسة ، بينما تستبطن المصائب والمشاكل السعادة والهناء ، وإنّ هناك تلازماً قطعياً بين تحمّل الآلام ونيل السعادة ، وإنّ العلاقة بين المشاكل والمصائب والسعادة والكمالات علاقة سببيّة .

يقول (هيجل) الفيلسوف الألماني بهذا الصدّد :

« إنّ تنازع البقاء هو قانون التقدم والتطوّر ، وإنّ الصّفات والسّجايا إنّما تتكوّن وتتكامل في معركة البلابل والقلاقل ، وإنّما يبلغ الفرد قمة تعاليه من

خلال الآلام وتحمل المسؤوليات والقلق والاضطراب ، وإنّ وقوع الآلام أمر معقول وهو سمة الحياة وهو كذلك الدافع إلى الإصلاح فيها .

وليست الحياة للاستقرار والرضى الناشيء عنه ، بل إنّما هي للتكامل فيها وإن تاريخ العالم ليس صعيداً للسعادة والهناء ، بل إنّ أدوار السعادة فيها إنّما تشكّل منها تلك الصحائف الباهتة الميّتة غير ذات الروح والحيوية ، فإنّها إنّما هي أدوار الإلتئام والإنسجام والتناغم ، وإنّ رضا الخاطر الناشيء عن ذلك لا يليق بالمرء ، فإنّ التاريخ إنّما يصنعه ، ويسطره ما يسجّله التكامل الإنساني من حلّ لتناقضات العالم »[1] .

إنّ الصاغة وأصحاب الصناعات إذا أرادوا أن يخلّصوا المعادن من المواد الزائدة ، ذوّبوها في النار ، وإنّ لمصائب الحياة نفس هذا الأثر على بني آدم ، فإنّها تطهّره وتنزّهه عمّا يلوّثه ، وتعدّه لكي يقوم بتكاليفه الإنسانية . وبكلمة : فإنّه لا يمكن ضمانة سعادة أي فرد من أفراد البشر وبقائه إلاّ في ظلّ الآلام والمشاكل ، كما جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾[2] .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« إنّ أشدّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل »[3] .

ويقول (مولوي) عن هذه الحقيقة :

« أودعوا في الأرض حبّة	حصدوا منها سنابل
طحنوها في المطاحن	خبزوا منها المآكل
كرّروا الطحن بأسنا	ن حدادٍ وفواصل

(١) عن الترجمة الفارسية لتاريخ الفلسفة لويل دورانت : ٢٤٩ .

(٢) سورة البلد : الآية ٤ .

(٣) بحار الأنوار ١٥ : ٥٣ ط قديم .

حصلت منها ثمار الرّ ... وح بل كل الفضائل »[1]

ويقول أحد العلماء الغربيين :

« إنّ المشاكل والمشاق تجعل الإنسان في موقعية الاختبار أكثر من حالة الراحة ، فتبدي ما في باطنه من مزايا ومحّسنات . إنّ المشاكل والصعوبات بمثابة اختبار لأخلاق الإنسان ، فكما أنّ بعض النباتات يجب أن تفرك كي يشمّ منها رائحتها الطيبة كذلك بعض الطبائع يجب أن تصاب بالصعاب كي تتجلّى فيها فضائلها وملكاتها الذاتيّة .

لا راحة في هذا العالم لا تتبدّل إلى ألم ومصيبة ، كما أنّه لا مشكلة لا تؤدّي في النهاية إلى السعادة والهناء ، وما يعود علينا من نتائج في هذه الحالات يعود إلى كيفية إفادتنا منها .

لا يمكن أن نجد في هذه الحياة راحة وسعادة تامّة ، وعلى فرض ذلك فلا فائدة فيها . فإنّ المشاكل والانتكاسات مؤدّب أفضل من الهناء والراحة ، وإنّ الانتكاسات تصلح طبيعة الفرد وتقوّي من روحيّته ومعنويّته ، وإنّ الآلام والمشاكل تهذّب طبيعة الإنسان وتوقظها ، وتعلّمه الصبر والحلم ، وتنمّي فيه أسمى الأفكار والخيالات . يتساءل هيبر : ما هو الذي يسبّب توسعة الأفكار وعمقها في نوع الإنسان ؟ ليس ذلك هو العلم والمعارف ، وليس الكفاءة والفن ، وليس العواطف والأحاسيس ، بل إنّما هي الآلام والمحن التي بإمكانها أن تشقّ أعماق الفكر الإنساني . ولعلّه لهذا نرى العالم مليئاً بالآلام . إن الملك الموكّل بمشاكل الناس ومصائبهم قد خدم البشر في هذه الحياة أكثر من الملك

---

(١) الأبيات في الأصل الفارسي :

گندى راز يرخاك اندا ختند ... بس زخاكش خوشه ها **برساختند**

بارديگر كوفتند ش زآسيا ... قيمتش افزّون ونان شدجان فزا

بازنان راز يردندان كوفتند ... گشت عقل وجان وفهم سودمند »

وتعريب الشعر للمعرّب .

الذي جاء لهم بالشفاء والعلاج »[1]

أثر الإيمان في طمأنينة النفس

إنّ التحقيق في تاريخ التقدم البشري يثبت لنا أنّ أركان حضارة الإنسان وثقافته كانت ولا تزال على عاتق من كان « إيمانهم » يهوّن عليهم تحمّل الأحمال الثقال من الآلام والمشاكل ، فهم قد أحبطوا بإيمانهم آثار المصائب والآلام في قلوبهم القويّة المقتدرة .

يعترف علماء النفس بصورة عامة أن « للإيمان » ثماراً عجيبة وغير اعتيادية في علاج الآلام الروحية ولإيجاد الطمأنينة والراحة الباطنية .

حينما تحطّم المشاكل المنهكة شخصية الإنسان ، وتسلبه الإرادة والأمل ، فإنّ الإيمان والتوكّل على الله يمنح روحه المنهزمة أثراً كبيراً لا ينكر . إنّ خيبة الآمال والمشاكل والانتكاسات لا تقدر أن تثير في ضمير الرجال الربّانيين أية إثارة ، ولا أن تصيبهم بالضعف واليأس وانعدام الشخصية .

كتب عالم النفس المعاصر (يونك) يقول :

« لم نكن نجد بين المصابين بالأمراض النفسية من أصحاب الأعمار ٣٥ عاماً والأكثر ، حتى شخصاً واحداً لم تكن ترجع مشكلته النفسية إلى عوز في الإيمان الديني . والأفضل أن نقول : إنّ كل واحد منهم كان مريضاً بعلّة انعدام معطيات الدين فيه ، ولم يُعالج ولم يُشف أيّ واحد منهم من دون استعادته لإيمانه الديني »[2] .

إنّ الإيمان بالله نافذة أمان لإيجاد التوازن في الأهواء النفسية التي هي منشأ لكثير من الاضطرابات النفسية ، وبالإيمان بالله تتكامل صورة الحياة ، فإنّ

---

(١) بالفارسية : أخلاق ساموئيل ٢ : ٢٠٤ .

(٢) بالفارسية : جهان مادّيات : ٤١ .

الإنسان حينما يعتقد أنّ الحياة لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا بسيحدث ذلك في نفسه طمأنينة خاصّة ، وسيخطو في حياته بصورة معتدلة نسبيّاً .

وبالإيمان بالله وتنفيذ القواعد الدينية الأخلاقية سيتّزن فيه حبّ التكاثر ، واكتناز الأموال ، والذي هو من عوامل اضطراب الخواطر النفسية ، فإنّ الإنسان بتأميله الثواب العظيم وخوفه من العقاب الشديد يحذر من أن يهجم هجمة همجيّة وبلا رويّة وبصورة غير معقولة ولا مشروعة وبلا حساب على تحصيل المال والثروة وزينة الحياة الدنيا ، وبالتالي فإنّه سيتواجد فيه توازن وتعادل يتناسب ومقامه الإنساني .

كذلك الاعتقاد بيوم المعاد والحياة بعد الموت يخفّف عن كاهل الإنسان ثقل تصور العدم والفناء المطلق . إذ هو يعتقد أنّه بالموت ستنفتح عليه أبواب عالم آخر ، ومن ذلك سيصل إلى الحياة الأبدية والنعم الخالدة ممّا لا يمكن قياسه بلذائذ هذا العالم . ومن خلال ذلك سينعدم عامل آخر من عوامل الاضطراب هو خوف الفناء .

إنّ الإيمان لا يرفع الآلام والقلق عن قلب الإنسان فحسب ، بل بإمكانه أن يمنع من هجوم القلق والاضطراب على القلوب فلا تصل إليها . والقرآن الكريم يشير إلى هذه الوقاية الإيمانية فيقول : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾(١) .

في هذه الآية ذكر الله تعالى أنّ الإيمان يوجد درعاً متيناً لروح الإنسان أمام عوامل الآلام النفسية ، وكذلك تحدث في الإنسان حصانة خاصة ضدّها . إنّ الإنسان حتى لو لم يكن يتّصف بإيمان كامل ولذلك فقد عَشْعَشَت عوامل الآلام في باطن نفسه ، مع ذلك فلا شيء سوى الإيمان الذي باستناده يمكن أن تتحرّر الخواطر من ثقل الهموم والغموم وأن تزول آثار الآلام عن ضمير القلوب ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية١٣٣ .

والقرآن الكريم يقـول : ﴿ **ألا بذكـر الله تطمئنّ القلوب** ﴾[1] . و﴿ **هـو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنـين** ﴾[2] و﴿ **الذين آمنـوا ولم يلبسوا إيمـانهم بظلم أولئــك لهـم الأمـن** ﴾[3] و﴿ **ألا إنّ أولـيــاء الله لا خـــوف عـليـهـم ولا هـم يحزنون** ﴾[4] .

ويقـول أمير المؤمنـين (عليه السـلام) ضمن خطبـة في ذكر ثـمار ذكـر الله وأوصاف الرجال الربّانيّين :

« إنّ الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب ، تسمع بـه بعد الـوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة . وما برح الله ـ عزّت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة ، وفي أزمان الفـترات رجال نـاداهم في فكرهم ، وكلّمهم في ذات عقولهم »[5] .

لا يمكننـا أن نقـارن أو نقيس حـال المؤمنـين بـالمـادّيـين غـير المتـديّنين في مواجهتهم للحوادث المرّة في الحياة، فإنّ الاختلاف بينهـما كاختـلاف الأرض عن السماء ! .

كتب مؤرّخو السيرة : إنّ إحدى النساء المسلمات في المدينة بلغهـا الخبر : أنّها قد فقدت في جبهة حرب « أحـد » ثلاثـة من أعزّائهـا . فتوجّهت نحـو أحد ومعها جمل كي تحمـل عليه أجسـاد أعزّائهـا الشهداء ، وحملت أجسـاد أعزّائهـا المضرّجة بدمائها على البعير ورجعت بهم نحو المدينـة . وفي أثناء الـطريق تلاقت معهـا عائشـة زوج النبيّ (صلى الله عليـه وآله وسلم) « كـانت قد خـرجت في نسـوة تستروح الخـبر ـ ولم يضرب الحجاب يـومئذٍ ـ لقيتهـا وهي هـابـطة من بني حارثة إلى الـوادي بمنقطع الحَـرّة ، فقالت عـائشة ، عنـدك الخبر ، فـما وراءك ؟

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

(٤) سورة يونس : الآية ٦٢ .

(١) نهج البلاغة : ٣٤٢ ط الصالح .

فقالت هند بنت عمرو بن حزام : خيراً ، أما رسول الله فصالح ، وكلّ مصيبة بعده جلل » أي صغير[1] .

فأيّ عامل هذا سوى الإيمان بإمكانه أن يمنح روح هذه المصابة هكذا طمأنينة وسكون ؟ ! .

يقول (جان جاك روسو) :

«إنّنا لو كنّا من الموجودات الخالدة التي لا تفنى لكنّا أشقياء جدّاً ؛ ولا شك أنّ الموت أمر مشكل وصعب ، إلاّ أنّ الأمل بأنّنا لا نعيش هكذا دائماً وأنّ هناك حياة أفضل تختم على آلامنا في هذه الحياة ، أمل يمنح النفس الطمأنينة والسكون . ولو كانوا يهدون إلينا الخلود في الأرض هديةً فمن ذا الذي كان يتقبّل هذه الهدية الأليمة ! وعندئذٍ فأيّ أمل كان يبقى لنا في مصيرنا أمام ظلم الآخرين ؟! .

إنّ الجاهل الذي لا يتنبّأ بشيء للمستقبل لا يعرف قيمة الحياة جيداً ، ولا يخاف من فواتها . أمّا الإنسان المثقّف فإنّه يفضل الحياة بعد الموت على هذه الحياة الأرضية ، نعم إنّما الأفراد ذوو العقل السطحي والساذج والمعرفة الناقصة الذين لا يرون إلاّ هذه الحياة الدنيا ، ويرون أنّ الموت أكبر مصائب الإنسان . أمّا العاقل ـ كل العاقل ـ فإنّه يرى أنّ ضرورة الموت هي التي تهوّن عليه تحمّل آلام الحياة »[2] .

التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله

إنّ من لا رصيد له من الإيمان سينهزم أمام عوامل الطبيعة غير المؤاتية والملائمة له ، فإنّه يرى نفسه أسيراً بيد الطبيعة ومحكوماً لقواها القهّارة والظالمة ،

---

(١) مغازي الواقدي ١ : ٢٦٥ .

(٢) بالفارسية : إميل : ٩١ .

وهو حتى لو لم ينهزم في أول مواجهة للمصائب والمشاكل ، فإنّه سيغرق بالتالي عند هجوم أمواج حوادث الحياة .

أمّا الذي يستند إلى منطق الدين فإنّه لا يرى أيّ مؤثّر في نظام الخلقة سوى إرادة الله تعالى ، ويعتقد أنّ آلام الحياة الخارجة عن حدود اختياره إنّما قدّرت له من قبل الرّب الرحيم لتطهير قلبه وتهذيب روحه ، ولهذا فإنّه لا يسمح للمشاكل والمصائب أن تحبط قواه الروحية ، بل إنّه يحتفظ بتوازنه في كل حال ، ويصل بسفينة نفسه في كل حادثة إلى ساحل السعادة والطمأنينة والموفّقية بالاستعانة من قوى الله العلي العظيم ، بل إنّه تزداد لذّاته الروحية مع تزايد آلامه .

حينما مرض (جابر بن عبد الله الأنصاري) وهو أحد الشخصيات المتربيّة في مدرسة الإسلام ، جاء الإمام الباقر (عليه السلام) لعيادته إلى بيته ، وسأله عن حاله .

فقال له جابر : أصبحت أرى الهرم خيراً من الشباب والسقم خيراً من السلامة ، والموت خيراً من الحياة ! .

فقال له الإمام (عليه السلام) : ولكنّنا آل رسول الله لسنا كذلك ، فما ارتضاه الله لنا من السقم أو السلامة والشباب أو الهرم ، والموتَ أو الحياة ، قبلناه وصبرنا على مصائب الحياة » .

ويقول (برتراند راسل) :

« إنّ لحالة التسليم والرضا أثراً في تحقق السعادة ، ليس بأقلّ من أهمية السعي والعمل لذلك . إنّ العاقل في حين لا يبقى عاطلاً أمام الحوادث المرة الممكنة التغيير ، لا يُتلف عمره بالفكرة في التعاسة والشقاء الذي لا بدّ منه ، بل حتى في الأمور غير المرغوب فيها الممكنة التغيير ، إذا كان ما يقتضيه دفعها من الوقت والجهد يعوقه عن الهدف الأسمى استسلم للأمر الواقع .

وقـد يغضب البعض من حدوث بعض الأمـور غـير المـرغـوب فيهـا حتى الجزئية منها ، ويفور من حدّة الغضب لذلك ، وبذلك فهو يهدر كميّة من طاقاته كان بالإمكان أن تصرف في أفضل من ذلك .

حتى في العمل من أجل الأهداف المهمة جـدّاً ليس من العقل أن يعـطف الإنسان كل فكره وحواسّه إلى ذلك العمل ، بحيث يصبح إحتمال الفشل تهديداً دائماً لسلامة خياله وفكره .

فإنّ من شروط التوفيق في أيّ عمـل هو أن يكـون خلوّاً من شائبـة القلق والاضطراب ، فإنّهما قد يعوّقان عن التقدم والإطّـراد والتوفيق . إذن فـالصحيح هو أن يقوم الإنسان بكل سعيه ثم يفوّض الأمر إلى القدر »[1] .

طبيعي إنّمـا نعني من حالـة التسليم وسلوك سبيل الصـبر على مـا قـدّر الله تعـالى ، تلك الحوادث المـرة غير الممكنـة التنبّؤ بهـا والخـارجـة عن حيـطة قـدرة الإنسـان وفكـرتـه ، وإلاّ فـما كـان من الشقـاء والتعـاسـة مسبّباً عن الـوضـع الاجتماعي الفاسـد والغلط والمنحرف عن الإنسـانية فـإنّ علينـا أن نبحث عن جذور ذلك في أعماق المجتمع وزواياه لنقوم بدورنا فيـه من عملية التغيـير ، فإنّ تغيـير هذا الـوضع التعس من تكليف البشر نفسـه . إذن فـلا يصـح أن نـوجّـه الاستسلام أمام أيّ عدوان على الحق تحت عنوان الصبر على قضاء الله تعالى .

يقول العالم الإنجليزي (آويبوري) :

« إنّ الإيمان الدينيّ في أيام التعاسـة والشقاء أفضـل ما نتـوسل بـه لتسلية أنفسنـا ولتخفيف ضغط المصاب عنهـا . إنّ الخلود في هذه الحيـاة الـدنيـا قليـل للإنسان ، وإنّ وراء هذا الخلود خلود أبديّ آخر ، والدين يريد أن يُحـدّث روح الإنسان عن تلك الأبديّة ويقنعه بها .

من المسلّم بـه أنّ الدّين مفيـد جدّاً لإطمئـنان القـلوب ولـراحة الخـواطـر

(١) بالفارسية : شاهراه خوشبختى : ٢٦٤ .

النفسانية ، أكثر ممّا نتصوّره بكثير ؛ فإنّ الأفكار الدينية بما لها من جمال وظرافة تحرّرنا من قيود الحياة الاعتيادية فتخرج بنا من هذا العالم الأرضيّ إلى عالم أعلى وأوسع وأجلى وأطيب للقلوب .

إنّ الدين لا يقول لنا بأنّ لا نعتني بحياتنا الدنيا بل إنّما يقول : لنكن في حياتنا شرفاء عفيفين وقورين ، لا نترك أزمّة نفوسنا لأهوائنا ، ولا نحرق أرواحنا بنار الحرص والطمع ، ولا بنار الظلم في بيدر آمال الآخرين .

إنّ الدين يريد أن يحدّ حبّنا لأنفسنا والذي لا يزال يتعالى ويطغى كشيطان مهول ، يحدّه لئلاّ يذهب أبعد من ذلك فيتلاعب بكيان الآخرين . إنّ الدين يقول لنا : لنقضِ أعمارنا شرفاء فاضلين ، وأن نجعل التقوى قائدنا متّبعين ، لتسكن أرواحنا وترتاح ضمائرنا ونروى من ينابيع السعادة الأبدية .

إنّ الحياة مليئة بالحوادث ، وما يسترعي انتباهنا نحوه متغيّر بدوره ، ولعلّه يفنى في طيّ الحوادث ، وحينئذٍ تحيط بأرواحنا ظلمات مهولة فنُحسّ بأننا قد سئمنا من الحياة ، فلا خوف فينا ولا أمل ، ولا حبّ بنا ولا بغض . وهذه الأزمة الغريبة لو أُضيف إليها ضعف النفس أدّت إلى الإنتحار .

يقول (ماركوس) :

« إنّ صح القول بالمبدأ والمعاد فما أحلى الموت ، وإلاّ فما أمرّ طعم الحياة » .

وأحياناً ترتفع الأفكار الدينية بنا إلى أسمى حدود حياتنا المادية فتطير بنا في بطون السموات .

حرّروا أفكاركم من قيود الحياة وفكّروا في أسرار الأبدية والحياة والموت ودقائق الكائنات ، فبهذه الطريقة فقط نتمكن من أن نتحرّر من اضطرابات الحياة ، وذلك بأن نجعل أوهام الطفولة تحت أقدامنا ونرتقي عليها ، ونبحث في

عالم الأفكار والتصورات عن الجمال والسرور والسعادة »[1] .

وكتب عالم النفس (دايل كارينجي) يقول :

« كـان أبي يئن تحت ثقل الـديون والفقـر والتعـاسـة والشقـاء بحيث فقـد صحتـه وسلامتـه لذلـك ، وقال الـطبيب لأمّي : لم يبق من عمر أبي سـوى ستة أشهر . وقرّر أبي تكراراً أن ينهي حياته بتعليق نفسه بالحبال أو بـإغراق نفسـه في الأنهار . . ثم قصّ أبي عليّ بعد سنين يقول : إنّ العامل الوحيد الـذي منعني إذ ذاك من الإنتحار إنّما هو الإيمان الثابت والراسخ لأمّك ، فإنّها كانت ترى أننا لـو أجبنا ربّنا واتّبعنا أوامره وأطعناه صلحت جميع أمورنا . وكـان الحقّ معها ، فقـد صلحت بالتالي جميع أمورنا . وعاش أبي بعـد ذلك اثنتـين وأربعين عـاماً عيشـةً هانئة . وفي طـول كل تلك السنـين المليئة بـالآلام والمشاكـل لم تقلق أمّي قط ، كانت ترفع شكواها عن المشاكل والمصائب إلى ربّها ، وتدعو ربّها في بيتها الصغير في القرية أن لا يحرمنا من حبّه وعونه لنا .

كما تهمّني وتؤثّر في حياتي خواص الكهرباء والماء والطعام الجيّد وفوائدها ، كذلك تهمّني تماماً بركات الدين وفوائده ومنافعه وخيراته . بل إنّ الكهرباء والماء يُساعداني في توفير حياة أفضل وأكمل وأكثر راحة ، بينما تزيد فوائد الدين وقيمه عن كل ذلك بكثير جداً .

إنّ الدين يمنحني الإيمان والأمل والشهامة ، ويُبعد عنّي القلق والاضطراب والخوف ، ويعينّ لحيـاتي مساراً وأهـدافاً . إنّ الـدين يكمّل لي سعـادتي إلى حدّ كبير يجود عليّ بصحة وسلامة واسعة ، ويساعدني على أن أقيم لنفسي بـين أمواج الحياة ، حياةً آمنة مطمئنّة هادئة »[2] .

العـالم الغربي الشهـير في القـرن العشرين (آينشتـاين) بعـد أن يشـير إلى

(١) بالفارسية : در جستجوى خوشبختى : ٢٠٧ و٢١٣ و٢١٧ .

(٢) بالفارسية : آئينى زندكى .

اختلاف الأديان يقترح ديناً يسمّيه : مذهب الوجود ، ثم يصف الإحساس الذي يتمتّع به المتدين بهذا الدين فيقول :

« في هذا الدين يُحسّ الإنسان بصغر آماله وأهدافه أمام العظمة والجلال الذي يبدو له في أفكاره وطبيعته عمّا وراء الطبيعة . إنّه يرى وجوده سجناً بحيث يحاول دائماً أن يطير من هذا القفص فيدرك كل الوجود كحقيقة واحدة »[1] .

علينا أن نبحث عن علّة التشويش واضطراب الخواطر في كثير من الناس، في أسلوب تفكيرهم ورؤيتهم للحياة ، إنهم يتصوّرون أنّهم إنّما قدموا إلى هذه الحياة ليتمتّعوا بلذّاتها بلا أيّ قيد أو شرط ، وإذ يواجهون خلاف ما كانوا يتصوّرون فإنّهم يقومون بالشكوى والعتاب على جميع الكائنات والموجودات فضلاً عن أوضاعهم الشخصية .

إنّنا نستطيع أن نتناسى آلامنا ومشاكلنا بالتفكير في آلام الآخرين وتعاستهم وشقائهم ، تماماً كما تنطفىء النار بالماء . وقد يغلط البعض فيتصوّرون أنّ كلّ الآلام والمشاكل قد أخذت بتلابيبهم ، وأن الحياة لا تدعهم يقيمون أصلابهم تحت وطأة مصائبهم .

في حين أنّهم يرون الآخرين بغير ذلك بل يزعمون أنّهم في رفاه وراحة ، وأن لا نصيب لهم من مصائب الحياة .

آمال لا نهاية لها

إنّ تطويل الآمال تسبّب للإنسان أن يكون دائماً يصارع الآلام والأحزان ، وإنّ الذين يتمتّعون برؤية واقعيّة يرون أنّ المال والثراء إذا تجاوزا عن حدّ الاعتدال أصبحا عائقاً عن السعادة وراحة الضمير . إنّ للسعادة والشقاء والراحة والقلق مقاييس خاصة لا تؤثر فيها . إنّ هناك في عالمنا من يتمتع بسعة في

(١) بالفارسية : دينائى كه من مى بينم : ٥٧ .

المال ولكن ضيق في النظر بحيث يشكون من الجوع في عين غناهم ، ولا يرون للراحة في حياتهم مثولاً ، وكثير أولئك الغرقى الذين يشكون العطش ! .

كما قال الشاعر الفارسي : غوثاه ! إنّ طباعنا الفقيرة أخذت تستجدي بأواني الذهب ! .

بل كما عن علي (عليه السلام) في (نهج البلاغة) :

« لا كنز أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الرّاحة » .

إنّ تطويل الآمال يسبّب القلق واضطراب الخاطر كما يرى علماء النفس ، بينما القناعة والاعتدال يمنحان الإنسان الاطمئنان وأمن الخاطر .

إنّ في الطبّ النفسي قانوناً بعنوان « قانون الهناء » يقول :

« كلما قل الأمل كثر الأمن ، وكلّما كثر الأمل قل الأمن » فكلما قلّلنا من كمية توّقعاتنا وآمالنا نكون قد قلّلنا من احتمالات الهزائم وخيبة الآمال ، وبالتالي فإنّ الخوف وعدم الاستقرار وحالة الانتظار المُميت والقاتل الذي يصيب الإنسان قبل بلوغ الآمال ، يقل بطبيعة الحال . والواقع أن حقيقة « قانون الهناء » ليست سوى حقيقة « القناعة » .

ولكن علينا أن نلتفت إلى أنّه ليس غرضنا من « قانون الهناء والقناعة » أنّ الإنسان يترك المساعي والمحاولات واضعاً يده على الأخرى مستسلماً للأمر الواقع ؛ بل الغرض من « قانون الهناء » معرفة الإنسان بحدوده واستعداداته وإمكاناته ، وقناعته بطاقاته وقدراته . بمعنى أن لا يخطو عن حدود قدرته خطوة واحدة ، فلا يريد بلا حساب وفي غير الصواب »[1] .

---

(١) بالفارسية : آنسوى جهرها : ٤٦ ، ٤٧ .

العلاقة بالحياة الخالدة

إنّ الإسلام يقود القلوب نحو الحياة الخالدة. إنّ الإيمان بالمعاد الذي هو إيمان حيّ نابض - يرتفع بشخصية الإنسان من بيئة المادة والإحساس ، ويبعث بقواه إلى تحقيق الآمال الإنسانية السامية ، ولكنّه لا يمنع الإنسان من التمتع بمتاع الحياة الدنيا ؛ إلّا أنّه يمنع من انطلاق النفس في هذا التمتّع في ساحة الحياة ، ويجعل دوافع الحرص والطمع الأعمى والأهوج قيد الموازنة والسيطرة .

إنّ الإنسان إن اعتقد واقعاً بأنّ فرصة الحياة قليلة ومحدودة وأنّ متاعها قليل ، وأنّ اللذّات الروحية والمعنوية غير قليلة في هذه الحياة الدنيا أيضاً ؛ عندئذٍ سوف لا يبقى لمتاع هذه الحياة جلاءٌ جالب في عين هذا المؤمن فلا يأسف ولا يتحسّر .

وكذلك هو لا يصاب بالاضطراب والحزن والخوف لأنّه لم يجز على أكثر ممّا يلزمه لحياته ، وليس شعوره بالنسبة إلى التمتّعات المادية كمستعجل لا يقر له قرار لاستيعاشه من انتهاء آخر يوم قبل موته ، بل إنّه يتمتّع بسكون القلب والأعصاب وراحة الضمير والوجدان ، ولا شك في أنّ هذا السكون والثقة يزيدان في التذاذه بمتع الحياة التي يتمتع بها عن عقل ورويّة . إنّ الإنسان المؤمن يعلم أنّ هذه المتع إنّما هي وسائل للوصول إلى أهداف أعلى وأسمى وأفضل ، وليست هي غايات الحياة وأهدافها حتى يصرف الإنسان كل عمره في سبيل تحصيلها ، ثم هو يفقد استقامته المعنوية والروحية في ذلك .

إنّ ضغط الاضطرابات والأحزان المنهكة تؤدّي إلى الأمراض النفسية والجسدية ، فعلى كل واحد منّا أن لا يترك القلق والأحزان تستولي على روحه من أجل حفظ صحته وسلامته الجسدية والنفسية ، وعليه أن يحفظ نفسه أمام نفاذ عوامل الهدم والتخريب في كيانه .

فعن علي (عليه السلام) قال :

« الحزن يهدم الجسد »[1] .

وعنه (عليه السلام) قال :

« الهمّ يُنحل البدن »[2] .

وعنه (عليه السلام) قال :

«تجرّعِ الغُصَصَ ، فإنّي لم أر جُرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذّ مغبّة »[3] .

وقد أثبتت البحوث العلمية أنّ بعض الأمراض إنّما هي نتيجة القلق والاضطرابات النفسية :

يقول العالم النفسي الشهير (ل . مان) :

« إنّ الدراسات التي أجريت على الجانب الفيزيولوجي للاضطرابات أثبتت أنّ الاضطرابات تعمّ جميع الجسم ، فالاضطراب يبدو على كل من القلب وعمل غدد العرق وترشحات المعدة وتموجات المخ وجميع الترشحات الداخلية ، وللترشح « الآدرتيني » أهمية خاصة فإنّه يجعل وقوداً جديداً تحت تصرّف الأجهزة الجسمية عوضاً عن السكّر الحاصل من الكبد في الحالات الاعتيادية .

إنّ فرعاً جديداً من علم الطبّ النفسي باسم الطب النفسي الجسمي ، يبحث عن الأمراض الجسدية التي تحدث على أثر علل نفسية سيما القلق ، وإنّ إحدى التجارب التي أُجريت في هذا الفرع أثبتت أن ثلاثة وستين شخصاً من مجموع خمس وسبعين مصابين بقرحة المعدة ، كانوا مصابين بالقلق الشديد .

وقد ذكرنا فيما مضى مريضاً أبقوه تحت الدراسة مفتوح البطن (في العملية) وقد كانت فرصة استثنائية لدراسة عمل المعدة . وقد رأوا بهذا الشأن

---

(١) غرر الحكم : ٢٣ .

(٢) غرر الحكم : ١٦ .

(٣) غرر الحكم : ٣٥١ .

في نهاية الأسبوعين أنّ المريض ـ وقد كان مصاباً بقلق شديد ـ ظهر في جدار معدته نزيف دموي خفيف مع زيادة في ترشحات الأسيد ، ثم ظهرت أوليات جُرح يُشبه قرحة المعدة . فيبدو للنظر أنّ قرحة المعدة تبدأ عادة مع قلق نفسي يسبّب في اضطراباتٍ شديدة في المعدة ، ثم يتبع ذلك نزيف دموي فيها ثم ثقوب في جدارها ، كما هو السير الطبيعي لتكوّن قرحة المعدة « الأولسر »[1] .

إنّ ممّا يميّز عالم الإنسان ذي الرؤية الواقعية عن عالم الحيوانات ذات الشعور غير الناضج هو مدى الإنصياع للخيال فيهما ، إنّ الشخص صاحب الرؤية الظاهرية السطحية الذي لا يعبرها إلى الأعماق يسكن إلى أوهامه وخيالاته بحيث تستولي في كل لحظة على قلبه أمواج الآمال والمنى إلى ما لا نهاية ، فإذا رأى جريان الحوادث على خلاف ميوله احتوت روحه ظلمة موحشة بحيث يفقد معها إرادته ، وإذا رافق هذه الأزمة القريبة ضعف النفس أمكن أن يؤدّي بصاحبه إلى الانتحار .

في حين أنّ الإنسان ذي الرؤية الواقعية يتحرّر من قيود هذه الأفكار الصبيانية التي لا أساس لها ، فينظر نظرة أوسع وأشمل ،ولا يرى الأشياء رؤية ناقصة ، ولا يترك الأوهام والخيالات الساحرة تتدخّل وتنفذ إلى حياته العملية ، بل هو يسعى ليوفّق بين نفسه وبين بيئته الطبيعية والاجتماعية وحقائق الحياة الخارجية والداخلية .

فلو كان الشخص ذا شخصية متوازنة ومعنوية متعادلة لم يرتجف من كل هزّة ، وما نراه في بعض الناس أنّهم يحسّون حين فراغهم بالألم فإنّما هو لعدم كفاية معنوياتهم ، ولأنهم لا سند لهم ولا ملجأ ، ولذلك فهم لصرف أوقاتهم تلك يُقبلون على ألعاب ضارّة غير سليمة .

بينما الإنسان كلما كان أقوى من حيث القوى الباطنية كان شعوره بالحاجة إلى عالمه الخارجي أقلّ ، وكل دولة كان اعتمادها على الاستيراد من الخارج أقل

---

(١) بالفارسية : أصول روانشناسى مان : ١٢٩ ـ ١٣٦ .

كان أقوى وأثبت اقتصادياً ، كذلك من كانت ثروته الباطنية كافية غير محتاج دائماً إلى الاستيراد والاستمداد من خارج وجوده ، كان قادراً على أن ينقذ نفسه من النشاطات الضارة والأعمال الهدّامة ، وعلى تعديل خصائصه الأخلاقية ، بل كان قادراً على تغيير أثر العوامل الخارجية على نفسه .

يقول (جان جاك روسو) :

« إنّ أشقى البشر من كان يفكر أنّه يفتقد كل شيء، فإنّ الشقاء ليس أن يحسّ الإنسان بحاجة إلى شيء ، بل الشقاء في أنّ يُحسّ أنّه يحتاج إلى شيء يفتقده . إنّ للعالم الواقعيّ حدوداً ، ولا حدّ لعالم الخيال ، ونحن إذ لا نتمكن من أن نوسّع العالم الأول ـ الواقعي ـ فعلينا أن نقوم بتحديد الثاني ، فإنّ كل ما يسبّب في تعاستنا وشقائنا من الآلام إنّما هو الذي ينشأ من الخلاف بين هذين الأمرين : الواقع والخيال .

إن في هذه الرؤية المستقبلية التي تجعلنا دائماً نفكر في المستقبل يكمن مصدر كل شقائنا وتعاستنا ، ولا سيما بالنسبة إلى موجود كالإنسان ينقضي عمره بسرعة لماذا يكون قلقاً لمستقبله ؛ بحيث يكون كل فكره وذكره حول المستقبل البعيد الذي قد لا يبلغه أبداً ، وهو بذلك يغفل عن حالته الحاضرة . إن هذا الوسواس بالنسبة للمستقبل يشتد بعلوّ عمر الإنسان حتى يصل إلى مرحلة يرجّح فيها الشيوخ ـ وهم أكثر وسواساً على المستقبل وأحرص ـ أن يغضّوا النظر عمّا يلزمهم لمعيشتهم الحاضرة في سبيل تأمين مستقبلهم لمئة سنة مقبلة حتى بالنسبة إلى كماليات الحياة فضلاً عن ضروراتها .

وهكذا يربط الإنسان بينه وبين جميع حاجات الحياة ، بل يقول بأهميتها حتى على نفسه ، وحتى لا يبقى له شيء من شخصيته الفردية . وبعبارة أخرى يوسّع كل فرد منّا وجوده على سطح الكرة الأرضية جميعاً ، ويتحسّس بالنسبة إلى كلّ شيء . وعندئذٍ فهل من الغريب أن تزيد آلامنا ؟ كثير أولئك التجار الذين إذا سمعوا بأحدهم أنّه ذهب إلى الهند صرخوا ألماً وهم في باريس !! نحن لا

نتواجد فيما نحن فيه بل نعيش فيما لسنا فيه ، وإذا كان من المقرّر أن يبقى بعدنا ما نعيش نحن لأجله فلا وجه لكل هذا الهول من الموت . أيّها الإنسان أقصر الحياة على ما في نفسك فحسب فإنّك سوف لا تشقى بعد ذلك أبداً »[1] .

روى الكليني في (الكافي) عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« إصبروا على الدنيا فإنّما هي ساعة ، فما مضى منها فلا تجد له ألماً ولا سروراً ، وما لم يجيء فلا تدري ما هو ، وإنّما هي ساعتك التي أنت فيها ، فاصبر فيها على طاعة الله ، واصبروا فيها عن معصية الله »[2] .

وإذا كان التوجّه والالتفات والفكر في الماضي والمستقبل من أجل الفرار من مشاكل الحياة الحاضرة ، فذلك في نظر علماء النفس مرض نفسي أو مقدمة له ، كما يقولون :

« إذا كان الإنسان لا يلتفت إلى حاضر وضعه ولا يفيد من الفرص السانحة له ، وكان يقول للآخرين : صحيح أنّي الآن لست جيّداً في دروسي ، ولكن إصبر لترى كيف أكون حين أدخل معترك الحياة ، إنّ الذين فشلوا في دروسهم توفّقوا في حياتهم الواقعية ، ولي بالنسبة للمستقبل أحلام وآمال » .

إنّ هذا النوع من التفكير يثبت أن صاحبه يريد أن يشرد من حقيقة حياته الحاضرة وزمانه الحاضر ، وهو استدلال غير منطقي بل يخسر مستقبله بذلك جدّاً ، والاحتمال القوي أن يكون صاحب هذا الأسلوب من الفكر يواجه الفشل كحالته الحاضرة .

وإذا كان تفكير الإنسان في مستقبله وماضيه متلفاً لوقته وصارفاً له عن مواجهته لأموره اليومية ، فهو غير طبيعي بل في عداد العجزة والقاصرين بل المقصّرين ، وإذا كان الإنسان عاجزاً عن مواجهة مشاكله اليومية وهو يفكّر في

---

(١) بالفارسية : إميل : ٩٠ ـ ٩٣ .

(٢) أصول الكافي ٢ : ٤٥٤ .

المستقبل للفرار عنها ، ففكرته هذه في المستقبل قائمة مقام فكرته ليومه الحاضر ، وهكذا نيابة لا تحل مشكلة فهي مضرة غير مفيدة »[1] .

وعن الحسين (عليه السلام) قال :

« إذا وردت بلية على العاقل تحمّلها ، وقمع الحزن بالحزم وفرّغ العقل للاحتيال » .

نحن بما أوتينا من قوة وقدرة نستطيع أن نقاوم ما يواجهنا من آلام ، بل متى حصلت وقفة في هذا الكفاح أصبحت القوى الساكنة غير المتحركة تؤلم صاحبها كحمل ثقيل ، فيضطر الإنسان إلى صرف هذه القوى عبثاً .

إنّ من الطرق المفيدة والمؤثّرة للنجاة من ضغط الإضطرابات وقلق الخواطر ، هو القيام بالأعمال الإيجابية . إنّ الذين يصرفون قواهم في إنجاز الأعمال المفيدة حين وقوع النزاع بين القوى والطاقات الباطنية ، يستريحون حين العمل ، ويفرحون حين يرون ثمار أعمالهم ، ويشعرون بالرضا في قرارة نفوسهم . ولهذا فمن المسلّم به أنّ كثيراً من هذه النشاطات ـ وإن كانت ملاجىء نسبية مؤقتة ـ فهي ردود فعل مفيدة ومرضية ، ولا أقل من أن الفكر يستريح في ظلها من بعض المواضيع الفردية التي كانت تبدو وكأنّها مشاكل لا تحل ، ولا سيما إذا كان عمله متضمّناً لنفع الآخرين فهو نافع له أيضاً ، فليس من الممكن أن يكون النافع لغيره غير نافع لنفسه . أضف إلى ذلك أنّه يبقى بذلك مصوناً من سلوك السبل المنحرفة والضارّة .

الطريقة الراجحة لحلّ بعض العُقد

إنّ حلّ بعض العقد النفسية لدى بعض الأصدقاء الأوفياء المخلصين ، لمن السبل المفيدة التي يمكّننا بها أن نحرر قلوبنا ممّا بها من هموم وغموم . وإنّ

---

(١) بالفارسية : رواتسناسى براى زيستى : ٢٣٨ .

علينـا أن نفسح المجـال للمهمومين والمغمومـين ليفاتحـوا بما في قلوبهم لإخـوانهم المخلصين ، فيحكوا لهم عن مشـاكلهم ، وبهذا يخفّفـوا عن أنفسهـم ثقل الهمـوم المنهكة لأرواحهم .

كـذلـك التفقّـد عن الأخـوة أصحـاب المحنـة ، وحـلّ عُقَـدهم النفسيـة ومشـاكلهم ومصائبهم ، مهـما سمحت لنا بـه الإمكـانـات ، لهـو من التكـاليف الإنسانية القيمة والحسّاسة . إنّ الصدّيق الذي قد استقـرت صداقتـه على أسس المحبة الواقعية ، لا ينبغي له أن يتغافل عن حال صديقه أبداً .

وقد أولت النصوص الإسلامية لقادة الدين هذا الموضوع أهمية تامة ، فقد نبّهت إلى أنّ المؤمن يخفّف من ثقـل خـواطـر إخـوانـه ويكـون سببـاً لسكـون خواطرهم .

ففي (أصـول الكافي) عن الـرسول (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) أنّـه قال :

« أحبّ الأعـمال إلى الله سرور يدخله عـلى مؤمن يطرد عنـه جوعتـه ويكشف عنه كربته »[1] .

وفي (وسائل الشيعة ٢ : ٥٥) عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« إذا ضاق أحدكم فليُعلم أخاه ولِيُعِنْ على نفسه »[2] .

وفي علم النفس الحـديث نهى علماؤه عن كتمان العقـد والآلام الباطنيـة ؛ فقد قال عالم النفس الشهير (شاختر) :

« إذا كنتم غـير راضـين عن وضعكم وحـالتكم وسلوككم ، ولا تقـدرون عـلى حـلّ مشـاكلكم بـأنفسكم ، ففـاتحـوا من تعتمـدون عليـه من العقـلاء بـأسراركم ، فـإنّ الإحتفـاظ بـالأوهـام المؤلمـة والخـوف والقلق يـزيـد في شـدّة

(١) أصول الكافي ١ : ٤٠٥ .

(٢) وسائل الشيعة ٢ : ٥٥ .

مزاحمتها ، فصارحوا بأسراركم واطلبوا النصح فيها من العالم المجرّب ، فإنّ الخوف والأفكار القلقة تضعف عن مواجهة القوى وتنهزم . لا تمتنعوا عن الشكوى إلى الطبيب النفساني ولا أقلّ من الصديق العاقل ؛ فإنّ الأفكار القلقة التي نودعها عند ضمير اللاشعور تُخلّ براحتنا وسعادتنا .

ولْيُعْلم أن الأفكار الضارّة تدفع بإحدى طريقتين :

فإمّا أن يتحقّق الدفع بصورة طبيعية ومن دون علمنا وإرادتنا ، بمعنى أنّ أذهاننا تدفع الفكر الضارّ والمزاحم من دون التفاتنا نحن إلى ذلك ولكن تخزنه في عمق الخواطر السابقة .

وأحياناً نُبعد بعض الأفكار المؤلمة عن أنفسنا عالمين عامدين ، ونُلّح على أن لا نتخطر تلك الفكرة . وتسمّى هذه العملية في مصطلح علم النفس « الحذف » . ولكن هذه العملية لا تقلل من ضرر الفكرة شيئاً ، بل كلما حاولنا تناسيها تذكّرناها أكثر . وعلى أيّ حال ، فسواء علمنا أم لم نعلم ، الفكر المضرّ المزاحم ، سواء اندفع بنفسه أو حذفناه بأنفسنا ، لا يتركنا بحال ، وسيؤلمنا ظاهراً أم باطناً ، ولا نستريح من محنته وألمه ما لم نفاتح فيه حكيماً عاقلاً نستعين به ونستهديه ونستنصحه »[1] .

إظهار السرور

إنّ من العوامل المفيدة التي تساعدنا مساعدة جادّة حين هجوم الهموم والغموم والقلق والاضطراب ، هي إظهار الفرح والسرور .

ففي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« كن راضياً تكن مرضياً »[2] .

---

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) غرر الحكم : ٥٦٤ .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً أنّه قال :

« كن بالبلاء محبوراً وبالمكاره مسروراً »[١] .

وعلماء النفس اليوم أيضاً يرون أنّ إظهار الفرح والسرور عامل مفيد ومؤثّر في تقليل أزمات الأحزان والغموم ، وكذلك في الصعود بشخصية الإنسان الجادّ ، ويقولون :

« حاولوا أن توجدوا لأنفسكم ولو في الظاهر وجوهاً فرحة مسرورة ، واسعوا لتكونوا دائماً بشوشين ، أبدوا أنفسكم فارغي البال عن الغموم والهموم بحيث كلّما رآكم أحد تصور أنّه قد رأى أحسن أحبّائه وأصدقائه ، وإن كنتم متألمين متأثّرين فاسعوا لكي لا تبدوا شيئاً من هذا الحزن حين لقاء الآخرين ، بل تظاهروا بأنّكم على حالة هانئة راضية .

إنّكم إذا كنتم تتمتّعون بمعنوية وروحية مستبشرة ، وأبديتم ذلك للناس ، فإنّه سيكون للآخرين معكم سلوك متناسب ، وسيفاتحونكم بكلّ شيء وسيبادلونكم الفرح والسرور . وإذا كنتم على نشاط فإنّه ستكون فيكم حالة عملية مؤثّرة في اجتذاب الآخرين نحوكم .

وإنّ الخطوة الأولى لحالة النشاط هي إظهار الفرح والسرور ، لا تقطّبوا ، بل لتكن لكم ابتسامة على شفاهكم ، فإنّ هذا التظاهر بالسرور سيؤثّر فيكم قطعاً ، وسيخفّف فيكم الآلام الداخلية . وإلّا فستتعوّدون على العبوسيّة والتقطيب ، والناس بطبيعتهم يبتعدون عن المحزونين العابسين . إنّ الوجه البشوش سيجلب إليكم الآخرين . وليست العبوسية سمة الشخصية ، وإن كان يخطىء البعض فيتصورون أنهم لو كانوا عابسين مقطّبين حسب لهم الآخرون ألف حساب ، وسيرهبونهم . وهذا وهم . كلّما كنتم محزونين فتبسّموا ، وسترون كيف يرتفع بالابتسامة ما بكم من كآبة »[٢] .

---

(١) غرر الحكم : ٥٦٥ .

(٢) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ٧٧ ، ٧٨ .

تجلّي الخيرات في آفاق الحياة

* قاعدة التعاون الاجتماعي .
* أسمى اللذائذ الرّوحية .
* التغاضي عن حاجات الآخرين .
* الإسلام والعلاقات الاجتماعية .
* عنوان الخيرات في الإسلام .
* عنوان الخيرات في الغرب .
* من المحبوب عند الله ؟ .
* الحبّ والإحسان اللامحدودين .

قاعدة التعاون الاجتماعي

إنّ الأحاسيس والعواطف اللطيفة النابعة من أعماق روح الإنسان ، والتي تتجلّى في أنواع الخيرات والمساعدات والإعانات لأبناء النوع الإنساني على مسرح الحياة ، هي من أسمى الغرائز الإنسانية . إنّ هذه الأحاسيس هي التي تضغط على قلب ابن آدم على أثر مشاهدته للآلام والمشاكل ، ثم تعدّه للتضحية والفداء لدفعها .

إنّ للهناء ووخز الآلام ، والأفراح والأتراح ، والغنى والفقر علاقة وثيقة بحياة الإنسان ، إلّا أنّ أكثر الآلام والمشاكل المفجعة ، بما فيها من مرارة وثقل ، يمكن معالجتها ولحسن الحظّ ، وبالإمكان أن نحبط عللها ـ وهي تخيّم على آفاق حياة المصابين بها ـ بإثارة عواطف الآخرين وأحاسيسهم وبعونهم ومساعدتهم .

ليس الإنسان جهازاً حيّاً فقط ، بل هو يحمل رسالة الخير والعلم والجمال والقيم أيضاً . إنّ علاقة البشر بعضهم ببعض يجب أن تقوم على أساس العلاقة والمحبّة الخالصة والمتبادلة ، والعون والمساعدة فيما بينهم ، لا على أساس المصالح والمصانعات أو الضرورات .

إنّه من غير الممكن حلّ مشاكل الحياة من دون تضحية وفداء وإسداء الخير للآخرين في اللحظات الحسّاسة ، فإنّ من أركان البنية التحتية لبناء « التعاون الاجتماعي » هو حسّ الرّحمة والتضحية والفداء للآخرين، وإنّما يبلغ من الأفراد والجماعات إلى حدّ الكمال من كانت له هذه الروحية في نشاطاته الاجتماعية .

إنّ على من يحبّ الحياة في الدرجة الأولى أن يخدم هذه الحياة ، وأن يتعهد بالإسهام في إيجاد مجتمع سالم وقويّ ، وكلّما كانت النظرة الاجتماعية ونموّ العواطف فيهم أكثر ، كانت عنايتهم بمصالح الآخرين أكثر . إنّ الفكرة الإيجابية والمواساة مع الآخرين ، مع كونها من كمال الإنسان نفسه ، تساعد في إيجاد بيئة سليمة لحياة أفضل لنفس الإنسان أيضاً ؛ فإنّ العلوم الاجتماعية تؤكّد على أنّ عناية الإنسان بنفسه بصورة واقعية تستلزم رعاية حال الآخرين والإحساس بالتعاون والمواساة معهم . وقديماً قالوا : « إنّك ستأخذ باليد التي تعطي بها » .

ومن لم يبذر في الحياة الخير كيف يأمل أن يحصد فيها الخير ؟ بل إنّ الفضائل الإنسانية والشخصية الاجتماعية تدور دائر مدار أسلوب تفكيرهم وروحياتهم الاجتماعية ، وإنّ انعدام هذه الروحية في الأفراد أو الجماعات يدلّ على وجود خلل وتأخير فيهم عن حدّ الرشد الاجتماعي ، وإنّ حالة اللاّمبالاة وعدم الإحساس بالمسؤوليات الأخلاقية تحكي عن اختلال ومرض روحي وجمود في النموّ الاجتماعي ، فإنّ هؤلاء لا يتمكنون من أن يدركوا ارتباط حياتهم بسلامة الآخرين ، وإنّ هكذا مجتمع يُشبه سفينة غارقة يحاول كل واحد من ركّابها أن ينقذ نفسه من الغرق فقط . ولا ريب أنّ الاعتياد بالفداء والتضحية في سبيل خير الآخرين لا يحصل بسهولة ؛ يقول أحد العلماء :

« إنّ في المراحل الأولى لأعمال الخير مشاق وتكاليف ولكن كلّما تقدمنا أكثر في هذا الطريق ازدادت طاقاتنا ، وكأنّما أعمال الخير كأمّهات يتولّد منها نسل خير كثير » .

وهذه حقيقة ، فإن إسداء الخدمة للناس والتضحية في سبيلهم يشكل بكثير على هذا الإنسان الطالب للراحة والمحبّ لنفسه ، هذا الإنسان الطامع الذي يريد كل شيء لنفسه والمستعد للفداء في سبيل آماله وأمانيه وأهدافه ، ولكن أفهل هناك شيء في حياة الإنسان غير مشكل ؟ بل في كل حركة وكل شيء محاولات ومتاعب ، وحتى في الفهم والإدراك ولكن تختلف المساعي

والمحاولات ، فمنها مـا يمنح الإنسـان رؤية وبصـيرة ، وتتوسـع به آفـاق الأفكار والـرؤى ،وتبلغ بالإنسـان إلى الحق والحقيقـة ، وتبـدّل الإنسـان إلى مـدرك بـل واصل إلى واقع الحقائق في الحياة ، وبالتالي تصل به إلى أسمى الأجر والثواب في عالم الآخرة . . ومن المساعي ما يكـون سبباً لـلإنحراف والضـلال وتفصل بـين الإنسان وحقائق الواقع . وإنّ المساعي والمحاولات التي توسّع في فردية الإنسـان إلى ما لا حدّ له ولا نهاية معقولة ، تؤدّي بالإنسان إلى اضمحلال القوى الباطنية في الإنسان التي تحكم على سلوكه وأخلاقه .

وكثير أولئك الذين يرون أنفسهم ذوي عواطف وأحاسيس ، وهم بـالفعل يتـألمون من مشـاهدة شقـاء الآخرين وتعـاستهم ومصائبهم ، ولكنّهم لا يهمّـون بتحمّل مسؤولية أو وظيفة في ذلك ؛ فإن تعرّضوا لقبول عمل يستلزم صرف مال منهم لإغاثة المحرومين ، أو كان يستوجب منهم قليلاً من التعب والعناء ، أو أن يغضوا الطرف عن بعض لذّاتهم ، تخلّوا عن تكاليفهم .

وإنّما تنشأ هذه الحالة من عدم استعدادهم لتحمل التكاليف والوظـائف ، بل لم يريـدوا أن يعوّدوا أنفسهم عـلى تحمل أقـل التكاليف وأبسـطها ممّـا يؤهّلهم لتحمّل أعمال أكبر وأثقل وأهمّ .

إنّ حمل آلام الآخرين حالة حسنة جديرة بالتقـدير ، ولكنهـا إنّ لم تؤد إلى عمـل قيّم ولم يحمل بهـا ثقل عن كـاهل المعـذّبين فـما فائـدتهـا ؟ ومـاذا تعـالـج العواطف الجافّة ؟ .

إنّ الأحاسيس المضمرة في باطن الضمير لا أثر لها في واقع الحياة ، فما الذي تستفيده الإنسانية من هكذا أحـاسيس ؟ إنّ حسن النيّة لا يكفي للحيـاة العملية الواقعية للإنسان في هذا الكون ، بل إنّ حسن النيّـة يستلزم الإقدام والعمل .

أسمى اللذّات الروحية

إنّ السعي لرفع مشاكل الآخرين ومصائبهم ليس من وظيفة أيّ فرد منّا ، بل إنّه يعدّ من أحسن وأسمى لذائذ الحياة . إنّ على الإنسان أن يوسع في دائـرة حبّه بحيث يسع جميع الناس ، كي تتنور بذلك الروح ويطهر القلب من ألـواث الآلام ! فيظفر الإنسان بذلك بالسعادة الواقعيـة ، وحينئذٍ يحس الإنسـان بجمال كل شيء في هذا الكون ! .

يقول أحد علماء الغرب :

« لقد جعلوا لكل عمل خيّر ثواباً ، ووضعوا لكل شرّ جزاءً ، ولكن ليس هـذا الجزاء وذلـك الثواب شيئـاً وراء الخير والشر ، فـما الثواب الـذي يفـترض للفضيلة نحـو نفس الفضيلة ؟ وما الـذي يمكن أن يجـري جـزاءً للشر أسـوأ من الرذيلة نفسها .

والحقيقة إنّ الثواب والعقاب هما النتائج الطبيعية لأعمالنا ، فكـما أنّ الذي يمسّ النار يتألّم بحرقتها كذلك من يعمل سوءاً ويتعـدّى حدود وظـائفه وتكـاليفه يـرى نتائـج أعمالـه . لا ينبغي لكم أن تفكّروا فيـما تستفيدونـه من أعمال الخير والـبّر ، بل كـونوا خـيراً للخير ، فكـما يعقب الليل النهـار وكـما تتـابـع الشمس الـظلّ ، كذلـك تغمرنـا السعادة الحقيقيـة كنتيجة طبيعيـة لصالحـاَت أعـمالنـا ، والسعادة الحقيقية هي سكون النفس وراحة الروح .

إنّ الذي يُحسن ويبرّ إلى الآخرين في حدود وظائفه وتكـاليفه يجد في نفسه مسرّة لا حدود لها ، وحينئذٍ يرى نفسه وكأنّه قد سـما عن آفاق الحيـاة الاعتياديـة إلى ما وراء هذه الحياة في آفاق أكثر إشراقاً ونوراً ، وهو بهذا الإحساس السـامي يبلغ السعادة الحقّة .

إنّ نيّة الخير خير ، ولكن علينا أن نجعل تحقيقها نصب أعيننا . حينما تمـرّ الخواطر الخيّرة في أفكارنا نلتذّ بها نحن فقط ، بينما أعمال البرّ والخـير كالكـواكب

المشرقة تضيء آفاق حياة الآخرين. إنّ بإمكاننا أن نقوم بأعمالنا بتشييد كيان الفضائل أو هدمها وتحطيمها ، وأن نقيم على أنقاضها أساس الرذائل والفساد ، ولذلك فإنّ علينا مسؤولية كبرى .

الناس على فرقتين : فرقة تتألّم لتأمين راحة الآخرين وفرقة أخرى تسبّب آلاماً للآخرين من أجل راحة نفسها ، وهؤلاء كما يسبّبون شقاء الآخرين لا ينجون هم منها أيضاً ، بينما الفرقة الأولى تجد سعادتها ضمن سعادة الآخرين . إنّ الأعمال التي يقوم بها أصحابها من أجل الأخذ بأيدي الآخرين ومساعدتهم سيكون لها نتائج كبرى قابلة للتقدير مهما كانت هي صغيرة »[1] .

إنّه لا حدود للبرّ والإحسان ؛ فإنّ العواطف الإنسانية عظيمة وذخائرها لا تنفد ، بل كلما عُمل بها نمت وترعرعت أكثر فأكثر ، حتى إنّهم يقولون : « إن العقول البشرية محدودة ، ولا حدود للعواطف الإنسانية ، فإنّ بإمكانها أن تشمل كل شيء وتستوعبه .

وبكلمة نقول : إنّ الخير والإحسان إلى الآخرين وابتغاء الراحة لهم سعادة لا يدركها كل أحد .

التغاضي عن حاجات الآخرين

إنّ الذين يحسّون بثقل وضغط في أنفسهم من كل عمل صالح ، وينظرون إلى الناس بنظرة ملؤها العداء والعناد ، قد قطعوا علاقاتهم المعنوية بالحياة التي يعيشون فيها ، وقد انطووا في أنفسهم وتغاضوا عن التفكير بشأن الآخرين بحيث يظنّون أن لا حقّ لغيرهم في الحياة في هذا العالم ، فلا يمكنهم أن يروا خيرهم في خير الآخرين .

طبيعي أنّ هذه الفرقة من الناس لا تخلو من الأحاسيس الإنسانية ، وهم

(١) بالفارسية : در جستجوى خوشبختى ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

بمقتضى أحاسيسهم يدركون آلام الآخرين ، ولكنهم كأنّهم محصورون بين جدران حبّهم لذواتهم بحيث لا يبقى في نفوسهم مجال لحبّ النوع الإنساني . وبعبارة أخرى فإنّهم لا يمكنهم أن يتجاوزوا « الأنا » فيصلوا إلى « نحن » .

يقول الدكتور (كاريل) :

« كلّ من يقود نفسه بصورة معقولة تتغيّر كثير من طباعه (المهملة) تغييراً عميقاً ؛ فإذا كانت أعمال البدن والروح منسجمة مع نظامها الطبيعي كانت أثمر وأنفع ، وإنّ طاعة الأحكام الطبيعية لحفظ الحياة واستمرار النسل والرّقي الروحيّ تورث قوة في جميع النشاطات البدنية والنفسية ، ويتجلّى هذا التطوّر بصورة خاصة مع تربية السجايا والأخلاق والإحساس الديني والإنساني ، وكذلك يتنوّر العقل أيضاً .

إذا فهم ابن آدم أنّ هدف الحياة ليس هو الانتفاع والتمتّع المادّي فقط بل الحياة نفسها (؟) فإنّه سوف لا يجعل الدنيا كلّ همّه ، بل إنّه سينظر إلى حياته وحياة الآخرين بنظرة أكثر دقّةً وملاحظة ، ويفهم مثلاً أنّه في حياته مرتبط بالآخرين وهم مرتبطون به أيضاً . وهكذا يتّضح لنا أنّ نظريات (جان جاك روسو) نظريات وضعية مختلفة ، وأنّ « الأنريويد وآليسم » نظريات خطرة ، وأنّ نظرية العقد الاجتماعي نظرية غير منطقية ، وتتبيّن لنا كذلك ضرورة ملاحظة الآخرين في جميع مراحل الحياة .

نعم هناك تناقض فاحش بين حبّ الذات وحبّ النوع كضرورة للحياة الاجتماعية ، إنّ نمو البدن وجهازه إنّما يتحقّق بعوامل المحيط والبيئة وعون الآخرين . إنّ الإنسان في حياته حينما كان جنيناً كان متطفلاً في وجوده على أمّه ، وعند بلوغه يصبح طفيليّاً على الأسرة والمجتمع ، وهكذا يتعوّد على أن يرى الاستفادة من مواهب المحيط حقاً لنفسه ، وإن توسّع غريزة « حبّ الذات » يرتبط بهذه الميول الغريزية نحو حبّ الذات في جميع الموجودات .

ومن جانب آخر فإنّ الإفراط في حبّ الذّات يجعل تشكيل المجتمع

المتكامل من غير الممكن ، إذن فحبّ النوع أيضاً ضرورة طبيعية كحبّ الذّات ، ويجب أن يسود بين « أنا » و « نحن » توازن حاكم هو الشرط الضروري لتوفيقنا في الحياة ، كما أنّ الدّقة في حركات أيدينا نتيجة طبيعية للتناقض الواقع بين العضلات التي تنحني والتي تستقيم »[١] .

الإسلام والعلاقات الاجتماعية

إنّ البرامج التربوية والتعليمية في الإسلام دُوّنت بحيث تُوسّع في التفكير الاجتماعي وآفاق الرؤى والأفكار ، إذ كلما كانت ساحات الرؤية وآفاقها أرحب وأوسع ومستوى الأفكار أسمى وأدقّ كان الإنسان أقوى على الخروج من محاصرة حبّ الذات وحبّ النفس . نُظّمت البرامج الإسلامية بحيث تتضمّن مع تقوية المعنويات الفردية تقوية الروحية الاجتماعية واستثمارها ، كي يحافظ الفرد إلى حبّه لذاته تعاونه مع مجتمعه ، ويكون المجتمع مركّباً من أفراد لا يكونون خواء بلا شخصية ولا محبّين لذواتهم بحيث لا يفكّرون في غيرهم .

إنّ العلاقات والروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي ترتبط بالرابطة الإلهية أيضاً ، فإنّ عليهم أن يوصي بعضهم بعضاً بالخير والتقوى والأعمال الصالحة وأن يساعد بعضهم الآخر لإيجاد بيئة متعاونة كي يفكر الجيل الصاعد في الخير والبرّ والأعمال الصالحة في ظلّ الإيمان والعقيدة النزيهة ، وبالتالي تتحرك جميع القوى البنّاءة في طريق الخير والبناء ، لا لأعمال الشر والفساد .

وهكذا تتناغم أعمال وأهداف المجتمع ، وتتقارب القلوب ويستيقظ فيها شعور التعاون ، وتتعاون النفسيات الفردية والاجتماعية بهدف الخدمة الإنسانية .

وبما أنّ الإسلام يقتضي مجتمعاً متعاوناً ومتواسياً ذاتياً في سبيل القيام

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ١٤٥ ـ ١٤٦ .

بالتكاليف الاجتماعية ، وأنّ البر والخير والإحسان تشكّل أساس الأخلاق فيه وهي من برامجه الأصلية لديه ، لذلك فهو يُخطِر معلناً : من لم يكن ليفكّر في سبيل خدمة المجتمع فليس بمسلم : كما أعلن ذلك الرسول الكريم .

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« من أصبح ولا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم »[1] .

حينما طلع فجر الإسلام في دنيا الجاهلية عرض عليهم مدرسة مستوعبة لجميع شؤون الفرد والمجتمع ، واهتمّ بالتزكية والتربية النفسية والأخلاقية لأمّة كان يسود علاقاتها الحقد وحبّ الجاه والشهوات واستثمار الفرد لأخيه الإنسان ، فدعاهم إلى الأخوة والإحسان والمودّة والرحمة والصداقة الخالصة ، وبنى الشخصية الإيجابية لكل فرد على أساس لا يفرّق بينهم أي عامل فرقة من قبيل البغض والأحقاد . وهكذا أقدم على تشكيل مجتمع قويّ وفاضل .

في ذلك المجتمع الذي كان فيه الإيمان وخدمة الإنسان وإرادة خيره من ملاكات ارتقاء الشخصية ، كان كل فرد منهم يشعر بالمسؤولية بالنسبة إلى مصائر الآخرين حتى وكأنّه لوحده متعهّد لجميعهم ، فقد كان لكل واحد منهم منتهى الودّ للآخر والبذل له والتضحية والإيثار ، بحيث يصف القرآن الكريم هذه العلاقات المشرقة السامية .

فيقول الله تعالى : ﴿ **والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1] .

ووصف الأخيار الأبرار فقال : ﴿ **وآتي المالَ على حبّه ذوي القُربى واليَتامى والمَساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرّقاب** ﴾[2] .

---

(١) أصول الكافي : ٣٩٠ ط آخوندى .

(٢) سورة الحشر : الآية ٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٦ .

وفي الحساسيّات النفسية عندما يتصدّى الغني الثري لبذل شيء من ثرائه لرفع حوائج المعوزين فعليه أن يحافظ على شخصيتهم حذراً من حدوث الظواهر النفسية الأليمة ، وذلك باتّخاذ الأساليب الظريفة والصحيحة .

أمّا الإسلام فإنّه يأمر الأثرياء أن يجعلوا عطاءهم في أيدٍ واطئةٍ تواضعاً ليرفعه المحتاج من يده باليد العليا ، ولتكن يده العليا لئلاّ يُحسّ بالحقارة والهزيمة في الحياة ، وليبقى الغني بعيداً عن الكبر والنخوة ، كما قال علي (عليه السلام) :

« ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتّكالاً على الله »[1] .

عنوان الخيرات في الإسلام

إنّ من العلائم البارزة للمسلم المحبة والإحسان ، محبةٍ وعطاءً خالصاً يتقدم به بنيّة خاصّة ، هي أنّه لله وفي الله ، وإن لم يكن يعرف منهم أحداً ، فهو وإن لم تربطه بهم رابطة أو معرفة أو قرابة مع ذلك ترى قلبه يتموّج من المحبة والعاطفة بالنسبة إليهم ، ولذلك فهو لا ينتظر منهم ثواباً « جزاءً ولا شكوراً » بل إنّ سلوكه ناشيء من العلاقة العميقة التي قد شغُفت قلبه ، وهو ينهل من معين لا ينضب ، معين المحبة الآلهية الفيّاض والممتلىء .

فهل هناك عامل آخر سوى الإيمان بالله والإطمئنان إلى ثواب الله والخير الذي أعدّه الله للأبرار ، يمكنه أن يحمل الإنسان على الخير المطلق والخالص والبعيد عن أي غرض أو هدف شخصي ؟! .

إذن ؛ فالبرّ والخير إنّما يكون خيراً فيما إذا كان نابعاً من معين يتدفّق غيره من خاصة باطنية وهدف مقدس ، وأن يكون هدفه الوحيد رضا الله تعالى .

---

(١) نهج البلاغة ـ الحكمة : ٣٨٩ .

والإسلام يسعى من أجل إيجاد هذا الهدف المقدس والسّامي في أعماق ضمائر الناس ، وبهذا فهو يوجد في الإنسان دركاً عميقاً وتصوّراً واسعاً متناسبين مع عمق الوجود وسعته ، بما لا يسعه أي إطار محدود وجامد . وبسعة رؤيته الشاملة هذه والإحساس الأصيل الذي يتواجد فيه بين روحه وبين الخلقة الحكيمة وروح الخلقة ، وبعلمه بقدرة الله اللامحدودة تزول من أمام بصيرة ضميره جميع الحجب المختلفة .

إنّ حدوث هذا الإدراك الإنسانيّ السّامي في الإنسان ، إنّما هو نتيجة عبودية خالصة لله وارتباط دائم وعلاقة مستمرة به ؛ فإنّ دوام عبادته وطلب رضاه واللّجوء إلى لطفه والعيش في عنايته يصل بالإنسان إلى موقعية يقدر بها على إحراز مقام خلافة الله في الأرض ، ويبعث على محبّة ترفع عن طريق البشر أيّ مانع أو رادع ، ويدفع عنه أيّ شرّ أو رجس .

الإسلام بكل إرشاداته يربّي هذا الإحساس الأصيل في الإنسان بحيث يمتزج مع طينته ، وحينما تصبح المحبّة مبدأ للأحاسيس النفسية وتتجذّر في باطن وجوده ، بعثت فيه ميولاً خاصة يستعدّ معها صاحبها للتبرّع بأعمال الخير والبرّ وخدمة المجتمع بعلاقة واشتياق خاص . ويصبح العناد وإرادة الشر للآخرين والطغيان والعتوّ في أصحابها (المحبة) غير عريقة بل متزلزلة غير ثابتة ، تزول بأدنى توجّه ودقة وتأمّل ؛ ذلك أنّه ليس هناك شيء أقدر على الذّهاب بأرجاس النفس الإنسانية أفضل من هذا الرأسمال الثمين (المحبة) .

إنّ ما أولاه القرآن الكريم من التوجّه العميق بالنسبة إلى تربية الناس أجمعين ، وما فيه من إمعان نظر ودقّة ، يترك في النفس أثراً تهذيبيّاً كبيراً ، فالإنسان بالتفاته إلى وجود علاقة وثيقة لا تنقطع بينه وبين عالم الوجود ، يوفّق بين وجوده وبين نظام الوجود ، وسينظر إلى الموجودات بنظرة ملؤها الرحمة ، ما عدا الضارّة منها .

إنّ اعتياد الإنسان بالأحاسيس اللطيفة التي تتجلى فيها عظمته وسموّ مقامه

ومرتبته الإنسانية السامية ، وامتلاكه لأحاسيس الرحمة بسائر الأحياء ومن ثمّ مع جميع الكائنات والمخلوقات ، يُحدث في نفس الإنسان سعياً صحيحاً ومحاولة معتدلة لا بدّ له منها في حياته ، وتطرد من نفسه الخشونة والظلمة بالمرّة ، وتطهّره من أرجاسه وأنجاسه .

إنّ المعرفة الرّوحانية السماوية لرسول الإسلام هي التي كانت تبعثه إلى أن يقول بشأن أقربائه الأشقياء الذين كانوا قد اتّخذوا معه أسلوباً بعيداً عن الإنسانية « اللهم أهد قومي فإنّهم لا يعلمون » .

لم يكن لطف رسول الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) ورحمته تشمل أولئك فحسب ، بل كانت تعلّم المسلمين عمليّاً أصول الخير والإحسان .

حدّث يوماً جمعاً من أصحابه المتشرفين بحضوره حديثاً قال فيه (ما فحواه) : أصيب شخص في الصحراء بالعطش ، ووجد بئراً فنزل فيها وارتوى منها ، ورأى كلباً قد سقط عاجزاً من شدة العطش يمسح فاه في التراب ، فعلم الرجل أن الكلب عطشان فهو في عذاب وألم من شدة العطش ، فأشفق قلبه عليه ، وعزم على أن يروّي الكلب بكمية من الماء . فرجع مرة أخرى إلى البئر وملأ خُفّه ورجع به إلى الكلب فوضعه أمامه وقد أشرفت روحه على الهلاك ، وعفى الله عن الرجل ثواباً لعمله هذا .

فقال صحابته : فهل لنا أن نكتسب ثواباً من البرّ بالحيوان ؟ .

فقال رسول الله : نعم ، إنّكم تثابون على إغاثة كل كبد حرّى »[1] .

من أجل الحكم على أيّ موضوع أو إقدام علينا أن نأخذ في النظر دوافع مرتكبه ، ولا ينبغي تجريد أي عمل عن عواقبه . كالمرض تماماً حيث يتوجّه إليه الطبيب بالدّقة في علله وعوامله .

---

(١) نقل الحديث بالمعنى ، ولم أجد له مصدراً معتبراً ، إلاّ أنّه مذكور في كتب الأخلاق .

عنوان الخيرات في الغرب

إن كانت اليوم الدول الكبرى المتقدمة تقرّر في ميزانيتها المالية السنوية وبرامجها الاقتصادية مبالغ من المال لمساعدة الدول المتخلّفة في برامجها الاقتصادية ؛ فليس هدفها ـ في الرتبة الأولى ـ منبعثاً من صدق شفقتها عليها وإرادة الخير لها خالصاً مخلصاً ، بل من أجل أنّه لو ضعفت القدرة على الشراء لدى طرف المعاملة ، ولم يبق للدول المتخلفة أيّ سوق لصرف المنتوجات الصناعية لهذه الدول المتقدمة ، لأصبحت حياتها الاقتصادية في خطر التدهور بل السقوط ، ولتوقفت وتعطّلت المعاملات بينهم ، وبالتالي فإنّ أساس هذه المساعدات هو حفظ التوازن النسبيّ الاقتصاديّ لطرفي المعاملات .

وكثير من أعمال الخير الفردية في الغرب غالباً ما يكون وسيلة لإشباع رغبات نفسيّة تنتهي إلى حبّ الذات ، ولا يُرى فيها أيّ سمة من سمات الإخلاص ، بل غالباً ما يستفاد منها كجسر للوصول إلى المقاصد الشخصية . وعلى هذا فالحكم بقيمة عمل بالنظر إلى آثاره ونتائجه فقط ليس صحيحاً ، ولا ينبغي أن يكون الإنسان لتقييم أيّ عمل أو إقدام يبحث عن معادلة رياضية وبعبارة أخرى : ليس بالإمكان أن نفسح الطريق للمعادلات الرياضية في تقييم الأخلاق .

والعالم الفرنسي الدكتور (كاريل) يرسم صورة الخيرات في الغرب هكذا :

« إنّ دافعنا في أعمالنا هو أن ننال تقدماً شخصياً ، وقبل كل شيء : الانتفاعات المالية وإشباع غريزة إبراز الوجود ، المراتب والعناوين ، وأو سمة الفخر والموقعية الاجتماعية . وقد تختفي هذه المقاصد تحت أقنعة الرياء وحبّ أبناء النوع الإنساني . وبإمكاننا أن نرى التحدّيات الخفيّة والخيانات المضمرة في الدوائر العسكرية ، والجامعات ، والدوائر والمحاكم الحكومية ، بحيث نرى مفهوم الشرف محرّفاً هناك .

بل إنّ الذين يجعلون أنفسهم وقفاً لهدف كبير ، أو يسعون مخلصين بلا رياء ، يراهم كثير من الناس مجانين حقراء. وبإمكاننا أن نرى آثار النفعيّة في كل مكان :

في إمرأة تفرّغت لأمور الخير وليست في عمق قلبها تفكر في مساعدة المضطّرين ، بل تريد أن تُرشّح لإدارة مؤسّسة خيرية مثلاً أو أن تحصل على وسام « لثريون دونور » أو أن تنتفع بعد ذلك إذ تفتح حانوتاً للبيع والتجارة .

وفي طبيب معروف يوصيّ تلامذته ومرضاه بمصرف دواء خاص قد ناوله صاحب مصنعه رشوة كبرى .

وفي عالم جامعي لا يستهدف في مساعيه الرّقي العلمي بل يأمل في الحصول على كرسيّ خاص في أكاديمية علمية ، لكي ينتفع من منافعه المادية .

وفي أطبّاء لا يراعون جانب الأخلاق في مختبراتهم وفي رعاية وعيادة مرضاهم .

وفي طالب يُرشي كاتب الكلية ليحصل على أسئلة الامتحانات الآتية .

وفي طلّاب يبيعون ما يحصلون عليه من مساعدات للدراسة في السوق السوداء .

وكثيراً ما تختفي صورة النفعية تحت قناع العلم والإنسانية والتضحية والنزاهة . نحن حريصون على المال ذلك أنّ المال يُعد كلّ شيء ، ويمنحنا القدرة . بالإمكان أن يشتري به كل أحد تقريباً إما بالنقود نفسها أو بما يُعدّه أصحاب الأموال ويعرضونه عليهم ، فإنّ الأموال تشبع تمنّياتنا الحقيرة »[1] .

والآن من أجل أن نتعرّف على الماهية الواقعية لعمل الخير في الإسلام ، لنلتفت إلى الحديث التالي الذي هو نموذج عن أسلوب التفكير في المتربّين في مدرسة التربية الإسلامية :

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ١٥ ، ١٦ .

جاء رجل يوماً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : جوعان يا رسول الله . فأمر رسول الله رجلاً أن يأتي إليه من بيته بطعام ، فرجع الرجل بعذر بعض أزواجه : أنّه ليس في بيته سوى الماء ! فلما يئس رسول الله من بيته نظر إلى أصحابه وقال : هل فيكم من يضيف هذا الرجل ؟ فقام إليه رجل من الأنصار وقبل ضيافته ، ولكنّه لما وصل إلى منزله لم يجد فيه ما يزيد على حاجة أهله وأولاده ، فطلب من امرأته أن تُعدّ لضيفهم طعاماً كيف ما كان ، عندما قدم الطعام للرجل أطفأ السّراج لكي لا يرى الضيف أن مضيّفه لا يأكل معه بل يتصور أنّه يأكل معه .

وروى المجلسي في البحار عن رسول الإسلام العظيم أنّه قال :

« إنّ على كلّ مسلم في كل يوم صدقة . قيل : ومن يطيق ذلك ؟ قال : إماطتك الأذى عن الطريق صدقة »[1] .

وليُعلم أنّ ما يعتبره رسول الله صدقة وعمل خير يرضاه الله ولو في حدّ رفع حجر عن معبر المسلمين إنّما هو في الحدّ الأدنى من الإمكانات المتوفرة لمسلم قاصر عن أكثر من ذلك ، بمعنى أنّ موقعه الاقتصادي والمالي والاجتماعي لا يُوفّر له أن يقوم بعمل أكبر من ذلك ، وإلاّ فإنّ الذين لهم إمكانيات أوسع عليهم أن يقوموا بعمل الخير بشكل يتناسب مع موقعهم وإمكانياتهم فاللازم أن تكون هناك نسبة متناسبة بين الأفراد وما يقومون به من أعمال الخير .

كان لي صديق يعمل في الخدمات الاجتماعية قال لي يوماً : برنامجي اليومي هو أنّي كلّ صباح حينما أخرج من منزلي وقبل أن أشتغل بأعمالي الشخصية وأبدأ فيها ، أرى نفسي مكلّفاً بأن أقوم بعمل خير ، مهما كان حتى ولو كان إرشاداً لمن لا يعرف كيف يبدأ عمله .

صدقاً لو صمّم كل مسلم على تنفيذ ما قرّره رسول الإسلام العظيم من

---

(١) بحار الأنوار ١٥ : ١٣١ .

برامج أخلاقية ، وقام كل واحد منهم حسب شغله وعمله وما له من إمكانات بعمل من أعمال الخير ، لكانت دوّامة الحياة الاجتماعية تدور بنشاط وفعّالية ، وكم هي المشاكل التي كانت تُحلّ لهم هكذا .

من هو المحبوب عند الله ؟

روى الشيخ الكليني في أصول الكافي بسنده عن سيف بن عميرة قال : حدثني من سمع أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول :

« سُئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) : من أحبّ الناس إلى الله ؟ قال أنفع الناس للناس »[١] .

وروى فيه بسنده عن عاصم الكوزي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أيضاً قال : إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال :

« من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم ، ومن سمع رجلاً ينادي : يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم »[٢] .

وروى فيه بسنده عن صفوان الجمال قال : كنت جالساً مع أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إذ دخل عليه رجل من أهل مكة يقال له : ميمون ، فشكى إليه تعذّر الكراء عليه . فقال لي : قم فأعِن أخاك ، فقمت معه فيسّر الله كِراه ، فرجعت إلى مجلسي ، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : ما صنعت في حاجة أخيك ؟ فقلت قضاها الله بأبي أنت وأمي . فقال : أمّا إنّك أن تعين أخاك المسلم أحبّ إليّ من طواف أسبوع بالبيت مبتدئاً . ثم قال :

إنّ رجلاً أتى الحسن بن علي (عليه السلام) فقال : بأبي أنت وأمّي أعنّي على قضاء حاجة فانتعل وقام معه ، فمرّ على الحسين وهو قائم يصلّي ، فقال له : أين كنت عن أبي عبد الله تستعينه على حاجتك ؟ قال : قد فعلت فذكر أنه

---

(١) أصول الكافي ٢ : ١٦٤ .

(٢) أصول الكافي ٢ : ١٦٤ .

معتكف . فقال له : أمّا إنّه لو أعانك كان خيراً له من اعتكافه شهراً »[1] .

الحبّ والإحسان اللاّمحدودين

إنّ العواطف الإنسانية كلما كانت أوسع وأشمل كانت تسع لناس أكثر . وإنّ الرحمة لا تستقرّ في أعماق قلوب المتضايقين بمقياس واسع ، ولذلك فإنّ إحسان هؤلاء لا يعمّ كثيراً بحيث يشمل أفراد المجتمع من كل فرقة وطائفة . وإنّ هذه الرحمة ليست قريبة من رحمة الله أبداً .

قال رجل من هؤلاء لدى الحسين بن علي (عليه السلام) : إنّ المعروف إذا أُسدي إلى غير أهله ضاع . فقال (عليه السلام) :

« ليس كذلك ، ولكن تكون الضيعة مثل وابل المطر ، فيصيب البرّ والفاجر »[2] .

وأوصى الإمام السجّاد لابنه الباقر (عليهما السلام) فقال :

« يا بُنيّ افعل الخير إلى كل من طلبه منك ، فإن كان من أهله فقد أصبت ، وإن لم يكن من أهله كنت أنت أهله »[3] .

وسيّد الأحرار الحسين بن علي (عليه السلام) يدعو الناس إلى عمل الخير بخير كلام فيقول :

« يا أيها الناس نافسوا في المكارم ، وسارعوا في المغانم ، ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوا واكسبوا الحمد بالنجح ، ولا تكتسبوا بالمطل ذمّاً . فمهما يكن لأحد عند أحد صنيعة له ، رأى أنّه لا يقوم بشكرها ، فالله له بمكافأته ، فإنّه أجزل عطاءً وأعظم أجراً .

---

(١) أصول الكافي ٢ : ١٩٨ .

(٢) تحف العقول : ٢٤٥ .

(٣) روضة الكافي : ١٥٣ .

واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملّوا النعم فتحور نقماً .
واعلموا أنّ المعروف مُكسِبُ حَمْداً ومعقّبٌ أجراً ، فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرّ الناظرين ، ولو رأيتم اللّؤم رأيتموه سمجاً مشوّهاً تنفر منه القلوب وتغضّ دونه الأبصار .
أيّها الناس ! من جاد ساد ومن بخل ذل ، وإنّ أجود النّاس من أعطى من لا يرجو ، وإنّ أعفى الناس من عفى عن قدرة ، وإنّ أوصل النّاس من وصل من قطعه ، والأصول على مغارسها بفروعها تسموا فمن تعجّل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً ، ومن أراد الله تبارك وتعالى بالضيعة إلى أخيه كافأه بها في وقت حاجته ، وصرف عنه من بلاء الدّنيا ما هو أكثر منه ، ومن نفّس كربة مؤمن فرّج الله عنه كُرَب الدنيا والآخرة ، ومن أحسن أحسن الله إليه ، والله يحبّ المحسنين »[1] .

وليس البرّ والإحسان منحصراً في بذل المال ورفع آلام المعذّبين وحلّ مشاكلهم ، بل إنّ العون المعنويّ وإصلاح صفاتهم وأخلاقهم أعلى وأغلى من الإحسان بالأموال .

وعلى هذا فلو أنّ أحداً أخذ بيد الضّالين منقذاً لهم من هوّة الفساد والضّلال ، مطلقاً في أجواء الحقيقة والنور ، كان قد قام في حقّهم بأكبر برّ وأحسن إحسان ، فإنّ مساعدة المنحرفين وإنقاذ الغرقى من حضيض الفساد والشقاء أعلى أنواع البرّ وأثمن صنوف الإحسان في الإسلام .

فقد قال قائد الإسلام العظيم لعلي (عليه السلام) :
« لئن يهدي الله على يديك رجلاً خيرٌ لك ممّا طلعت عليه الشمس »[2] .

---

(١) كشف الغمة ٢ : ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٢) سفينة البحار ٢ : ٧٠٠ .

التقدير عامل كبير
في تحرك المجتمع نحو الخير

* عوز الروح الإنسانية .
* آثار المديح والتحسين البالغة .
* النقد الأصولي يختلف عن سرد السلبيات .
* التملق المذموم .
* أطروحة الإسلام بشأن نشر الطهر والنزاهة .
* أضرار عدم الشكر والتقدير .
* مكافحة أنواع الفساد .

عـوز الرّوح الإنسانية

كما للإنسـان حاجـات لبقائـه حيّاً ، وهـو دائماً في سعي وفعّـالية لقضـاء حاجاته تلك ، كذلك لروحه أمنيات يجب أن تقضى ، قد غرستهـا يد الخلقـة في أعماق الروح الإنسانية .

إنّ الروح الإنسانية عطشى إلى الحمد والثناء ، وتبعاً لهذه الحاجة الـروحية يشتاق كل واحد منّا إلى أن تكون أعماله وسلوكه مورد تأييد بين أفـراد المجتمع ، وأن يثنوا عليه فتثبت لـه بذلـك شخصية إجتـماعية ، وبـذلك يصـل إلى ساحـل مقاصده المرضيّة .

وبمـا أنّ الإنسان يحب نفسـه لذلـك فهو يحبّ مـا يقـوم بـه من ابتكـارات ونتائج أفكاره وأذواقه بـل يعشقها ، ولـذلك فـإنّ الحمد والـترغيب أقوى عـامل لدفع الأفراد ، وهو من أكثر المواضيع الاجتماعية ضرورة ولزومـاً . وإنّ للتقديـر من الأثر والفعّالية العجيبة ما يمكنه أن يمنح المجتمع الذي يغطّ في سبات : حياة جديدة ، وأن يحرّك عجلاته لنشاطات حيوية حديثة أخرى ، مع أن التقدير يعدّ أبسط دواء لأدواء الفرد والمجتمع .

وعـلى العكس ، فإنّ البخـل فـي التشويق يعـدّ مانعـاً كبـيراً فــي طـريق تكامل المجتمع وتطوّره ، يمنع من انفتاح براعم القوى والطاقات والاستعـدادات المـودعة فيـه ، ويسبّب في أن تسيطر الـرخوة والفتـور عليه عـوضاً عن الفعـاليّة والنشاط .

إنّ الشباب الذين قد بلغوا مـرحلة حسّاسـة في عقولهم وأحـاسيسهم وهم

على أبواب الاستقلال في حياتهم ، بحاجة إلى التقدير والترغيب لتقدّمهم والمزيد في مساعيهم وفعّالياتهم أكثر من أيّ شيء آخر .

يقول الفيلسوف الإنجليزي (برتراند راسل) :

« يجب علينا أن نقوم بالحمد والثناء بشأن كل مظهر حديث من مظاهر الشجاعة والمهارة الفنّية ، أو الانسلاخ عن مظاهر حبّ الذات بالنسبة إلى ما يمتلكه الأطفال ، ولا سيما فيما يقتضي جهاداً مع النفس . بل علينا أن نستعمل المدح والثناء إزاء كل عمل بارز وممتاز في جميع مراحل التربية .

إنّ من ألذّ الأمور في عهد الشباب أن يثنوا عليه إزاء قيامه بعمل شاق ، وإنّ اشتياقه إلى هذه اللذّة أمر طبيعي واقعي ومحرّك أساسي .

إنّ أي إرشاد أخلاقي يجب أن يكون فورياً وجدّياً ، وأن يستفاد لذلك من كل حادثة طارئة ، ويجب أن لا يتجاوز عمّا يقتضيه ذلك الوضع الخاص ، والطفل هو بطبعه يطبق ذلك على الموارد المشابهة لذلك المورد الخاص .

إنّ إدراك الحالة المحدودة وتطبيق الملاحظات الإرشادية على الحالات المشابهة أسهل للطفل من فهم القواعد الكلية وتطبيقها على مصاديقها اجتهادياً ، فلا تقولوا له بصورة كلية : كُن شجاعاً ، وكن رحيماً بالآخرين . . بل رغّبهُ وادفعه إلى عمل معيّن يستلزم جرأة ، ثم قل له : حيّاك الله أنت ولد قوي شجاع ، وكذلك احمله على أن يجعل ألعابه تحت تصرّف أخته الصغيرة ـ مثلاً ـ لتلعب بها ، وحينما ينظر إلى وجه أخته المتهلّل فرحاً قل له : أحسنت أنت ولد بارّ رؤوف رحيم، وكذلك عالج منه قسوته وشدّته »[1] .

إنّ أكبر ضربة وأشد صدمة ترد على الطاقات المبدعة للشباب هو تحقير شخصيّته وعدم الاعتناء بأعماله وعدم تقديرها وتثمينها ؛ فإنّه يتألّم كثيراً جدّاً حينما يُحسّ بأنّ الناس لا يلتفتون إلى ما يقوم به من عمل وجهد ، ولا يحسبون

---

(١) بالفارسية : درتربيت : ١٢٢ ، ١٢٣ .

لنتائج مساعيه وأتعابه أيّ حساب ، بل هي فاقدة لأية قيمة لـديهم ، يتألّم كثيراً وتصاب طاقاته النامية فيه بنوع من الجمـود والتوقف ، ويمـوت فيه أمله بمستقبله ويفتقد اعتماده على نفسه وهو بذلك يقع في معرض الابتلاء بالأمراض النفسية .

فـإنّ الميول والـرّغبـات الـرّوحيـة إذا مـا بقيت ظـامئـة انـدثـرت في قسم اللاشعور حسب القانون النفسي ، وهي بذلك تشكل عقدة نفسيـة سيّئة ستؤثّـر على روحه دائماً .

فضلاً عن ذلك ، فإنّ أصحاب العلم والفنّ حينما يدركون أنّهم لا يملكون بما يبدونه من نتائج مساعيهم وأتعابهم قيمة أو موقعية اجتماعية ، فمن الممكن أن تغـيّر هذه الأحـاسيس المنكسرة من مسار الأفكـار ونشاطـاتها ، وأن ينحـرفوا إلى الطرق الملتوية لإشباع حاجاتهم الروحية واكتساب التوفيق في الحياة الاجتماعية ، وأن يقوم المكر والخـداع والتزويـر مقام الفضـائل الإنسـانية والكـمالات الروحيـة لديهم . وهذه واقعية ثابتة في علم النفس .

آثار المدح والتحسين

إنّ جملات قصيرة من المدح والتحسين تترك أثراً عميقاً في روح الإنسان ، ومن الممكن أن يصرف جميع عمره في مساعي ممتدة لاكتساب الموفقية في الحياة بما ينشأ من ذلك التحسين من تحوّل وتطوّر روحي فيه . وكثـير أولئك الـذين يرون تقدّمهم ورقيّهم في الحياة رهيناً لتقدير بعض كبار الشخصيات ، وأنّه لولا تحسين أولئـك لما قـام به هؤلاء من أعـمال لما أمكنهم أن يـرتقوا مـدارج الرقيّ والكـمال قطعاً .

ولـذلك فـإنّ الأمم المتقدمـة في العالم يـولون أهميـة خـاصّـة لمـا يقـوم بـه الشخصيـات البارزة من تقـدير لـذوي الكفـاءات ، وهـذا الأمـر يتحقق بصـور مختلفة ،وحيئنذٍ فلا تنطفىء في هكذا أجواء أضـواء النبوغ والاستعـدادات ، بل تتهيّأ الأرضية الكافية لتنمية الاستعدادات واستثـمار القوى والـطاقات المـدّخرة ،

ويجد العلم والعمل بذلك قيمته الواقعية ، وبذلك تعرف الشخصيات البارزة واللائقة .

إنّ للإنسان في دور الشباب ـ الذي هو أهمّ مراحل الحياة من حيث تأسيس الأسس الأخلاقية فيه ـ استعداد أكثر لأن يقوم بالتمجيد والثناء على الخدمات القيمة للآخرين ، وكلّما مرّت مرحلة من عمره قلّ ما يمكن أن يسترعي انتباهه وثناءه ؛ ولهذا فمن اللازم أن نقوّي روح التقدير والثناء على كبار الرجال في كيانهم ما داموا في دور التأثر والانطباع .

وإن لتنفيذ هذا البرنامج أثراً تامّاً في حفظ التوازن الروحي في الشباب والشبيبة ، فإنّ من الخصائص الطبيعية للشباب اختياره لمن يقتدي به ويستضيء بضوئه وهداه، فمن الطبيعي أنّه سيختار في هذا الدور شخصية أو عدة شخصيات نموذجية مثلاً له ، وحينئذٍ فإن لم يتوجّه إلى الرجال الطاهرين ولم تكن نفسيّته مستعدّة لتقديرهم والثناء عليهم فمن الممكن أن يختار المنحرفين الملوّثين أمثولة لنفسه وقدوة ، ويتّبعهم في سلوكهم. وطبيعي أن يكون لهذا الاختيار كثير من العواقب السيّئة غير المرضيّة في حياة الشباب .

إنّ الذين يتمتّعون بذوق سالم وقلب رؤوف رحيم وفكر حرّ يطلقون ألسنتهم بالمدح والثناء على أيّ عمل صالح وإقدام خير يشاهدونه من أيّ إنسان . وإنّ للأفكار السامية والإدراك العالي لكبار الرجال إشراق عظيم بحيث يولّد في الآخرين الحيويّة والنشاط ، ويمنحهم الدفء والحرارة والديناميكية . وإن معاشرة ذوي الأخلاق الصالحة ترفع بأسس أفكار الإنسان ، وتضع عنه إصر النفس الذي هو أكبر الموانع دون نموّ الأخلاق الصالحة فيه . وإن الذين يتأثّرون بنفوذ كلام القادة فيهم وهم ينهلون من غيرهم الصافي يحصلون بذلك على أرضية مساعدة للإنطلاق إلى أوج الرّقي والكمال .

إلّا أنّ هناك آخرين يبخلون بشدّة عن ذكر مزايا أقرب أحبّائهم إليهم ،

وليسوا مستعدين بـأيّ وجه أن يـطلقوا ألسنتهم بـذكر مميّـزاتهم وكفاءاتهم ، وأن يمجّدوا خدماتهم وأعمالهم القيمة أبداً .

أجل ، إنّ الطبيعة السافلة الفاقدة للمـزايا الإنسـانية والمستعـدة لاكتساب أية صفة غير مرضيّة ، إذا قابلت أيّ شيء يثير التحسين والثناء أخذت تنـظر إليه بنظرة ملؤها التحقير والتصغير ، بل لا يمتنع صاحب مثل هذه الطبيعـة أن يبدي انزعاجه من ذلك ، فإنّ تقدم الآخرين وسعادتهم في الحيـاة تشكل بـالنسبة إليـه عذاباً وألماً نفسياً ، فهو ليس قليل التحمّل لسماع أقل تمجيد بشـأن الموفّقـين من أقرانه بل هو يتلقى ما قد يحدث في طريقهم من مشاكل وصعوبات ببـالغ المسرة والفرح ، وهو يتسلّى بذلك عما فيه من ألم .

فويل له فيما إذا أحسّ بأنّ أقرانـه قد تقـدّموه صعـوداً في مدارج الـرقي ، فـإنّـه حينئـذٍ ستشتعـل نـيران الغضب في فؤاده ، ومن الممكن أن ينتهي فكـره القاصر الفاتر وحسده البغيض إلى اتّخاذ سلوك عدائي بالنسبة إليهم ، وأن يقـدم على أيّ عمل منافٍ للمروءة والفتوّة من أجل إيراد صدمات بأقرانه أولئك .

إنّ العقــلاء يتّخـذون دروســاً من أعـمال الجهــلاء فيجتنبـون إرتكـاب أخـطائهم ، ولكن الجهلاء غـير مستعـدين للتبعيـة من أسـاليب العقـلاء واتّخاذ الدروس من أخلاقهم وفضائلهم الإنسانية .

النقد الأصولي يختلف عن سرد السلبيّات

إنّ سلب الأشخاص شخصيّاتهم وإيراد النقد غـير الوارد عليهم من أكـبر عيوب مجتمعاتنا ، فهو أمر رائج فيها وفي كثير من طبقـاتها المختلفـة ، فمن ابتكر أمراً وبدأ عملاً عارضاً جديداً فإنّه سيقع فريسة لنقد كل فرقة وطائفة حتى لـو لم يكن لها أيّة صلاحية لإبداء رأيها ، وسينهال عليه سيل من النقد الهـدّام من دون أيّة دراسة أو ملاحظة .

يقول (واناميكر) أحد الشخصيات الاجتماعية في أمريكا :

« ادركت منذ ثلاثين عاماً أنّ إيراد الإشكال على الآخرين من عمل المجانين ، فكيف استطيع أن أصلح الآخرين بلومهم وإيراد الإشكال عليهم بينما أنا نفسي أواجه المشاكل والمعضلات في رفع معايبي . والآن أقرّ وأعترف بأنّ الله لم ير من الصلاح أن يمنح كل واحد منّا عقلاً وعلماً مساوياً للآخرين »[1] .

لا شك في أن النقد الأصولي والصحيح هو من إحدى السبل الصالحة لإصلاح المجتمع ،ولكن التعاسة في أنّ أكثر النقد يكون بلا دراسة وتحقيق ، والذي هو بدوره سلوك غير عادل يسبّب انسداد سبيل التكامل والابتكار ، وربّما أثّر هذا الضعف الأخلاقي الاجتماعي في أقوى الأفراد فخيّبهم عن آمالهم في أعمالهم .

إنّ إيراد الإشكال على زلّات الناس وعثراتهم ـ في نظر علماء النفس في العالم ـ يعكس الأخطاء والنواقص في نفس المستشكل ممّا يراه في الآخرين من حيث لا يشعر ، ويقول :

« بصورة عامة ، وفي الغالب ، يستند النقد واللّوم من زلّات الآخرين وعثراتهم على عثراتنا نحن ممّا لا شعور لنا بها ، أي نحن نرى النقص في الآخرين من حيث نحسّ نحن به في أنفسنا وإن كنّا لا نشعر بذلك . وإنّ الرجل الإيجابيّ الواعي لا يصرف وقته في إيراد الإشكال على الآخرين ونقدهم ، إذ أنّه دائماً مشغول بأعمال إيجابية مفيدة . وقلّما يكون المنتقدون من طبقة المخترعين والمولّدين ، وحتى نقاد الفن حينما ينتقد نواقص الفنّ في الآخرين ينقد نواقص عمله هو في الحقيقة ، وإنّ المنظّرين الذين واجهوا الفشل هم من الذين ينظّرون للآخرين فقط ولا يعلمون هم بما يعلمون وينظّرون .

إنّ غير المعقول من النقد والإشكال ينتهي في الغالب إلى التنكّر للحق ، ويذهب ببهاء أيّ شيء . وإنّ بالإمكان أن نتبيّن سبباً للكراهية الشديدة فيمن

---

(١) بالفارسيه : آئين دوست يابى : ١٨ .

يقوم بنقد غير وجيه وغير عادل ، مما لا يشعر هو بوجود ذلك في نفسه ، وإنّ هذه الكراهية المضمرة تنتقل من باطن الناقد إلى ما حوله وتذهب بقيمة كل شيء حواليه . نحن نشاهد ردّ فعل مثل هذا فيمن قد قضى عمره في اليأس وخيبة الأمل ، فهو ينظر إلى جميع الكائنات بنظرة ملؤها الازدراء والاحتقار ، إنّ انتقاد هؤلاء ينطلق من كراهيّتهم الشخصية ، حتى إنّهم يتنفّرون اليوم مما كانوا يحبّونه بالأمس ، من دون أن يشعروا بأن هذه الكراهية ليست من خارج وجودهم ، بل هي تنبع من نفوسهم . إنّ العداء وسوء الظن ينشأ في الحقيقة من نضوب معين المحبة والوداد في نفس الإنسان »[1] .

إنّ عمل الخير جدير بالتقدير حتى ولو كان من واجب من يقوم به ، فإنّ من يعرف تكليفه ويؤدّيه يجب أن يقع موقع التقدير والثناء ، حتى يجد في نفسه تعلّقاً أكثر بتكاليفه وأدائها ، ويقوم بتعقيبها بمداومة وعلاقة واشتياق أقوى وأكثر .

كاتب هذه السطور كان قبل عدّة أعوام في إحدى المدن المعروفة في إيران ، وفي يوم من الأيام أصيبت شبكة الكهرباء في تلك المنطقة بنقص فنّي ، فاتّصلت أنا بمدير الشبكة وطلبت إليه أن يعمل على ترميم ذلك النقص الطارىء . وبعد مدّة مديدة تقريباً أصلحوا نقص الشبكة الكهربائية ، فتكلّمت من جديد بالهاتف مع ذلك المدير وشكرته وقدّرت ما قام به من عمل ، فتأثّر ذلك المدير بعد سماعه كلمات الشكر بحيث كان في بداية حديثي معه بادي الألم والفتور من خلال صوته ولكن بعد سماعه شكري انفتح صوته بصورة محسوسة وسألني متحيّراً وبشوق وافر : من أنت الذي تشكرني على عملي هذا ؟ فإنّ هذه أول مرّة أسمع فيها شكراً وتقديراً من حين التزامي بمسؤولية هذه الشبكة هنا !! .

وأجبته : للأسف أو لحسن الحظّ فإنّي لست من أهل هذه المدينة ،وإنّما

(١) بالفارسية : روانشناسى براى همه : ٢٥٧ و٢٥٨ .

كان شكري وتقديري لما قمت به من واجب . فأبدى رغبته في أن يراني من قريب .

ومنذ ذلك الحين كلما كان يطرأ نقص في تلك الشبكة المنهكة في تلك المنطقة ، فبمحض ما كنت أخبره بالأمر كان يقدم على رفع النقص الطارىء بكل علاقة وشوق ، وكان يرتفع ذلك النقص بسرعة وفي مدّة قصيرة .

وحسب تحقيقي عن حقيقة ما ادّعاه أنّه لم يشكره إلى ذلك اليوم أحد ، علمت أنّه عيّن منذ عدّة أعوام مديراً لتلك الشبكة المنهكة في تلك المنطقة ، ولم تُقدّر أتعابه حتى لمرة واحدة في كل تلك المدّة الطويلة .

التملّق المذموم

ويجب أن نتذكّر : إنّ التقدير ومع كلّ ما له من نتائج وثمرات نافعة ، يجب أن يكون محدوداً بحدود ولا ينبغي أن يتجاوز عن حدوده المنطقية المعقولة ، فكما أنّ عدم التقدير من الأعمال الإيجابية والبنّاءة يؤدّي إلى جمود الأفكار والطاقات ، فإنّ الإفراط في التحسين والتقدير أيضاً يقلب التقدير إلى تملق مذموم ومضرّ ، وهو من أنواع الإنحرافات المجانية للواقع والحقائق .

كتب (دايل كارينجي) بهذا الشأن يقول :

« إنّ التملق لا يؤثّر في الظّرفاء ، لأنه خاوٍ وباطل ومغرض ، فمن الطبيعي أن لا يتأثر به السامع الظّريف .

هناك فرق بين مدح وثناء ينطلق من القلب وبين تملّق فاسد ، ضرّه أكثر من نفعه ، إنّ الرجال المتملّقين يصابون بخسارة كبرى ؛ فإنّ التملّق نوع من الخداع المضحك الذي سينكشف يوماً مّا ، بينما التحسين والتمجيد الخالص شيء يختلف عن الأوّل تماماً ، وأعني بالتملّق أسلوباً من التفكير الحقير المؤثّر في مسيرة حياة الإنسان بصورة كلية .

لنكن حين الحديث بدلاً من أن نعطف أفكارنا إلى أنفسنا نسعى لنجد الأخلاق والصفات الخاصة لمخاطبينا ، وحينئذٍ نقدر على أن نجد الجوانب الخيرة في ذلك الشخص فنثني عليه بإخلاص ، ولا نتكلّف تملّقاً لا نعتقد به نحن في قرارة نفوسنا »[1] .

إنّ عمر بن عبد العزيز الذي كان يختلف عن سائر الخلفاء الأمويّين في مزايا من الفضائل الإنسانية ، حينما بلغ الخلافة وتولّى زمام أمور المسلمين ، وأسرعت طبقات الناس إلى لقائه وتهنئته وتبريك الخلافة له ، قام إليه في مجلسه العام رجل من شخصيات العرب المعروفة يدعى (خالد بن عبد الله) ممثلاً لوفد من الوفود وبدأ كلامه يقول :

يا أمير المؤمنين ! يفخر كثير من الناس بما يصلون إليه من مقامات ومناصب ، فيكون شرفهم الإمرة والخلافة والمقام ، وأما أنت فأنت فخر الخلافة والإمرة ، فهي تزهو بك وتتشرّف وتتزيّن بوجودك ، وفي الحقيقة أنت كما قال الشاعر :

وإذا الدرّ زانَ حسنَ وجوه كان للدرّ حسنُ وجهك زيناً

وكان خالد بن عبد الله يمدح الخليفة ويثني عليه نظماً ونثراً بكلام جزلٍ ، ولكن الخليفة ملّ من تملّقه اللاّمعقول ، فقطع عليه حديثه وأمره بالجلوس . ثم التفت إلى الحاضرين وقال : « إنّ لصاحبكم لساناً عوضاً عن العقل والجَنان » .

إنّ روحية التملّق من العيوب البارزة في المجتمع ، وقد سرت بصورة موحشة في كثير من شؤون مجتمعنا ، وقلّما نجد أفراداً يتمدّحون آخرين من أجل الصعود بمعنويّاتهم وتأييدهم وتقوية قلوبهم وإبرازاً لمعرفتهم بحقوقهم وقيمة أعمالهم ، ولا يكون لهم هدف سوى دفعهم إلى الأمام وفتح الطريق أمام تقدّمهم .

---

(١) بالفارسية : آئين دوست يابى : ٤٢ .

وكتب كاتب من الشخصيات الاجتماعية في إيران بهذا الشأن يقول :

« أصبح لي هذا الأمر كقانون مطلق شيئاً فشيئاً : بأنّ كلّ من يزورني ويبدأ بمدحي أو الثناء على كتاباتي وآثاري ، فإنّما هو يرجوني لحاجة مّا ، فمثلاً يطلب منّي توصية ، أو أصبح له اطّلاعه على أمر عن طريقي ضرورياً لازماً ، أو أنّه يتوقع مني معونة أو مساعدة أخرى . ولم يزرني بعد أحد من أجل ترغيبي وتشويقي على أعمالي فقط » .

ثم يضيف قائلاً : « حقّاً إنّ هذا ممّا يبعث على الحسرة والألم : أنّ أكثر الكتّاب والخطباء في العالم المتحضّر ـ كما يقولون ـ أحياناً يتلقون في يوم واحد عشرات الرسائل يبدي فيها أصحابُها أحاسيسهم النزيهة وتقديرهم وثناءهم من أجل آثارهم الثمينة . . بينما قلّما يقع في إيران أحد الخطباء أو الكتّاب موقع التقدير خلواً عن الأغراض ومن دون أي توقّع » .

أطروحة الإسلام بشأن نشر الطهر والنزاهة

إنّ من البرامج البنّاءة والقيّمة في الإسلام هو أن يكون المسلمون شاكرين للنعم الإلّهية التي لا تعد ولا تُحصى . والواقع هو أن الشعور بالتقدير إنّما ينطلق من خاصية ترتبط بشخصية الإنسان بصورة غامضة .

إنّ الترغيب والتشويق العاطفي عامل نافع ومفيد في نشر الفضائل الإنسانية في المجتمع البشري . لو كان الناس يثيبون المحسنين ويعاقبون المسيئين ضمن ردود فعلهم أمامهم ، كان المجتمع يتقدم بذلك نحو السلامة والكمال ؛ ذلك أنّه متى ما تيقّظ في الناس الشعور بالكراهية من الجُناة والمجرمين وروحية الثناء والتقدير للمتّقين والمحسنين ، كان من الطبيعي أن يتّجه المجتمع نحو الفضائل والتقى ، وتنتشر في الناس نزاهة الآمال والأهداف ، وتتبيّن مقاييس القيم في كل طبقة وفرد ، وتتميّز صفوف الملوّثين عن غيرهم .

يقول علي (عليه السلام) في عهده التاريخي لمالك الأشتر :

« ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزِم كلًّا منهم ما ألـزَمَ نفْسَه »[1] .

إنّ رضا الخاطر وسكون الوجدان الذي يُحسّ به الإنسان إثر عمله بتكاليفه ووظائفه خير أجر وأطيب ترغيب ، ولكنه إنّما هو لأفراد قلائل بلغت شخصيّتهم إلى أسمى مراحل الكمال ، إلّا أنّ بلوغ هذا المستوى الأخلاقيّ الأمثل إنّما يتيسّر لعدد معدود من الناس فحسب ، وأمّا أكثر الناس فإنّهم لم يبلغوا من الكمال الروحي إلى مرحلة لا يحتاجون فيها إلى الثناء والتقدير ، ولهذا فإنّه لا ينبغي أن نغفل عن أهميّة التقدير وأثره بحال من الأحوال .

يقول العالم النفسي الشهير (شاختر) :

« إن كان من اللازم أن توردوا إشكالاً على أحد وتجعلوا عمله على طاولة النقد ، فمن الواجب في البداية أن تتذكّروا إحدى أعماله الصالحة فتمجّدوه به وتثنوا عليه ، كي تُقضى حاجته إلى التقدير والثناء ؛ فإنّكم إذا فعلتم ذلك ثم أوردتم عليه نقدكم لم يكن مُرّاً بتلك المرورة المجرّدة ، بل قد يتقبّل نصحكم ونقدكم بكل رغبة وامتنان » .

فالرئيس مثلاً إن كان غير راض عن رسالة كتبها كاتبه أو سكرتيره ، كان من الحسن أن يقول له : إنّ الرسالة التي أعددتها بالأمس ـ مثلاً ـ كانت واضحة جليّة ، بينما هذه فيها قليل من الغموض والإبهام ، فأرجو أن تقرأها مرة أخرى وإذا اقتنعت فغيّرها . فطبيعي أن الكاتب سوف لا يتألم من هذا النقد اللطيف ، بل قد يحصل له الشكر والامتنان من تقدير رئيسه والتفاته إليه ، وبالتالي سيسعى في أعماله بدقّة أكثر . وإذا رأيتم خادم المطعم يذهب ويأتي بسرعة في خدماته ولكنه قد أبطأ في تقديم طعامك ، فلا تغضب ولا تنتقده بل اعرف له عمله

---

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٠ ط الصالح ، الكتاب ٥٣ .

وقدّر جهوده وتمدّح فنّه ولباقته ، واطمئن بعد ذلك أنّه سيسرع في تقديم طعامك مهما أمكن منشدّاً إلى عمله بجدّية وحرارة .

إنّ أي إنسان وفي أيّ سنّ من عمره وفي أي منصب كان ، فإنّه يحبّ بكل قلبه أن يلتفت الناس إلى أعماله بالتقدير ، وحتى المعلّم الكبير بعد سنين من الدراسة والاستماع إلى أنواع الثناء ، إذا سمع تلميذه الصغير اليوم يقول له : سيدي اليوم تعلّمنا من درسك الكثير ! فرح بذلك وسرّ قلبه .

إقض حوائج الآخرين إلى التقدير والثناء لكي يُصبح الأخذ والعطاء في الحياة أيسر وأطيب ، ولا تفوّتوا على أنفسكم أيّة فرصة للتقدير والتمجيد على الأعمال الصالحة للآخرين ، حتى يلتزم الآخرون بقضاء حوائجكم إلى التقدير والثناء أيضاً »[1] .

علينا أن نلتفت إلى أنّ أفراد الناس كما لهم من مزايا وصفات عالية ، من الممكن أن يكون فيهم عيوب ونقائص ، ونحن أيضاً غير خارجين عن هذه القاعدة الطبيعية فلا نخلوا نحن أيضاً من عيب أو نقص، ولهذا فعلينا بدل أن نكون مترصّدين لما في الآخرين من نقاط ضعف ، نلتفت إلى مزاياهم وصفاتهم العالية وما فيهم من خير وصلاح ، وإنّ أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) يوجّه أنظارنا إلى هذا الموضوع بعبارة جميلة فيقول :

« كن كالنحلة إذا أكلت أكلت طيّباً ، وإذا وضعت وضعت طيّباً ، وإن وقعت على عود لم تكسره »[1] .

إذا واجهتم عواطف الأصدقاء وخيرهم ورأيتموهم أنّهم يُقدمون على العمل بطلباتكم وتمنّياتكم بكل علاقة وحسن نيّة ، وأنّهم في سعي وفعّاليّة لحلّ مشاكلكم بصورة جدّية ، فاشكروهم عملاً بشريعة الأخلاق والإنسانية ، وامنحوهم كلّ حبّكم وودّكم .

---

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ٤٥ ، ٤٦ .

(١) غرر الحكم : ٥٦٩ .

من الممكن أن يظهر التقدير بمظهر عمل إيجابيّ بعيد عن كلّ رياء ومظاهرة .

كتب (كرونين) يقول :

« كان ابني الذي يدرس في كليّة الطبّ يحكي ويقول : كان من اللازم لعلاج مريض في المستشفى أن يزود بالدّم ،وكان كذلك ، وبعد العلاج أخذ يبحث عمّن أهدى إليه دمه لعلاجه من مرضه ، فقيل له : إنّ أسماء الذين أهدوا دماءهم تبقى مكتومة . فخرج من المستشفى،وبعد عدّة أسابيع رجع إليها ليهدي دمه للمستشفى ، وكرّر هذا العمل الخالص عدّة مرّات أخرى . فسأله أحد الأطبّاء الجرّاحين : ما الذي يدفعه إلى عمله هذا ؟ فأجاب بكل بساطة وسذاجة : أهدى إليّ مجهول دمه ، وأنا أشكره بعملي هذا »[1] .

إنّ عمل الخير وإظهار المحبة إن لم يقابل ـ على الأقل ـ بأقل مراحل التقدير ـ أي التقدير والثناء باللسان ـ كان ذلك بعيداً عن المروءة والفتوّة ، بل كان هدراً للحقوق .

أضرار ترك الشكر والتقدير

في هذا العالَم يوجد أناس مهما أحسن إليهم وأعينوا على مشاكلهم ، لم يحصل لهم حالة الرضا النفسيّ فضلاً عن الشكر عملاً أو الحمد لفظاً ، وكأنّ إسداء الخدمة إليهم من واجب الآخرين ، وكأنّ لا واجب عليهم سوى إضاعة حقوق الآخرين وإحسانهم إليهم وعدم الشكر لهم . وبإمكان القرّاء الأعزّاء أن يروا مثل هؤلاء من حولهم ، وإنّ سلوك هؤلاء لا ينسجم مع العقل والإنسانية . وقد جعلهم علي (عليه السلام) في عداد الحيوانات حيث قال :

« من لم يشكر الإنعام فليُعدّ من الأنعام »[2] .

---

(١) بالفارسية : دانستينها جهان علم : ١٥٩ .

(٢) غرر الحكم : ٦٧٢ .

أما أنتم فإذا أحسستم بحسن نيّة أحد فقدّروا منه نيّته النزيهة والخالصة حتى ولو لم يوفّق لعمل الخير لكم ، فقد قال علي (عليه السلام) أيضاً :

« من لم يحمد أخاه على حسن النيّة لم يحمده على الصنيعة »[1] .

وقال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) :

« خير إخوانك من نسي ذنبك وذكر إحسانك إليه »[2] .

إنّ روحية عدم الشكر من الآخرين يورث الإنسان خسارة لا تعوّض ، ذلك أنّ الإنسان إن كان يبخل عن شكر خدمات الآخرين وتودّدهم وعجز عن الثناء عليهم والتمجيد بهم حتى مع علمه بأهميّة أعمالهم وأتعابهم التي تحمّلوها ، لم يُبد أولئك للمرة الأخرى أيّة رغبة في خدمته وحلّ مشكلته .

والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ينبّه إلى هذا الحرمان والخسران بعبارة قصيرة يقول فيها :

« من لم يشكر الإحسان لم يعده إلّا الحرمان »[3] .

وينبّه مالك الأشتر في عهده إليه أهمية التقدير ونتائجه وثماره إذ يقول (عليه السلام) :

« لا تدع تفقّد لطيف أمورهم إتكالاً على جسيمها ، فإنّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه »[4] .

« فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم ، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإنّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع وتحرّض الناكل »[5]

---

(١) المجالس السنية للسيد الأمين العاملي ٥ : ٤٧١ ط ٢ .

(٢،٣) غرر الحكم : ٧٠٤ .

(٤) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٣ ط الصالح .

(٥) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٤ ط الصالح .

وبإمكاننا أن نوجّه أنظارنا إلى التجارب المستفادة هنا إذا قالوا :

« لو التزم الآبـاء والأمهات والأبنـاء بأن يثنـوا على أعـمال بعضهـم البعض ويمجّدوا بها أكثر ، لكان الإقبال من المصابين بعقدة الحقـارة على مكـاتب الأطبّاء النفسـانيين أقـلّ جدّاً ؛ فـالإنسان بحـاجة إلى أن يشعـل في نفسه جـذوة العمل بحرارة المديح والثناء الذي يسمعه من الآخـرين ، وإلاّ فإنّ احـترام النفس يقع في خطر الإحتلال .

إنّ الإنسـان إذا لم يسمـع كلمـة شكـر عـلى مـا يتحمله من جهـد وتعب أصبحت الحياة عليه صعبة جدّاً . إمرأة خدمت الأبقـار عشرين عامـاً ، وكانت تتوقع أن تسمـع من أصحابهـا كلمة شكـر وتقديـر ، إذا قالـوا لها يـوماً : إنّـك مجنـونة ! فقـالت في جوابهم : أنـا لم أكن أسمـع حتى الآن كلمـة تبـيّن لي أنّكم تفرّقون بين المجانين وغيرهم ! .

قـال لي الدكتـور (وايل) الـذي له التجـربة الـطويلة في عـلاج الأطفـال المعتوهين ، بشأن واحد من أولئك الأطفال ، قال : إنّه قد توصّـل إلى نتيجة أنّ التقدير قد يجب أن يدخـل ضمن الوصفـة الطبّيـة النفسيّة . وقـال : إنّ القضية ترجع إلى طفلين توأمين كان لأحدهما نبوغ عقـلي وضّاء ، والآخـر يبدو بليـداً ، وطلب مني أباهما أن أكشف له عن علّة ذلك ، وحين اجتذبت إليّ اعتماد الطفـل البليد أفضى إليّ بما يبوح به الأطفال في هكذا أحـوال أحيانـاً ، سألني : لمـاذا لا يحبّه الآخرون كما يحبّون أخاه ، فحينما يفعل أخوه عملاً يبتسمون لـه ولكن حينما يقوم هو بنفس ذلك العمل يقطّبون في وجهه . أنا لا أقدر على إجـادة عمل كـما يقوم به أخي .

وأضاف الدكتور (وايل) يقول :

« باعدْتُ بين هذين الأخوين ، مهما أمكن ، فمثلاً فرّقت بـين صفيهما ، وطلبت إلى والديهما أن لا يحرّكوا عـواطف الأخ البليد بـالقياس بينـه وبين أخيـه الذكي ، بل أن يجعلا ما يقوم به البليد من أعمال طفيفة موضع الثناء والتقدير .

وكانت النتيجة أنّ هذا البليد وفي مدة سريعة نسبيّاً استطاع أن يقف على قدميه شاعراً بالاستقلال » .

وإنّ أحد معارفي الأثرياء كان يرى من فخره أنّه لم يمنح أحداً شيئاً إزاء حسن خدمته وعمله ـ سوى الأجرة المقررة فقط ـ واجه في أوّل يوم من السنة حادثة مؤلمة : انتحر محاسبه ، وكانت الحسابات في الدفاتر منتظمة ، وكان الرجل المحاسب المنتحر وجيهاً هادئاً ومجرّداً لم يتزوّج ، وكانت الرسالة الوحيدة التي خلّفها مذكرة مختصرة معنونة بعنوان سيّده الثريّ بهذا المضمون : لم أسمع منك منذ مدّة ثلاثين سنة كلمة شكر واحدة ! فسئمت الحياة وخويت وهويت فانتحرت »[1] .

إنّ روحيّة الشكر والتقدير تنبع من نضج الشخصية والثقة بالنفس وسلامة الروح في حين أنّ التملّق المفرط سمة الشعور بالحقارة والضعف والوهن والخوف وتضعضع الشخصية ، إنّ التقدير والثناء في غير محلّهما إنّما هي طريقة الذين يريدون أن يجبروا ما فيهم من نقص وعوز ، أو يريدون بذلك الوصول إلى بعض منافعهم الشخصية ، وإنّ المدائح التي يكيلها أرباب الأطماع تفتقد القيمة لأنّها لا تستند إلى إيمانهم وعقيدتهم بل إنّما يتظاهرون بها لأهدافهم الخاصّة ، إنّ هؤلاء المدّاحين النفعيّين كصيّادين ماهرين يفترشون شبكات المديح والثناء كي يقنصوا صيداً من خلال ذلك .

يقول (وولتر) :

« إنّ أكثر أولئك الذين يبدون من أنفسهم مهارة خاصّة في اللّباقة وفي الإطراء والتملّق ، يضمرون في قلوبهم في الغالب نيّات غير نزيهة » .

روي عن النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يقول :

« ليس من خلق المؤمن الملق »[2] .

---

(١) بالفارسية : كليدهاى خوشبختى : ٣٣٥ ـ ٣٣٧ .

(٢) نهج الفصاحة : ٥٠٩ .

ذلك أنّ المديح والثناء في غير محلّه يسبّب الغرور ، والمغرور إذا كان ذا نفوذ وقدرة فلا يكون مستعداً لتقبّل نصائح الآخرين ليبتعد عن الباطل إلى الحق والحقيقة .

وفي عهد علي (عليه السلام) إلى مالك الأشتر يقول :

« ثم رُضْهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزَهْو ، وتُدني من العزّة »[1] .

وفي البحار عنه (عليه السلام) قال :

« الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتقصير عن الاستحقاق غيّ أو حسد » .

وعلى هذا فلو أكبرتم أحداً أكثر من قيمته الواقعية ، وأبديتموه أكثر ثقلاً ووزناً ممّا هو عليه ، لم يزدد شيء على شخصيته ، بل إنّكم بهذا التملّق تكونون قد سحقتم استقلال شخصيته الروحية ، وإذا أثنيتم عليه أقل من استحقاقه فذلك علامة عن نفسية غير متوازنة وعن ضعف وحسد فيكم . أمّا إذا احترمتم أحداً على نفس المستوى الذي هو عليه كنتم قد حافظتم بذلك على شخصيته وشخصيّتكم كليهما ، فلا يقع هو في شباك الكبر والنخوة ، ولم تسقطوا قدركم ولم تهينوها .

أمّا إذا كان الثناء ملقاً فبما أنّه لا يستند إلى حقيقة ولا ينبع من فضيلة باطنية ، فلا يمكن الاعتماد والإطمئنان إلى مماراته ومراءاته ، فكما أنّه يطلق لسانه في حضوركم بمدحكم لهدف خاص ، من الممكن أن لا يألو جهداً في غيابكم عن أي نقد أو تعبير لهدف آخر .

ويذكر علي (عليه السلام) هذه الخاصة القبيحة للمتملّقين فيقول :

---

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤٣٠ ط الصالح ، والزهو : العجب ، والعزّة هنا العزة بالإثم بمعنى الكبر .

« من مدحك بما ليس فيك فهو خليق أن يذمّك بما ليس فيك »[1] .

كما أنّ الترغيب والتحسين من الحاجات النفسية للإنسان وهو يسبّب في تعاليه ونموّه ، كذلك فإنّ الذم واللّوم المستمر وفي غير محلّه يؤثّر أثراً غير مرغوب فيه في نفسية الإنسان ، ومن الممكن أن يجرّه إلى سبيل الفساد .

في غرر الحكم عن علي (عليه السلام) :

« إيّاك أن تكرّر العتب فإنّ ذلك يغري بالذنب ويهون العتب »[2] .

وإنّ إدخال السرور إلى قلوب الأطفال هو نوع من الترغيب المؤثر الموجب لمحبّتهم ، والمؤثّر في علاقاتهم العاطفية مع غيرهم .

ففي (مستدرك الوسائل) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال :

« إذا نظر الوالد إلى ولده فسرّه كان للوالد عتق نسمة »[3] .

ويقول (برتراند راسل) :

« من الضروريّ أن يكون استعمالنا للذمّ واللّوم أقلّ من الثناء والتحسين ، ويجب أن يكون اللّوم منبّهاً في حدود معيّنة ، وأن يُلجأ إليه بشأن بعض الإنحرافات غير المتوقّعة التي تبدو في حسن سلوك الطفل ، وبعد تأثيره لا ينبغي تكراره وتعقيبه .

إن في اجتذاب حبّ الأطفال من الفرح ما يقابل كل ما تمنحه لنا الحياة من الأفراح واللذّات ، وإنّ أجدادنا وأسلافنا لم يكونوا يعرفوا شيئاً عن هذا الفرح وهذه اللذّة ، ولهذا فهم لم يكونوا يعرفوا ما يفتقدونه من هذه الناحية ؛ إنّهم كانوا يعلّمون الأطفال أنّ من واجبهم حبّ والديهم ، ثم كانوا يعملون ما

---

(١) غرر الحكم :

(٢) غرر الحكم : ٣٥٩ .

(٣) مستدرك الوسائل ٢ : ٦٢٦ .

لا يمكن معه العمل بهذا الواجب للأولاد تقريباً .

روى (كارولين) في أول فصل من شعره :

« أنّه قلّما كان يفرح من إقبال والده إليه ، ذلك أنّه كان لا يشك في أنّه إنّما يقبل إليه ليضربه بسوطه » ! .

وما دامت هذه الفكرة هي المسيطرة على أفكار البشر : بأنّ حبّ الوالدين واجب وأنّ من الممكن للحمل على أداء هذا الواجب أن نتوسّل بالأمر والإلزام ؛ لم يستطيعوا أن يجتذبوا بذلك إلى أنفسهم الحبّ الحقيقي من أولادهم ، ولهذا فقد كانت العلاقات والارتباطات الإنسانية تبقى شديدة جامدة خشنة ،وكانت صور الإيذاء والإيلام والتنبيه والتأديب تشكل أقساماً من هذا التصوّر العام . ومن ألطاف الباري أن شاءت وغلبت في هذا القرن الأخير بشأن العلاقة بين الأبناء وآبائهم والأولاد ووالديهم ، تصوّرات أفضل ، ومع ظهور هذه التصوّرات تبدّلت وتطوّرت نظرية « العصا لمن عصى » .

وأنا آمل أنّ هذه الأفكار النيّرة التي هي في دورها للغلبة في عالم التربية ، آمل أن تنتشر أكثر بالتدريج في العلاقات الإنسانية الأخرى ، فإنّنا بحاجة إليها في سائر العلاقات الإنسانية كما نحن بحاجة إليها في معاملتنا مع أطفالنا[1] .

إنّ هذا السلوك التربويّ الذي ينسبه هذا الفيلسوف الإنجليزي إلى القرن الأخير ، كان ضمن البرامج التعليمية لقائد الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، فلم يكن عطفه وحنانه محدوداً بأولاده وأبنائه ، بل كان يجعل أطفال الناس بكل بساطة مورداً لمحبّته وعنايته الخاصة ، وكان ينشر عليهم لطفه وعطفه الفيّاض بكل بذل وعطاء وسخاء ، كما قالوا بشأنه : « وكان التلطّف بالصبيان من شأن الرسول » ! .

---

(١) بالفارسية : درتربيت : ١٢٢ ـ ١٢٥ .

مكافحة الفساد

إنّ من العوامل المؤثّرة لترغيب المحسنين وتأديب المسيئين : تطبيق قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع. إنّ شيوع الفساد يؤدّي بالقيم والفضائل الإنسانية التي هي أساس سعادة المجتمع وعظمته ، ويجرّ البشر بطبعه عن طريق الطهارة والتقوى نحو السيّئات ، إنّ المعاصي سريعة العدوى فهي تسري في المجتمع كأخطر ميكروب سري ، يتكوّن في نقطة وينتشر إلى سائر النقاط ، ويبدأ بفعالية واسعة النطاق في جميع أنحاء المجتمع ، وإذا لم نبدأ كفاحاً جدّياً متوالياً ضدّه وهو في مهده وسّع هو من دائرة نفوذه ، ولوّث ما حوله حتى يستوعب جميع النقاط السليمة أيضاً .

إنّ نتائج الأعمال الشنيعة لا تشمل مرتكبيها فقط ، بل سيحترق بنارها من سمح بنموّها وتطوّرها بسكوته عنها وعدم التنديد بها ، ذلك أنّه مع قدرته على منعها اتّخذ موقفاً سلبيّاً ، وامتنع عن القيام بأي إرشاد إلى الصلاح ، ولا شك في اشتراك هذا في فساد أوضاع المجتمع وتلويثه ، ولذلك فهو سيرى غبّ ما فعله بنفسه .

على الإنسان حين مشاهدته لأنواع الفساد والتلويثات أن يشعر بالمسؤولية عوضاً عن عدم التنديد والسكوت ؛ إذ كما أنّه لو كان يجرّ غيره إلى سبيل الفساد والإنحراف كان ضالاً مضلاً ، فكذلك إنّ عدم التنديد بأمر المجرمين أو المذنبين وترك الأخذ بأيديهم مع وجود الإمكانيات الضرورية لذلك ، هو نوع من الضلوع في تحريف العصاة وسبب في الفساد ! .

إنّ القادة المربّين للأمم على الفضائل الأخلاقية قد عرفوا الناس بأنواع الأرجاس والأنجاس ، وآثارها الضّارّة ، حسب اختلاف درجاتهم ومواقعهم الاجتماعية ، وركّزوا في الخواطر على هذه الحقيقة ؛ وهي أنّ المعصية والتخلّف عن الأوامر في مختلف نواحي الحياة يؤدّي إلى التوقف في سير قافلة التكامل الإنساني والحياة اللائقة بالبشر ، وأنّ لا خاصيّة للمنكرات سوى انعدام معنى

الحرية الواقعية واضمحلالها . اللهم إلّا أن يكون أفراد ذلك المجتمع قد افتقدوا قوة إدراك الحقائق فيرون المنكر معروفاً والتسيّب حرية والقهقرائية كمالاً وتقدّمية .

وقد أكّدوا ضمن الأحكام الدينية على أنّ من رأى منكراً في شرف الوقوع فعليه أن يوقف ذلك حسب إمكاناته ، وقد بيّنوا لمكافحة الفساد درجات ومراتب مختلفة من حيث القدرة والتدرّج في ذلك ، وأنّ على الإنسان في أي موقعيّة اجتماعية كان أن يعبّىء قواه لإفشال الشرور والمنكرات : فواجب المقتدر بالنظر إلى ما منحه الله من قدرة على تغيير الجرائم أن يؤدّب المنحرفين بما أوتي من قوة ، وأن يجرّهم إلى طريق الحق وصراط النزاهة والطهارة ، أما فاقد القدرة اللازمة لتطهير المجتمع من المنكرات فعليه أن يستعمل لسانه بالهداية والإرشاد ، وأن يبينّ بما أوتي من نفاذ في الكلمة عيوب السيّئات وآثارها الضّارّة في الحياة الفردية والاجتماعية .

ومن البديهي أنّه يجب أن يكون القائل عاملاً بالخير والفضائل مهتمّاً بما يأمر به وينهى عنه ، حتى يتقبّل الآخرون كلامه بكل كيانهم ، وإلّا فإنّ نصيحته لن تنفذ إلى أعماق القلوب ، وسيبقى كل تبليغ له بالخير جافّاً جامداً لا حياة له ولا حركة ولا أثر . نعم إن لم يمكنه مكافحة الفساد حتى بالإرشاد كفى منه أن يبدي انزعاجه من المنكرات وتنفّره منها .

طبيعي أنّه لا يكفي أن يكتفي بالعمل السلبيّ القلبيّ دون أن يرتب أثراً على ذلك ، بل من الضروريّ أن يرتب أثراً إيجابياً على الإنكار بالقلب ، بمعنى أن يقطع حبال الألفة وأواصر المحبّة والوداد مع المجرمين ، لكي يشعر أولئك بأنّهم مطرودون من المجتمع الصالح .

إنّ الإسلام قد أولى مكافحة المنكرات أهمية خاصة ، وبذل عناية فائقة في جهاد الفساد . وقد أرشد البشرية إلى الخير في جميع مراحل الكمال الإنساني . وقد رسم القرآن الكريم حدود الفلاح بيّنة وحصرْ على العاملين بالمعروف

الآمرين به والمنتهين عن المنكر الناهين عنه إذ قال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ ويأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وأُولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

وعلى هذا فالذين يدخلون محيط السعادة في نظر الإسلام هم الذين استقرت طريقتهم في الحياة العملية على هذا الأساس ، بمعنى أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزءاً من برنامج حياتهم العملية ومّما لا يحذف منه. وأيضاً في آية أخرى من نفس هذه السورة يقول بأسمى درجات الشرف والفضيلة لأمّة تستند في مختلف مراحل الحياة على هذه القاعدة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بالله ﴾[2] .

وفي غرر الحكم عن علي (عليه السلام) قال :

« كن آمراً بالمعروف عاملاً به ولا تكن ممّن يأمر به وينهي عنه فتبوء بإثمه وتتعرّض لمقت ربّه »[3] .

وفي (التهذيب) عن رسول الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يقول :

« لا يزال (أمتي) الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر وتعاونوا على البر ، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعتِ منهم البركات وسُلّط بعضهم على بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء »[4] .

وفي هذا العصر المتحضّر وضعت بعض الدول قوانين تشبه أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخذوا في تنفيذها هادفين إلى نشر العدل والبر ودعم قواعد مجتمع صالح ؛كتبت عن ذلك إحدى الشخصيات المعروفة في

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٩ .
(٣) غرر الحكم : ٥٦٩ .
(٤) التهذيب ٢ : ٥٨ .

جريدة « إطلاعات » الإيرانية الرسمية يقول :

« هذه حقيقة لا يمكن إنكارها ، وهي أننا من أجل الوصول إلى مجتمع عادل يجب علينا أن نكون مثلاً كالشعب السويسري في أن يكون كل فردٌ منّا بنفسه حارساً لحدود العدالة ، كما كتبوا في دستورهم وكأنّه وحي سماوي مقدّس : « يجب على جميع أفراد الشعب بمحض مشاهدتهم لأصغر نقض للعدل أن لا يسكتوا عن ذلك حتى يجبر ذلك الكسر »[1] .

إنّ هذه المادة في الدستور السويسري هي نفس الواجب الذي نصّ عليه الإسلام قبل ١٤ قرناً لكل مسلم .

***

(١) جريدة إطلاعات المؤرخة : آذرماه ١٣٤٢ هـ ش .

الصبر جسر النصر

* أقصر طرق الموفّقية .
* المنبع الفيّاض بالقوة .
* ضرورة المعرفة بأصول الحياة .
* الدرس الذي يجب أن نتعلّمه من النكسة .
* سبُل الرقيّ إلى الكمال .
* واجب الانضباط في الأعمال .
* الإسلام وحده ليس عامل النصر .
* عاملان قويان لتربية الإنسان .
* مزيّة إنسانية سامية .
* التغطية على الضعف والعجز .

أقصر طرق النصر

كـل ظاهـرة في نظام الـطبيعة تتـربّى في أحضان مكـافحة المشكـلات منـذ تقمّصها للباس الوجود حتى بلوغها إلى أوج الكمال ، وهذا نامـوس طبيعي يسود الموجودات من أوّلها إلى آخرها .

وكلّ إنسان يـرغب أن يختار أقصر الـطرق في حياتـه إلى التوفيق المـطّرد ، وأن يستثمر من نتائج عمله أسرع ما يكون . ولكن ليس بالإمكان قصد السبيـل والـوصول إلى الأهـداف المنظورة إلاّ عن طـريق الصبر ، وليس بـالإمكان تحقيق أيّ تقدم أو سموّ أو نموّ للإنسان من دون الالتزام بهذه المزيّة الأخلاقية .

سواء الإنسان العادي أو المبدع والمخترع الذي يتمتّع بذكاء ونبوغ متميّز ، إذا أراد أن يفتـح على نفسـه أبواب المـوفّقية وأن يستثمـر من وجوده ، فعليـه أن يتحلى بالصبر في الأعمال مستلهمـاً من نظام الـطبيعة ، وأن يتسلّح بقـوة التدبـير والواقعية ، وأن ينظر إلى الحياة في أفق واسع ومتّقد .

إنّ الأعمال الكبار لن تنتظم فوريّاً وبلحظة واحـدة ، بل لا بـدّ من صرف الوقت والجهد الكثير لتنفيذ الأطـروحات والتصـاميم الواسعـة ، ولإنتاج الأمـور القيّمة ، والنشاط الموقّت مهما كان كثيراً لا ينتج توفيقاً مطّرداً دائماً .

أجل ، بالصبر والهمّة العالية نستطيع أن نرفع كل السدود التي تسدّ سبيل التقدم ، وأن نعبّر عن المشاكل والشدائد الكثيرة ، ذلك أن الانتصـار يقترن مـع سلسلة من المشاكل والمتاعب .

نحن نـرى البعض يبلغ في الحياة رقيّـاً وتقدّمـاً ، والبعض الآخـر يتخلّف عن ركب الرقيّ والتقدم ، والفرق الأساس بين الموفّقين والمتخلّفين المنهزمين إنّمـا هو في كيفية فعّالياتهم وثباتها أمام العراقيل في الحياة .

هناك كثيرون كلما اعترض طريقهم مانع صغير فبدلاً من محاولة رفعه ، مع ما لهم من قدرات وطاقات واقعية وقيّمة ، يتوقّفون عن الحركة والفعّالية أو يغيّرون نشاطاتهم وأعمالهم مرة بعد أخرى لعدّة مرّات ، ولا يبادرون في أيّ عمل من الأعمال إلى فعاليّة جدّيّة ثابتة ؛ إنّ هؤلاء سوف ترافق أرواحهم نفسية قلقة مضطربة مرتبكة غير واثقة ، وتصبح الغفلة والمسامحة والتقصير لهم عادة ثانوية ، هؤلاء سوف لا يرون توفيقاً مطّرداً في حياتهم .

إنّ الحياة ساحة لجهاد دائم وكفاح شديد يمتدّ منذ أولى أدوار الحياة حتى آخر لحظة من العمر ، وإنّ الصبر أقوى سلاح قاطع في هذا الصراع . وإنّ النصر في ساحة هذا الصراع يختصّ بأولئك الشجعان الذين لم يستسلموا للموانع والعراقيل مهما كانت الظروف ، بل مهما سقطوا قاموا وبدأوا مساعيهم من جديد ، وحلّوا المشاكل بالتدبير والدّراية .

لو كانت معنوياتنا في الحد المتوسط بل حتى لو كانت ضعيفة ، وكنّا عاديّين من حيث قوى الإدراك والفكر ، لاستطعنا أن نتقوّى ونتكامل تحت ظل الصبر . إنّ حلّ مشكل مّا يقوّينا على حلّ سائر المشاكل المستقبلية ، ويبعث فينا الاندفاع الوافر ، وإنّ عملاً صغيراً يسبّب في حركة عربة النشاط أكثر ، ويقود الإنسان إلى الأعمال الأكبر والأسمى ، ويُحضّر الفكر لاستمرار كفاح المشاكل وتعقيب المقاصد ومتابعتها أكثر من ذي قبل .

ويشرح الدكتور (ماردن) دور المصاعب في تربية القوى الروحية والمعنوية في الإنسان فيقول :

« كما أنّ أحسن الآلات والأدوات يجد قوّته من الصّهر بالنّار ، كذلك الإنسان ، فإنّ أفضل الخلفيّات إنّما تنمو في مضيق المشاكل ، وكلّما كان الألماس أقوى وأضوى لزمت لحكّه قوّة اصطكاكية أكثر » .

ويقول الفيلسوف الألماني (كانت) :

« إنّ الطير حيث يرى في طيرانه الريح المانع الوحيد ، يتصوّر أنّه لولا الريح لكان بإمكانه أن يطير أسرع وأروح . بينما لولا الريح لكان يعجز الطير

عن الطيران في الخلأ ولكان يسقط فوراً ؛ إذن فنفس العنصر الـذي يضغط على الطير حين طيرانه هو العامل الأساس في طيرانه » .

إنّ المحاولة التي نعملها للصعود إلى محل عال محاولة قيّمة جدّاً ، فإنّنا حتى لو لم نتمكّن من أن نصل إلى الهدف الذي ننظر إليه ، مع ذلك فـإنّ بإمكـاننا أن نقوّي أنفسنا بهذه المساعي والمحاولات . حتى إنّ غير الهادفين في الحياة الكاهلين عن التعقـل والعمل ، عـلى أثر اصـطدامهم بحوادث كبـيرة يصبحون أصحـاب فضائل وقابليّات ، وينجحون بالتالي في الحياة .

وربّ شباب فقد العماد والسّناد بمـوت والده أو فقـد نقده أو واجـه مصيبة أخرى ، فأصبح ذا قوة غير اعتيادية وذا قابلية غريبة . إنّه السجن قـد أبدى مـا في بعض الأفراد من وقود استعداد ظاهر الخمود بل الجماد . إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً وتربيتـه على الخـير أرسل بـه إلى مدرسـة الحاجـة لا مكتب الراحـة واطّراد الحياة .

اغرسوا بلّوطين مقطوفين من شجرة واحدة ويشبه أحدهما الآخـر تقريبـاً ، في مكانين مختلفـين : أحدهمـا فوق الجبـل والآخر في غـابة كثيفـة الأشجار ، ثم لاحظوا العروق والجذور ، فالبلوط الذي ينمو لوحده على الجبل وهـو في معرض الـريح والأمـطار والعواصف يبعث عـروقه إلى جميـع الأطـراف ويصبـح شجـرة ضخمة ذات ظلال واسعة منتشرة ؛ بينما البلوط المغروس في الغابـة لا تصبح إلاّ شجرة ضعيفة ضئيلة ذلك أنّها تحت ظلال الأشجار الأخرى .

كذلك ، قوموا بتربية طفلين متـماثلين أو متقاربـين في محلّين مختلفين ، أي ألقوا أحدهمـا في محيط يضطّر فيـه منذ طفـولته أن يـواجه المشـاكل والعـراقيل ، وحـرّموا عليـه المال وجميـع أنواع العـون والمساعـدات الأخـرى ؛ فهـو إذا سقط سيقوم بعزم أقوى، بل يكون كالكرة كلّما ضربت بشدة على الأرض نبت بأشد منها ، كذلك هو كلّما كـانت العراقيـل أقوى تـرسّخت عزيمتـه أكثر فـأكثر . وفي جانب آخر نرى الطفل المتربّي في النعيم والدّلال والذي كان له مـربّون منعّمـون

بل مربّيات ملوّنات ! كلّما أمّل شيئاً أعدّ له واستجيب ، وكان تحت تصرّفه مال كثير ، فإنّه ستكون مقاومته عند المشاكل أقل ، وسقوطه فيها أسرع »[1] .

المنبع الفيّاض بالقوّة

إنّ القدرة على مواجهة المشاكل قد أودعت في كل إنسان ، ونحن مكلّفون بأن نعبّىء أنفسنا لمكافحتها ، وأن نحرّك لذلك كل قوانا العجيبة . إنّ باطن الإنسان بالنسبة إلى القوى المدّخرة فيه كمنبع فيّاض لا تنفد ذخيرته ، بل كلّما أفيد منها نبعت أكثر فأكثر . إنّ اليأس والقنوط والعجز عن المقاومة أمام المشاكل ليس بسبب فقد الاستعداد لذلك ، بل هذه هي سلاسل الضعف والوهن تشلّ أرجل البعض منّا ، فتحبط قوّة مواجهة المشاكل في كيانهم .

إنّ هؤلاء يصابون عند كل نكسة صغيرة بحيرة محبطة للقوى والأحاسيس لديهم ، ومن الممكن أن تنكسر معنوياتهم على أثر حادثة مفاجئة أليمة فيفقدوا بذلك توازنهم ، وإنّ جبر هذا الكسر والضعف النفسيّ أصعب من سدّ كل نقيصة أخرى .

إنّ الذين يعتمدون على مداومة أعمالهم ونشاطاتهم ، أقرب إلى الرقيّ والتقدم من الذين يعتمدون على استعداداتهم الشخصية . بل ما لم تكن الاستعدادات مقرونة بعمل إيجابيّ لم تكن لتنتج أيّ شيء .

لم يكن المفكّرون في العالم نابغين من طبقة خاصّة ، بل قد تجلّى أكثرهم من بين كانون المشاكل ، وبدأوا الرقيّ في درجات الكمال من بين الصعوبات . **إنّ أولئك الذين صنعوا من أنفسهم شخصية ممتازة وطارت سمعتهم في الآفاق ، وبلغوا بمجتمعهم إلى أوج الفخر والكمال ، كان ضغط الشدائد والحرمان هو الذي حملهم على أن يمارسوا أنواع المصائب المغنية والمنهكة ، وكان هذا هو**

---

(١) بالفارسية : أسرار كاميابى : ٥٩ ـ ٦١ .

السبب في مراسهم واقتدارهم ، وبذلك تمكّنوا من أن يرتقوا في مدارج الكمال .

قيل : إنّ طالباً في الصّين لم ير لنفسه توفيقاً في فرع دراسته ، ولذلك فقد خابت آماله ، ولشدّة يأسه وقنوطه ، جمع كتبه ليقذف بها في المزبلة ، وصادف في تلك اللحظة أن رأى امرأة فقيرة أخذت قطعة من سلك حديدي وهي تُبْرد رأسها بالمبرد لتصنع منه لنفسها إبرة خياطة !

مشاهدته لهذا المنظر أحدثت فيه ثورة كبرى ، هزّت روحه بشدّة وعلّمته درساً في التربية النفسية غنيّاً بالمعاني ، فصمّم على أن يرجع إلى مكتب تعليمه فيستمر في دراسته بقاطعية وجدّية . ونفّذ هذا التصميم ، وأخيراً وفي ظل ما أبداه من نفسه من صبر وحلم ، أصبح في عداد أشهر رجال العلم في عهده .

ضرورة المعرفة بأصول الحياة

إنّ المعرفة بأصول الحياة مما يجب أن يحصل عليه الإنسان بالفكر والدراسة ، لكي يتمكّن من أن يتسلّح في ساحة الكفاح في الحياة ، وأن يوفّق بين نفسه والحياة . إنّ دواليك الحياة لا تدور بالتصورات غير الناضجة والأفكار والخيال الشاعرى ، ولا ينبغي أن يحكم الإنسان في الحياة وعليها من خلال نوافذ الخيال الواهي . وإنّ صور المصائب والمشكلات تختلف في كل زمان إلى صور خاصة أخرى ، وتتجدّد مشاكل جديدة غير مسبوقة بسوابق من قبل ، وليست الحياة شيئاً سوى حلّ هذه المشاكل والعُقد المعقّدة فيها .

إنّ الذي يواجه مشاكل كثيرة تبدو غير قابلة للحلّ ، ولا يرى حلّ تلك العقد مقدوراً في الظروف الحاضرة ، ليس له لتحقيق آماله سوى طريق واحد ، وهو أن يزيد في جدّيته في العمل وسعيه ، وأن يصرف جهداً في المقاومة ، وأن يغتنم الفرص . فإن طوى الطريق نحو الهدف بهذه الخصائص ، فسيُثمر صبره يوماً مّا ويصل إلى كمال المطلوب .

ربّما كانت مشاكل الحياة في البداية تُغطّي آفاق الحياة كالسُّحب السوداء

القاتمة ، ولكن في النهاية تبرق هذه السحب بريق السعادة من بين ذلك الظلام القاتم الذي كان الإنسان معها مصمّماً على الفرار منها ، فتروي بأمطار رحمتها مزارع الأماني والآمال .

ما يجب أن نتعلّمه من النكسة

إنّ أجلى الانتصارات والموفّقيات إنّما تتعلّق بالذين يستطيعون أن يحلّلوا علل خيبة الأمل والنكسة ، وأن يستفيدوا من دروسها بأحسن الوجوه . إنّ دراسة علل عدم الموفّقية بإمكانها أن تعينّ داء الهزيمة ودواءها ، وأن ترسم أمام الإنسان مناظر محرّكة للآمال وأن تفتح عليه طريق النصر . ومن هنا فهو يستطيع أن يستمدّ من قواه المدّخرة وأن يغيّر الوضع بنفعه بالمرة .

إنّ الإنسان يبدي أفضل محاولاته وأحسن مساعيه حينما يواجه النكسة في طريق وصوله إلى آماله ، وكثير أولئك الذين لا يجدون أنفسهم ما لم يفتقدوا كل ماهم . إنّ الذين يتمتّعون بجوهرة الرجولة يبدأون كلّ عمل بقوّة فيّاضة ، ويستخرجون عناصر شخصيّتهم من أعماق نفس النكسة برغم الهزيمة ، وما لم يبلغوا مناهم لا يخرجون من ميدان أعمالهم .

إنّ إحساس الخجل من النكسة خطأ صرف ، إنّ موانع التقدم كأشواك تنبت على طريق كبار رجال الأعمال . بل إنّ النكسة التامّة إنّما تتحقق فيما إذا تلقّى الإنسان عدم تقدمه في عمل مّا هزيمة دائمة للأبد ، وإذا افتقد معنويّته في الحوادث بالمرّة . إن من الممكن إحساس القصور والعجز أن يثبط الشخص بموقفه ، وأن يمنعه عن أيّ سعي ومحاولة لإزالة آثار التأخّر والنكسّة .

إنّ حبّ الغلبة والإستيلاء من أوائل ما يتجلّى في كيان الإنسان من علائق وميول ، وإذا جرت الأمور في مسيرتها الاعتيادية لانطفأت جذوة الكفاح والسعي في ضمير الإنسان .

من الممكن أن تكون هناك جوهرة مختبئة في كيان الإنسان لا تصقلها إلاّ

صدمات الحياة ، ولا يبدي نورها وجلالها إلاّ ضرباتها وصفعاتها . بل الحقيقة أن أغلب الأفراد لا يطّلعون على ما فيهم من مواهب باطنية ذاتية إلاّ باصطدامهم بنكسات وهزائم ، ولولاها لا يدركون ما يختبىء في أعماق وجودهم من قوى وطاقات وإمكانات .

يقول (دايل كارنيجي) بهذا الشأن :

« قبل أكثر من ربع قرن بل نصفه ضرب معلّم صفعتين قويّتين على خدّ تلميذ كان يتحرّك كثيراً على كرسيّه أو منضدته ، ضربه أمام سائر التلاميذ وأهانه بحيث لم يتمالك الطفل دون أن قام راجعاً إلى بيته باكياً بصوت عال : هق هق ! وكان إذ ذاك لا يتجاوز سنّ السادسة من عمره ، واستنتج أن ما فعله المعلم بحقّه ظلم وتجاوز، فأحسّ منذ تلك اللّحظة في نفسه انزعاجاً شديداً من الظلم والعدوان ولذلك فهو أخذ على نفسه كفاح الظلم حتى آخر عمره .

إنّه (كلارنس دارو) كان بحقّ أكبر محام في المحاكم العامة ، بل أشهرهم على الإطلاق ، وقد نشرت صحف أمريكا إسمه في صفحاتها الأولى ما لا يُعد كثرة ، ولا زال القدماء في (آشتابولا) من أمريكا يتحدّثون عن أول مرة توكّل فيها للمحاماة وأول موضوع في تلك القضية ، إنّه أقام في تلك القضية ضجة وضوضاءً كثيراً ، بينما لم يكن نزاع الطرفين إلاّ على عنان حصان لم يكن يساوي من أوله إلى آخره أكثر من خمسة دولارات ! ولما سئل : لماذا أقمت كل هذه الضجّة من أجل عنان حصان ؟ أجاب : المهم الدفاع عن الحق والحقيقة ، وليس المهم قيمة الموضوع الذي تقام من أجله المحكمة ، إنّه كان يدافع عن دعواه في المحكمة بكل شهامة وحرارة دم وكأنّه يرى أمامه « فهداً بنغالياً ! » وكأنّه مضطّر إلى ذلك الدفاع ، أعطاه الذي وكّله للمحاماة خمسة دولارات أجرة محاماته ، ولكنّه حيث لم يتم عمله عقّب الدعوى إلى سبعة أعوام وجرّها إلى سبعة محاكم ، يتصبّب عرقاً ويطارد وراء القضية حتى انتصر في دعواه أخيراً لدى المحكمة ، وقال في النهاية : إنّه لم يتقبّل تلك الدعوى لأجرتها أو لإثبات فضله

بها »[1] .

إنّ كل الأعمال العجيبة والآثار الثمينة المهداة إلى المجتمع البشريّ ، والتي تعدّ اليوم من الوسائل الاعتيادية ، كانت في البداية لدى كثير من الناس أمراً مُحالاً ، ولو كان يُشير أحد في الماضي إلى إمكان ظهورها لكان يتّهم بالبله والسفاهة ، بل كان العلماء في المجالس العلمية يتندّرون بكلامه وتنبّوئه . . أمّا اليوم فمع ما لها من أهمية كأنّه قد نسي الناس أهمّيتها بحيث لا تبعث على العجب .

إنّ رجال الأعمال لم يقوموا بكل هذه الصناعات والتقنية في مدّة قصيرة ؛ بل هي نتائج سنين طوال من الألم والعذاب ، بل إنّ كثيراً منهم في كثير من الموارد قد صرفوا كل أعمارهم في حلّ مشاكلها المعقّدة والصّعبة بكل صبر وأناة ، وأخيراً ظهرت من العالم المجهول إلى الواقع المحقّق في ظلّ هممهم وأتعابهم التي لم تكن تقبل الكلل والملل ، وتقمّصت لباس الوجود .

ويقول (أمرسون) :

« إنّ الموفّقين في الحياة متّفقون على حقيقة واحدة هي : أنّ هناك علاقة بين العلة والمعلول . وبعبارة أخرى : إنّهم كانوا يرون أن حوادث الحياة لا تحدث بالصدفة وعلى الحظّ والنّصيب ـ كما يقولون ـ بل إنّ كل شيء يتبع قانوناً معيّناً ، بل يجب أن لا يفصل بين أول حلقة وآخر حلقة منكسرة أو واهنة »[2] .

سبيل الرقيّ إلى الكمال

إنّ المقاومة والكفاح في سبيل حلّ عقد المشاكل ، هو سبيل الرقيّ إلى الكمال ، ومقدمة للرّاحة والهناء ، وإنّ لمختلف المشاكل أثراً قاطعاً لا ينكر في

---

(١) بالفارسية : رمز الموفقية في الحياة : ٣٥ .

(٢) بالفارسية : راز خوشبختى : ٢٣ .

سبيل تكامل الإنسان ، كما أنّه لولا الخداع في الحياة لما كانت تظهر قيمة للتقوى والفضائل وتزكية الأنفس ، كذلك لو لم تكن هناك مشاكل ، وكانت المساعي كلّها تتكلّل بالنجاح والموفّقية ، لم يكن يبقى أيّ باعث على العمل والنشاط ، ولم تكن حاجة إلى أن يسعى الإنسان ويحاول دائماً ، وأن يكافح العوامل المضادّة ، بل كان تطوّر الإنسان وتكامله يتوقّف مطلقاً .

وعلى هذا فإنّ ضغط الشدائد وخيبة الأمل ليس مضرّاً بل هو يبعث القوى والاستعدادات المختبئة ويشغلها ، ويكمّل الشخصية الأخلاقية للإنسان ، وحتى أنّه قد يكون أوسع منبع لتجديد القوى فيه .

على الإنسان أن يرسم في ذهنه صورة صحيحة عن الحياة كي لا تقلقه حوادثها ، ولا يكون كريشة على مسير الماء ، بل يُعدّ نفسه أمام مختلف العوامل التي تسيطرُ كل واحدة منها على ناحية من هذه الحياة ، ويكون كسابح ماهر يسبح في بحر الحوادث حيثما شاء ، فإن كانت قيود الحوادث لا تسمح له بالحركة وكانت الأمور في ظروف معقّدة ، كان طريق الصبر مفتوحاً عليه ، والذّكي من كان في الظروف الحرجة يسلك هذا السبيل .

كثير أولئك الذين يصابون بالخيالات والأوهام والأحلام والرّؤى غير الحقيقية ، وإنّما يرسمون كبار مناهم وآمالهم في تصوّراتهم ، ولا تنتقل أفكارهم من القوة إلى الفعل في ظل الصّبر والثبات . ولا ريب أنّ بين الخيال والعمل فواصل كثيرة ، ويجب أن نتقدّم إلى رحاب نشاطات الحياة برؤية واقعية لا خيالية ، وأن نسعى للوصول إلى الهدف المقصود وأن نصرف كل صبرنا في ذلك ، ولا نقصّر عن أيّ سعي بهدف خلق الباعث وازدياد القوى .

وكان أحد كبار الشخصيات يقول :

« إذا بنيتم لأنفسكم قصوراً في فضاء السماء ، فإنّكم تضيّعون بذلك أعماركم بالغفلة والبطالة . نعم لا شيء أحلى وأعذب من هذه التصوّرات ؛ بأن يبني الإنسان لنفسه قصوراً رفيعة في عالم الخيال في الفضاء اللانهائي ، ولكن لا

بـدّ أن يبني هذا القصر الـرفيع في الأرض دون السـماء حتى تنتقـل هـذه الآمـال الخدّاعة من عالم الخيال إلى العالم الخارجي »[1] .

إنّ أكـثر الأفراد لا يحكمـون على أنفسهم بـالحق والواقـع ، فكلما واجهـوا هزيمة افتعلوا معاذير تبرّرهم وتبرّؤهم ، فبدل أن يلوموا أنفسهم في هكـذا مواقـع يـوجّهون اللّوم إلى الآخـرين ، ويلقون سبب النكسـة على عـواتق الآخرين . لم يتّفق إلاّ نـادراً أن يكـون الشخص المضـطرب القلق يـرتقي إلى السمـوّ والعلوّ كغصن شجرة مقطوفة بجريان السيول إلى الأعلى ، وحتى لو حصل هكذا توفيق لأحد استتبع ذلك نقصاً ونكسة . أمّا أولئك فإنّهم ربّما يتذكّـرون تقدم الآخـرين ولكنّهم ينسون ما تحمّله أولئـك من آلام ومشاكـل ، وأنّهم عبروا لـذلك من أيّ مراحل خطيرة للغاية .

هنـاك بعض النـاس لا يتلقّـون درساً إلاّ في ظـل الهـزيمـة وعنـدهـا فقط يتعلّمون ماذا عليهم أن يعملوه للوصـول إلى النصر ، وماذا عليهم أن يجتنبـوه ، وإذا واجهوا ضرراً أو نقصاً لم ينهـزموا نفسيّـاً ، ويدركـون عندئـذٍ ضرورة إقدام حـازم بجـبر الكسر السـابق ، ويستنتجـون أنّ الضرر والكسر يجب أن يجـبر من طرق أخرى ، وأن من أبسط الـطرق للمنع عن تكـرار النكسة هـو الاعتبار من النكسـات والأخطاء ، وأنّ بـالإمكان أن نتعلم من دراسـة علل تقـدم الآخـرين وتوفيقهم نقاطـاً مفيدة ، وبـالإمكان أن نعـبر كثيراً من المشـاكل بـدراسة الحيـاة وادّخار تجاربها .

إنّ الوقائع التاريخية تبينّ بوضوح أنّ جميع الأسلحة الحربية إنّما تثمر الفتـح والنصر في يد الذين يتمتّعون بالصبر والثبات ، وهؤلاء الرجال الأفـذاذ الذين لا ينهزمون هم الـذين بإمكـانهم أن يحتفظوا لأنفسهم بـالمبادرات في سـاحة الحـرب فيُركعوا العـدوّ القويّ ، وربّمـا لا يعدو الفـرق بين الغـالـب والمغلوب سوى عـدة دقائق من الصبر والثبات .

---

(١) بالفارسية : راز خوشبختى :٧

أحد الكتّاب الفرنسيّين كتب بصدد تشريح علل نكسة فرنسا يقول :

« حينما كان (دالاديه) رئيس وزراء فرنسا وراء منصّة الخطابة يخاطب الجماهير بكلام حماسي حارّ ويضرب بقبضة يده على المنصّة ، انبرى أحدُ الحاضرين وهو رجل ذكي يستمع إلى الخطاب الحماسيّ لرئيس الوزراء في زاوية الصالون ، قال : إنّ القبضة التي تضرب على المنصّة قوية ، ولكنّها مع الأسف قد لبست كفوفاً من حرير عوضاً عن مقابض حديدية »(1) .

تجب رعاية الانضباط في الأعمال

إنّ من القواعد المفيدة بل الضرورية في مجال الأعمال ، والتي تساعد الإنسان كثيراً على الرقيّ والتقدم ، هو الانضباط في الأمور وكيفية القيام بالأعمال ، والانضباط يعد من المبادىء الأولية في جميع الأعمال . إنّ الذكي المدبّر يفتح عينيه وأذنيه للاستفادة من الفرص ، ويفتح مُخّه على المواضيع الصحيحة ، وقبل كل عمل يفكّر في النتيجة المتوخاة من ورائه .

إنّ هؤلاء الذين يبنون حياتهم على قاعدة عميقة في الحقيقة ، يطوون طريق الرقيّ والسموّ أكثر سرعة وطمأنينة من الذين يقومون بفعّالياتهم من دون نظم ولا ترتيب ، إنّ عدم التدبير والنظام ينطوي على خسارة كبرى لكل أحد ، خسارة لا يمكن تعويضها بيسر .

من الممكن أن يصرف شخص سنين طوالاً من عمره في فرع من الأعمال ، ولكنّه لعدم بصيرته ولعدم معرفته بالفنّ لا يحصل على تغيير كبير في عمله من اليوم الأول الذي بدأ فيه عمله ، بعد عدّة سنين من التعب المضني ؛ بينما من الممكن أن يصرف غيره وقتاً أقلّ منه في عمل مّا ، ولكنّه يقترب كلّ يوم خطوة إلى هدفه وقصده ، ويستحصل من أتعابه وجهوده فوائد ، ويضيف في فهرسة موفّقياته .

كذلك قلّما يمكن للمستعجل أن يطوي طريقه الذي سلكه بسلامة ويصل

إلى هدفه ، بل قد ينحرف بنفس السبب عن الطريق الأصيل إلى طريق آخر ملتو . إنّ ضرر الاستعجال ليس بأقل من خطر ضعف الإرادة والتساهل في الأمور .

وبالتالي فإنّ الأعمال المحسوبة بدقّة والفكر الصحيح في حلّ المشاكل ، يزيد في قدرة الفرد على التقدّم . وكذلك تصدق هذه الحقيقة بشأن الأمم والشعوب أيضاً .

إنّ المجتمع يحتاج لحفظ حياته وتقدمه أكثر من كل شيء إلى رجال صابرين لا يتراجعون ولا يحجمون عن طريق تتخلّله المشاكل ،والذين قد خلطوا هذه المزية الأخلاقية بالعلم والمعرفة واستعملوها في سبيل الإصلاح . وإن النبوغ العلمي والسياسيّ ما لم يكن مع الصبر والحلم والثبات فإنّه سوف لا ينتج شيئاً كثيراً .

والقرآن الكريم يدعو رسول الإسلام العظيم أن لا يدع الصبر سبيلاً لاكتساب التوفيق المطّرد في جميع المراحل ، وأن يقاوم أمام جميع العراقيل ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾[1] ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[2] ﴿ وإنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[3] .

هذه الآيات ذكّرت الإنسان بأن لا ينبغي أن تنطفىء فيه جذوة الجهود والنشاط أبداً ، بل عليه بعد وصوله إلى النصر والتوفيق أن يستعد لاستقبال المشاكل الآتية ، فليس في هذه الحياة راحة مطلقة ، ولا ينبغي توقّع ذلك .

يقول (ويل دورانت) :

---

(١) سورة هود : الآية ١١٢ .

(٢) سورة الشورى : الآية ١٥ .

(٣) سورة الإنشراح : الآيات ٥ ـ ٨ .

« حينما يواجه الإنسان كل يوم في حياته عملاً وانتصاراً جديداً ترتفع لديه إرادته ، فإن كنّا نريد اقتدار إرادتنا فعلينا أن نختار الهدف والطريق إليه ، ثم نلتزم العمل مهما كان ، وعلينا أن نتوجه بدءاً أنّ الطريق الذي نختاره سنسير فيه إلى النهاية .

إنّ الانتصارات الصغرى تمنحنا القوة وتطمئننا بانتصارات أكبر ، أمّا المحتاط الشكّاك في الإقدام على الأعمال الكبار ، فإنّه سيبقى صغيراً دائماً ، لا تفرح كثيراً بالتوفيق القليل والانتصار الصغير ، بعد انتصارك في عمل مّا احتفل به يوماً واحداً فقط ثم تابع عملاً أكبر وأخطر ، خاطر وتحمّل المسؤوليات ، نعم من الممكن أن تنتكس أو تفنى ، ولكن الموت أحقر من أن يزلزل سلوكنا وعقيدتنا . إنّ الخطر إن لم يأت على حياتك فإنّه سيقوّيك ويؤيّدك ويقرّبك من أهدافك ويقودك إلى العظمة »[1] .

إن دراسة حياة رسول الإسلام وصبره وثباته من أجل نصرة الحق وتربية الإنسان وإرشاده ، تغنينا عن أي مقال في هذا المجال .

وإنّ سرّ انتصار المسلمين في صدر الإسلام أيضاً كان في إيمانهم وصمودهم أمام أعداء الإسلام الخطرين ، ممّا يسجّل بطولة تلك الفرقة الفدائية في صفحات التاريخ .

ليس الإسلام فقط عامل الانتصار

لقد وعد القرآن الكريم المسلمين في آيات منه تفوق القدرة والانتصار ، ولكن لا تحصل هذه المزايا بسهولة ويُسر ، وإنّما يتحقق الوعد الإلهيّ فيما إذا تصدى الناس لمعرفة تكاليفهم والعمل بها ، وحينما تقترن العقيدة الخالصة والطاهرة بالعمل وفقها فستكون مثمرة منتجة ، وعلى هذا فالذين يفصلون بين العقيدة والعمل فإنّ أمانيهم وآمالهم بالتوفيق والنصر لا تنتج شيئاً ، وإنّما السعي

والإقدام هو الذي ينقذ الإنسان من عمق الانتكاسات والهزائم : ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا إن تنْصُرُوا الله ينْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ** ﴾[1] .

في غزوة « أحد » حيث أصيب المسلمون بفاجعة كبرى بعلة معصيتهم لأوامر الرسول ، وتركهم خنادقهم ومواضعهم لغرض الحصول على غنائم الحرب ، فأصيبت روحيّتهم بهذه النكسة والهزيمة غير المتوقّعة بضعف ووهن ؛ ذلك أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ إسلامهم يكفي للغلبة على جميع العراقيل ، ولإبعادهم عن كل نكسة وخيبة أمل ، فكانوا يفكّرون : ما الذي سبب لهم النكسة والهزيمة وخيبة الأمل وتحمّل الأذى من جانب أعداء الله واغتنام بعض أموالهم . وترسّخت هذه الأفكار المُقلقة في أذهانهم فزلزلت روحيّتهم ومعنوياتهم ، فبيّن الله طريقة حلّ هذا المشكل وطرد هذا الخطل الباطل فقال :

﴿ **لَتُبْلَوُنَّ في أمْوالِكُمْ وأنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الّذينَ أشْرَكُوا أذىً كثيراً ، وَإنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا فَإنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأُمور** ﴾[2] .

في هذه الآية الكريمة تعدّ الشدائد والمشاكل المالية وما يصيب الإنسان نفسه ، من الشؤون الإلٓهية ، إنّ المؤمنين يصابون بكثير من الحوادث المؤلمة كسائر الناس ، ومن خلال ذلك يمتحن الله جميع عباده ، والمؤمنون لا يزالون يصبرون في الشدائد حتى يبدّل خوفهم وترددهم بالأمن والاستقامة بل المقاومة . إنّ الإيمان يهزم الخوف واليأس ، ويعوّد صاحبه على الفداء وتحمّل المشاكل ، ويزكّي نفسه وروحه وقلبه وأحاسيسه كلها .

ويقول (روسو) :

« نحن إذا أعفينا شخصاً من جميع الحوادث التي هي من لوازم النوع

---

(١) سورة محمد (ص) : ٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

الإنساني ، ألم نكن قد عاملناه على خلاف نظامه الطبيعي ؟ أجل ، من أجل أن يدرك الطفل اللذّات الكبرى والسعادة العظمى يجب أن يتعرّف على صغار الآلام ، تحكم بذلك الذات الإنسانية . إنّ الجسم إذا كان في راحة دائمة فسدت فيه الروح ، وإن من لم يعرف الألم لم يفهم لذة الإشفاق ولا حلاوة الرحمة ، ولا يتأثّر هذا بأيّ شيء ، ولهذا يكون كالهيولي بين البشر لا يمكن معاشرته . وإن الاختبارات المؤلمة في الحياة ستفهمّهم المستوى الواقعي لقواهم الجسدية والنفسية . وحيث لا يتمكن هؤلاء من تحقيق آمالهم فإنّهم يتصوّرون أنّهم لا يقدرون على شيء ، والعراقيل التي لم يتعوّدوا عليها تقنطهم وتؤيسهم ، وسريعاً ما يرون أنفسهم لا غيرة لهم ولا شجاعة ، وأنّهم حقراء جبناء ، فيحتقرون أنفسهم أكثر ممّا كانوا يعظمونها »[١] .

وليس الصبر بمعنى انتظار القدر والقضاء لرفع الابتلاء ، يجب أن ندرك جيّداً معنى القضاء الإلهي بشأن تطورات الحياة وتكامل الإنسان أو شقائه وانحطاطه إنّ القانون الإلهي بشأن الانتصار هو أنّه يجب أن يحصل من طريق السعي والمقاومة : ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اصبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا ، وَاتَّقُوا الله ، لَعَلَّكُمْ تُفْلحونَ** ﴾[٢] .

ذكّرت هذه الآية الكريمة بأنّ الناس يجب أن يصبروا أمام كل ظلم وجور وقول زور وانحراف وضلال ، وأنّ عليهم أن يسعى كلهم لرفع مشاكلهم ، وأن يراقبوا أعداءهم حذرين ، وأن يمنعوا تسلّل الأجانب بينهم بكل صبر وثبات . إنّ اتّخاذ المواقف الصامدة أمام المعتدين ومقابلة الأعداء وإبعاد أنواع الذلّة والهوان من واجبات عباد الله الصالحين ، وهم كذلك مكلّفون بأن يجعلوا شعارهم ودثارهم تقوى الله في السرّ والعلن ، ففي ظل التقوى لا ينسى الإنسان تكاليفه مهما كانت الظروف ، فهو يعمل بأوامر الله بأحسن وجه . قد يتمايل

---

(١) بالفارسية : روانشناسي إميل : ١٠٠ ـ ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .

الإنسان تحت الضغط الخارجي تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال ، ولكن التقوى وخلوص النية توجد في كيانه تعادلاً كاملاً .

وتقول إحدى الشخصيات الأوربية :

« إنّ الحوادث المؤلمة وانكسار الخواطر كمدرسة للفضيلة والتقوى ، فإن المصائب تهذّب الروح وتذكّي العقل وتنبّه الإنسان وتصحّح فيه الحكم والقضاء ، وتحذّر الإنسان عن تبعيّة الهوى والتلوّث بالمعاصي . إنّ الله الذي يدير نظام الوجود برحمته وحكمته الكاملة جعل كل هذه الشدائد والمشاكل في هذا العالم ، وأبلى بها الرجال الصالحين والعلماء ليعلّمهم بها طريق الوصول إلى الراحة الحقيقية في الآخرة ، ويعوّدهم على تحمل الشدائد والمشاكل والصبر عليها ، ليصبحوا أهلاً للحضور بين يدي ربّ العزّة والجلال .

لا أحد أشقى ممّن لا يصاب بالمشاكل والشدائد أبداً ، فإنّه حيث لم يقع مورد الاختبار فإنّ حقيقة صورته تبقى غير معروفة . . والله يثيب على فضائل ومكارم تحصل للفرد من خلال السعي والعمل »[1] .

عاملان قويّان لتربية الإنسان

إنّما تتفتّح الطاقات الكامنة في الإنسان وتصل إلى كمال رُشدها فيما إذا ساعدته في خطّ سيره هذا عوامل مختلفة من الداخل والخارج ، ومراحل الرقيّ والكمال للإنسان غير محدودة ولا نهاية لها ، ولذلك فهو بحاجة ماسّة إلى تربية أساسية لطيّ طريق الكمال والنيل بمقام الإنسانية اللائق ، ولا بدّ أن تساعده لتنمية قواه الروحية عوامل عديدة .

هناك عاملان لهما دور أساسي ومهم في تنمية القوى الإنسانية :

أحدهما ـ تعاليم الأنبياء الإلهيّين التي تهيمن على روح الإنسان كما تحويه

---

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل ٢ : ٢٠٩ .

أشعة الشمس ، فتزيل كل صفة غير حميدة وكل خلق غير محمود عن صفحات القلوب وتمنحه النور والضوء والصفاء .

والعالم الثاني ـ الذي يمدّ الإنسان بالعون لبلوغ الأهداف المرجوّة والكمال اللائق به ؛ هو : المشاكل والشدائد ومصائب الحياة .

وما يتهذّب الإنسان ويَصْلُح في ظل التعاليم السماوية المشرقة ، وضغوط الحياة ، وتتطهر روحه من لوث الحالات الحيوانية ، فإنّ متاع الدنيا مسيطر على روحه وإرادته بحيث يكون كريشة على أمواج المتع المادية يلجأ إليها وإلى كل شيء سوى الله سبحانه ،وما دامت روحه أسيرة الظلام والأهواء مسيطرة عليه فإنّه لا يستطيع أن يدرك نتائج المشاكل ، والتي لها دور أساسي في إيصاله إلى الاستقلال الواقعي والشخصية الإنسانية ، ولهذا فإنّ ضغط المصائب يُحدث فيه تزلزلاً وقلقاً : ﴿ إنّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذا مَسَّهُ ٱلشرُّ جَزُوعاً ﴾[1] ﴿ فَأمّا الإنْسانُ إذا مَا ٱبْتَلاهُ رَبّهُ فَأكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ ، فَيَقُولُ : رَبّي أكْرَمَنِ ، وَإذا مَا ٱبْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبّي أهَانَنِ ﴾[2] .

هذه هي خصائص الإنسان غير المهذّب .

وأمّا إذا أحييت قلوب البشر بالدّوافع والدّواعي الدّينية ، فإنّهم سيبلغون إلى حرية النفس واستقلالها الذي هو غاية التربية السماوية ، وحينئذٍ يرون أنفسهم في غنى عن التعلق المطلق بالقيم المادية المتغيّرة ويصبحون هم مالكين للعالم ، وهذه هي الحرية الطاهرة التي ليست من نوع الإنطلاق الحيواني ، حريّة من جميع الموانع والسدود التي تمنع البشر من الرشد والكمال والصعود .

إنّ القيم الخدّاعة لا تزلزل الإنسان الصالح والمتربّي، ولا تسيطر على روحه وإدراكاته .

---

(١) سورة المعارج : آية ١٩ .

(٢) سورة الفجر : الآيتان ١٤ ، ١٥ .

ويقول الله تعالى وهو يشير إلى فلسفة المصائب والمشاكل والتي هي الوصول إلى مقام الحرية الحقيقية : ﴿ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1] .

فحينما يتحرّر الإنسان عن أيّ نوع من أنواع العبودية سوى عبودية الله ، ولا يكون خاضعاً لشيء سوى الله تعالى ، يُحسّ كأنّ له قوةً غريبةً خارقةً للعادة ، والذي يتربّى هكذا تكون رؤيته واسعة وشاملة وقلبه حيّاً نابضاً ويكون له إدراك عميق .

ولفكرة تناسي الفوائت وعدم الفرح الشديد بما يحصل ، أثر تربويّ آخر هو أنّ الأسف على فقد الشيء وتركيز الفكر فيه يؤدّي إلى جمود القوى الخلّاقة والمبدعة في الإنسان ، ومن ناحية أخرى الفرح بحصول متاع يحدّد همة الإنسان ، ويسبّب في أن لا يتوجّه إلى أمور أسمى وأفضل ، وأن يتوقف عن التقدم في طريق الكمال .

ويقول (جان جاك روسو) :

« أنا أعلم أني سأموت ، فلماذا أحدث لنفسي في هذا العالم علائق وعوائق ؟ فماذا تنفع هذه العلائق وكل شيء يفنى معي ؟ إبني إميل ! لو أفتقدك فماذا يبقى لي بعدك ؟ ومع ذلك لا بدّ لي أن أعدّ نفسي لتحمل هذه الحادثة الأليمة المحتملة ، إذ لا يقدر أحد على أن يطمئنني أنّي أموت قبلك .

فإذا أردت أن تعيش سعيداً عاقلاً فاجعل قلبك متعلقاً بجمال دائم لا يفنى ، وحاول أن تكون طلباتك محدودة وقدّم تكاليفك على كل شيء ، واطلب ما لا ينافي قانون الأخلاق فقط ، وعوّد نفسك أن تفتقد كل شيء بدون ألم شديد ، ولا تتقبّل أي شيء من دون إذن الضمير ، وعندئذٍ ستكون سعيداً حتماً عندما لا تتعلق بأي شيء من الأشياء الأرضية »[2] .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٢ .

(٢) بالفارسية : روانشناسى إميل : ٥٤٧ .

ويقول علي (عليه السلام) ضمن دروسه الإنسانية :

« بالتعب الشديد تدرك الدرجات الرفيعة والراحة الدائمة » .

وكتب الفيلسوف الأمريكي (أمرسون) :

« إنّ التغيّرات التي قد تهدم سعادة الناس إنّما هي إنذارات من الطبيعة ، ذلك أنّ الإنسان حينما تحين حاجاته المعنوية يترك هذا النظام المبنيّ على المال والأحبّة ، كما يترك اللؤلؤ الصدف لبدء حياة أخرى .

إنّ المصائب تظهر آثارها الطيبة بعد مرور فواصل زمنية طويلة : الحُمّى ونقص الأعضاء ، واليأس والقنوط المفرط الناشيء من فقد الأموال وفقد الأحبّة ، أعدام لا تعوّض في حينها ، ولكنّ مرور الزمن سيبدي ما تخفيه الوقائع من قوى وطاقات وإمكانات ، ففقد الأحبّة الذي ليس في بدايته سوى حرمان ومصيبة يصبح بعد مدة هادياً وقائداً إلى الخير ، فإنّ كل واقعة من هذه الوقائع تحدث في حياتنا ثورة ، فمثلاً تختم دور الصبا أو الشباب ، أو تهدم ما تعودناه من السلوك والأسلوب ، ليتقرّر لنا بعده أسلوب حديث أكثر عوناً لنا .

من يريد أن يعيش كوردة طريّة لا تهاب الشمس المحرقة على عودها الرقيق ، فإنّ شجرة التين حينما تكون في البستان فيهملها الفلاّح وتنهدم الحيطان حولها ، تتبدّل إلى شجرة كشجر الغاب ، وتفيد كثيراً من الناس بظلّها وثمارها »[1] .

وقد شبّه علي (عليه السلام) الناس الذين يتربّون في خضم الشدائد والمشاكل بالأشجار الجبلية القوية ، وطالبي الراحة بأشجار البساتين ، وذلك في كتابه إلى عامله على البصرة : عثمان بن حنيف الأنصاري :

« ألا وإنّ الشجرة البريّة أصلب عوداً ، والروائع الخضرة أرقّ

(١) بالفارسية : فلسفة اجتماعى : ٣٩٨ .

جلوداً ، والنابتات المغـذيّـة أقوى وقوداً وأبطأ خموداً »[1] .

ومن وصاياه (عليه السلام) قال :

« عليك بإدمان العمل في النشاط والكسل »[2]

وعنه (عليه السلام) قال :

« عليك بالجدّ وإن لم يُساعد الجَدّ »[3] .

وعنه (عليه السلام) قال : :

« من قعد عن الفرصة أعجزه الفوت »[4] .

وكتب الباحث الأمريكي الشهير (ويليام جون ريلي) يقول :

« إنّ عظام الملايين من الناس الذين جلسوا صبيحة الإنتصار ليستريحوا في صحارى الشك والترديد وفقدان الإرادة ، فماتوا في حال استراحتهم وهمودهم ، أصبحت عظاماً بيضاء تشرق في الشمس للناظر : إنّ أكثر تفكيرنا من السهولة بحيث لا يعطينا مجالاً نلتفت فيه إلى ما يجري في مُخّنا ، ولو أوقفنا أفكارنا فترة لنلتفت إلى ما نفعله لرأينا أنّنا نصمّم في كل يوم عدّة تصميمات ، وفي نهاية كل أسبوع نكون صمّمنا على مئات من القرارات ! ولا نلتفت إلى أنّ أكثر تصاميمنا إنّما هي أثر قصورنا وقلّة التفاتنا ، وفي الحقيقة نكون قد تساهلنا وتسامحنا في الأمور . وهذه طريقة غير مرغوب فيها .

والواقع أنّنا حينما نؤجّل عمل اليوم إلى الغد نكون قد صمّمنا على قرار ، أي صمّمنا على أن لا نعمل عملاً معيّناً ، وهذا التأخير أو التقديم هو قرار وتصميم .

---

(١) نهج البلاغة ٣ : ٤١٨ ط الصالح .
(٢) غرر الحكم : ٤٨٠ .
(٣) غرر الحكم : ٤٨٣ .
(٤) غرر الحكم : ٦٥٣ .

ما أيسر التسامح والتساهل في الأمور ، خصوصاً إذا خادعتم أنفسكم وأغفلتموها بأنّ بإمكانكم أن تتقدموا في المستقبل بصورة أفضل ، ذلك يعني أنّكم خدّرتم أفكاركم بحسن وضع الحال في المستقبل عن الحال ، إنّكم تخدعون بذلك أنفسكم فقط وتزعمون أنّ المستقبل يخلو من المشاكل وليس بحاجة إلى مقاومة ، وأنّ الشدائد عارضة وموقوتة والمصائب عابرة . بينما الواقع هو أنّ الأعمال المهمة غالباً لا تفارقها المشاكل ، وليس في المستقبل لكم حلّ سحري ، والتوفيق لكم هو الزمان الحاضر الذي هو باختياركم وتحت تصرّفكم ، وأنّ قيمة الفرصة الموجودة أكثر من قيمة الإنتصارات السابقة أو المواعيد اللاحقة »[١] .

مزيّة إنسانية سامية

إنّ الإيمان هو العامل الوحيد الذي بإمكانه أن يقوّي روح الإنسان ويوسّع من دائرة نشاطه بحيث يستعدّ لمواجهة أشد وأعقد المشاكل ، ولا يصاب بالضّعف والعجز . إنّ المؤمن يعلم أنّ الشدائد مهما كانت ثقيلة لا تقاوم روحه بل تذهب هباءً .

إنّ التمتّع بقوة تحمل الشدائد والمشاكل يمنع من إصابة الإنسان ببعض الأمراض النفسية، إنّ قوّة الإيمان هي التي تزيد في قدرة تحمّل الفرد المؤمن من دون أن تحطّم توازنه النفسي ومن دون أن يفتقد الثبات في طريق أهدافه . ورسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) يرى هذه الخصوصية من مزايا عباد الله الصالحين فيقول :

« مثل المؤمن مثل سبيكة الذهب ، إن نفخت عليها احمرّت ، وإن وزنت لم تنقص »[٢] .

---

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ١٠٣ ـ ١٠٥ .
(٢) نهج الفصاحة ١٥ : ٩٤ .

وعن علي (عليه السلام) قال :

« المؤمن نفسه أصلب من الصَّلْد »[1] .

ويقول (مان) في كتابه في أصول علم النفس :

« حينما تواجه مساعينا عائقاً في سبيل الوصول إلى الهدف ، ويكون تجاوزه مشكلاً أو غير ممكن ، أحدث ذلك فينا خيبة أمل . إنّ العوائق التي تعوقنا هي ما يحيط بنا من الأشياء أو الأشخاص ، أو نقائصنا أو نواقصنا ، أو عجزنا عن حلّ تناقضاتنا . إنّ ميزان تحمل الخيبة في الأشخاص مختلف ، فمواجهة حدّ معين من الخيبة من الممكن أن يهزم البعض نفسانياً ، بينما يتحمل الآخر تلك الخيبة بسهولة . والذين يقل تحمّلهم من الممكن أن يضيّعوا مسيرتهم ويبادروا إلى أعمال تبعدهم عن أهدافهم أكثر »[2] .

التغطية على الضعف والعجز

إنّ لخداع النفس لغرض الخروج عن عهدة عمل ، ولاختلاق المعاذير للأعمال التي يتخلّى عنها الإنسان لضعف نفسه ، باعثاً نفسانيّاً . وإنّ الذي لا يبدي من نفسه ثباتاً ومداومة على أي شيء ، وكلّما أقدم على شيء تركه ناقصاً ، ويتهربُ عن مواجهة مشاكل الحياة ، إنّه يختلق لهذا النقص الروحيّ فيه أعذاراً وحججاً دائماً ، وهكذا يخادع نفسه .

وقد قال علي (عليه السلام) بهذا الشأن :

« قد يكذب الرجل على نفسه عند شدّة البلاء بما لم يفعله » [3] .

وقد ثبت هذا الموضوع اليوم علمياً ، ويعبّر عنه علماء النفس بخداع النفس .

---

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٩٤ .

(٢) بالفارسية : أصول روانشناسى « مان » : ١٤٨ .

« عندما يعجز الرجل عن عمل فيتركه ويتقبّل عملاً آخر غيره يقول : أرى نفسي أنّي في عملي هذا الجديد استطيع أن أخدم العباد والبلاد أكثر وأفضل ! والحقيقة غير هذا ، والواقع أنّه لعدم أهليّته ولياقته للعمل السابق غيّر شغله إلى العمل الجديد ، وإنّما يسعى الإنسان ليبدي أعماله صحيحة ، ولذلك فهو يأتي لها بالأدلة والبراهين .

والدليل المفتعل ـ كأي عمل دفاعي ـ أما هو علامة عن الهزيمة النفسية ، أو قل إنّ الرجل لم يتعلم طريقة مواجهة المشاكل ولذلك فهو يفتعل المعاذير. كثير أولئك الذين يفتعلون الأدلة غير الواقعية للتغطية على نقائصهم الصريحة والواضحة البيّنة ، بينما الذي ينبغي أن يقوم به هؤلاء هو أن يتبيّنوا نقائصهم ثم يسعون في علاجها. عندما نصاب نحن بنكسة فإن الضمير اللاشعوري فينا يحتفظ بروح القنوط واليأس فيحملنا على افتعال الدليل غير الواقعي لتبرير أنفسنا ، بينما الأفضل أن نذعن بحرماننا ويأسنا ، ونسعى في أن نقوّي أنفسنا للتفوّق على المشاكل ، ونتناسى النكسة التي كانت نتيجة قلة جُهدنا ، وفي نفس الوقت لا ننسى أن نفيد من تجربة النكسة لمستقبلنا .

أمّا علاج الأمر الواقع بالفرار من المشاكل والمعضلات فهو علاج غلط وباطل ، فإنّه لا يؤثر شيئاً إلّا لمدة قليلة ، وسرعان ما يعود الألم والسقم والضعف والعجز . حينما يقوم الشخص بردّ فعل أمام أمر مشكل عليه أن يتساءل من نفسه : هل أنا أحاول أن أخادع نفسي والآخرين ؟ هل أنا أحاول أن أفتعل الأدلة غير الواقعية ؟ ماذا عليّ أن أفعله لأحل مشكلتي بصدق وواقعية ؟ لا شك في أنّ الكلام حول الموضوع لا يكفي وحده لذلك ، بل يجب أن نصرف لذلك وقتاً وجُهداً ، ولا ينبغي أن نفوّت الفرصة بالأعذار والحجج . إنّ افتعال الدليل أمر غير مقبول ، فإنّ ذلك سعي غبيّ لمخادعة النفس والآخرين . بل يجب أن يواجه الرجل الحقيقة ويتبينّ وجه الصواب ، ثم يحاول أن يجد طريق الحل الصحيح »[1] .

---

(١) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ١٨٩ ـ ١٩٤ .

أمّا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فإنّه يـوصي بأنّـه لا ينبغي أن نفرّ من المشاكل حتى في أشد وأعقد المراحل ، ولا أن نفتقد روح الأمل بنجـاح العمل ، فقد قال (عليه السلام) كما في (غرر الحكم) :

« عند تناهي الشدائد يكون توقع الفرج »[1] .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« عند تضايق حلق البلاء يكون الرّخاء »[2] .

***

(١، ٢) غرر الحكم : ٤٨٩ .

حقيقة العزّة والكرامة

* حاجة نفسية .
* الامتيازات المفتعلة .
* حقيقة العزة في الإسلام .
* الابتعاد عن الذلّة والحقارة .
* غنى النفس .
* الرؤية المستقبلية .
* الحرية الحقيقية .
* تطبيق الأهداف على مقياس القوى .
* الشعور بالذلّة من التلوّث بالذنوب .
* نقص كبير .

حاجة نفسية

للإنسان بإزاء حاجاته الجسدية الأساسية ، سلسلة من الحاجات النفسية ، وإنّ بدوّ الحاجة فيها إلى الإشباع من الوضوح بمكان لا جدال فيه ، وإذا لم تشبع أيّ منها بصورة صحيحة وفي وقتها المناسب وبشكل إيجابيّ ، لخرجت عن توازنها وأحدثت اضطراباً وأضراراً في الحياة الفردية والاجتماعية ، وسبّبت في حدوث خَللٍ وآلام لا تتحمّل عادةً ولا يمكن التعويض عن خسارتها إلّا بشق الأنفس .

وإنّ نطاق الحاجات النفسية وسيع جدّاً بل إلى ما لا نهاية خلافاً للحاجات المادية ، ولهذا فإنّه لا يمكن تحديد هذه الحاجات وتحجيمها . إنّ الدراسات العلمية في الحاجات النفسية وإن كانت دراسات جديدة إلّا أنّ وجودها هي ليس أمراً جديداً ، بل هي مقارنة للإنسان منذ أن بدأ العيش في الحياة .

أمّا من حيث الجهاز النفسيّ فإنّ أفراد البشر ليسوا على مستوى واحد ، بل هناك بينهم تفاوت يتمايز على أساسه أسلوب تفكيرهم وأحاسيسهم وعملهم بعضهم عن بعض ، ولا شكّ أنّ أثر ذلك في سعادة الأفراد أو شقائهم أكثر من أثر المقرّرات البشرية بمراتب عديدة .

ومن الحاجات النفسية الأساسية ، ومن لوازم حبّه للكمال شعوره « بطلب العزّة » فإنّ كثيراً من نشاطاته إنّما تتحقق لبلوغ هذا الهدف . إنّ الإنسان متعطش للعزّة وبنفس النسبة بريء من الذلّة والحقارة وينزعج منها ويتنفرّ ،

وحينما تقع مكانته ووجاهته موقع الخطر يستمدّ من جميع إمكاناته وقواه لدفع ذلك الخطر أو رفعه ، ويحاول بكل قواه أن يمنع من حدوث النكسة والهزيمة ، وإنّ الخوف الذي يشعر به من خيبة الأمل والألم والعذاب الذي يشعر به من تصوّر العجز والوهن أشدّ وطئاً من نفس النكسة ، وكثيراً ما يبدّل الحياة إلى كابوس موحش .

إنّ الشعور بالذلّة هو الذي يثير في نفس بعض الناس عاصفة مهولة ، بحيث يتغيّر العالم في عيونهم إلى مأتم مُملّ لا مفهوم له ، وربّما لجأ بعضهم للتحرّر من وحشة ألمه إلى أحضان الانتحار وقتل النفس ، بينما هو للفرار من نقص صغير يلجأون إلى ذلّة أعظم .

في مواجهة خيبة الآمال حيث يتبدّل الإنسان إلى موجود ضعيف وآيس ، عليه أن يتبيّن الطرق الصحيحة والمناسبة لمقابلة ذلك . والطريق الصحيح هو أن يستعمل قواه في المسار الصحيح فيعلن عن شخصيّته ومراحل كفاءته وأهليّته ولياقته بالطريقة المناسبة اللائقة ، كي يستعيد توازنه العاطفي وبالأولى توازن شخصيّته المفقودة ، ثم يقضي عمره في عزّة نفس واستقلال شخصية تامة .

إنّ الشعور بطلب العزّة الذي بذرت بذرته يد الخلقة الإلهية في باطن الإنسان ، يبدأ تفتّحه من دور الطفولة وبصور مختلفة ، ويتجلّى قبل سائر الخصائص الروحية والنفسية . إنّ قلب الطفل الصغير بحاجة إلى التدليل وهو شائق إلى العزّة ويتوقع الحدّ الأكثر من ذلك ممّن حوله ، بل لا يتحمل أن ينال غيره شيئاً من هذه العزّة ، ولهذا فحينما يفد إلى الوجود في الأسرة مولود جديد وينصرف القسم الأكبر من إلتفات الأم إلى الوليد الجديد ، ولا تسمح لها ظروفها أن تبذل ما كانت تبذله لوليدها الأكبر من اللطف والعطف ، فإن الولد الأكبر سيقف أمام الأصغر وينظر بعين الغضب والإنزعاج إلى هذا الوليد الجديد .

لو كان الطفل يشعر بالغبن والعوز ومزاحمة ما لا يريد ، فربّما انجرّ ذلك

إلى الحقد والحسد الحادّ المزمن ، وأدّى به إلى الضّلال والضّياع والخُداع ، وكثير أولئك الأطفال الذين عُقدت في نفوسهم عُقدٌ من جرّاء ذلك وسبّبت لهم كثيراً من البلاء .

إنّ قوة أيّ قوم وضعفهم وعزّتهم وذلّتهم وسموّهم وانحطاطهم يرتبط بأوضاعهم الروحية ، وإنّ هذه الأحوال المختلفة لهم تنشأ من أسلوب تفكيرهم وسلوكهم . إنّ الميّزات الفردية من قبيل العواطف النزيهة والمزايا الروحية العالية ليست في مستوى القياس مع ما يمكن الحصول عليه في الحياة من قبيل المال والعناوين الاجتماعية ، وهذه واقعية حقيقية أنّ العلل الذاتية أكثر أثراً في العزّة الواقعية من العلل الخارجية ، فإن الشقاء والسعادة والشرف الحقيقي يتبع الحياة الباطنية للإنسان ، بينما يتصور القاصرون أن اختلاف الشؤون الاجتماعية هو العامل الأصيل في مراتب الشرف والعزّة .

الامتيازات المفتعلة

هناك بين المجتمع كثير من أفراده يصابون بآفة الخطأ في تشخيص عوامل العزة ، وحيث لم تسدّ هذه الحاجة الروحية فيهم على الطريقة الصحيحة يجدون لإشباعها الكاذب طرقاً أخرى انحرافية وضارّة ، فهم كالغريق الذي في سعيه للنجاة يتشبّث بكل حشيش ، لا يألون جُهداً سعياً لاكتساب الامتيازات المفتعلة للوصول إلى العزّة والكرامة .

فمن الممكن ـ مثلاً ـ أن يتبدّل حب اكتساب الثروة واكتناز الأموال بلا حساب في بعض الناس إلى حاجة مبرمة وعطش شديد ، حتى يُصبح هذا الطلب والإرادة فيهم كديكتاتور مستبدّ في ذواتهم يسلبهم عقولهم وضمائرهم وحتى معرفة منافعهم ومصالحهم . وإنّ هذه الحالة المرضية تقلب الإنسان إلى أكثر الموجودات اضطراراً وعذاباً ، حالة مؤلمة لهم وضارّة بالآخرين ، وإذا كثر عددهم في مجتمع مّا وكانوا هم أكثرية ذلك المجتمع ، أصابوه بالخلل الشديد .

والمصيبة في أنّ الثروة الزائدة عن حدّ الحاجة غالباً مّا تزامنها صفتان تنتهي كل صفة منهما إلى الشقاء والتعاسة : فإمّا أن تجرّ الشخص من الصراط المستقيم والطريق العدل إلى الإنحراف نحو الأهواء والشهوات ، وإمّا أن يتقيد بنفس الثراء حتى يجعلها لنفسه كصنم يعبده ، ويستعد للتضحية بكل شيء في رحابه وعلى أعتابه . وليس الغرض من هذا الكلام هو أنّه لا يجوز أن نكون بصدد تحصيل المال لرفع حاجات الحياة ، بل الحقيقة أنّ الثروة الزائدة عن دائرة الحاجات لا أثر لها في سعادة أحد أيّ أثر .

لا يمكن أن يكون هذا الإحساس هو الغاية الأساس للحاجة النفسية وممّا يوجب سكونها . وإن السبب لأكثر الاضطرابات الروحية في الناس هو الاتجاه أكثر من المناسب إلى هذه الغريزة غريزة حبّ المال ، أبعد بكثير عن المفهوم الأساس للحاجة الروحية وإشباعها .

وبديهي أنّه لا يمكن أن نتوقع نتائج لائقة ومرضية من هذه الأهداف غير المتناسبة ، وإنّ الألم والعذاب النفسي هو النتيجة المنطقية لاختيار الأهداف غير المعقولة وغير المتناسبة ، ولهذا فنحن نرى أثرياء كثيرين يفتقدون القيم المعنوية ولذلك فإنّهم لا يشعرون بالشرف بل يرون أنفسهم في خضمّ أمواج الحياة حيارى لا دفاع لهم ، وبالتالي فهم يختمون حياتهم في حالة غربة نفسية وينتهي لهم كل شيء .

إنّ الشّرف إحساس حلو ينبع من عمق النفس وينفذ في كل شيء ، والذي يتمتع بعزّة نفسه سيكون عزيزاً في مجتمعه أيضاً . صحيح أنّ كثيراً من الناس يأملون أن يتمكنوا من أسمى مدارج الفخر ويتألّقون كالنجوم في آفاق المجتمع ، وأن يحيّروا غيرهم من جلالهم ورونقهم ، ولا يكفيهم أن يلهج الناس بأسمائهم بل يريدون أن تتمكّن صورهم في قلوب الناس. ولكن للوصول إلى هذا المقصد على الإنسان أن يجعل النظرة الواقعية شعاراً لنفسه ، وأن يبني أساس الحياة على قاعدة الشرف الواقعي .

يقول أحد علماء الغرب :

« ليست الثروة بالدينار والدرهم ، هناك كثير من الناس تقلّ مواردهم ، ولكنّا إذا أمعنّا النظر أدركنا أنّ علينا أن نعدّهم في عداد كبار الأثرياء .

إنّ العزّة والشرف وسائر الفضائل الإنسانية ثراء معنوي ، ولكنه في حصانة عن متناول أيدي السّراق والحراميّة ، وكم من فاقدي الثراء واجدي هذه الصفات هم مورد تكريم لأصحاب الثراء ، بالإمكان أن نحصل على المال بالتعب والمواظبة عليه ، فهل الكرامة والشرف كذلك ؟ كلّا فإنّ هذا شيء لا يمكن شراؤه بالذهب والفضة .

ولا أدري لماذا ابتعد الناس عن الحقيقة فأخذوا يعتزّون بالثروة حتى أنّهم في سبيل تحصيلها جعلوا أرواحهم في أكفّهم وهم في طلبها بكل شوق ، وكأنّهم لا يخافون في ذلك من أيّ خطر ، فهم يفتقدون لذلك صحّة أجسامهم وسكون أرواحهم ، ويقضون الشطر الأعظم من حياتهم في عذاب ومحنة ، كل ذلك من أجل أن يصبحوا أصحاب ثروة . ولكن من المؤسف أن أكداساً من ذهب لا تساوي قيمة دقيقة واحدة من حياة الإنسان .

نعم يظنّ الناس أنّ الثروة هي طريق السعادة ، وأنّهم بالأولى يصلون إلى الأخرى ويحصلون على ودّها ويجاورونها إلى الأبد ، وهم لا يعلمون أنّهم لا يمكنهم أن يشتروا السعادة بالمال . هؤلاء التعساء كلّما أسرعوا في تحصيله ابتعدوا عن حقيقة أنفسهم أكثر ، وبالتالي فإنّهم سيفتقدون ويخسرون أنفسهم في هذا الطريق الملتوي ، ويسحقون أرواحهم وعواطفهم وأحاسيسهم وفضائلهم ، بينما الحصول على السعادة لا يستلزم مالاً وثراءً بل يستلزم أموراً يغفل عنها أكثر الناس ، حتى أنّنا لا نرى بين طالبي السعادة أحداً يبحث عن تلك الأمور »[1] .

---

(١) بالفارسية : درجستجوى خوشبختى : ١٤٦ .

حينما اختير اسكندر المقدوني الملك اليوناني الشهير ليكون القائد العام للجيش اليوناني لاحتلال إيران ، كان مختلف طبقات الناس يسرعون إليه لتهنئته ، ولم يعتن بذلك الحكيم اليوناني الشهير (ديوجين) حينما كان يعيش في (الكورنيت) وأحبّ إسكندر أن يزور الحكيم ولذلك سلك الطريق إليه .

وكان (ديوجين) آنذاك متمدّداً في الشمس، وكانت من خصائصه النفسية البارزة التي جعلها شعار حياته : عزّة النفس وغنى النفس وحرّيتها ، فلما أحسّ بأنّ جمعاً من الناس متوجّهون إليه نهض قليلاً وجعل ينظر إلى اسكندر وهو متوجّه إليه بجلال وعظمة وتشريفات خاصّة ، ولم يفرّق بين اسكندر ومن معه ، ثم بقي غير آبه ولا معتدٍّ به بكل برودة وفتور . حيّاه اسكندر بكل أدب واحترام ثم قال : إذا كانت لك حاجة قضيتها لك .

فقال ديوجين : لي حاجة واحدة هي أني كنت في الشمس وأنت ظلّلْت عليّ فمنعت عنّي ضوء الشمس ، فأرجوك أن تفرّج عنّي وتنزاح .

فظنّ أصحاب اسكندر أنّه كلام غبيّ وقالوا في أنفسهم : حقّاً أنّه رجل جاهل لا يستفيد من هكذا فرصة حسّاسة حصلت له . ولكن اسكندر حيث رأى احتقاره أمام عزة نفس ديوجين ومناعة طبعه ، توغّل في الفكر ، وبعد أن سلك طريقه قال لأصحابه الذين كانوا يلومون الفيلسوف ويحتقرونه : « حقّاً لو لم أكن إسكندر لكنت أودّ أن أكون ديوجين »[1] .

هناك في كل زمان ومكان أُناس لا يحبّون « الوصل بضوء الشمس » ولا يتحمّلون المقام السامي لغيرهم وذلك لعدم سلامة نفوسهم وأرواحهم وهي القائد الأعلى لأكثر أعمالهم وعواطفهم وأحاسيسهم ، ودائماً يريدون أن يبدوا من أنفسهم أمام كبار الرجال شخصية إن لم تكن أسمى وأعلى فلا أقل من أن تكون متساوية ومتوازنة معها . ولكنّهم حيث يفتقدون رأسمال العظمة فهم يتصدّون

---

(١) بالفارسية : تاريخ علم ، للجورج سارتن : ٥٢٥ .

لتحطيمهم والمنع من إشراقتهم بمختلف العـوامل ، ولكنهم لن يتـوفقوا للتقليـل من منزلـة كبار الشخصيات بأيّ عامل ، ذلك أنّ الرجال الشّرفـاء وأصحاب علوّ النفس إنّما هم للإنسانية ، فهم يتجاوزون الفواصـل الزمـانية والمكـانية ، وتبقى لخواطرهم في النفـوس أدوار لا تُنسى ، بل إنّ نجـوم العظمـة والعزّة فيهم تبقى مع مرور الدهور تتجلّى وتلمع أكثر فأكثر .

ويمكن الاستمداد من الشعور بطلب العزّة لتعديل الأهواء النفسية وتحـديد ميولها غـير المرغـوب فيها . فمن الممكن أن لا يتّصف أحـد بصلاحيـة أخلاقيـة صحيحة بل يبدي من نفسه اتّجاهاً إلى الإنحـراف ، ولكن حيث إنّه يحب شرفـه وكرامته ، فإنّه من الممكن أن يحـاول اجتناب التلوّث بـالأعمال الغـير المحمودة ، فهذا الرأسمال الفطري فيهم يبعثهم على أن لا يلوّثوا أيديهم بأعمال تعدو الشرف والكرامة الإنسانية .

مفهوم العزّة في الإسلام

من الممكن للجميع أن يتساموا عن المستوى الحيواني ويقتربـوا إلى المستوى الإنسانيّ السّامي ؛ فإنّ أمنية الوصول إلى الكـمال المطلوب ، متكـدسة في ضمـير الإنسان. ولهـذه الفكـرة جـذور عميقـة في نفسـه ، ولكنّـه بحـاجـة إلى الـتربيـة والتنمية . بينما لا حاجة لسُلوكـه طريق السقـوط إلى أن يجرّ بحبـل في عنقه ، أو أن يجتـذب إلى مهاوي الانحـطاط بضغط وقوّة ، بـل إنّ الميول الـدنيّة هي التي تجتذبه شيئاً فشيئاً إلى المهاوي والمزالق .

وإنّما يتحقق الكمال الواقعيّ للإنسان فيما إذا أخرج نفسه من مضيق الميول الحيوانية الدنيّة ، وتعرّف على الأفكار العالية والآفاق الأكثر رحابـة وسعة . فهـو بإمكانه أن يكون عند المزالق حيواناً ذليلاً ، أو أن يخرج الدّوافع المنحرفة فيه من قبـل أن تصل إلى مـرحلة الظهـور والفعّاليـة ، وعندئـذٍ يفتح أجنحتـه في فرص الصعود إلى العالم الأعلى كالملائكة .

إنّ الإنسجام الذي أوجده الإسلام بين العوامل الداخلية والخارجية على صعيد تكامل النفس ، أصبح منشئاً لظهور كثير من التوفيق للإنسان ، وقد ظهر بذلك كثيرون في مسيرة التاريخ ، وبجهود متوالية بلغوا إلى المستوى السامي والرفيع اللائق للإنسانية .

إنّ منزلة كل أحد في الإسلام ترتبط بما له من حظّ ونصيب من القيم الكبرى ، وإلّا فلا يصدق عليه المعنى الحقيقي للإنسانية ، ولم يعرف الإسلام سوى التقوى ملاكاً ومقياساً لشرف الأفراد وعزّتهم .

فعن نبي الإسلام العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :
« من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتّق الله عزّ وجل »[1] .

وعن علي (عليه السلام) قال :
« لا عزّ أعزّ من التقوى » .

إنّ الإنسان المؤمن حينما تشع في نفسه أشعة التقوى يعرف قدرها وأهميّتها ، وبمقتضى هذه الثقافة والنظرة الشاملة لا يبحث عن الكمال والعزة في القدرة والثروة والنسب والعنصر ، بل إنّه يقيس كرامة الشخصية بمستوى الإيمان والعقيدة بتلك القدرة المؤثّرة حقيقةً في هذه الحياة بصورة قطعية ، وبما قد أقامه في باطن نفسه من فضائل وفواضل ، وهو مع ذلك يشعر بالعِزّة بالنسبة إلى الأفراد فاقدي التقوى ولذلك فهو يحذر من أيّ خضوع يذلّله أمامهم ، ذلك أن الخضوع والصّغار إنّما يحقّ أمام الله تعالى ، الذي أوجد جميع الموجودات وكل عالم الوجود بإرادته ، والعباد كلهم عباده ، والخضوع أمام خالق العالم الذي لا شريك له هو أكبر رأسمال للعزّة والكرامة الحقيقية .

وإنّ هذا العلو والعزّ الذي يحصل عليه المتقّي عن طريق الارتباط بالمبدأ الأعلى لهذا العالم ، سيرافقه في جميع مراحل الحياة ومختلف المواقع .

---

(١) بحار الأنوار ١٧ : ٤٨ ط قديم .

وإنّ أشعة التقوى وطهارة الضمير من الوضوح بحيث هي سمة بارزة وبيّنة على المتقي ، وبحيث يُحسّ الآخرون بأنّ في ضمير هذا المتقي حقيقةً ثابتة ، وليس فارغاً بحيث لا يثبت على مواضعه ومواقفه بأصغر صدمة .

إنّ تلك القوة الحيويّة المختبئة في ضمير المتقّي تنبّهه بالنسبة إلى الحقائق والواقعيّات ، فلا يغرق في محيط الماديات عند تمتّعه من الحياة ، ذلك أن عقله وقلبه قد ارتوى من معين مبادىء الإسلام فله بالنسبة إلى كل شيء نظرة إسلامية ، فلا تتساوى عند تقييمه الواقعيّ القيم الكاذبة مع القيم الحقيقية الصادقة ، ولا يمكن أن تستولي لديه الأهواء الدنيئة على نفسه وإدراكاته وروحيّته التي لا تنهزم .

بل إنّه يقف بوجه الأشياء الخلّابة والأهواء الخدّاعة وقفةً جريئة شجاعة ، ذلك أنّه أدرك أنّ أيّ شيء مهما بلغ من مراتب الأهميّة والقيمة فإنّه أمام عظمة كبرياء الله حقير بل لا شيء ، ومهما كان كثيراً فإنّه سيفنى وينعدم ويزول ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيْهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[١] .

والإسلام العظيم يقرّر للمسلمين قيمة وعزّه يذكر بها بعد عزّة الله ورسوله إذ يقول : ﴿ وَلله ٱلعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ والمؤمنين ﴾[٢] .

الابتعاد عن الذلّة والحقارة

لقد وصلتنا بشأن عزّة النفس وقيمتها الأخلاقية والاجتماعية أخبار كثيرة عن الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، ولقد اعطوا من أنفسهم عملياً دروساً أخلاقية كثيرة بهذا الشأن :

---

(١) سورة طه : الآية ١٣٠ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ٧ .

ينبّه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس إلى حقيقة العزة في جملة قصيرة فيقول :

« ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكنّ الغنى غنى النفس »[1] .

وسئل سيد الأحرار الحسين بن علي (عليه السلام) :
« فما عزّ المرء ؟ قال (عليه السلام) استغناؤه عن الناس » .

ويقول (لوكروس) :

« تصوّروا للحظة أغنى الناس في فراش المرض ، وتمثّلوا وضعه ، واصبروا حتى تصل درجة الحمّى فيه إلى الدرجة العليا الشديدة التي كأنّها تذيب الجسد ، ثم أفرغوا عليه قنطاراً من الذهب والفضة ، بل انقلوه من فراشه الصوف إلى فراش من خمل الحرير ، فإن استطاعت هذه الثروة والجمال أن تؤثر في بؤسه ويأسه شيئاً فلكم أن تدّعوا أثر الثروة في السعادة ، أمّا والثروة لا تستطيع أن تؤثر في صحة الجسم شيئاً فكيف تتمكّن من أن تطلق الروح عن الألم والغمّ ، وأن تصل بها إلى السعادة والنشاط »[2] .

وكتب الدكتور (ماردن) يقول :

« لو كانت سعادتنا مبتنية على اللوازم المادية لتحطّمت وتلاشت بسرعة ، فإنّ العالم المادّي متغيّر وفانٍ ، ونعيمها كالبرق الخاطف أو قل هي غير ثابتة على حال كالبخار ، أو هي كالنار تشتعل وتتزلزل ، ومن نافلة القول بل من الواضح أنّه لا يمكن أن تتحقق السعادة بالنعيم الفاني بل الآني .

إنّ الذي يتوقع الراحة والهناء من اللوازم المادّية كمن هو نائم على قطعة كبيرة من الثلوج ثلج الفؤاد عن تغيّرات الحياة ، ولا يمرّ شيء حتى يذوب

---

(١) نهج الفصاحة : ٥٤ .

(٢) بالفارسية : تلقين بنفس : ١٩ .

الثلج ، فيغطّ ذلك البائس الغافل بين الأمواج الهوجاء المجنونة .

إنّ الثروة وسيلة لقضاء الحاجات ، وليست رأسمال للسعادة . وإنّ ما يُسعدنا هو سكون النفس الذي لا أثر للوازم المادية فيه . لا تظنّوا أنّي أعيب المال ، فإنّ المال لو كان قريناً باعتدال العقل والأحوال كان من لوازم سكون الخاطر أيضاً .

ولكن من المسلّم به أننا لو أفرطنا في السعي وراء اللوازم المادية لاختلّ التوازن فينا ، ولا ينقضي شيء حتى يسيطر الحسد والحقد والغضب على أرواحنا . إنّ الاعتدال في طلب المال من لوازم السعادة وحسن الحال ، وعلينا أن نراقب أنفسنا دائماً كي لا نتمايل في طريق الحياة إلى إفراط أو تفريط .

وقد قرأنا في القصص الدينية : أنّ المجرمين يمرّون في الآخرة عن طريق أحرّ من النار وأحدّ من السيف وأدقّ من الشعر . وإنّ طريق الحياة نموذج من ذلك الطريق ، ولو غفلنا للحظة واحدة انحرفنا عنه ، وهو حادّ كالسيف فلو تركنا الاحتياط جانباً فوا ويلاه ، وهو محرق كالنار وتكفي لحظة من الإهمال والمسامحة حتى نحترق بتلك النار .

إنّكم إذا أردتم أن تكونوا سعداء فلا تكونوا كالنّار طاغية عاتية طامعة ، فإنّ السعادة لا تنسجم مع الحرص والطمع ، وإن الطبيعة الحريصة كالبحر الهائج ، والذي يتمنّى الراحة والسكون من الأمواج الهائجة فهو حقّاً مسكين بائس »[1] .

إنّ من أهمّ تكاليف أيّ مسلم يُحبّ الحفاظ على شؤونه ويريد أن يحرّر نفسه من الإطارات الضيّقة ، هو أن يجتنب الذلّة والحقارة . وإنّ قادة الإسلام قد رغّبوا الناس في الابتعاد عن الأهداف الدّنيئة التي لا تتّفق مع شؤون المسلمين .

---

(١) بالفارسية : أسرار نيگ بختى : ٩٨ ـ ١٠١ .

فعن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري (عليه السلام) قال :

« ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذلّه »[1] .

لا ينبغي أن يلتف الإنسان إلى الطلبات التي لا تحتوي على قيمة أكثر من الحدّ اللائق والمناسب ، وأن يهواها وكأنّها ليس وراءها شيء سواها ، فإنّ ذلك يؤدّي إلى انحطاط الفكر وجموده ، وتصبح العواطف والأحاسيس تحت تأثير أمور لا قيمة لها ، وذلك يقلّل من قيمة الإنسان وأهمّيته وعظمته .

فعن علي (عليه السلام) قال :

« عظّموا أقداركم بالتغافل عن الدنيّ من الأمور »[2] .

إنّ بعض الأفراد تستولي روح النفعية على وجودهم بحيث يلوّثون شرفهم بشدّة للوصول إلى منافع مادّية ، ويخضعون لكل ذلّ ودناءة ، وحيث تصبح حالة طلب النفع عندهم من كلّ من يتصلون به كأنّها حاجة روحية فيهم ، لذلك فهم يتّخذون تكتيكاً خاصّاً في ساحة الحياة وفي معاشراتهم مع الناس ، يعتادون الاحترام والتعظيم في غير محلّه بحيث لا معنى له في الحقيقة سوى إظهار الذلّ والصّغار ، وهم يعملون ببرنامجهم هذا بإصرار مفرط . إنّ ما يتّخذه هؤلاء من سلوك في حياتهم إنّما هو ردّ فعل منعكس عمّا يختبىء في ضميرهم من لوث ودناءة لها جذور عميقة .

وقد روي عن علي (عليه السلام) أنّه قال :

« ساعة ذلٍّ لا تفنى بعزّ الدّهر »[3] .

ويقول (إمرسون) :

« الرجال ذوو التجارب يعلمون جيّداً أنّ الأفضل أن يدفعوا بإزاء كل

---

(١) تحف العقول : ٤٨٩ .

(٢) تحف العقول : ٢٢٤ .

(٣) غرر الحكم : ٤٣٤ .

« قيمة » اجتماعيّـة أو موفّقيّـة شيئاً من « مصارفه » وإلاّ فعليـه أن يدفـع عوض المماكسة في هذا السبيل كفّارة كبرى ، فإنّ ذلك دَين عـلى عاتق أفـراد المجتمع . أفهـل نقـول : قـد انتفـع من رأى آلاف الـرحمات من أقـرانـه ولم يـــردّ عليهم بالجميل ؟ أفهل من انتفع طويلاً من أموال جيرانه بالاستعارة منهم بلا خجل ولا استحياء ، هل هذا قد انتفع من ذلك حقّاً ؟ . إنّ كل أمر من هذا القبيـل يجب أن يكون مقروناً بشكر النعمة من ناحية وبالاعتراف بالجميل من ناحية أخرى ، فكل معاملة من هـذا القبيل ينبغي أن يبقى أثـرها في فكـر الطرفـين حتى تنوبهـا معاملة أخرى مكان تلك السابقة ، فتغيّر مناسباتهم حسب الكيفية الجديدة . إنّ الذي يسافر بسيّارة جاره إذ يجعل نفسه حكماً حقيقيـاً واقعياً يـرى أنّه لـو كانت تنكسر كل أضلاعه كان أفضـل من عار الاستعـارة ؛ فإنّ ذلّ السؤال أثقـل قيمة يمكن أن يدفعها الإنسان لاكتساب موفّقيّة مّا »[1] .

غنى النفس

إنّ حالة الغنى وعلوّ الهمّة تخصّ من قد أدرك قيمته الإنسانيـة جيّداً ، وإنّ المسلم الملهم بتعـاليم الإسلام القيّمـة ، إذا واجه أزمـة ماليـة ، استمرّ مـع هذه الـوضعيـة الأليمـة في عيشتـه الاعتيـاديـة من دون أن يخضـع تحت نـير الـذلّـة والحقارة .

مع أنّ الإسلام قد أكّد كثيراً على السعي والنشاط لطلب الـرزق الحلال ، لتقترن عيشة الإنسان المسلم بالعزّة والكرامـة ، مع ذلـك قد حـذّر الناس بصورة قاطعة من طلب الزيادة كثيراً المؤدّي إلى أن يصبح عبداً للدنيا ولمن في يـده شيء منها ؛ فإنّ الحاجة والفـاقة إلى الآخـرين ، وكذلـك الانقياد لأسر المـال والثراء ، كلاهما موجبان للذلّة وإضاعة الشرف الإنساني .

---

(١) بالفارسية : فلسفهء اجتماعى : ٣٨٧ .

ويذكر أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الذلّة والحقارة في الموردين فيقول :

« السؤال يضعف لسان المتكلم ، ويكسر لبّ الشجاع البطل ، ويوقف الحر العزيز موقف العبد الذليل ، ويذهب بهاء الوجه ويمحق الرزق »[1] .

وعنه (عليه السلام) قال :

« كم من فقير غنيّ ، وغنيّ مفتقر »[2] .

وعنه (عليه السلام) قال :

« ربّ غنيّ أذلّ من فقر »[3] .

والقرآن الكريم يصف الفقراء الشرفاء فيقول : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾[4] .

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين أنّه قال :

« ما أحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم »[5] .

إنّ الإسلام قد أعدّ الشكر والتقدير من السجايا الحميدة والصفات البارزة ، ولكنه لا يسمح أن يصل الشخص في شكره وتقديره لغيره إلى حدّ التملّق له بعنوان تقديره ، وأن يسحق شرفه بعنوان التمجيد من الآخرين ؛ فإنّه لا يحق لأيّ مسلم أن يلوّث نفسه بالتملّق المنافي لشرف النفس وحرّيتها .

بل إنّ الشرط الأساس في تقديم التقدير والشكر للآخرين هو سكون النفس واستقلال الروح في الشاكر ، وأن لا يتقدم بذلك إلّا عند وجوبه أو استحبابه حسب الأدب الإنساني .

(١، ٢، ٣) غرر الحكم : ٥٥٢ ، ٩٨ ، ٤١٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٣ .

(٥) مستدرك الوسائل ٢ : ٣٦٤ ط قديم .

ولكن هناك من فيه ضعف النفس والأخلاق يحاول أن يخفي ذلّته الذّاتية وحقارته ومهانته بتقدير غيره بصورة ذليلة متملّقة . ولا شك أنّ هذه الحالة ـ وهي ردّ فعل لضعف النفس ودليل على العجز والذلّة والمهانة ـ لا قيمة لها أخلاقياً وتربويّاً .

يصرّح الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في جملة قصيرة بأنّ للتقدير المزيج بالتملّق أثرين ضارّين : فهو من ناحية يذهب بعزّة نفس المتملّق ، ومن ناحية أخرى يصيب الطرف المقابل بالغرور والتكبّر المنفّر :

« كثرة الثناء مَلَقٌ يُحدث الزّهو ويُدني من العزّة »[١] .

إنّ الشخصيات ذوات النفوس الشريفة مهما بلغوا من الشهرة والموقعية الاجتماعية ، لا يفتقدون أنفسهم ، بينما من لا حظّ له من شرف النفس إذا اكتسب أقلّ مقام أو منزلة اجتماعية افتقد نفسه وضلّ وأضَلّ .

ولقد بين هذه النقطة الإمام علي (عليه السلام) في عبارة قصيرة بصورة جميلة فقال :

« ذو الشرف لا تُبْطره منزلة نالها وإن عظمت ، كالجبل الذي لا تزعزعه الرّياح ، والدّنيّ تُبْطره أدنى منزلة كالكلاء الذي يحرّكه مَرّ النسيم »[٢] .

النظرة المستقبلية

إنّ على كل أحد أن يمعن النظر في عاقبة الأمر من قبل اتّخاذ القرار ، ولا يقدم على أيّ عمل إلاّ مع لحاظ شرفه وعزّة نفسه ، إنّ أولئك الذين انطفأت أفكارهم وأظلمت أرواحهم يخضعون لأي عبودية وذلّة في سبيل أهدافهم

---

(١) غرر الحكم : ٥٦٣ .
(٢) غرر الحكم : ٤٠٧ .

ومقاصدهم الدنيئة ، ولأجل الوصول إلى أهدافهم الحقيرة لا يألون جهداً في أيّ عمل من الأعمال مهما كان ، ولكن هل إنّ هذه الأعمال وبهذه الأهداف تليق بإنسان شريف النفس ؟! .

« إنّ رجلاً أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له : يا رسول الله أوصني . فقال له رسول الله :

فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك ؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل : نعم يا رسول الله فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فإنّي أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإنّ يك رشداً فأمضه ، وإن يك غيّاً فانته عنه »[1] .

وكتب أحد العلماء الغربيين يقول :

« يجب أن ننظر قبل حين العمل ظهره وبطنه ، وأن نقيس خير الأمور وشرّها ، فهل هذا الهدف مثلاً يليق بكل هذه التضحية والمفاداة أو لا ؟ وإن كانت الأفكار والنظريات مختلفة ، وكلّ يرى هدفه ومقصوده أفضل وأنبل وأعلى وأسمى من أهداف الآخرين ومقاصدهم ، كما يقول (ماركوس) : « إنّ العنكبوت يفرح بصيده الذباب كما يفرح الصياد من صيد الظبي والغزال » . . إذن فلكل منا نظره ورأيه .

إنّ الشهرة يجب أن تكون شهرة بالفخار وإلاّ فلا ثمرة فيها . هناك في تاريخ السلف أناس معروفون بالشرّ والرّذالة كما تعرف الشمس بالضوء والنار بالحرارة ، فهل لهم من شهرتهم هذه سوى اللعنة والعذاب ؟! .

إنّ كبار الرجال الذين صرفوا أعمارهم في سبيل نشر العدالة والفضيلة وتقدم الحضارة أحياء خالدون ، ولا تصل يد الدهور إلى بناء عظمتهم وكيانهم ، إنّ هؤلاء يرتقون بأعمالهم المضيئة عن حدود الزمان والمكان ،

---

(١) روضة الكافي ٨ : ١٤٩ ح ١٣٠ .

فأسماؤهم على الألسن وصورهم في القلوب في جميع الأعصار والقرون ، ويرتفع صيت عظمتهم يوماً فيوماً .

إنّ التاريخ لا شغل له بأجساد المشاهير ، بل هو يشيد بأرواحهم في طيّات أعمالهم المفيدة . إنّ لرجال الأعمال همم كقمم الجبال ، وأرواح عظيمة كعِظَمْ البحار ، فهممهم تنفذ في كلّ شيء ، وأرواحهم تطوي كل شيء ، لا يعرفون اليأس والقنوط ، ولا يعبأون بما قد يعرض لهم من نكسة أو هزيمة ، وفضلاً عن هذا كلّه فلهم أفكار دقيقة ، ويعرفون قيمة الفرص جيّداً ويعلمون جيّداً كيف يفيدون منها »[1] .

الحريّة الحقيقية

إنّ الإنسان أرقى وأسمى الموجودات في الأرض ، وهو ذو إرادة وقدرة إيجابية فعّالة يمكنه أن يتكامل بكل قواه في مختلف الجهات والجوانب والأبعاد .

فلو صرف الإنسان كل نشاطاته ومساعيه وفعّالياته للتوصّل إلى المطاليب الدانية ، وركّز كل همّته على هكذا مواضيع ، فكيف يتمكن من أن يحقّق طينته الإنسانية الواقعية ؟ .

إنّ على الإنسان من أجل أن يرتقي درجات الكمال أن لا يصل تسافله إلى درجة تعوقه عن الرقيّ والتسامي . إنّ اختيار الأهداف غير المتناسبة وتعقيبها يستنفذ كل القوى المدّخرة ولا يبقى للإنسان قدرة تكفي لتكامله ، وحينئذٍ تنحطّ النّفس وتتنزل إلى درجة من الإدراك والشعور ، بحيث إذا تجدّد عارض على طريق أهدافه الدنيئة الحقيرة أصرّ على التسافل والانحطاط أكثر من ذي قبل .

إنّ النفس المتكاملة التي تسامت في مراتب الإنسانية ، تتمتّع بحرية خاصة ، والذي يتوصّل إلى الحرية الحقيقية لا يذلّ نفسه ولا يحقّر الكرامة

---

(١) بالفارسية در آغوش خوشبختى : ١١٤ و ١١٥ .

الإنسانية ، بل هو يُحسّ بأنّ للحياة أهدافاً عالية هي أحرى بالتحقّق ، والرغبات المختلفة لا تسيطر على هكذا إنسان بحيث تحرّكه حيث أرادت ، بل الرغبات تطيعه وتسمع قوله ، وفي نفس الوقت تؤدّي استعداداته الحيّة والجيّاشة تكاليفها الأصيلة في جميع جوانب الحياة بصورة صحيحة .

إنّ الإنسان ذا القيم الراقية يتمتّع بروح طاهرة وهمّة عالية وأهداف سامية ، وإنّما يجب أن تقدّر موقعيّة كل أحد ومقامه في الإنسانية بهذه المعايير : فكلّما تعالت همه سمت به قواعده ، كما روى الآمدي في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« قدر الرجل على قدر همّته »[1] .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :

« ينبغي لمن عرف شرف نفسه أن ينزّهها عن دناءة الدنيا »[2] .

تقدير الأهداف على مستوى القدرة

على الإنسان في اختياره لأهدافه أن يلاحظ حدود قدراته وقواه واستعداداته ، وأن يجتنب الانتفاخ اللامعقول الذي لا يثمر سوى الحرمان وخيبة الآمال . وقد نبّه أمير المؤمنين ومولى المتّقين علي (عليه السلام) إلى هذه النقطة الجميلة بقوله :

« من سئل فوق قدره استحقّ الحرمان »[3] .

أو قال (عليه السلام) :

« من سئل ما لا يستحق قوبل بالحرمان »[4] .

---

(١) غرر الحكم : ٦٦٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر .

إنّ من علل الحـرمـان في علم النفس التسـامي في غـير محله بحيث لا تتناسب الأهداف مع استعداداته الشخصية ، كما قالوا : « إنّ علل الحرمـان إمّا في نفس الإنسان أو في الظروف والأوضـاع والأحوال المحيـطة به أو كليهـما . أمّا الـظروف الداخليـة للحرمـان التي تتعلق بنفس الشخص فهي القـدرة الفكـريـة والجسدية وسائر الظروف الداخلية عبارة عن الأهداف الشخصية .

ويتفاوت الأفراد في قدرتهم على مواجهة المشاكل ، وكثير من الناس من لا يتجاوز المشاكل لعجز في استعداداته وطاقاته ، ونجد علل الحـرمان في الشخص فيما إذا توقّـع الشخص لقضاء حـاجاتـه فوق طـاقاتـه . فمثلاً أحمـد شاب سـالم رياضيّ يشترك في أكثر ألعاب كليّته ، وبإمكانه أن يكون له أصدقاء كثـيرون يلتذّ بهم ، ولكنّه دائماً مغموم مهموم متـألم ، لأنّه يتصـوّر أنّ الناس لا يقـدّرونه كـما ينبغي له ، وما أُعطي غيره من المداليات حُرم هو منها لغير سبب ، والصحف لم تطبع صوره في صفحاتها الأولى لا لشيء ! وهكذا .

إنّ ما يتوقّعه وينتظره أحمد فوق ما تسمح به قواه وقدراته وطاقاتـه ، وهذا الألم الذي حصل لأحمد وإنّما أحدثته أفكاره هو ، نراه في كثير من الناس ولا سيّما الشباب منهم ، فإنّا لو لاحظنا جيّداً لرأينـا أنّ كثيراً من النـاس غير راضـين عن أعمالهم ، وتوقّعاتهم وانتظاراتهم أكثر من استعداداتهم .

وإنّ الذين يتوقّعون من الدنيا وينتظرون منها كثيراً سوف لا يكونوا رجالاً سُعداء في راحة نفسية ؛ ولو كانت قدراتهم الـذاتية بحيث تمكنهم من أن يحقّقـوا توقّعاتهم لتحققت تـوقّعاتهم وانتـظاراتهم أيضاً ، إلاّ أنّ المهمّ هـو أنّ انتظاراتهم وتوقّعاتهم أكثر من قواهم واستعداداتهم . علّمونـا أن بإمكـان الإنسان أن يصـل إلى ما يريد ، ولم يعلّمونا أن ذلك إنّما هو حسب الاستعدادات والقدرات ، نعم لا بـدّ من السعي في كـل الأمـور ، ولا ينبغي للنكسـة أن تمنـع من استمـرار المسـاعي ، إنّ على كـل أحد أن يسعى من أجـل الوصـول إلى أهدافـه ، ولكن يجب أن يختار الهدف طبقاً لقواه وطاقاته »[1] .

---

(١) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ٣٣٧ ـ ٣٣٩ .

الشعور بالذلّة من التلوّث بالذنوب

إنّ من الموارد التي تصاب فيها عزّة النفس في الإنسان بخلل شديد هي موارد ارتكابه للذنوب والآثام ؛ فإنّ الذي يتجاوز حدود القوانين ويلوّث يديه بأعمال هي خلاف الشرف والفضيلة ، يُحسّ في نفسه بالذلّة والحقارة ، إنّ اللّوم الدائم الذي يكون من نصيب المذنب بسبب ذنوبه ، تجرح شخصيته وعزّة نفسه بشدّة ، أمّا الذين يسيطرون على أهوائهم ويتحكّمون في ميولهم ، ويصونون أنفسهم من الوقوع في ورطة الأخطاء والأرجاس ولا يحومون حول الجرائم ، هؤلاء يتمتعون بعزّة نفس وسكون خاص ، ولكنّهم في كل مجتمع إنّما هم في أقلية مطلقة ، في حين أنّ أكثر الناس في طول حياتهم ينجرّون إلى طرق الرذيلة ، ويتسيطر ظلام الذنوب على صفحات قلوبهم .

وكما أنّ هناك علاجاً للأدواء الجسدية ، كذلك هناك طرق لعلاج الروح فيما إذا أصيبت بالأمراض النفسية ، وقد بيّن الإسلام طرق علاج هذه الأمراض ، وقد فتح طريق العودة نحو الفضائل والسعادة بالتوبة ، وقد بشّر له برحمة الله وفضله الواسع .

إنّ رسل الله وأنبياءه الذين لا تجد عوامل القبائح مجالاً في أجواء حياتهم ، قد أمّلوا المذنبين بعفو الخالق وتجاوزه ، وذلك من أجل إنقاذهم ونجاتهم من الانحطاط والشقاء وتحريرهم من آثارهما النفسية الخطرة وضغط ضمير اللاشعور ، لعلّهم يظهرون الندم على ما فرط منهم بلسان الاعتذار في رحاب عبادة الله الواحد الأحد ، ويتخلّون عن لوث الرذائل ، ويسعون ليستروا على ما فاتهم من أخطاء ، ويحاولوا ما أمكنهم أن يزيلوا آثار الجرائم ، وبالتالي يتخلّصون من لوم الضمير وضغط الوجدان ، فإنّ الشعور برجس الرّذائل والذّنوب بصورة مستمرة يكون منهكاً للنفس ، وإنّ لليأس والقنوط عن العفو وتطهير الضمير مفاسد لا يمكن تداركها ومخاطر كثيرة ، لنفس الشخص الملوّث والمجتمع الذي يعيش فيه .

إنّ الإنسان الذي يحبّ شرفه وسعادة نفسه ، ما أن انجرّ بجهله وبفعل العوامل النفسية إلى ورطة جريمة ، وارتكب خلافاً وتمرّداً عن أوامر الربّ سبحانه وتعالى ، فعليه أن يشعر بثقل الذنوب على عاتقه ، وبإدراكه لتلوّثه وعصيانه عليه أن يسرع إلى المغفرة الإلهية ، ويطلب إليه العفو والتجاوز متوجهاً إلى عظمته تعالى . والقرآن الكريم يعدّ هذه الخصيصة من مميّزات المتّقين فيقول : ﴿ **وَالّذينّ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفَسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبهمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ الله وَلَمْ يُصِرّوا عَلىٰ ما فَعَلُوا وَهُمْ يعلمون** ﴾[1] .

أمّا من تعوّد تكرار الذنوب قد توغّل في ظلام الآثام ولا يشعر بتمرّده وقبحه ، ويطّرد في طريق الرذائل حتى لحظات سكرات الموت ، فهو غافل عن عظمة ربّه ورجس نفسه ، ولا يمنح ما يمنح لأهل التقوى فلا تقبل منه توبته .

إنّ أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) يرى التقوى واجتناب الذنوب من أسباب حصول عزّة النفس وشرَفِها إذ قال (عليه السلام) :

« من كَرُمَتْ عليه نفسه لم يهنها بالمعصية »[2] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« إذا طلبت العزّ فاطلبه بالطاعة »[3] .

إنّ الإقرار بالذنوب وطلب العفو والمغفرة من ساحة قدس الله سبحانه وتعالى ، يذهب بلوث الذنوب من على وجه النفس وعزّتها ، ويستعيد السكون المفقود .

وقد روى الكليني في (الكافي) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

« والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقرّ به »[4] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢،٣) غرر الحكم : ٧٥٧ و ٣١٤ .

(٤) أصول الكافي ٢ : ٤٢٦ ط آخوندى .

إذن فالتوبة والاعتراف بالذنوب أمام الله تعالى يستعيد السكون المفقود إلى النفس ، ويقوّيه على تعويض أخطائه واكتساب الفضائل والشخصية المعنوية .

نقص كبير

إنّ من النقائص الأخلاقية الكبرى في الإنسان شكاواه الدائمة والمستمرة من الزمان ، واستعراضه لمشاكل الحياة وشدائدها لدى الناس ؛ فإنّ الإنسان ينزّل من خلال ذلك مستوى قيمته الاجتماعية ويصغّر نفسه ويحتقرها ولا يبقى لها قدراً عندهم ولا لعزّة نفسه أثراً في نظرهم .

روى الكشي في رجاله عن مفضّل بن قيس بن رمّانة قال : دخلت على أبي عبد الله فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدّعاء ، فقال : يا جارية هاتي الكيس الذي وصَلَنا به أبو جعفر ، فجاءت بكيس فقال : هذا كيس فيه أربعمأة دينار فاستعن به . قال : قلت : والله جعلت فداك ما أردت هذا ، ولكن أردت الدعاء لي ، فقال لي : ولا أدَع الدعاء ، ولكن لا تخبر الناس بكلّ ما أنت فيه فتهون عليهم »[١] .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :
« رضي بالذُلّ من كشف ضرّه لغيره »[٢] .

وكتب (جلت برگس) يقول :

« لماذا يفتتح كثير من الناس الكلام ويبحثون عن نكساتهم ونقائصهم بكل جدّية وإرادة ، مع أنّ السكوت عنها أنفع لهم ؟ ذلك بعدة أدلّة لعلّ أكثرها تبتنى على الخطأ والخطل :

قد يخيّل لبعضهم أنّ يتصيّدوا ثناء الآخرين ومديحهم ، ويختارون كمقدمةٍ

---

(١) رجال الكشي : ١٨٤ ط شهر برقم ٣٢٢ .
(٢) غرر الحكم : ٤٢٢ .

لذلك طريق الشكوى من نفوسهم . وقد يكون هذا العمل عند آخرين أثراً من آثار تأثّرهم وأسفهم على نفوسهم ، قد تحوّل لديهم إلى مرض مزمن . إنّ القول : بأنّي قد تحطّمت ، ولا أدري كيف أدير أمور الدّار إلى آخر الشهر ، نموذج يمثّل عقدة تحقير النفس لدى الشخص .

فضلاً عمّا للامتناع عن بيان النقائص والآلام من فوائد ، فإنّ لضبط النفس أثراً بارزاً في تحسّن أخلاقكم ، فكما أنّ القدر إذ يفور ولا منفذ له يجد بخاراً أقوى ، كذلك ضبط النفس يسبّب للشخص قوةً وقدرة أكثر ، ويزيد في كرامتكم لدى أنفسكم . إنّ الولد المصاب بنقص عضو ولا يشكو من ذلك ولا يشير إليه ، والرجل المتنكس المنهزم الذي يتلقّى ذلك بابتسامة ، كلّ هؤلاء يقاومون المشاكل بروحية أقوى وأخلاق أقوم ممّن لا يسيطرون على ألسنتهم فيشكون دهرهم دائماً ، وأيضاً تزداد قيمتهم الاجتماعية وتزيد قدراتهم وعقولهم وآثارهم »[1] .

***

(١) بالفارسية ؛ كليد هاى خوشبختى : ١٠١ . ١٠٢ .

الخلل والثغور في نظرة المغرور

* العُجب والخيلاء .
* دور الثروة في إيجاد الغرور .
* خطر الغرور العلمي .
* نشاطات تخريبية .
* سلامة النفس .
* الغفلة عن عيوب النفس .
* حبّ النفس لا عبادتها .
* الحبّ الحقّ ، والودّ الخالد .
* الشعور بالتفوّق الخاص .

العجب والخُيلاء

إنّ سعة نفوذ الضمير اللاشعور أو الشعور الباطنّي أعمق وأقوى ، وفي نفس الوقت أعقد ، من ساحة نشاط الضمير الواعي . إنّ تلك الدراسات من علم النفس التي تتعلّق باللاشعور ، تثبت أن البشر لا يعي أكثر من ٩٠٪ من عمل ضميره الباطني . إنّ هناك عوامل كثيرة تحكم وجود الإنسان سوى ما يريده هو واعياً له ، وتحمله على كثير من الأمور ممّا لا علم لشعوره الواعي به ، وفي أغلب الأوقات يكون التمرّد عن أوامر تلك القوى التي تحكم الإنسان من باطنه غير مقدور في الواقع .

ربّ تلوثات وانحرافات مختلفة وعادات ضارّة هي في الحقيقة من نشاطات الضمير اللاّواعي ، وهي شاهد صدق على تلك النفس المتناقضة للبشر . ومن الممكن أن تقوم الدّوافع الخفيّة في جهاز نفس الإنسان بما يصلحه ينفعه أو يضرّه . وبكلمة : من الممكن أن تكون للآمال والأفكار والدّوافع في اللاّشعور دَورٌ بنّاء في سلوك الإنسان ، فتلطّف أفعاله وسلوكه ، كذلك لها قدرة إخلال وتخريب قويّ .

من الممكن أن يرسم الإنسان لنفسه في ذهنه صورة يرتضيها في ظروف خاصّة ، ولكن كثيراً ما يتّفق أن هذه الصورة الذهنية له لا تنطبق على الواقع . وإنّ هذه الصورة ترتبط تماماً بقلقه واضطرابه أو سكونه وانبساط خاطره ، مرضه أو صحته النفسية والروحية ، وتظهر في الكيفيات المختلفة من أعمال الناس وآثارهم . إنّ في المجتمع البشري أفراداً كثيرين مصابين بالعجب والخيلاء عن

أنفسهم . وهذا واقع نفسيّ لا يقبل الإنكار .

حينما تفتقد مرآة الذهن توازنها يصبح عجب المرء بنفسه غير واقعي وبإفراط وإغراق كثير . ومن الممكن أن يتكوّن هذا العجب في الإنسان منذ طفولته ، فقبل أن يبلغ الطفل مرحلة الوعي والشعور وتنفيذ إرادته لحياة أفضل ، تكون لردود الفعل الصادرة حوله من أهله أثر كبير في مصيره وجهازه النفسيّ ورؤيته الكونية ، وكذلك في نموّ العجب فيه والانحراف ، وبالتالي فقد ينمو مدلَلاً يفتقد قدرة التكيّف مع محيطه ومجتمعه ، أو إنطوائياً منزوياً . وبكلمة : إنّ لمختلف أنماط السلوك أثراً في الأطفال لا يوصف ، إيجابيّاً أو سلبيّاً بنّاءً أو مخرّباً .

إنّ أكثر من يبدو للنظر سليماً هادئاً هو في الواقع تحت ضغوط نفسية كثيرة ، من الممكن أن لا يبدو من ذلك إلّا قليلاً من العلائم والسّمات ، ممّا لا يبدو مهمّاً في نظر نفسه أو غيره ، ولهذا فلا يُحسب لها حساب ، بينما من الممكن أن تكون هذه العلائم علائم مرض نفسي خطير . كثيراً ما يتّفق أن يبدو عمل غير متوقّع ممّن لا يتوقّع منه فيسبّب إعجاباً من الناس ، إنّ هذا العمل يُبدي ردّ فعل القوى الباطنيّة القويّة بكل وضوح وصراحة ، تلك القوى تأخذ بأزمة إرادة الإنسان وتسيطر على سلوكه في الحياة .

* * *

إنّ القيام بأيّ عمل غالباً ما يكون عملاً بعادة هي جزءٌ من طبيعة الإنسان وطينته ، وقد أثبتت التجارب العامّة أنّه حينما يتقوّى ميل شديد في الإنسان فإنّه يسحق بقوّته سائر الميول والأحاسيس ، ويغضّ البعض عندئذٍ نظره عن جميع الملاحظات والقيود .

إنّ الفرد المغرور يصنع في ذهنه قالباً كاملاً ونموذجاً تامّاً لكل سلوك ومقال له ، ويصطنع نموذجاً عالياً لا نقص فيه لإشباع شعوره بالتفوّق ، ويحاول أن

يجعل كل فعّالياته وأحاسيسه وفقاً لذلك القالب المصطنع ، فهو يحسب صفاته ومزاياه عالية بحيث لن يصدّق أبداً أن يجد النقص مصداقاً في وجوده ، ولذلك فليس له أن يتحمّل أصغر نقد بالنسبة لها ، فإذا وضع أحد إصبعه على نقص فيها بكل إنصاف وبلا أيّ غرض غضب عليه كالمجنون ، وزعم أنّه عدوّ مغرض وحقود ويريد به السوء .

إنّ هذه الظواهر الأليمة تحدث في نفس الشخص المغرور عاصفة ، فهو يبدأ بصبّ جام غضبه بعناد شديد ليستخفّ بالناقد ويكسر حرمته ، بذلك يهدّىء عواطفه المتهيّجة .

هناك قوة رمزيّة في اللاشعور منه تحمله على أن يخطّط لإثبات تفوّقه على الآخرين ، وهو لذلك لا يقصّر عن أيّ إقدام يورث تفوّقه وظهوره على الساحة ، فأكثر عشرته ونشاطاته ، وحتى أعماله الاجتماعية المفيدة ليست في الدرجة الأولى لعلاقته بتلك الأعمال وحبّه لها ، بل لأنّه يريد أن يعرفوه رجلاً كفوءاً لائقاً ، ولتتحسّن نظرتهم بالنسبة إليه ، فهو دائماً في حالة خوف ووحشة وضغط مؤلم مخافة أن لا يعرفه الآخرون كما يحبّ ويرضى .

ويقول الفيلسوف الغربي (اسپينوزا) :

« إنّ الغرور ، سرور ينشأ من الإفراط في حسن اعتقاد الشخص بنفسه ، والمغرور يسعى جاهداً مهما أمكنه في تنمية هذه الفكرة ، فهو لذلك يحبّ حضور الطفيليّين والمتملّقين ، ويبرأ من حضور أصحاب السلوك السويّ والسيرة الحسنة الصالحة ، الذين يرونه كما هو وعلى ما هو عليه .

إنّ تعداد شرور الغرور يستلزم صرف وقت كثير ، ذلك أنّ المغرور يتأثر بكل عاطفة وإحساس إلاّ أنّ أقل عاطفة تسيطر عليه هي الحبّ والرحمة .

وبإدراك هذه النقطة بالإمكان الإدراك جيّداً أنّ المغرور حسود بالضرورة ، وأبغض الناس إليه من يُحمدون كثيراً لفضلهم ، وأيضاً يستنبط من ذلك أنّ انزعاجه منهم لا يزول بالودّ والحبّ بيسرٍ وسهولة ، وإنّما يتحقّق سروره

بحضـور من يضحكـون عـلى ضعفـه فيجـرّونـه من ورطـة الحـماقـة إلى وادي الجنون »[1] .

إنّ أكثر الذين ينبغون من الطبقة السافلة في المجتمع فيحصلون على مـوقع فيـه يصابـون بغـرور ونخـوة ،وهم بـذلـك يـريـدون أن يسـدّوا ويجـبروا عقـدة احتقارهم التي لازمتهم من ناحية النقص الذي يشعرونه في أسرْهم وعوائلهم .

إنّ الـروح الكبيرة لا تـرضى بعيشـة في حيـاة قصـيرة ، وإذا كـان هـدف الإنسـان سامياً عالياً توسعت بنفس النسبـة مساعيـه ومحاولاتـه . وإنّما يصـاب الشخص بالجمود والركود ويتـوقّف التقدّم فيـها إذا توقّفت مـطاليبه العـالية . إنّ صاحب الهمة العالية يكون دائماً في سعي وفعّالية ، ليبني شخصيته على القاعدة الإنسانية والمـزايا الـواقعية ، ويتمكن بـذلك من الاستقـرار على مـدارج الفخار الحقيقي ، ولن يرتضي أبداً أن يكـبّر نفسه ويقيّمهـا ويقيم شخصيتها من خـلال الغرور ، ذلك أنّه يعلم أنّ الغرور لا يمنـح أحداً رفعـةً وعظمـة ، والرجـل كلّ الرجل هو من يُعرف بنفسه ويتقدم في جميع الأعمال بسرعـة البرق ، لا أن يتكـبّر واهماً على الآخرين متوقعاً منهم الثناء والمديح .

دور الثروة في إيجاد الغرور

إنّ ممّا يصيب الإنسان بالعجب والغرور هو الثروة الكثيرة ، والذي يتـأسّر بهذه الطريقة بيد « الأنا » ينظر إلى البؤسـاء نظرة تحقـير وازدراء ، ولا يرى قيمـة لوجودهم بل متطفّلين عـلى الحياة ، غـافلاً عن أنّ الـثروة لا تنحصر في الدراهم والدنانـير واكتناز الأمـوال . كثير من النـاس يعيشون في الفقـر المادّي ، إلاّ أنّهم بالنظر إلى ما لهم من رساميل معنوية وفضائل روحية من كبار الأثرياء ، وكثيراً ما يقـع هؤلاء بما لهم من ثـروة معنويـة مورد احـترام أصحاب الـثروات الـطائلة . وتصدق هذه الحقيقـة بشأن الأمم أيضـاً ، فالصحيـح أن نعدّ الأمـة التي تحتوي

---

(1) بالفارسية : فلسفهء نظرى : ١٠٦

على أُناس سعداء وعلماء كبار أغنى من سائر الأمم .

إنّ الثروة المادية لا تصلح لأن تمنح الإنسان السعادة والراحة ، وإنّ أكثر آلام الناس واضطراباتهم هي نتائج التكاثر فيهم ، وكثير من الناس لا راحة لهم وهم ينامون على أكداس الأموال المكتنزة ، بل من الممكن كثيراً أن يصبح المال نفسه مصدر كل فتنة وآفة ، ويزيد فؤاد صاحبه اسوداداً ويجرّه إلى التلوّث بالرذائل والذنوب ، ويؤدّي به إلى أن تودي به الذنوب وتقلع أساس سعادته كسيل جارف .

إنّ الثروة المادّية من مقدّمات الراحة لا حقيقتها ، وبالإمكان أن نقول : إنّ المال سلسلة زنجير لا نهاية لحلقاتها يأخذ بها العاقل ، والجاهل يخضع برقبته تحت هذه السلسلة الثقيلة ! .

قد يتصوّر البعض أنّ بالإمكان الوصول إلى الأمن والراحة بالثروة الطائلة ، ولا يعلمون أنّ الإنسان كلّما تقدّم لتحصيل المنافع الطائلة ابتعد عن نفسه أكثر من ذي قبل ، وبالتالي فإنّه يفتقد أحاسيسه الطاهرة في هذا الطريق الملتوي ، ففي الأكثر ما إن يتقدم الإنسان على أقرانه في ماله حتى يحمله الغرور على قطع أواصر المحبة معهم .

ويقول (أبيكتاتوس) :

« يقول أصدقائي : لماذا لا تتصدّى لاكتساب المال كي يكون لنا نصيب منه أيضاً ؟ وأقول لهم : ليتني كنت أتمكن من أن أقرن بين المال والوفاء بحبّكم ، بمعنى أن أكون ثريّاً وأكون معكم وفيّاً بحبكم أيضاً ، لكنّي آسف أنّ الثروة تحرمني من صحبتكم . ولا شك أنّه لو يبقى صديقكم صفر اليد وفيّاً رحيماً ، ذلك أفضل من أن يكون ذا مال مغروراً متكبّراً ، إذن فلماذا تريدون أن تفتقدوا صديقكم وتفصلوا بيني وبينكم وتبعدوني عنكم ؟ » .

خطر الغرور العلميّ

إنّ من أخطر مراحل الحياة في سبيل التقدّم لاكتساب الكمال ، ممّا يمكن أن يصيب الإنسان فيه الغرور ، هو مرحلة حصول شيء من العلم لديه ، إذ يتجلّى ذلك لدى حامله مهمّاً وذا قيمة كثيرة بحيث يتصوّر أنّ درجته العلمية ومزاياه فيه أعلى من كل أحد دونه ، والطريف أن أكثر الذين يصابون بالغرور العلمي ويزعمون أنّهم على حق.، أن يكونوا ذوي ميّزات عالية ، إنّما هم ممّن هم من حيث المستوى العلميّ في المستوى الهابط أو المتوسّط .

ذلك أنّه كلما توسّعت علوم الإنسان تعرّف على جهله وحقارته أكثر فأكثر ، والذي يبلغ في العلم إلى أنّه يجهل الكثير فإنّه قد توصّل إلى معرفة نفسه ، ولهذا فإنّ العلماء الواقعيين لا يقعون في مصيدة الغرور والتصوّرات الباطلة بسهولة .

كاتب هذه السطور يعرف من هو من حيث المستوى العلميّ في الحدّ المتوسط ، ولعلّ قيمته الوجودية قليلة ، ولكنّه متى ما دار الكلام عن خدمات الآخرين وعلومهم وتحدّث أحد الحاضرين بموضوع عن ذلك ، فإنّه لا يؤيد حديثه إلّا بابتسامة ساخرة ، بينما إذا بدأ هو بالحديث عن إقدام له على خدمة صغرى شرح الموضوع بمقدمات طويلة ، وكأن لم يعمل أحد في المجتمع خدمة أولى وأغلى ممّا قام به هو !! .

يقول أحد علماء العرب :

«الحقيقة أنّ معلوماتنا بالنسبة إلى مجهولاتنا ليست إلّا نسبة مئوية مختصرة، فأيّ العناصر نعرفه جيّداً ونعلم بجميع فوائده وموارد استعماله ؟ وأيّ من النباتات والحيوانات نعلم بتاريخه من البداية حتى النهاية ؟ نحن نعيش بين قوى مختلفة لا نعلم عنها شيئاً ، وإنّ الستار المظلم الذي كان ولا زال طوال القرون المديدة يحجب عيوننا عن معرفة الأشياء ، لا زال غير مهتوك ، ولا نزال نحن في

المدرسة الكبرى للطبيعة بمنزلة أطفال مبتدئين ، نرى كثيراً من الأشياء ولا خبر عندنا عن أسرارها .

إنّ عالم الفكر كالبحر من يقف على ساحله يلتذّ بأمواجه وما يتجلّى منه ، والذين قد زلّت بهم أقدامهم ووقعوا فيه يضطربون فيه بأيديهم وأرجلهم ولا يصلون إلى الساحل منه . إنّ الإنسان يسعى دائماً أن يرفع الستار عن وجه الحقيقة وأن يخطو في طريق العلم والمعرفة خطوات أكثر ، ولكن كلّما خطونا في هذا الطريق كثرت مشاكلنا أكثر من ذي قبل .

إنّ علومنا كقطب الدائرة ومجهولاتنا كمحيطها ، فكلما وسّعنا قطب الدائرة توسّع محيطها أكثر ، ولعلّ أبناءنا في المستقبل يستطيعون أن يتقدموا في هذا الطريق أكثر منّا ويكتشفوا حقائق جديدة من أسرار الكائنات ، ولكنّنا مضطّرون وللأسف ومع كل ما لنا من عجب وغرور أن نعرّف بأنّنا لا نعلم شيئاً بهذا الخصوص ولا خبر لدينا عن سرّ الوجود ، ولماذا نبتعد كثيراً؟ نحن لا نعرف أنفسنا ولا ندري ماذا نحن وما هي علاقتنا بالطبيعة . نعم نحن لا نعلم شيئاً ولذلك فنحن مضطّرون أن نترك على كل شيء علامة استفهام ونتجاوزه »[1] .

إنّ أولى شروط البحث عن الحقيقة وفهم أيّ موضوع هو أن لايقصد الإنسان من بحثه فيه الجدال والمناقشة الفارغة ساعياً الاستفادة من كلمات الآخرين للاستمرار في المناقشة والبحث فقط بنفس الطريقة الذميمة ، فهو لا ينظر في الحقيقة إلى كشف الحقيقة بل هو يريد أن يثبت مهارته وفنّه وعلمه من خلال المناقشة فقط .

من أجل أن نصل إلى مرحلة معرفة النفس ، من اللازم علينا في المرتبة الأولى أن نكتشف الحقائق من مسارها الصحيح فنؤمن بصحتها إيماناً كاملاً ، وهكذا نصل إلى حقيقة الموضوع لا بالجدال المتعصّب غير المَرن ، يجب أن يكون هدفنا الأساسي من إدراك الواقع هو أن تلك الأمور التي إنّما فهمناها بصورة

---

(١) بالفارسية : در جستجوى خوشبختى : ٥٨و٢١٩ .

إجمالية ولم نطّلع على كميّتها وكيفيّتها ، نخرجها عن صورة الإبهام والتعقيد وندركها عارية صريحة .

نشاط تخريبيّ

إنّ آثار الغرور الضّارة ستسود في كثير من شؤون الحياة ومواردها ، ممّا يستدعي الالتفات إلى ذلك تأمّلاً أكثر في مكافحة هذه الحالة النفسية الضّارة ، بجدّية أكثر مهما أمكن .

إنّنا لو قلّلنا ما أمكن من تدخّل الغرور والنخوة في المكالمات والمناقشات والأبحاث ، لقلّ الكثير من الخصومات والاختلافات هي بنفسها ، فإنّ كثيراً من المنازعات الفارغة التي تقع بين الأفراد ومختلف الطبقات ، ليس إلاّ طاعة للغرور ، وهم من وراء هذا الانتفاع الظاهريّ يصابون بزلّات وعثرات تضرّهم في الواقع وتضرّ غيرهم ، وهم بالتالي لا يمكنهم أن يبادروا إلى حلّ المشاكل بالتفاهم والمنطق السليم عن الأغراض .

من الممكن أن يصاب المغرور بصفات من سوء الخلق أخرى كالحسد والبخل وسوء الظنّ ، فيسيطر عليه من قرنه إلى قدمه حسد يؤمّل به خيبة الآخرين ، وإذا رأى غيره أفضل منه في عمل امتلأ قلبه من الشعور بالغيرة ، فيحسده حتى في الفروع التي لا علاقة لها بفرعه أو عمله ، ويشعر بهذا الإحساس بصورة أليمة لا تتحمّل عادة بحيث تبعث فيه وتسلط عليه روح العداء ، وتجعل الهدف من جميع مساعيه الإنتاجيّة تحت تأثير من حبّه للغلبة على خصمه ، والخلاصة أنّ أهدافه في الحياة تخرج عن كونها أهدافاً ، بل يصبح هدفه النهائي هو انتكاس الخصم وهزيمته . وحيث يغلب عامل التخريب على أعماله فإنّ قواه الجسمية والفكرية تذهب هدْراً ، وأينما حصل على فرصة مناسبة فإنّه يُشبع في نفسه تلك الشعلة الحارقة الموجودة في نيّته وضميره بأية وسيلة ممكنة .

كما أن الجهّال المغرورين يبرأون من التواضع عندما يقيسون أنفسهم بالآخرين ، كذلك من الطبيعي أن ينزعج العقلاء من المعاشرة مع هؤلاء . إنّ ما في هؤلاء من التكبّر والغرور يقطع أثمن الروابط وأمتنها . هذه حقيقة لا يمكن إنكارها أنّ عدم الاعتناء بعواطف الناس والسلوك المهين لهم يولّد فيهم ردود فعل ممّا يجعل المهين مُهاناً كذلك . إنّ المغرور ينظر إلى ما يتوقّعه هو في حين أنّه يغفل أو يتغافل عن رعاية موقعية الآخرين وملاحظة شؤونهم ، وهذا التوقّع من جانب واحد يؤدّي إلى حدوث مضادّة شديدة بين ميول المغرور من ناحية والسلوك المهين وعدم الاعتناء والاعتداد به بصورة لا تطاق من قبل الآخرين بالنسبة إليه من ناحية أخرى ، فهو يضطّر إلى أن يتحمل ما يخالف توقعاته وانتظاراته وعدم الاعتناء والاعتداد به المستمر والذي يجرح غروره ، كل ذلك بروح منكسرة وقلب مضطّرب .

إنّ السلوك الجميل الذي له نوع علاقة بأخلاق الإنسان الباطنية ، ليس له الأثر المطلوب في حياة صاحبه فحسب ، بل يترك في قلوب الناس أيضاً أثراً عميقاً . إنّ الذين يتمتّعون بصورة واقعية بمزايا عالية وفضائل أخلاقية سامية ، يروون النفوس العطشى من معاشريهم كينبوع عذب مريء . والأدب والتواضع الواقعيّ إنّما يتحقّق فيها إذا كان منسجماً ومتناغماً مع الطبيعة ، وإلّا فلو توسّل أحد بالوسائل الصناعية فقد خدع نفسه ، وإنّ نفسية كل أحد وأسلوب تفكيره يبدو واضحاً من خلال سلوكه ، ولا يمكن تغطية هذا الدليل البيّن بأية وسيلة أو أيّ ساتر .

سلامة النفس

إنّ الحياة كلها سعي ونشاط ، فقد يظفر الإنسان في خضمّ هذه المساعي والمحاولات بالتوفيق إلى أمله ، وقد يخيب ، فالذين يتوفّقون في صعيد الحياة من الممكن أن يحيط بهم الغرور والنخوة على أثر توفيقهم المحدود في شغلهم وعملهم ، والذين يواجهون بالخيبة والنكسة في بعض أمورهم من الممكن أحياناً

أن يتلقّوا نكستهم معلولاً عن سوء حظّهم أو اختلاق العراقيل من حقد الأعداء ، ثم يستسلمون لخيبة أمل مؤلمة .

وخيبة الأمل والنكسة مهما كانت مُرّةً غير مستساغة ، والموفّقية مهما كانت عذبة هنيئةً ، لا ينبغي أن نغترّ في بلوغ الأمل بعقولنا ومهارتنا ، وخيبة الأمل أيضاً لا ينبغي أن تصيب روح الإنسان باليأس والحسرة الدّائمة .

إنّنا لو كنّا في حين بلوغنا أهدافنا أو انتكاستنا نجعل شعارنا : النظرة الواقعية ، لكننا نصل إلى الحدّ الوسط الذهبيّ بين هذين القطبين : الإفراط والتفريط ، ألا وهو « سلامة النفس » وطبيعي أنّ الوصول إلى هذا الحدّ من الاعتدال والتوازن مستلزم لجهاد جادّ وشديد مع النفس .

إنّ جهاز حياة الإنسان النفسية ـ ككل الأشياء الأخرى ـ لم يُصنع ولم يُؤسّس بظرفية وسعة غير محدودة بل إنّ ظرفية تحمّله محدودة ، فمن الممكن أن تتكدّس ضغوط الانتكاسات والهزائم والحرمان وتختفي في اللاشعور ثم يحدث تغيير في كيفيّتها فتبدأ بالطغيان والتخريب .

إنّ مشكلة معرفة النفس والجهل بحاجاتها الرّوحية حقيقة لا يمكن إنكارها ، في حين أنّ الجُهال يظنون أنهم يعرفونها أفضل من كل أحد ، وأنّهم مطّلعون على علل دوافعها وسلوكها وأفكارها ، وبالتالي فهم مطّلعون على باطنهم تماماً .

إنّ مشكلة معرفة النفس هي العلّة لكثير من الأخطاء وسوء الفهم وإصدار الأحكام الظالمة ، ممّا يستدعي أن يرى الإنسان أساس أكثر هذه المشاكلُ في الجهل بالإمكانات وكميّتها وكيفيّتها ، التي أودعتها يد الخلقة في وجود كل أحد ، والدور الذي تؤدّيه الوراثة والتربية والمحيط والبيئة في نظام الحياة النفسية ، وكذلك سيطرة الأهواء والنقائص على الإنسان .

كما كان قدماء الفلاسفة يؤكّدون على معرفة النفس ضمن الأمور التي ترتبط منها بالإنسان ، كذلك في العهد الحاضر يُعدّ تعلّم أصول معرفة النفس

من أهمّ المواضيع في علم الطبّ النفسي ، هذا والعصر الحاضر عهد الدراسات العميقة والطريفة بشأن الطبيعة الإنسانية ، وعصر ظهور سلسلة من البحوث القيمة بشأن علم النفس بالمعنى الفنّي الاختصاصي والعام .

إنّ تربية الخصائص والخصال الإنسانية الجميلة في النفس تستلزم أن يكون الشخص عارفاً بالحاجات الروحية والنفسية وأسلوب العمل في هذا الجهاز ، وبالأحاسيس والعواطف التي كل واحدة منها من أفعال النفس وردودها ، وأن يكون له الإطّلاع على التهيّجات الناتجة عن مسير مجاري معقّدة في النفس ، كي يتمكن من خلال ذلك أن يميّز الأهواء المضلّة عن الغرائز والمُنى الواقعية ، فيدافع عن نفسه أمام المخاطر التي تهدّد دائماً شخصيّته وسلامة نفسه ، وليراقب نفسه كي لا يهمل زمام أموره بيد الأوهام الخادعة والأحلام الواهية سعياً وراء سعادة موهومة .

إنّ كل الذين يصابون بالعقد والآلام النفسية ، أو يعانون كابوس اليأس والقنوط ، هم في الواقع أُناس غير مطّلعين على استعداداتهم وإمكاناتهم وطاقاتهم الكامنة فيهم ، كي يسدّوا عوزهم بالإفادة ممّا فيهم من قوى وطاقات ، ويستبدلوا ما فيهم من نقص بالكمال ، ولذا فمن الضروري لهؤلاء السعي الحثيث والشامل لاكتشاف أنفسهم .

إنّ كل مشكل يمنع الإنسان من إشباع رغباته وتحقق آماله ، فبمقتضى رغبات الإنسان وحاجاته يؤلمه ذلك كثيراً ، ويكره بشدة كلّ سدّ أو عائق مادّي أو معنوي يعوقه عن تحقّق ميوله ورغباته أو يمنع عن استيلائه على الأمور لوحده وهو يزعم أنّ ذلك من حقّه . وهذه العوائق والموانع توجب حدوث الأحقاد وروح العدوان فيه ، فإنّ الرغبات الفانية والأهواء الشريرة والملتهبة يمكنها أن تلبس الأمر على الإنسان بكل سهولة ويُسر .

ولهذا فإنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ينبّه الناس ألى أن يجتنبوا اتّباع الهوى فيقول :

« إيّاكم والهوى ، فإنّ الهوى يُعمي ويُصم »[1] .

الغفلة عن عيوب النفس

إنّ الغـرور وحبّ الغلب والارتفاع غـالباً مـا يمنع الإنسـان من أن يـدرك حدود نقائصه ومن أن يقف على حدود قدراتـه وطاقـاته ، وإنّ الأمـر الذي يمنـع من نموّ استقلالية شخصيّته ، ويسبّب في تـوقّف نموّه النّفسي وجمـوده ، هو عـدم اطّلاعه على ما في وجوده من نقائص ، ممّا يجعل الإنسان لا يهتمّ أبداً بسـدّ تلك النقائص وترميمها وكثيراً يكون ذلك سهلاً يسيراً .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« الراضي عن نفسه مستور عنه عيبه ، ولو عرف فضل غيره كفاه مـا به من النقص والخسران »[2] .

وفي خـبر آخر عنـه (عليه السـلام) يرى أن اغـترار الشخص ورضاه عن نفسه دليل على نقصٍ في عقولهم إذ قال :

« رضا العبد عن نفسه بُرهان سخافة عقله »[3] .

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« العُجب يفسد العقل »[4] .

ويقول الفيلسوف الأوروبي الشهير (اسپينوزا) :

« من يجهل نفسه يجهل أساس كـل الفضائـل ولا يطّلع عـلى أية فضيلة ، وليس العمل وفق أيّة فضيلة سوى العمل وفق العقـل ، ومن يعمل وفق العقـل

---

(١) نهج الفصاحة : ٢٠١ .

(٢) غرر الحكم : ٩٥ .

(٣) غرر الحكم : ٤٢٤ .

(٤) غرر الحكم : ٢٦ .

فقد جعل العقل قائده . فالـذي يجهل نفسـه وبالتـالي ـ كما أسلفنـا ـ يجهل كـل الفضـائـل ، لا يمكنــه أن يعمـل وفق الفضيلة أي إنّــه مُصـاب بقلة أو ضعف العقـل . وبنـاءً عـلى هـذا فـإنّ أعـلى درجــات الغـرور أعــلى درجـات ضعف العقل »[1] .

من الممكن أن تكـون بعض الأمـور التي تتجـلّى عنـدنـا وكـأنّها حقيقـة معقولة ، لا تكون في الواقع من الحقيقة في شيء ، فإنّنا بعقولنا يمكننا أن نعرف الـواقع والحقيقـة عن غيرهـا . والذين تضعف لـديهم قـوة أبصـارهم يتـوسّلون لتسـديد هـذا الضعف بالعـوينات الـطبّية ، ولكنّ من يُصـاب بضعف العقل لا يمكنه أن يرفع ذلك الضّعف بالعوينات ، بل من أجل سدّ ذلك النقص علينا أن نلتفت إلى أنفسنا فنحلّلها وندرسها ، فنعرف الاستعدادات الواقعية عن الأهـواء الساحرة الضّارة ، بكل دقة ومراقبة .

وكثير أولئك الـذين يتلفون طـاقاتهم الـروحية من دون أن يفيـدوا منها في تحسين وضعهم الشخصي والاجتماعي ، ومن دون أن يكـون لهم أدنى إطّلاع عن القوى الغريبة والطاقات العجيبة في نفوسهم ، اللهم إلّا أن تتّفق أرضية مساعدة لهم عـلى إبراز استعـداداتهم وطاقـاتهم المثمرة ، وكم من قـدرات مفيدة تـذهب هدْراً على أثر عدم اطّلاع أصحابها عن كيفية ومستوى اقتدارها وثمارها .

وإذا أدرك شخص نواقصه وعيوبه لم يهتم أو حسبها مما يمكن غمض العين وصرف النـظر عنهـا ، فهـو في حكم أن يـرى تلك النقـائص لازمـةً لـوجـوده . وطبيعيّ أنّ اختبار أحوال الباطن يستلزم الدقة وصرف الوقت الكافي لذلك .

وإذا تصوّر أحد أنّه يمكنه أن يدرك خصائص نفسـه ونقاط ضعفـه ونقصه في مـدّة قصيرة ، فـإنّ ذلك تصـوّر باطـل ؛ فإنّ دراسـة النفس وتحمّل مشـاهدة بعض الصور الباطنية الموحشة تستلزم شجاعة كثيرة وقـوةً في البصيرة ، وهـذا ما

---

(١) بالفارسية : فلسفهء نظرى : ١٠٦ .

لا يحصل إلاّ بالتدريج وبالمراقبة المستمرة ، ومع ذلك فإنّ الإنسان في كفاحه مع الرذائل كثيراً مّا ينال توفيقاً إلى أن يحدث تغييراً في نفسه لصالحه ، بقدرة فكره وإرادته .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« من طلب عيباً وجده »[1] .

حُبّ النفس لا عبادتها

إنّ الإسلام قد جعل في متناول الإنسان أساليب تامّة ومطمئنة لإشباع الحاجات النفسية ، ويحاول إصلاح الفطرة وتهذيبها عن طريق برامج شاملة ومستوعبة لجميع الجوانب . إنّ الضوابط التي جعلها الإسلام لتعديل الرغبات وتنظيمها وتحديدها تُجلّي النفس الإنسانية وتبلغ بعقله إلى الحقيقة والواقع . ذلك أن الأحاسيس والعواطف لو كانت بدون انتظام فإنّها لا تضرّ الآخرين فقط بل تبعث في داخل النفس على اضطراب وعواصف ، وذلك يؤدّي إلى انحطاط الإنسان وسقوطه .

إنّ حبّ النفس من العوامل التي لا يمكن تجاهل ما لها من أهمية عجيبة في حياة الإنسان ، وأنّها لو اتّجهت نحو مقاصد سامية فسوف تحمل الإنسان على اكتساب الفضائل .

طبيعي أنّ هناك تفاوتاً واختلافاً فاحشاً بين حبّ النفس وبين عبادتها ، فإنّ حبّ النفس لا ينافي عظمة الروح وسعة الشخصية ، وقد يحمل الإنسان على التواضع ونكران الذات ، بينما عبادة النفس تضيق من أُفق الفكر وتجرّ طبع الإنسان إلى الرذالة والمهانة .

ففي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

---

(١) غرر الحكم : ٦١٤ .

« أكبر الناس ضعة من تعاظم في نفسه »[1] .

ويقول (راكو) :

إنّ عبادة النفس عبارة عن جعل الآخرين ضحيةً للوصول إلى الآمال والسعادة الشخصية ، في حين أنّ معرفة النفس من الحالات الروحية التي تنبعث بسبب تصميم الشخص على توسعة شخصيّته ، إنّ عبادة النفس ترافق ضعفاً مفرطاً في الشخصية بينما معرفة النفس تلازم قوّةً فائقة .

إنّكم إذا صمّمتم على أن تمتنعوا عن تحميل إرادة الآخرين على أنفسكم فيما إذا كانت تخالف سلامتكم وقدرتكم ونفوذ كلمتكم ، فإنّكم إذاً ممّن قد تعرّف على نفسه ورآها وأحبّها .

ولكن ليس معنى كلامنا هذا أن لا تبدوا من أنفسكم أيّ حساسية أو تأثّر من ضعف الآخرين وتعاستهم وشقائهم ، وإنّما نوصيكم أن تدّخروا قواكم لمواقع اللزوم بدلاً من أن تصرفوها في مختلف الجهات غير الضرورية . إنّ معرفة النفس لا تبعث على انعدام الاستعداد للتضحية بها بل تجعل ذلك وفقاً لقواعد معيّنة ، ويستعد الإنسان بل يشتاق إلى إدخال السرور على قلب حبيبه أو الأخذ بأيدي المضطّرين .

إنّ من لا تكفي طاقاته لحفظ هدوء أعصابه في بحابح المشاكل ، عليه أن يبتعد عن الضّعفاء ويدخل في زمرة الأقوياء ، وإلاّ فإنّه سيشعر في نفسه بضعف ينشأ منه ضعف عنصره وقلّة شجاعته . وهناك مقياس ساذج بسيط لقياس المستوى الصحيح من حبّ النفس والتضحية بها ، وذلك عبارة عن السعي للعمل ، سواء لنفسه أو الآخرين .

لا ريب في أنّ أفراد أيّة أُمة لو حاولوا توسعة شخصيّاتهم ، لحظوا بتوازن في النشاط والفعّاليات ، وعلى هذا فلا شيء أقرب إلى العدل من التربية

---

(١) غرر الحكم : ١٩٥ .

الـروحية ، إنّ معـرفة النفس هي التي تـربّي في كيان الإنسـان روحيّـة التضحيـة والفداء ، بل الأخلاق بصورة عامّة تتوالد من التوازن الروحي »[1] .

إنّ الإسلام لا يَعدّ حـبّ النفس شعـوراً محطّمـاً نابعـاً من الشهوة ، بـل يرى أن من يسلّم زمام أموره بيد هذا الإحساس من دون تربيته له ، فإنّه يزلزل بذلك أساس سعادته ، وستكون له خاتمة مملة .

إنّ الإسـلام يـرى حبّ النفس شريـطة أن يكـون عـلى الصراط المستقيم بعيداً عن أيّ انحراف وضلال وغير مخلّ بحكم العقل ، جارياً في سبيل يضمن له في ظلاله سعادة الدنيا والآخرة بما لا يتصور أفضل منه . والمسلم الذي يدرك الحقيقـة بفكر متفتّـح ورؤية واضحـة لن يرضى أن يستبـدل الدار الخـالدة بهـذه اللذائـذ الفـانيـة التي يشـوب الإفـادة منهـا أنـواع الآلام . وليس مقتضى الحبّ الحقيقي للنفس أن يطأطىء رأس الذل والعبـوديـة أمـام الشهـوات المحـطّمـة ، وبالتالي يبتلى بالعذاب الأليم الخالد ، إنّ هذا ليس حبّاً مناسباً لمقام الإنسانية .

الحبّ الحقّ والودّ الخالد

إنّ الإسـلام يبدأ بـإفاضـة المحبة الإلّهيـة عـلى أرواح النـاس ونفـوسهم ، ويعلّمهم أن يفضّلوا حبّ الربّ سبحانه على حبّ أي شيء أو أمـر آخر ، ذلـك هو الحبّ الذي هـو العمود الفقـريّ للحياة الحقيقيـة ، والله هو الـواهب لجميع القوى والمزايـا ، ومع الالتفـات إلى عطفـه ولطفـه لا شيء ولا أحد أولى منـه في مقام الألوهية لإعلان الإخلاص والحبّ له . وتتجلّى هذه الحقيقـة لنا كـاملة فيما إذا التفتنا إلى جميع مراتب الحبّ والودّ من الحب العارض غير الثابت حتى الحبّ الحقيقي والودّ الخالد .

وبعد حبّ الربّ جعل لأفراد المجتمـع سهامـاً من الحبّ والعلاقـة القلبية العميقة من بعضهم لبعض ، فالـذين خلقهم الله « من نفس واحدة » ينبغي أن

---

(١) بالفارسية : قدرت إرادة : ٧٠ ، ٧١ .

يحبّ بعضهم بعضاً ، وينثروا عواطفهم وأحاسيسهم النزيهة على بعضهم البعض ، فإنّهم إخوة في أصل الخلقة وفي المصالح المشتركة والإسلام ينبّه إلى حقّ هذه الأخوة بحيث يهزّ الضمير والوجدان ، ويعرض لدفع البشر إلى هذه المحبة الصافية النزيهة بواعث وأشواقاً ، ولذلك أوجد في ضمير الإنسان حبّاً للذّات متوازناً ومتناغماً ، ويبلغ به في تعاليمه إلى قاعدة ينطلق في ظلّها من قيود الغرور وعبادة الذّات ، وبحيث لا يَظهر فيه اتّجاه مفرط في حبّه لذاته .

إنّ الكبرياء يختص بذات الله الذي لا يتطرق إليه الفقر والحاجة ، بل تحتاج إليه جميع الموجودات من جميع الجهات : **﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد »**[1] .

وإن الإصابة بالنخوة والغرور إنّما هي انحرافة عن البرامج الإلهية . والقرآن الكريم يلفت نظر المغرور إلى عجزه واحتقاره وبذلك يهبط بروح النخوة فيه من قمة الخيالات الواهية إلى الهاوية فيقول : **﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً ، إنّك لَنْ تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طولا ﴾**[2] .

إنّ من لا ينصرف عن النظر إلى المبدأ الأعلى للوجود لا تسيطر عليه في مواقع الرفاهية والنعمة حالة الإغترار ؛ إذ أنّ الإسلام يدعو إلى التواضع والاعتدال ، ولا يحبّ الكبر والاستعلاء :

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلْنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً ، إنّ الله لا يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3] .

الشعور بالتفوّق الخاص

إنّ الشعور بالرفعة في المسلم لا يرتبط بتوفيقه في الحياة الدنيا ومستوى

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٧ .

(٣) سورة لقمان : ١٧ .

عدد ساعات راحته وهنائه ، بل هو يشعر بالرفعة والفضيلة منذ أن يستقر الإيمان في كانون قلبه منذ اللحظة الأولى منه ، وإنّ القيم البشرية الخدّاعة والكاذبة لا تضعضع منه شيئاً ، فهو متنبّه إلى واقع الحياة وحقيقتها ، وروحه المتحررة وذات البصيرة قد أوجدت فيه توازناً يستطيع به أن يعرج بنفسه من المستوى المادّي الرديّ إلى قمة الرفعة ، وأن لا يستغرق في المتع الأرضية للإفادة من عالم المادّة .

ولا يمكن للقيم الكاذبة أن تسيطر على روحه ومدركاته من القيم الإلٓهية ، فإنّ هذه القيم الكاذبة أصغر وأحقر من أن تبعثه على الاستعلاء والتكبّر ، وكذلك ليس هو ذليلاً خاضعاً عاجزاً ، فهو يجتنب كل خضوع مذلّ له تنزّل شخصيّته لدى غيره ،وإنّما هو خاضع أمام ذات الكبرياء المقدسة ، وهو في سائر حالاته قوي مقتدر ثابت .

والله تعالى يوصي أهل الإيمان أن يحتفظوا بهذه المزيّة الإيمانية الخاصة في جميع المواقع وكلّ المراحل : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾[1] .

والقرآن الكريم يذكّرهم بهذه الرفعة حينما أصابتهم النكسة في حرب أحد وانتصر عليهم أعداؤهم من مشركي قريش ، ذلك أنّ هذه الرفعة نابعة من الإيمان بالله والإرتباط بمبدأ الوجود ، وهذا هو الذي جعلهم قوّة نشطة ، وليست هي رفعة ناشئة من انتصارهم على أعدائهم كي يفتقدوها .

إنّهم كانوا يفوقون سواهم لاعتقادهم بأنّ الإيمان بالله هو من أهمّ المميّزات للإنسان وهو رأسماله للدارين ، وبفعل النشاط الإيماني كانوا يشعرون بإنطلاقهم من كل حصار محيط بهم ، وكان هذا الشعور نابعاً من هداية القرآن الكريم وسنّة النبي العظيم .

إنّ الغرور والرضا عن النفس يسدّ سبيل الرقيّ والكمال ويمنع من التقدم في الحياة ، وإن رضا المغرور عن أعماله يسبّب له الركود والجمود والتأخر بل

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

التقهقر ، كما أنّ عدم الرضا عن النفس مع همّة متعالية يبعث على الرقيّ والتكامل المتصاعد في الحياة .

وقد بيّن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) هذه النقطة المهمة في جملٍ قصيرة إذ قال :

« الإعجاب يمنع الإزدياد »[١] .

« ومن أنف عن عمله اضطّره ذلك إلى عمل خير منه »[٢] .

« ومن أعجب بحسن حالته قصّر عن تحسين حليته »[٣] .

وكتب الباحث المعروف (ويليام جون ريلي) يقول :

إنّي قد توصّلت إلى هذه النتيجة : وهي أنّ هناك في مخّي أفكار ضارّة تبعث على الألم والحزن أكثر من آراء الآخرين ، تلك هي الأفكار التي ترتبط بنفسي . والآن كيف أمثل لهذا الموضوع ؟ حسنٌ ، اسمحوا لي أن أنقل لكم رأيي بشأن صوتي : الشيء الوحيد الذي كنت مطمئناً بأنّي أمتلكه هو صوت جميل .

وقد كنت ألقيت عدّة خطابات في اجتماعات كثيرة ، وحتى أنّي كنت في الثامنة عشر من عمري عندما حصلت على مدالية ذهبية جائزة على حسن خطابي ، ولذلك كنت أعتقد أنّ صوتي جميل الإيقاع منظّم طيّب النغمة .

حتى أخذت يوماً شريط مسجّل الصوت الذي كنت قد سجّلته فيه حديثاً للراديو ، واستمعت إليه تماماً كما يستمع إليه الآخرون ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى صوتي كمستمع . لا أراكم الله مكروهاً ! بهتُ واضطربت ، كان صوتي أضعف ممّا كنت أعتقد، كان كحنين خفيف ، غير

---

(١) نهج البلاغة

(٢) غرر الحكم : ٦٦٨ .

(٣) غرر الحكم : ٦٧٨ .

مرتّب ولا متناسب ، لا لون له ولا طعم ، بل كان يجرح الآذان . والذي كان يضاعف ألمي هو أنّه كان معي في الغرفة إذ كنت أستمع إلى صوتي عدد آخرون ، فتألّمت كثيراً وقدمت اعتذاري إلى هؤلاء الحضور بأنّي كنت في حين إلقائي هذا الخطاب غير مرتاح ، وحينما سجّلوا صوتي هذا لم أكن أعرف شيئاً عن فن الراديو والمسجّل .

ومرة أخرى ومن دون سابق إطّلاع أذاعوا شرائط صوتية أخرى مسجّلة مني بنفس الصوت الكريه الذي كان يُقطّع نياط القلوب . وبالتالي بعد سماعي لكثير من شرائط صوتي كان عليّ أن أتقبّل أنّي إذ كنت أرى أنّ صوتي جميل كنت على خطأ في ذلك . ولأول مرّة تركت الرضا عن النفس جانباً وجهدت كثيراً أن أحسّن صوتي ، ولا زلت أفعل ذلك .

هذه التجربة لصوتي علّمتني شيئاً ، وهو أنّه من الممكن أن يستلزم تحسين شيء من أنفسنا جدالاً طويلاً ، وما لم أتحمّل خِفّة قبول هذا النقص فيّ لم أكن لأبدأ بالرقيّ والتقدم في إصلاح نفسي .

إنّ كسر الغرور الباطل والرضا عن النفس يبلغ بالإنسان إلى رؤية الواقع والحقيقة ، ويبعث على التقدم والرقيّ . حينما نلتفت إلى الحقائق وتبعد عن أنفسنا الأفكار الواهية ، حينذاك يتحقق عمل الإصلاح والتقدم فيه ، وإلّا فسنبقى في الجهل والظلام ونعوق أنفسنا التي نحبّها عن الرقيّ والإصلاح »[1] .

إنّ المغترّ بنفسه يصاب بخلل في رؤيته ولذلك فهو قد ينسب إلى نفسه كمالاً يفتقده هو في الواقع :

كما عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« من أعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن نهج الرشد وادّعى ما ليس فيه »[2] .

---

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ٥٠ ـ ٥٣ .

(٢) سفينة البحار ٢ : ١٦١ .

إنّ المغرور الذي يعبد هوى نفسه يكون كدود القزّ محصوراً بين الخطوط التي نسجها هو حول نفسه ، فهو سكران من خمر الكبر والغرور بحيث يتصور أنّه قطب رحى الوجود .

كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« سكر الغفلة والغرور أبعد إفاقةً من سكر الخمور »[1] .

***

(١) غرر الحكم : ٤٤٠ .

غــرائــب أمــر الإرادة

* نقاط التحوّل في رجال التاريخ .
* آفة التوفيق ضعف الإرادة .
* اليقظة في ظل المشاكل .
* سعة الإمكانات البشرية .
* مقياس المسؤولية في نظر الإسلام .
* المستند الثابت للإرادة .
* الصرامة تخلق الإنتصار .
* تلقين النفس .

نقاط التحوّل في رجال التاريخ

هناك نوابغ لمعوا في أعماق الظلام من أدوار الحياة البشرية بحيث ثبتت أسماؤهم على صفحات التاريخ وفي سجل الفخار ، هؤلاء رجال التاريخ تمكّنوا بما فيهم من خصائص روحيّة أن يُحدثوا تحوّلات عظيمة في صعيد الحياة البشرية ، ويحيّروا العالم بأعمالهم ، وكأنّهم حتى اليوم كشموع مشتعلة دائماً لا تنطفىء أبداً .

وقد تكون التحوّلات التي يحدثها كبار الرجال الذين يدخلون صعيد المجتمع من بابها الأوسع ، قد تكون هذه التحوّلات من السعة بحيث تشمل كل المجتمعات البشرية ، وتهزّ أفكار الإنسانية هزّة شديدة . هذه الوجوه الوضّاءة اللامعة هي التي تبدّل صورة العالم في الحقيقة ، وهي التي تجرّ الطباع الضعيفة والعاجزة خلفها متأثرة بها ، وتمنحها ضوء الأمل الوضّاء .

وعلى العكس من هؤلاء هناك كثير آخرون لا فعاليّة لهم في الحياة إلاّ في حدود قصيرة ، وتختتم حياة هؤلاء بحركات خفيفة ثم ينقطع حبل حياتهم وينتهي إلى الأبد ، وتنطفىء شمعة حياتهم الضعيفة الضئيلة في ظلام مطلق مطبق .

علينا أن نبحث عن علل اختلاف هذين النمطين من الشخصية في روحياتهم ، فإنّ تباين الشخصية واختلافها ترتبط بسعة الروح أو ضيقها ومستوى القدرة الذاتية في أصحابها .

ولنرى ما هي علاقة الشخصيات بالحوادث ؟ هل الحوادث العالمية هي التي تربّي الشخصيات في حجرها ؟ أو أنّ الشخصيات هي التي تخلق الحوادث ؟ والتجارب العلمية الاجتماعية تثبت : أنّ الفرد يؤثّر في المجتمع والمجتمع يؤثـر في الفـرد أثراً متبـادلاً ، كما أن المحيط يؤثـر في الإنسان والإنسـان يؤثّر في المحيط ، ولذلك فلا يمكن دراسة الشخص خارجاً عن محيط حياته الاجتماعية ، وفي نفس الوقت ، هؤلاء هم أفراد الشخصيـات التي تغيّر من وضـع المحيط والمجتمع بمـا لهما من قدرة روحية .

إنّ العامل الأساس في جميع التحوّلات والثورات الاجتماعية هو « الإرادة » سواء كانت فـردية أو اجتـماعية ، إلاّ أنّ قيمـة الفرد أكـثر ، ذلك أنّ القـادة هم الذين يهدون طـاقات أممهم نحـو الأهداف المقصـودة والسعيدة ، ويجـرّون مصير المجتمع نحو مستقبل وضّاء عظيم .

من أجل أن ننفّذ أوامر العقل منحتنـا أرواحنا قـدرة باسم « الإرادة » وإنّ إرادة الإنسان هي نتيجة توازن بين محرّكات الـدوافع الغـريزيـة ، ونفوذ الـدراية والعقل الإنساني .

إنّ العجز الناتج من ضعف الإرادة إنّما هو نتيجة الدوافع المضادّة في باطن الإنسان ، وليس العجز عبارة عن فقد الشخص لقدرة التصميم بصورة كاملة ، بل هو قادر على الإقدام على أي عمل يراه ، ولكن لا قدرة له على أن ينقل نيّاته من مرحلة الذهن إلى الواقع الخارجي .

هنـاك أفراد كثـيرون لا تنقصهم الطاقـات المـودعـة فيهم ، وكـذلـك هم يتمتّعون بإمكـانات واسعـة في الحياة ، ولكنّهم عـلى الرغم من استعـداداتهم وما لهم ولمـواقعهم الخاصـة من قيمة خـاصة ، لا يبـدون من أنفسهم كفـاءة لمـا هم بصدده . إنّهم يطمحون إلى مستوى عال في الحياة ولكنّهم يعوزهم التصميم على الصعـود في مدارج الـرقي والتقدم ، وكـأنّهم ينتظرون أن يتكفّـل لهم الآخـرون بالأعمال الشاقة التي هي سبل الرقي والعلو . هؤلاء إن لم يبدأوا الحركة والنهضة

لتحقيق مطالبهم ، ولم يضحّوا في سبيل ذلك ، فما الذي يمكنه أن يحقق آمالهم ؟! .

وربّما تكون لهم أطروحات نافعة ومفيدة ، ولكن لا يعود إليهم شيء منها ، وما أكثر ما يؤمّلون من هذه الأطروحات الكبيرة ولكنها لا تصل مرحلة التنفيذ أبداً .

آفة التوفيق ضعف الإرادة

إنّ حياة الإنسان ستنتهي إلى النكسة والهزيمة في مختلف الشؤون بسبب ضعف الإرادة ، وتتعيّن التعاسة بهمود الإرادة وجمودها ، ولا يمكن لأيّ استعداد أو نبوغ أن يحلّ محلّ الإرادة القوية ، وما فائدة أن يكون للإنسان مواهب واستعدادات غير اعتيادية ثم لا يفيد منها في سبيل الوصول إلى مقاصده وأهدافه ، وكذلك العلوم والمعارف لا تفيد إلاّ أن يوظّفها حاملها بقوة إرادته في سبيل الوصول إلى أهدافه ، لنفكّر فيما لو كان الإنسان فاقداً للإرادة والعزيمة ماذا كانت حالته ؟ وكيف كانت صورة هذه الكرة الترابية ؟ وكيف كان قانون الرقي والتكامل ؟ .

بالدراسة التاريخية تتجلّى هذه الحقيقة ، وهي أنّ كل الاكتشافات والاختراعات البشرية مرهونة لإرادة رجال رفعوا الموانع والمشاكل من طريقهم بعزم راسخ ثابت ، وبالتالي توصّلوا إلى انتصارات لامعة ، وإنّ الشدائد والمشاكل محكومة بالفناء أمام إرادة من لا يعرف الهزيمة بل النبوغ والعزيمة .

حينما أراد (ناپليون) أن يَعبُر بجيشه الكثيف من مضيق (سن پُنارد) الخَطِر ، شاور مشاوريه العسكريّين وسألهم : هل ترون العبور من هذا المضيق ممكناً ؟ وأخذ المشاورون يفكّرون ولم يردّوا جوابه إلاّ بترديد وتشكيك ، قالوا :

لعلّ من الممكن باحتمال ضعيف العبور من هذا المضيق ! .

وبعد أن سمع ناپليون هذه الكلمات اتّخذ تصميماً صارماً ، وأصدر أمراً

بالتقدم نحو المضيق بإرادة قوية حديدية ، ومن دون أن يتلف شيئاً من الوقت .

ورأى الإنجليز والسويد هذا القرار من الحاكم الفرنسي النافذ الكلمة نوعاً من الجنون ومجانبة التفكير ، فإنّه لم يكن يُتصور أن يمكنه العبور بكل جهازه العسكريّ وستين ألف جندي مع المدافع الثقيلة وذلك عبر جبال (آلپ) الشاهقة ، ولكنّ نابليون كان يفكر في حصار مدينة (ماسه ناد) في مقاطعة (ثرن) والقوات السويدية كانت تهدّد مدينة (نيس) .

وحينما توفّق نابليون أن يعمل هذا العمل الخطير والعسير للغاية وأن يعبر بجيشه من جبال (آلپ) قال جماعة : إنّ ما أقدم عليه نابليون لم يكن عملاً عسيراً ! وقال آخرون : أنّهم لو كانوا مقدمين على ذلك قبل نابليون لكانوا يتوفّقون له كذلك قطعاً ! .

أجل ، إنّ كثيراً من القادة كانت لهم قوات واستعدادات تكفي لمثل هذا العمل المحيّر ، ولكنّهم فقط كانوا يفتقدون « الإرادة » اللازمة لمثل هذا العمل ، فالقلق والاضطراب والشك والتردد فيهم كان يسبّب لهم أن يمتنعوا عن الجدّ في الإقدام على هذا العمل والإفادة من الفرصة المناسبة ، فكان يسبّب لهم أن يتقهقروا بدل أن يتقدّموا . إنّ التصميم الصّارم والإقدام العاجل والسريع لنابليون جعل هذا القائد الفرنسي الكبير يصيب العالم بالعجب والحيرة بفتوحاته المحيّرة للعقول ، وإنّ مقدار عمله اليوميّ كان يحيّر كل من كان يعرفه ويعرف عمله ، إنّه كان مقتدراً من أن يحمل أضعف الجنود على الحركة والنهوض ، وأن ينفث روح الشجاعة في أخوف الأفراد وأكثرهم احتياطاً ومحافظة ، وكان قد يتفق أن يسهر الليالي الباردة ليقرأ التقريرات الوافدة والأجوبة الصادرة على الرسائل الواردة ! .

ليس للسعادة والتوفيق قانون خاص يكتشفه أحد في الخفاء ، بل إنّ التوفيق هو النتيجة الطبيعية للسعي والمحاولات في سبيل الأعمال . وإنّما يتقدم في الصفوف الأولى في هذه الحياة ويتجاوزون الموانع والمشاكل رجال ذووا إرادة

قـوية ، هم كـالصقور يستمـدّون من العواصف للتحليق إلى النقـاط المرتفعـة ، بـالنسبة إلى هؤلاء لا تـوجـد أيّ مشكلة تـورث الـوهن في تصميمهم ، بـل هم يجعلون الانتكـاسات قـواعد لـلإنتصار ، أرواحهم تنمـو في مضائق الشـدائد ، وبـإمكـانهم أن يجـدوا لأنفسهم مجـالاً في هـذا العـالم في أيّ مـرحلة كـانــوا من أعمارهم .

اليقظة في ظل المشاكل

إنّ بعض النـاس لا يستيقـظون ولا يلتفتـون إلى أنفسهم مـا لم يــواجهـوا المشـاكل ، والشجـرة التي اضطّرت أن تفتـح طريقهـا بين الصخـور تتحـوّل إلى شجـرة قويـة صلبة بفعـل كفاحهـا المستمر ضـدّ ما كـان يعارضهـا من العوامـل المحيطة بها ، فهي تقاوم العواصف القاصفة وتقارعها .

يقول أحد علماء النفس :

يجب أن نُعّلم الشباب أنّهم ليس لهم أن يتوقّعوا طيّ الطريق للوصـول إلى أهـدافهم وما يصبـون إليه في طـرق معبّـدة مستقيمـة ، فقلّما وصـل شخصٌ إلى بعض مـراحل الكـمال من دون اصطدام بـالعراقيـل المعوّقـة . نحن إذا واجهنـا المشـاكل بكيفيّـة صحيحة لم تكن المشـاكل تمنعنـا وتعوقنـا بـل تسـاعـدنـا للرقيّ والتقدم ، ولا تدريب أنفع من السعي لتجاوز المشاكل والعوائق .

* * *

لقد أثبت علماء النفس أنّ الأفراد العاديّين لا يفيدون من أعمارهم أكثر من نسبة خمس وثلاثين بالمئة ، وحتى أولئك الذين بلغوا مراحل من الفعّالية والنشاط ملفتة للنظر والذين تفتّحت بوجـوههم أبواب السعـادة والهناء ، إنّمـا يفيدون من خمسين بالمئة من أعمارهم .

هناك بعض الناس إذا تـوصّلوا إلى مرحلة معيّنـة من التقدم تـوقف نموّهم

عن أكثر من ذلك ، ولا يستطيعون أن يوسّعوا في نشاطهم وفعّالياتهم ، فيتجاوزوا تلك المرحلة التي هم فيها إلى مرحلة أعلى وأرقى وآفاق أبعد منها .

هؤلاء لا حظّ لهم في الحقيقة من المزايا التي هي أساس الارتفاع بالقيم الإنسانية إلّا قليلاً ، ولا قابلية لهم للتقدم إلّا في حدود معينة . إنّ إرادة الفرد وصلاحيته أكبر رأسمال للرقيّ والسموّ والتعالي ، وبإمكانه أن يفتقده أو يضيف إليه شيئاً فشيئاً .

إنّ أيّ إقدام يقوم به الإنسان إنّما هو نتيجة رأيه وعزمه وإرادته ، فلو كانت هذه الأمور منه ضعيفة غير ذي أهميّة لم يكن أيّ قيمة لذلك العمل ، إنّ ذوي الإرادة الضعيفة الواهنة حينما يتّخذون قراراً يصابون بالشك والترديد والتضعضع بحيث يستعدّون ليغيّروا آراءهم وأطروحاتهم بأصغر عبارة ممكنة من جهة الناقدين . إنّ الرجل ذا الإرادة الواهنة المتحير بين وجوه الآراء ، يبدي بترديده أنّه لا يملك زمام نفسه ، وأنّه يجب أن يكون تابعاً لإرادة الآخرين دائماً ، وأن يكون كأوراق الأشجار يقودها الريح أينما شاء وأراد . وإنّ التريث والترديد يساوي النكسة والهزيمة في كثير من الأحيان .

إنّ من يُتلف أوقاته دائماً في جزئيات الأمور والتحقيق في مواضيع لا أهمية لها ، وإنّما يشتغل بتحليل مشاكله بدوافع مختلفة من دون أن يقدم على عمل نافع في هذا المجال ، لا شك في أنّه بتعلّله يتلف وقته وقواه ثم يبقى محروماً عن التوصل إلى توفيق في حلّ مشاكله .

ما أكثر الأوقات الثمينة والاستعدادات القيّمة التي انعدمت على أثر التعلّل والتردد الباطل وبلا داعي ، مما بدّل حياة صاحبه من حياة موفّقة إلى حياة نكسات وهزائم ، إذ لو كان الإنسان أسيراً لروحيّة ترددية عاطلة فبالاستناد إلى أيّة قوّة أو قدرة يستطيع أن يقاوم مشاكل حياته ؟ وتصوّروا عكس هذا أيضاً من لا تتغيّر آراؤه بسرعة ، بل هو ثابت في قراراته وراسخ ، ولا يتلف وقته بانتظار الحوادث المستقبلية بل بفضل إيمانه القوي بقدرته الشخصية لا يرفع يده عن

هدفه الصحيح بضوضاء المعارضين ، وليس لأي سبب أو عامل أن يردّه عن طريقه الذي رآه صحيحاً وسلكه ، بل هو يردّ كل فكر وتصميم يخطر بباله يخالف فكره وتصميمه . إنّ من يواجه هكذا إنسان يستطيع أن يدرك جيّداً مستوى قدرته وإرادته وقيمة العمل الذي يتابعه هو في رأيه ونظره .

وبكلمة : فإنّه لا يمكن حصول التوفيق من دون صرامة وقاطعية في الإرادة ، بل إنّ الإيمان بالتوفيق هو بنفسه نوع من التوفيق ، والنصر لمن أراد النصر وعزم عليه .

رأينا كثيراً من الناس لا يتابعون أي عمل حتى الوصول إلى النتائج لعدم الجديّة والصرامة في الإرادة ، فمثلاً إذا اقتنعوا بمنافع عمل أو حرفة بادروا إلى ذلك العمل أو تلك الحرفة لمدة بكل اشتياق وعلاقة ، ولكن ما أن واجهوا فيه مشاكله ذهب كل اشتياقهم ورغبتهم ، وأصيبوا بفتور وبرودة كاسرة ، ثم بادروا إلى عمل آخر كان فيه التقدم والتوفيق لآخرين .

وهكذا هم يبقون في كل أعمارهم متزلزلين مردّدين يبدّلون أعمالهم كل فترة ، ولكنّهم لا يوظّفون أفكارهم وعقولهم والقوى المدركة والحاكمة فيهم في حين اختيارهم لتلك الأعمال كي يدركوا رمز موفّقية الآخرين في تلك الأمور ، وفجأة يلتفتون إلى أنّهم قد قضوا أعمارهم في تعلّم الأشغال المختلفة وتركها ، ولأنّهم لم يتمكّنوا من أن يقطعوا على قرار بصرامة فيتابعوه حتى المرحلة النهائية وأخذ النتائج المرجوّة ، فإنّهم قد افتقدوا كل الفرص والمواقع المناسبة التي كانت لهم بندرة في طول حياتهم .

إنّ من المصائب التي تصيب ذا الإرادة الواهية هو أنّه دائماً يكون ألعوبة بيد الأهواء ، فمن الممكن أن يشخّص الطريق الصحيح حقّاً ولكنه مع ذلك يختار الطريق المنحرف ، ذلك أنّه إنّما يسير في طريقه ما لم تحمله الأهواء على الإنصراف والعدول على الطريق الذي سلكه ، أضف إلى ذلك أنّ مفاجأة أية حادثة صغيرة تكفي لتعجيزه وتركيعه .

إنّنا للمقاومة أمام ضغوط الأهواء المحطّمة بحاجة ماسّة إلى إرادة قويّة ثابتة ، والشرط الأساس لاستنتاج النتائج الصحيحة المحمودة من إرادتنا هو أن تكون إرادتنا دائماً تابعة لأحكام عقولنا ، فإنّ هناك فواصل كثيرة بين الإرادة العالية التي تستند إلى العقل والوجدان ، وبين الإرادة المستلهمة من الغرور والنخوة والعواطف والأحاسيس والمشاعر الجيّاشة ، تلك الأولى رأسمال لسعادة الإنسان وقاعدة لتوفيقه في الحياة ، وهذه الأخرى تسبّب له التعاسة والشقاء والفناء والسقوط .

ذلك الذي يوظّف إرادته لارتكاب أعمال تخالف الشرف الإنساني ، وذلك حبّاً لنفسه بل عبادة لها وإرضاءً وإشباعاً لها ، ذلك محروم من الحرية في الحقيقة أسير بيد الأهواء النفسانية ، ونرى نحن في صفحات تاريخ الإنسانية لطخات دموية ونقاطاً سوداء هي من آثار الإرادة التائهة .

إنّ من يختار طريق الإنتحار حينما يصطدم بأصغر مصيبة في الحياة مصابٌ بضعف العقل ، وهو فاقد لروح الرجولة والشجاعة ، ذلك أنّه سقط عاجزاً أمام مشكلة واحدة من خضمّ مشاكل الحياة المحيطة بجميع شؤون الإنسان ، وهو بذلك يوقّع على سند ذلّته واحتقاره .

سعة الإمكانات البشرية

على كل شيء في عالم الوجود أن يبدأ بسيره من خطّ نموّه الخاصّ ، آخذاً طريق الكمال ، حتى يصل إلى أعلى مراتب استعداده وقابليّته والإنسان لا يستثنى من هذه القاعدة أيضاً .

وإنّ من المسائل الأساسية لنوع الإنسان هو أنّه كيف ينمّي ويربّي جوهرة وجوده في مختلف أدوار حياته كي يصل إلى أعلى درجات الكمال ، وإلى قمة الإنسانية .

على الإنسان قبل كل شيء أن يطّلع على استعداداته وسعة إمكاناته

الموجودة فيه ، ويعلم أنّه أولى من كل أحد بأن يمتلك بركات أكبر ما ملّكه الله إيّاه ووهبه له في كيانه . وحينئذٍ يترسّخ في وجوده اعتماده وثقته بنفسه ، والقوى المودَعة في وجوده تستيقظ وتبدأ بالعمل ، تلك القوى المقتدرة اقتداراً عظيماً لتوسعة إمكانات الحياة والمستعدة للنموّ والعلوّ إلى حدّ الكفاية .

إنّ عدم ثقة أكثر الناس ليس من فقد الإمكانات ، بل هو من عدم معرفتهم بأنفسهم . كثيراً ما يتّفق أن الأفراد يصلون إلى آراء ونظريات علمية نافعة ومفيدة ، ولكنّهم لعدم ثقتهم بمواهبهم الذاتية واستعداداتهم ، لا يبدون تلك النظريات والآراء . إنّ خوف النكسة هو نكسة وإنكسار ، وإنّ عدم الثقة هذا كم أحبط من أفكار مبتكرة ، وكم دفن من آراء أصيلة وعميقة وابتكارات كبرى تحت غبار النسيان .

حينما يدرك الإنسان أن كل فعّالية ونشاط يشتمل على قوة جديدة لم يكن ـ قبل أن يطّلع عليها ـ يتصوّر أن يكون تحت تصرّفه رأسمال كهذا ، إنّ تجلّي هذا المعنى يسبّب أن يتعبّد الطريق له لتقدم ورقيّ أكثر ، ويستعد الإنسان لتحصيل قوى أهمّ . فالذي يسعى للاستفادة من الحياة مهما أمكن وأن يحصل من كل فرصة على فائدة ، عليه أن يحصّل في الدرجة الأولى الثقة بالنفس والإرادة الجادّة ، ثم يأخذ في تربيتهما وتقويتهما .

يقول البروفيسور (كاريل) :

« لا يكفي لحفظ الحياة السعي للاحتفاظ بها فقط ، بل يجب أن نجعلها أبسط وأعمق وأكثر سعياً ونشاطاً وشرفاً ، أي أن نضيف في الفعّاليات البدنية والنفسية شدةً وكميّة وكيفيةً . إنّ ما نحتاجه من قوة وقدرة لا تشبه القوة الجسدية لرياضي أو القدرة الروحية لزاهد مرتاض أو القدرة الفكرية لفيلسوف أو عالم . . بل إنّ ما نطلبه من قوة وقدرة هو الإتّساع لتحمّل الأتعاب والتغييرات الجوّية والجوع والعطش والغموم والأحزان ، وبكلمة : أن تكون لنا إرادة وأمل وعمل ، وقوة جسدية ونفسية لا تنكسر ، وفرح يملأ نفوسنا .

أما كيف الحصول على هذه القدرات ؟ الطريقة الوحيدة إليها هو السعي اليوميّ الراتب والمعتدل ، بمعنى السعي غير الإرادي في جميع الأجهزة البدنية ، بالإضافة إلى السعي الإراديّ للفكر والإرادة . وعلينا أن نتعلم بالتدريب اليومي تدريجياً أنّنا كيف نقرّر النظام في حياتنا ؟ وكيف نتّبع الأصول الموضوعة ؟ وكيف نمتلك نفوسنا أيضاً ؟ .

كذلك يجب أن نجد السيطرة على الغضب والعصبية والتألمات النفسية ، وعلى الجمود والخمود والهمود والكسل ، وعلى الغرور والأمنيات والأتعاب والآلام ، وذلك ببركة المحاولات الممتدة ، وإنّ هذا التدريب ضروري لكل مثقف متحضرّ متمدّن ، ويكمن الخطأ الكبير في التعليم والتربية اليوم في تناسي هذا التدريب ، إذ لا يمكن توسعة قدرات الحياة إلاّ بتقوية الإرادة فقط »[1] .

إنّ بعض الناس لا يريدون أن يدفعوا الثمن العادل لحياة مشرقة وضّاءة ، هم دائماً يبحثون عن وسائل ساذجة وسريعة النتائج في نفس الوقت مهما كانت قليلة الكميّة والقيمة ، ويعرضون عمّا يمكن أن يصبح نقطة عطف إلى حياة فاخرة مشرقة ، بل هم يهربون من المسؤوليات التي لها الدور الأساسي في تهذيب نفوسهم وتطهير أرواحهم ، وتنمية أفكارهم ، وفي تمهيد صعيد الموفّقية لهم .

ولا ريب أن من يربيّ نفسه لتقبّل مختلف المسؤوليات يصبح أسرع وأنشط حركةً ، وإنّ مقامه وموقعه في المجتمع سيكون أفضل وأقدم ممّن جعل حياته حول محور المسؤوليات الصغيرة ، فإنّ بإمكان الأول أن يحلّق في فضاء أوسع فيطوي مدارج الرقيّ والكمال واحدة بعد الأخرى .

مهما كان الإنسان ذا همّة عالية كانت له قوى تبلّغه هدفه ، نعم على مدى ثقته بنفسه وهدفه وبنسبة سعيه وفعّاليته ونشاطه ، وبمقدار محاولاته وإقدامه نحوه ، وبكلمة : فإنّ علينا أن نبحث عن سرّ تفوّق الإنسان على الشدائد والمشاكل والعراقيل في هذا الموضوع بالذّات .

---

(١) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ٨٧ .

لا يكفي معرفة الخير والشر وإدراك الفضائل والسيّئات لنيل السعادة والهناء ، بل إنّ ما له تمام الأهمية هو الحصول على قوة العمل في الحياة .

من الممكن أن يعرف الفرد الخير والشر تماماً ، ويرى نفسه مسؤولاً عمّا يحيط به من وظائف وتكاليف ، ويشعر بضرورة القيام بأعمالها ، ولكنّه يفتقد القدرة على أداء التكليف واتّخاذ القرار الضروريّ لتنفيذ نواياه في الحياة .

إنّ التكليف الأصلي لكل أحد أن يراقب سلوكه بصورة دائمة ومستمرة ، فيدعم القوى المثمرة في وجوده ويتّقي العوامل السلبية التي تحطّم القوى الإيجابية فيه ، حتى يصبح من عادته ـ الثانوية ـ أن يستند إلى إرادته عند الضرورة ، فالإرادة الثابتة هي التي تقدر على أن تدعم خطواتنا وتحفظنا عن الزلّة والسقوط في اللحظات الحسّاسة من الحياة في حين اتّخاذ القرارات ، في ذلك الوقت الذي يمكن لأقل ضعف أو تهاون أن يُصيبنا بأخطار كبيرة .

لا ينبغي للإنسان أن يبدأ بعمله من دون النظر في عواقب العمل والإمعان في جوانبه وإلاّ كان كقائد سفينة في البحر بلا بوصلة جغرافية ، ومن الخطأ قيادة سفينة الحياة بلا بوصلة هداية ، إذ عليه أن يعلم إلى أين يتّجه ويتقدم وما هي نتائج عمله وإقدامه ؟ .

مقياس المسؤولية في الإسلام

و« الإرادة » هي مقياس المسؤولية ومحور أمور البشر في نظر الإسلام ، وهو الحدّ الذي يفصل بين الإنسان وسائر أنواع الحيوان ، والوسيلة الوحيدة للحدّ من إفراط الأهواء النفسية هي الإرادة ، فيها يمكن للإنسان أن يقاوم أمام دوافعها المختلفة ، وأن يسوق طاقاته بالاتّجاه الذي يرى الصلاح فيه . وبكلمة : فهو حُرّ في أن يتسلّط على النفس الطاغية فيحصل على كماله الواقعي ، أو أن يدخل في عالم الحيوانات فيتمتّع في مرتع الأهواء تماماً كالحيوانات المطلقة وبلا نظام .

وإذ جعل الإسلام عامل الإرادة مقياساً وملاكاً لامتياز الإنسان عن سائر أنواع الحيوان ، فإنّه لم يتّجه ذلك اتّجاهاً جزافاً ، فليس معنى الإنسانية سوى ذلك ، وأمّا الأفراد غير ذوي الإرادة فليسوا من الإنسانية في شيء ! .

إنّ الإسلام لا يغفل عن حقيقة الطبيعة البشرية وعن أنواع القوى المركّبة فيه ، وهو فيما طلب منه من تكاليف ينظر إلى قدرته على التسامي وإمكاناته لأداء تلك التكاليف ، ببصيرة خاصة وبصورة دقيقة ، فهو يدعو الإنسان بما له من أجهزة إلى أن يتسامى على المستوى الحيواني في ظلّ إرادته ،ويطلب منه أن يبلّغ نفسه إلى الحدّ الممكن له من الكمال بما له من قوى واستعدادات . فالذي يفتقد أصل مقياس الامتياز الإنساني فيسلّم زمام أموره بيد الأهواء الباطنية المخرّبة ، يحطّم بذلك قواه أو يخلّ بها وبفكرته بالخصوص ، وبالنتيجة فهو يبقى عاجزاً عن تأمين أهدافه الواقعية في الحياة .

إنّ رياضة الرّوح تبدو شائكة في بداية الأمر ، إلاّ أنّ الإشكال في الأمر سيرتفع تدريجياً مع تدريب النفس عليه ، وسينفتح الطريق لأداء مختلف التكاليف أمامه . إنّ الإرادة التي تضمن للإنسان الرقيّ في الحياة وهي وسيلة للسموّ والتقدم إلى الأمام ، حينما تُصرف في سبيل الإخلاص والفداء والتضحية وكل شعور وإحساس لطيف وسلوك مهذّب ، كانت ملاكاً لعظمة الإنسان ، وإذا بدأ الإنسان أعماله في أيّ ساحة في الحياة بهذه الروحية كانت لها نتائج عجيبة ، وسيخلّد في صفحات لامعه من العظمة في كتاب حياته بما فيه من صفحات كثيرة .

إنّ أفراد المجتمع بفضل برامج الإسلام التهذيبيّة ، تنبعث في ضمائرهم دوافع تحملهم على أن يستمدّوا من إرادتهم في سبيل الوصول إلى الأهداف السامية في الحياة . والإرادة من منظار علم النفس هي نتيجة ذلك الدافع الذّاتي الذي له جاذبية إيجابية أقوى .

يقول (مان) في كتابه في أصول علم النفس :

« إنّ ما يُدعى بقوة الإرادة إنّما هو في نظر علماء النفس : ما يبيّن عن القدرة النسبية للدّوافع الذّاتية ، وإنّ اتّخاذ القرار في كل مورد نتيجة لتلك الدّوافع التي لها قوة إيجابية أكثر .

وبعبارة أخرى : أنّنا نختار في كل مورد طريقةً للعمل أكثر تجاوباً وإشباعاً للدوافع الذاتية بالنظر إلى السوابق الفطرية والتجارب السالفة . فمثلاً : الجندي الياباني حينما ينكسر في الحرب ويرى أنّ المقاومة غير نافعة ، يواجه طريقين لحل المشكلة :

أحدهما : أن يستسلم للنكسة والهزيمة ويريح نفسه . إلاّ أنّ تربيته منذ طفولته لم تكن كذلك بل كانت تعلّمه أنّه لو يستسلم فإنّ حرمة ذاته وشرفه بنثلما .

ثانيهما : أن ينتحر ، فيحصل على الشرف والحرمة الأبديه في الحياة بعد الموت كما وعدوه ، فيرجّح أن ينتحر . . أمّا نحن فحيث أنّ تربيتنا تختلف مع تربية الرجل الياباني لذلك لا نتمكّن من أن ندرك أسلوب تفكيره جيّداً والحقيقة هي أنّ كل أحد كان خاضعاً لنفس التربية اليابانية والعوامل والدّوافع التي تدفعه ، لم يكن يعمل سوى ما عمل »[١] .

المستند الثابت للإرادة

في القيام بأيّ عمل تحتاج قوة الإرادة إلى مستند ثابت والمستند الثابت والقويّ للإرادة هو « الإيمان » إنّ الإرادة لازمة للإيمان والإيمان هو ملزوم الإرادة فالنسبة بينهما لازم وملزوم . ولو كان هناك من يؤمن بأمر ولكنّه لا يستمدّ من الإرادة لتحقيق مصاديق ما يؤمن به ولا يقوم بأيّ فعّالية أو نشاط في ذلك ، فإنّه لا يصل إلى هدفه قطعاً ، فإنّ توفيق كل رجل رهنٌ بسعيه ونشاطه والقرآن

---

(١) بالفارسية : أصول روانشناسى : ١٤٥

الكريم يقول بهذا الشأن : ﴿ وأن ليس لِلإنْسان إلاّ ما سعى ﴾[1] .

ومن جانب آخر لو كان الإنسان يتمتّع بقوة الإرادة ولكنه غير مجهّز بسلاح الإيمان ، فإنّه لا يدع السعي والعمل ما لم يصل في الحياة إلى الطريق المسدود ، أمّا إذا رأى أبواب العلل والعوامل الطبيعية موصدة بوجهه وواجه مشاكل لا تُحلّ انطفأت شعل الأمل والثقة في نفسه شيئاً فشيئاً .

في هذه الأحوال والأوضاع الشديدة والمنهكة للقوى لا لشيء - سوى الإيمان بالقدرة والأزلية الإلهية - بإمكانه أن ينجّيه من الاضطراب والقلق وتشويش الخاطر ، إنّ المؤمن الذي يتوكّل على الله تعالى في أشدّ الظروف واللحظات وبما له من العزم الراسخ والإرادة الثابتة ، لن تنطفىء في نفسه شعل الأمل ، بل هو يستمدّ من عناية ربّه لحلّ مشاكله .

والله تعالى يأمر رسوله الكريم بالتوكّل عليه فيقول : ﴿ فإذا عزمت فتوكّل على الله ﴾[2] .

وإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة واعتقد بأنّه مهما عمل من عمل صالح فإنّه يستمدّ الفيض والمدد والدعم فيه من الله العليّ القدير الذي كلّ شيء بحكمه وأمره ، وتابع طريق الهدف بسعي مستمر ومتواصل ، لتوصّل بذلك إلى أصل التوفيق ؛ فإنّه بهذه الروحيّة يتغلّب في ميدان اختياره العملي على جميع الشدائد التي تقطع طريق التقدم على الآخرين ، بحيث كأنّ المشاكل مدارج لرقيّه وسموّه وتعاليه ، فالخطر يزيد في جرأته على الإقدام ، والنكسات تضاعف في جهوده ومساعيه ومحاولاته ، فهو مهما واجه من مشاكل لا يعدل عمّا سلكه من سبيل ! .

وبدراسة التاريخ نصل إلى حقيقة هي : أنّنا على رأس الذين أعانوا

---

(١) سورة النجم : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

الإنسانية على السعادة والتقدم بعزم ثابت وهمّة عالية ، ولم يألوا جُهداً في سبيل تقدم الأمم ورقيّها ، بل إنّهم فتحوا طريقهم بين المشكلات والتعسّفات . . يجب أن نتعرف فيهم على أولياء الله وأصفيائه رجال التحرّر والفضائل . وإنّ الشهامة والمتابعة والإرادة غير المتزلزلة التي كانت هذه الفرقة تواصلها في سبيل إنقاذ الإنسان ، دروس سامية لامعة لنوع الإنسانية عموماً ولا سيّما أتباع هؤلاء رجال الحق والحقيقة ؛ ولذلك نجد اليوم المجتمع البشريّ يقدّس سيماء زعماء الدين بعد كل ما رأوه من معاصريهم من الألم والعذاب .

ونجد عليّاً (عليه السلام) ـ وهو النموذج الكامل للرّجال الذين لا ينهزمون في التاريخ ـ نجده يقول في إحدى كلماته القيّمة :

« والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها »[١] .

وفي (بحار الأنوار) عنه (عليه السلام) قال لهمّام :

« يا همّام المؤمن نفسه أصلب من الصّلد »[٢] .

وحينما استعد جيش الغدر في البصرة لحربه ، دفع الرّاية لابنه محمد إبن الحنفية ، وقوّى عزيمته بكلمات ضمّنها دروساً في الصّرامة فقال :

« تزول الجبال ولا تَزُلْ ، عُضّ على ناجذك ، أعِرِ الله جمجمتك ، تِدْ في الأرض قدمك ، إرم ببصرك أقصى القوم أو غُضَّ بصرك ، وآعلم بأنّ النّصر من عند الله سبحانه »[٣] .

الصّرامة تخلق النصر

من الممكن للتصميم والإرادة الصّارمة في الحوادث المهمة أن تغيّر مجرى

---

(١) نهج البلاغة : ٤١٨ ط الصالح .
(٢) بحار الأنوار ١٥ : ٩٤ .
(٣) نهج البلاغة ١ : ٥٥ ط الصالح ، لخطبة ١١ .

الحـوادث فجـأة ومن حيث لا يحتسب ، وأن تـدفـع النـاس إلى حـركـة ونشـاط غريبين ، إنّ صرامة هؤلاء الرجال في تقدّمهم نحو أهدافهم تذيب جبال المشاكل في طريقهم ، وكأنّهم قد أودعت فيهم قطع من الحديد والفولاذ ، وكأنّ نجدتهم وسرعـة إقدامهم تنقـذهم من الأزمات الخـطيرة جدّاً ، بينـما كان من الممكن أن يكون أقلّ تأمّل وترديد يؤدّي بهم وبمن معهم إلى الهلاك والدّمار .

في فتح الأندلس من بلاد إسبانيا كانت القيـادة العامـة للقوات الإسـلامية لجبهة إفريقيا ـ مع « موسى بن نُصير » فوجّه جيشاً صغيراً مـع مولاه « طـارق بن زياد » لفتح الأندلس من إسبانيا ، فلما وصل طارق مع قـواته القليلة إلى المحـل المـوعود وفتّش عن مـواضع العـدّو وأوضاعهم وأحـوالهم فرأى الـوضع منـاسبـاً للهجوم عليهم ، وفكّر أنّه لو أراد أن يبلّغ ذلك إلى مولاه موسى بن نُصير وينتظر أمره ربّما ينتبه العدوّ للشرّ ويستعد للمواجهة ، ولذلك صمّم على الهجوم .

ومن أجل قطع أعين جنوده عن الـرجوع أمر أن يحرقـوا جميع سفنهم التي عبروا بها ، فلما احترقت انعدم أمل العودة فيهم ، وحينـما اعترض عليـه بعضهم قـال في جوابهم : ليس المسلم طـيراً يـأوي إلى وكـره ! ثم قـام في سفـح الجبـل المعروف اليوم بـاسمه « جبـل الطارق » وألقى خـطاباً نـاريّاً أمـام أمواج البحـر العـاتية فقـال ما فحـواه : « هذا البحـر خلفكم وجيش العـدوّ أمـامكم ، وقـد امتلأت خزائنهم من السـلاح والعتاد والـذّخيرة والـطعام ، وأنتم لا شيء لكم ، إلّا ما استخلصتموه من أيديهم بعزائمكم ، وليس لكم سلاح سوى سيـوفكم ، فها أنتم وهذا العدوّ » .

وقد منحت هذه الكلمات الهائجة والخطابة المتلهبة لطارق ، منحت جنوده عزيمة صارمة وشهامة خاصة للجلاد ، ثم بدأوا الصـولة الثقيلة ولم يقعـدوا دون الانتصار الحاسم النهائي ! .

تلقيـن النفـس

إنّ تلقين النفس من عوامل دعم الإرادة للوصول إلى المقاصد ، وإنّ حمل الآمال العالية ومدّ العين إلى الآفاق المشرقة في الحياة ، يبعث على أن يبدأ الإنسان سعياً حثيثاً بإرادة جادّة للوصول إلى تلك الأهداف .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« تنافسوا في الأخلاق الرّغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة يَعْظُم لكم الجزاء »[1] .

ويقول (جاكو) :

« ما دمتم لا تتصوّرون انتصاركم ولا تستوعبون النصر لكم ، فإنّ احتمال توفيقكم قليل جدّاً ، فإنّكم بهذه الحالة تطفئون ما كان يمكن أن يكون لكم من الجدارة واللّياقة . وبالعكس ، فلو كان الرجل في المتوسّط من حيث الفكر والاستعداد ولكن له الثقة التامّة بنفسه ، فإنّه يتوفّق . إنّه يتوفّق لأنّه في بحثه ومساعيه لتحقيق أفكاره يجد المنبع الصافي للصفات التي هو بحاجة إليها ، ويتوفّق للثقة التي له بتقدّمه ورقيّه ، ولا يبعث عدم التوفيق للآخرين أيّ وهن في إرادته الجادّة ، إنّه يبدأ بعمله حسب تجاربه ، وثقوا بتوفيقه أسرع وأفضل ممّا كان يتصوّر .

من أجل أن تتجرّأوا أبعدوا عنكم الشكّ والترديد ، ولعلّ الآخرين يحاولون أن يشكّكوا فيكم وفي إمكاناتكم عن محبة بكم واحتياط عليكم ، ولكنّكم ألا تشكّون في صحّة ما يقول أولئك ، وهل تسمحون لكل أحد أن يلقّنكم ما يشاء وكيف يشاء ؟ .

اسمعوا ما يقول لكم الآخرون بكل يقظة وحذر ، واستمرّوا في جرأة وثبات واستقرار ، انظروا إلى من يتّصف بهذه الصفة وادرسوه وحلّلوا حياته

---

(١) غرر الحكم : ٣٥٥ .

وحاولوا تقليده ، ولقّنوا أنفسكم كـل ليلة وباتـوا في عالم من الخيـال وكأنّكم من الأبطال الشجعان ، وكلما سنحت لكم فرصة حاولوا أن تُبـدوا من أنفسكم جرأة وجسارة ، واتّخذوا عملاً يستوجب اتّخاذ قرارات وتصميمات ،وحينما تحـاولون أن تمتحنوا أنفسكم تذكّروا « أنّكم تريـدون وتقدرون » وإذا تقـرّر أن تتّخذوا قـراراً عـلى عمل تعـرفـون مـا فيـه من مشـاكـل فقـولـوا في أنفسكم أنكم ستتعـوّدون عليها »[1] .

كـما أنّ الـطيرة بـالشّر ـ في علم النفس ـ نـوع من التلقـين المؤلم المـوجب لتشويش الفكر وقلق الخاطر ، كـذلك الفـأل بالخـير تلقين يفيـد دعم المعنويـات وجـبر ما في الإرادة من ثلـة ، كـما في (غرر الحكم) عن عـلي (عليه السـلام) قال :

« تفأّل بالخير تَنْجَحْ »[2] .

***

(١) بالفارسية : تلقين بنفس : ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٢) غرر الحكم : ٣٦٧ .

العناية بمعاشرة الآخرين

* سلامة النفس في معاشرة الآخرين .
* علينا أن نعرف قيمة الصداقة .
* الحساسية ورهافة الشعور .
* تحذير لمن يصادق المتلوّثين ! .
* إرشاد المتلوثين .
* الحيطة والحذر في الصّداقة .
* الرّياء والمراء .
* الوحدة والإنزواء .
* الكتاب من أثمن الأحباب .

سلامة النفس في معاشرة الآخرين

إنّ موضوع أثر المحيط والبيئة الاجتماعية من المواضيع الأساسية في التربية وموضوع عناية علماء الأخلاق . إنّ الإنسان يقضي عهد حياته مع الآخرين بصورة عامة ، وهكذا يكون المجتمع من ضروريّات نظامه الوجوديّ من حيث تشكيل شخصيّته وأسلوبه الأخلاقي ، ولا يستطيع الإنسان أن يقطع أواصر ارتباطه بأبناء جنسه ويلتجىء إلى عزلة تامّة، فإنّ ظلام الوحدة الموحشة يجعل وجه الحياة عبوساً قمطريراً ، ويجعل روح الإنسان في احتصار واحتباس ، إنّنا لو لم نرتبط بأحد برباط المودة ، وشعرنا كأن لا قلب ينبض بحبّنا في هذه الحياة ولا يؤوينا أحدٌ في قلبه وحبّه ، لأصبنا بقلق واضطراب عميق ،وأظلمت علينا سماء حياتنا الروحية .

من جانب آخر : كما أنّ البدن يتغذّى من مختلف أنواع الأطعمة ، فيقوى بذلك ، كذلك الروح تنال من خلال الخُلّة والصّداقة أنواع الفضائل ، أو تتلوّث بأنواع السيّئات .

كل من اختار طريقا في الحياة أحبّه من كل قلبه ، بل أحبّ أن يبعث الآخرين على اتّخاذ نفس ذلك الأسلوب الذي اتّخذه هو ، فيحدث بذلك جوّاً من معاشريه منسجماً متناغماً معه وحبيباً إليه . بل الإنسان يحاول حتى في الرؤية الكونية أن يصبغها بصبغة فكرته ، وهو يسعى في الواقع إلى أن يختلق للطريقة التي اختارها أدلة وبراهين ، وواضح أنّه لا يتحمّل الخلاف معه على الطريقة التي اتّخذها وأن ذلك يؤلمه كثيراً .

ولهذا نقول : إنّ سعادة مستقبلنا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع المعاشرة ومعرفة حدودها ، فبالإفادة من الإتصالات المفيدة اليوم تتوفّر الاستقلالية للشخص غداً ، علينا أن ندرك الحاجة الروحية إلى الصداقة ، ثم ندوّن وننفّذ ما لنا من برامج على أساس مقتضيات الصداقة .

يرى بعض العلماء أنّ التقليد جزء من فطرة الإنسان ، وهذا أمر غير محسوس في الظاهر بحيث لا يمكن الاطّلاع على أثره العميق والعجيب بسهولة ، وإنّ وجود الكيفيّات المختلفة لأنواع التقليد يدلّ على أنّ الإنسان يتأثر بالتقليد في سلوكه وشعوره وقراراته ، وحتى في الحكم والقضاء وإبداء الرأي ، وأنّه يصبّ نفسه حسب وضعه الذي هو عليه في قوالب الأصول والقواعد التي هي الجماعة التي ينتمي هو إليها ، وللآخرين فيه من الأثر بنسبة سلطتهم التربوية عليه . نعم كلّما كان الشخص مربّى بتربية عالية ، وكان ذكيّاً حاضر الذهن ، فإنّ مقداراً من استقلاله الفكريّ سيتأثر بين المجتمع ، ويقع تحت تأثير السلطة النفسية لآراء الأكثرية وضغط الرأي العام ، طبيعي أن من فيه نقائص نفسية أكثر فإنّ قوة أفكارهم أقل وتأثرهم بأفكار الآخرين أشدّ وأكثر .

ويرى بعض علماء النفس أنّ التقليد إنّما يتحقق في الإنسان فيما إذا كان ذلك يورثه سكون النفس ويتصوّر أنّ عمله هذا ممّا يؤيّده الآخرون ، أو أن هذا هو سبب توفيق غيره .

فمثلاً : تقليد الأبطال أو تقليد الصغار من الكبار إنّما يحدث لذلك ، وحتى في الحيوانات إنّما يحدث التقليد فيهم بشروط خاصة ، فإنّما يقلّد الحيوان فيما إذا كان يصل من خلال ذلك إلى شيء يشتهيه ويريده .

يقول (براون) :

« إنّما يقلّد البشر فيما إذا كان هذا العمل يُساعدهم على الوصول إلى أهداف نفسية ، وبعبارة أخرى فإنّ هناك كيفيات خاصة لقوى نفسية خفيّة تبعث الإنسان على التقليد ، لا أن هناك قوة باسم التقليد توجد تلك الأهداف

فمثلاً حينما تصفّف إمرأة بائعة شعرها مثل (گريو) فليس ذلك لأنّ هناك قوة فيها بإسم التقليد تبعثها على ذلك ؛ بل هي تبادر إلى ذلك لأنّها ترى هذا العمل طريقاً للوصول إلى طريقة حياة (گريو) أو سائر النساء القهرمانات التي تمثّلهن گريو »[1] .

وإنّ كانت ملاحظة موضوع المعاشرة ضروريةً في جميع أدوار الحياة ، إلاّ أنّها تتمتّع بأهمّية أكبر للشباب الذي قد طوى طور الطفولة ودخل في رحاب الحياة الجادّة والمعاشرات الاجتماعية فإنّه بدلاً من أن يتعرّف على أخلاق ونفسيات من يريد أن يخطو معهم في طرق الحياة ، يفتح على نفسه أبواب الصداقة مع الآخرين بشوق شديد وميل أكيد وعلى أساس العوامل العاطفية والدوافع الزائفة الزائلة ، قبل أن يطّلع على صلاحيّتهم وأسلوب تفكيرهم ، وقلة الالتفات هذا إلى المصلحة العقلية من الممكن أن تصد الشابّ عن الطريق القويم في الحياة وتجرّه إلى وادي الفساد والضلال ، ولهذا فلا ينبغي أن نغضّ النظر عن ميوله واتّجاهاته الطبيعية في تكثير الروابط والاتّصالات بأقرانه ، فنقصّر عن هدايته وإرشاده بصورة منطقية بليغة طيّبة تريد له الخير ، كي يبقى في صيانة عن أيّ تأثير غير ميمون من قبل العناصر غير الصالحة وبعيداً عن أيّ تحريفة تربوية .

في هذه المرحلة التي هي سنّي قلقه واضطرابه ، تتجه شخصيّته نحو الاستقلال ، وحبّه للأبطال والقهرمانات تحكي عن حاجته إلى الإرشاد والهداية وأنّه بصدد تقليد أولئك الأبطال واستلهامهم لحياته ، كما أنّ ما يستولي عليه من حالة الوسواس والتردد إنّما ينشأ عن نقص في قواه الفكرية في معرفة الأمور وعن سعيه للوصول إلى الاستقلال الفكري .

وبالنظر إلى أنّ الشباب في دور الهيجان والاتّجاهات ، وأن قلبه مستعد لتقبّل أن تصميم بكل صفاء وبلا كدورة ، يمكننا أن ندرك جيّداً ما للصديق في هذه المرحلة الحسّاسة من الدور الكبير في تعليمه وتربية القوى النفسية والعاطفية

---

(١) بالفارسية : روانشناسى اجتماعى : ٤٩٤ .

فيه ، ولذلك فإنّ وقايته من كثير من الانحرافات والنكسات والهـزائم تستلزم أن يتعرف الشباب على أصول الصداقة المثمرة والصحيحة ، وأن ينقاد لقيادة صالحة باتّجاه تنمية حقيقية لشخصيته .

علينا أن نعرف قيمة الصّداقة

علينا أن نوظّف في اختيار الصديق حسن التشخيص بحرية كاملة عن أسر العـواطف ، ونسعى في الحصول عـلى مقاييس للتقييم الـواقعيّ ، ونتعرّف عـلى نقـاط ضعفه ونقصـه ، وندرك أنّـه فيم يفكّر ومـاذا يشعر ويُحسّ ، وممّـا يتأذّى ويتألّم ، وبالتالي ندرك في أعماق روحه وزواياها تلك المـزايا الإنسـانية والمحبّبـة ، ممّا يمكننا أن نقتبس من تلك المزايا والفضائل .

بإمكاننا أن نتعرّف على كثير من المزايا الأخـلاقية السّـامية في أشخـاص لا يدلّ ظاهرهم عليها ، وعلى أثر المرافقة والصداقة المستمرة مع النفسيات الطاهـرة والقيّمة ، تتغيّر صـور شخصياتنـا وأشكالهـا ، وتدخـل قوانـا الحيويـة بذلـك في مجـاري جديـدة وتجد لهـا صوراً أخرى جديدة أيضـاً ، وتؤثّر في أن تصبـح إرادة الإنسان منشأ نشاط وخلاّقية وابتكار . ومن جانب آخر فإنّ عدم الرعايـة التامّـة وعدم الاعتناء بهذا الموضـوع من أكبر المؤثّـرات التي يمكن أن يرتكبهـا أيّ إنسان فيحطّم بذلك أساس سعادته .

يقول العالم الإنجليزي الشهير (آويبوري) :

« من العجيب حقّاً أنّنا إذا أردنـا أن نشتري فـرساً بحثنـا بحثاً كثـيراً عن نجابـة نجاده وأسـاليب تـدريبـه ، ولكننـا هـل نعمـل بهـذه الـدقـة في انتقـاء الأصدقاء ؟ أم ليس لأصدقائنا من الآثار في حياتنا ما للفرس ؟! .

قلت وأكرّر القول بأنّ علينا أن نُمعن النظر في انتقاء الأصدقاء ، فـإنّ أكثر مصائبنا تحدث نتيجةً لمعاشرة غير صالحة . إنّ الإنسـان حينما يخطو من مهده إلى معـركـة الحيـاة يتعـرّف في ميـدان المجتمـع عــلى مختلف الـطبقــات ، وحسب

الصدفة (؟) يعاشر جمعاً منهم ، فكثيراً ما يقع في مهاوي الرذيلة نتيجةً لصداقة مع السفلة ، ومن الممكن أن لا يكون لأولئك السفلة أغراض فاسدة بالنسبة إلى من يعاشرهم ولكنّهم بمقتضى طبيعتهم يصبّون أخلاقهم السيّئة المعجونة بالسموم القاتلة في نفوس معاشريهم وأصدقائهم »[1] .

الحسّاسية ورهافة الشعور

من المواضيع الأساسية في صعيد الحياة الاجتماعية أن نتعلّم أسلوب معايشة الناس ومداراتهم . إنّنا لا نجد شخصين لهما عقائد وأفكار وأحاسيس واحدة ، وقليلاً ما يصل الناس إلى اتّفاق تام حتى في أبسط مسائل الحياة . علينا أن نكون ملتفتين إلى هذه الحقيقة دائماً فنعوّد أنفسنا حتى الإمكان على الإنسجام والإلتيام مع مختلف الشخصيات والطبائع ، كي نتمكّن من أن نقيم في ظلّ المداراة مع من نعاشره من الناس أمتن الروابط والمناسبات ممزوجة بالصّفاء والخلوص .

هناك بعض الأفراد يفتقدون النضج الاجتماعي ولم يبلغوا حدّ الرشد في التعايش ، فهم مرهفون في أحاسيسهم ومتشدّدون مع أصدقائهم وأحبّائهم في عالم المحبّة والصّداقة بحيث لا يغفرون لهم أصغر شيء لم يكونوا يتوقّعونه منهم ، وبمحض مايرون غفلة صغيرة من صديقهم يستسلمون لأحاسيسهم المُحرقة غير الناضجة ، وييأسون من أن يتفاهموا معهم ، ويقطعون أواصر المحبّة معهم بكل تألّم في خواطرهم عنهم ، بينما يتعايش في الحياة النور والظلام ، والورد والشوك ، والقبيح والجميل ، كلٌ إلى جانب الآخر ، منذ بداية الحياة الاجتماعية يجب أن يكون سلوك كل شخص يحتوي على آداب تستند إلى أصول وقواعد معنوية متقنة ، ويجب أن يتعلّم أن ناموس الحياة الاجتماعية يتضمّن لنا أننا بإزاء ما نفيد من منافع ومزايا ، من الضروري أن نتحمّل أموراً لا تلائمنا بل تختلف

(١) بالفارسية : در آغوش خوشبختى : ٦٦ ـ ٦٧ .

تماماً مع انتظاراتنا وتوقّعاتنا ، وأن نحترز من التوقّعات غير الواقعية ومتابعة الأحلام الباطلة ، بل إنّ فنّ الحياة والعيش فيها في أن نتمكن من أن نحدث في أنفسنا حالة الانعطاف في توقّعاتنا ، فكثيراً ما لا يحصل السلام الدائم ولا تنتشر المحبّة والمودة والصداقة إلّا من خلال ذلك .

علينا أن نعرف الآخرين ما هم عليه وندركهم كذلك لا كما نريدهم أن يكونوا . وهذا يرتبط بمستوى النضوج الأخلاقي والظرافة العاطفية وروح التفاهم في الإنسان .

من الخطأ جدّاً أن نقيّم كل شيء على أساس ميولنا نحن ، ومع ذلك نرى كثيراً من الناس تجري عواطفهم وأحاسيسهم على منحى واحد ، فشعورهم بحبّهم لذواتهم قوي إلى درجة أنّهم يفتقدون الرؤية الواقعية ، وهم من ناحية أخرى يعذّبون بذلك أنفسهم ويؤلمونها ، في حين أنّ الرؤية الواقعية والقناعة بالتوقّعات المعقولة والمناسبة تثمر راحة الضمير .

يحدّث دكتور في علم النفس عن توقّعاته غير الواقعية فيقول :

« إنّه كان يريد في إيّام الحرب العالمية الثانية أن يسافر من مدينته إلى مدينة بعيدة ، ولكنّه كلّما ألحّ في الطلب لم يستلم تذكرة رحلة جويّة إلى حيث يريد ، فإنّ موظّفي المطارات كانوا يقولون له : إنّ الأولوية لحمولات الجيش . ولذلك فقد اضطر إلى أن يسافر بالقطار من الدرجة الثالثة ! .

يقول الدكتور : بعد أن جلست على المقاعد المؤلمة للدرجة الثالثة من القطار لعدة دقائق ، رأيت أن استمرار السفر لعدة ساعات على هذه المقاعد الضّالعة تؤلمني كثيراً .

ثم بادرت إلى تحليل تألّمي هذا فتساءلت من نفسي : هل أنّ تألّمي الشديد هذا من صعوبة المكان وخشونته ؟ أو من أنّهم لم يقدّروا طبيباً نفسانياً محترماً مثلي بحيث يجعلوا لي تذكرة للطائرة ولو بصورة استثنائية حتى لا اضطّر إلى أن أتلف وقتي الثمين هكذا ؟ .

وبعد ذلك تساءلت : هل يحق لي واقعاً أن يكون لي مثل هذا التوقع والانتظار في زمن الحرب ؟ أو أنّ توقّعي هذا إنّما ينشأ من حبّ الذّات بصورة حمقاء ؟! .

وفهمت فوراً أنّ هذا الانتظار توقّع في غير محلّه ، فبينما يكون أخوتي تحت وابل الرصاص والنار فإنّ ما يخصّهم مقدّم بالأولوية على أيّ شيء آخر .

وبمحض ما تبيّن لي الموضوع بهذه الصورة واقتنعت بأنّه لا ينبغي لي أن أتوقع ذلك ، لم أتألم بعد ذلك من تلك المقاعد الضالعة والمؤلمة بل قضيت مدة السفر بالقراءة في بعض كتبي والحديث مع سائر المسافرين وبكل سرور ، ولم يبد لي طول المسافة ، في حين أنّه لم يتبدّل أيّ شيء فلم يصبح المقعد وثيراً ولا قصرت مدة السفر » .

إنّ الراضين عن أنفسهم غير الملتزمين بالحقائق قد يعقّبون من معاشرتهم مع الآخرين أهدافاً خاصة ، فيجعلون كل مناسباتهم واتّصالاتهم بالآخرين وسيلة لرفع حاجاتهم ، وهم دائماً يبحثون عن أصدقاء يعودون عليهم بالنفع الماديّ فقط ، في حين أنّ الصداقة يجب أن تكون مستقلة عن المقاصد الشخصية النفعية الضيّقة .

هؤلاء لا يعقدون المودّة مع من لهم نيّات صادقة وأحاسيس طاهرة من دون أن تترتّب على صداقتهم فوائد ماديّة ، ولذلك فإنّ علاقاتهم مع أصدقائهم إنّما تبقى ثابتة فيما إذا جلبت لهم نفعاً ماديّاً . أمّا إذا لم يتوصّلوا إلى أهدافهم المطلوبة لهم من خلال هذه الصداقة ورأوا أنّ تلك الصداقة لا تدور حول أقطاب أهدافهم ، فإنّ برودة أو فتوراً خاصّاً يخلف مكان العلاقة الحميمة السابقة ، بل يقطعون حبل نفاقهم القصير .

وحينما يكون التلوّث وعدم الثّبات سائداً في جميع شؤون الحياة الاجتماعية ، فطبيعي أنّ هذا الستار سيُزاح عن وجه الحقيقة بالتدريج ، وسيواجهه الآخرون بعد تعرفهم على نفسيته كضيف متطفّل ، وسيدفعونه عن

أنفسهم كما يدفع الباعة المسكوكات المزوّرة عن أنفسهم .

يقول (أمرسون) :

« نحن نعرف كما نحن كذلك في الواقع ، وقد يظن الناس أنّهم يبدون فضائلهم أو رذائلهم بأعمالهم الظاهرة ، ولا يدرون أنّ الفضائل والرذائل تبدي نفسها كلّ حين في كل حركة وسكون تماماً كالنَفَس المتردّد .

هناك انسجام خاص في أعمال كل إنسان مهما كان ومهما كانت بحيث أنّ كلّ عمل من أعماله طبيعي في وقته ومكانه ، والأعمال التي تصدر عن إرادة واحدة تكون متوافقة في الواقع فمهما كانت هي غير متماثلة في الظاهر لكنها إذا نظرنا إليها في عالم الفكر من مسافة بعيدة ومن موقف مُشرِف ارتفع ما كان يبدو فيها من اختلاف وربط بينها رباط معنوي خاص . كما أن خط السيّر لأحسن سفينة يبدو خطاً معوجّاً بمئات من الانحرافات ، ولكنّها إذا نظر إليها من مسافة بعيدة بدت وكأنّها مستقيمة تماماً »[1] .

تحذير لمن يصادق المتلوّثين

بإمكان الإنسان بصورة عامة أنّ يسلك أحد سبيلين ؛ أحدهما : أن يستسلم للقوى الطبيعية في جسده ويجعل روحه أسيرة بيد الأهواء والغرائز . وثانيهما : أن يستجيب لنداء الروح وتمنّياتها السماوية ويتّجه اتجاهاتها العالية اتّجاهاً عميقاً ، وبذلك يكون قد أدرك قيمة هذه الجوهرة الثمينة .

إنّ الإنسان بين تجاذب من قطبي الفضائل والرذائل دائماً ، وعليه أن يلتفت إلى ما عليه من رسالة عظيمة في هذا الاضطراب الروحي ، فيختار لنفسه ما هو جدير بالإنسان ، وأن يخطو في طرق هي أكثر طمأنينة للوصول إلى الأهداف الإنسانية السامية .

---

(١) بالفارسية : فلسفهء اجتماعى :٣١٣ .

هذا الخيار أمر متتابع ومستمر ، ويجب أن يدوم حتى الموت بما يكون معه الإنسان في كل لحظة أسمى من سابقتها ، وأن لا يصل إلى حالة تقهقر أو تكرار ثابت . والمهمّ ـ وبالنظر إلى قصر هذه الحياة ـ هو أن يتمكّن من أن يحصل من هذه الحياة القصيرة على رأسمال لائق للحياة الأبدية ، ولا شك أنّه إذا أحرز السلطة على الأهواء الباطلة ولم يستسلم للمنى المنحرفة لأحرز رأسمال قيّم للحصول على تلك الحياة الخالدة .

إنّ الإسلام يريد أن يضفي صبغة من الإنتظام والدقة لعقل الإنسان بتوصيته بالتدبّر في انتقاء الأصدقاء واختيار المعاشرين ، وأن يعوّده على الانضباط في الأعمال واتّخاذ القرارات ، وأن يوجّه نظره إلى الفضائل الواقعية من خلال ذلك ، فيدرك المراتب الحقيقية السامية ويصل بذلك إلى قمة الكمال الإنساني ، ذلك الكمال الذي لا يُقيّم بالمقاييس المادية .

إنّ مصاحبة الملتزمين بالملاحظات الأخلاقية والإنسانية فرصة مؤاتية لتنمية قوى الإنسان الروحية ، فالأفكار تتّسع في ظل أفكارهم العالية ، وينمو حبّ الخير والطهر في قلبه بمعاشرتهم ، وكذلك يدرك الإنسان نقائصه النفسية ويقيس صلاحه بصلاح الرجال الأكفاء ، فإنّه من خلال هذه المقارنة يخرج تدريجيّاً من نفوذ الصفات السيّئة ، ويكتسب البصيرة من أعماق روحه .

إنّ العناية بالخصائص الروحية لأصدقاء الإنسان ليست موضوعاً جديداً في علم النفس الحديث ، بل إنّ ضرورة التعرّف على نفسيّات من يريد الإنسان اختيارهم بعنوان الأصدقاء ويمتّن العلاقات معهم ، ممّا نراه متوفّراً في النصوص الإسلامية ، وعلم النفس الحديث إنّما له أن يقيّم تلك الأوامر القيّمة بكل احترام وتقدير ، ويكرّر تقرير تلك الإرشادات النافعة والمفيدة بهذا الشأن .

روى النوري في (مستدرك الوسائل) عن نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال :

« المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[1] .

ويوصي علي (عليه السلام) في جملة قصيرة بأنّ على كل أحد أن يراقب نفسه ويحترز من الارتباط بالفاسدين ، وذلك بسبب ما للنّفس من تقبّل في الطبائع ؛ قال :

« لا تصحب الشرير ، فإنّ طبعك يسرق من طبعه شرّاً ، وأنت لا تعلم »[2] .

ويقول الدكتور (كاريل) العالم الفرنسي الشهير :

« إنّ الظواهر النفسانية لكل فرد إلى حدّ كبير تتعيّن وتتحدّد وفق البيئة النفسية له ، فلو كانت بيئته فقيرة لم تنمو فيه أخلاقه وأحاسيسه ، ولو كانت البيئة سيّئة أثّرت في نشاطاته ، نحن نسبح في الجوّ الاجتماعي كما تسبح الخلايا في محيط الجسد ، وكذلك كالخلايا في الجسم لا نقدر على أن نبقى في أمان من نفوذ أوضاع المحيط فينا .

إنّ جسم الإنسان أكثر حصانة أمام المواد القريبة من حصانة الشعور البشري أمام التأثيرات النفسية ، فإنّ الجسم مجهّز بحصار البشرة ضد هجوم العوامل الضارّة الكيماوية والفيزيائية في البيئة ، بينما الشعور البشري فاتح أبوابه على مصاريعها في كل آن ، والنفس الإنسانية في معرض هجوم دائم لمختلف أنواع العوامل الفكرية والمعنوية ، وتنمو حسب طبيعة تلك العوامل سالمة أو معيبة .

ومن غير الممكن تقريباً دفاع الإنسان عن نفسه أمام آثار المحيط والبيئة النفسية ، فإنّ الكل بلا شك يتأثرون بمن يعاشرونه ، فلو كان الإنسان من صغره معاشراً للجناة والجهلة تربّى ونما هو أيضاً جانياً أو جاهلاً »[3] .

---

(١) مستدرك الوسائل ٢ : ٦٢ .

(٢) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٧٢ .

(٣) بالفارسية : الإنسان ذلك المجهول = إنسان موجودنا شناخته : ١٦١ ـ ١٦٤ .

وبشأن التقليد والمحاكاة أجرى علماء الاجتماع عدّة تجارب كانت نتائجها جاذبة للإنتباه محيّرةً للعقول : « في الربيع من عام ١٩٥٣ م عرضوا فئةً قوامها مئة رجل من الذين تقدّموا لإحراز مناصب قيادية وإدارية ، عرضوهم لاختيار صلاحياتهم الروحية في كلية العلوم النفسية لجامعة كاليفورنيا لمدّة ثلاثة أيام . واليوم الثالث كان قد عُيّن من قبل للتقدير الدّقيق لمستوى تأثّر شخصياتهم بعقول الآخرين ولا سيما العقل الجماعي ، فقسّموهم إلى فئتين كل فئة خمسون رجلاً ، فخمسون رجلاً يُختبرون وخمسون يشرفون عليهم ويشاهدون . ثم قسّموا فئة الاختبار إلى فئات ذوات خمسة أشخاص ، ثم جعلوا أمام كل واحد منهم جهازاً كان بإمكانهم أن يطّلعوا بوسيلة ذلك الجهاز على إجابات أصحابهم ، بينما كانت الإجابة التي تنعكس على صفحة ذلك الجهاز تتبع إرادة المُختبِرين لا الإجابات الواقعية لأصحابهم . وفي الواقع كان المختبِرون يخدعون الذين يختبرونهم من خلال إيجاد إجابات تمثّل أكثرية مصطنعة مختلقة ، وكان أولئك الذين هم في معرض الامتحان يظنون أنّ ما يرونه على صفحة الجهاز يمثّل نظر أكثرية أصحابهم ، فكانوا غالباً يتابعون تلك الإجابات بصورة تلقائية عمياويّة ، كان تسع وسبعون بالمئة منهم يتابعون إجابةً غير صحيحة وغير منطقية هي إجابة الأكثرية المختلقة في حلّ مسألة رياضية »[1] .

إرشاد المتلوثين

ينبغي ملاحظة أنّه لو كان الهدف من الارتباط بالمتلوثين هو إرشادهم والأخذ بأيديهم من مهاوي السقوط والشقاء والتعاسة ، فذلك أمر محمود وممدوح ، والإسلام يدعو إلى أن يوفّر المسلم أسباب النجاة لمن تجاوزوا حدود الفضيلة والأخلاق من خلال الاتصال بهم وإرشادهم بما ينفعهم ويؤثّر فيهم .

طبيعي أنّ هذا العمل يجب أن ينفّذ بأسلوب خاص ، فإنّه لا ينتج النقد

---

(١) بالفارسية : رازكرشمهها : ٣٩ .

النتيجة المتوخّاة إلاّ فيما إذا كان نقداً خفيفاً لطيفاً . نعم في كثير من الموارد لا يخلو هذا الأسلوب من الأثر المطلوب ، بل قد تكون له نتائج إيجابية باعثة على عملية تغييرية جذريّة ، فمن الممكن أن الانتباه بتنبيه لطيف خفيف يؤدّي إلى سعيه الحثيث في سبيل اكتساب مقام الإنسانية والطهارة والفلاح ، وحينئذٍ يكون قد منحه الشرف الواقعيّ والمكانة الحقيقة وأدّى حقّ الصّداقة بأحسن الوجوه .

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يرده عنه وهو يقدر عليه فقد خانه »[1] .

وقديماً قالوا : النصيحة مُرّة ، وهذه حقيقة ، ولذلك فعلى الناصح المشفق أن ينطق قولاً ليّناً ، ويضع إصبعه على نقاط الضعف والتقصير الخلقي لمخاطبه بصورة مرضية ، ويفهّمه بلسان الحبّ والحنان أن لا نهاية لما يسلكه من سبيل إلاّ الهلاك والشقاء ، ويسعى للحصول على اعتماد الصّديق وإطمئنانه إلى نظرياته ، ويحاول أن يعمل كل ذلك بعيداً عن عيون الآخرين .

ومن الممكن أن ينصح الصديق الجاهل خليله بكيفية تنتج نتائج معكوسة ، بينما العاقل حتى ولو كان هو ملوّثاً ما دامت نصائحه ممزوجة بالذّكاء والفطنة والفنّ تكون مثمرة نافعة .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ينبّه إلى نقطة مهمة فيقول :

« نُصْحُكَ بين الملأ تقريع »[2] .

ويقول (دايل كارينجي) :

« إذا أردتم أن تثبتوا أمراً فاعملوا بلباقة ومهارة بحيث لا يفهم أحد ما هو

---

(١) بحار الأنوار ١٥ : ٥٢ ط قديم .

(٢) غرر الحكم : ٧٧٥ .

الهدف النهائي من كلامكم هذا ، اعملوا بنصيحة الشاعر إذ قال ؛ « كونوا معلّمين من دون أن يعرفوك معلّماً » . قليل أولئك الرجال الذين يتمتّعون بقوة التمييز والحكم بصورة صحيحة سالمة وبيّنة ، وأكثرنا مغرضون متعصّبون ، قد غيّمت على عقولنا سحب الحسد وسوء الظنّ والخوف والطمع والغرور ، إذا كنتم تحبّون أن تجرحوا أحداً بأخطائه فابحثوا عن العلاج .

إنّنا إذا أخطأنا اعترفنا في قرارة نفوسنا بكل سهولة ويُسر ، أنتم أيضاً إن كنتم ذوي مهارة كافية تستطيعون أن تحملوا مرتكبي الأخطاء على الإقرار بخطاياهم بكلمات لطيفة حلوة .

وقد يتّفق أن نباهي ونفخر بأنفسنا من صدق لهجتنا وشجاعتنا الأدبية وجرأتنا وجسارتنا في بيان زلّاتنا وعثراتنا ، أمّا إذا أراد غيرنا أن يحملنا على الإقرار بما لا نرتضيه لم يتوفق لذلك أبداً »[1] .

وفي (تحف العقول) عن الإمام الحادي عشر (عليه السلام) قال :

« من وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ، ومن وعظه علانيةً فقد شانه »[2] .

ومن جانب آخر : إذا كان أحدنا مبتلى بالإنحراف ، وأراد صديق أن ينقذنا من حضيض الرجس بنصائحه ومواعظه ، كان من اللزام علينا أن نتقبّل نصائح الصديق الخير من كل قلوبنا ، وبذلك نحاول أن نصلح أنفسنا .

ففي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« ناصحك شفيق عليك محسن إليك ، ناظر في عواقبك ، مستدرك فوارطك ، ففي طاعته رشادك ، وفي مخالفته فسادك »[3] .

وكلّما أسرع الإنسان إلى تنظيف نفسه بمحض ما التفت إلى تلوّثه كان أنفع

---

(١) بالفارسية : آئين دوست يابى : ١٥٦ ـ ١٦١ .

(٢) تحف العقول : ٤٨٩ .

(٣) غرر الحكم : ٦٤١ .

له وأصلح ، وكل تسويف ومسامحة في هذا السبيل مورث للندم والحسرة ، حتى يخاطر بشرفه ووجاهته .

كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« من لم يدع وهو محمود يدع وهو مذموم »[1] .

وليس ملام الأحبة فحسب مفيداً للإصلاح بل حتى نقد الأعداء قد يثمر نتائج مرجوّة لترميم النقائص ، ولبناء الإنسان ، كما عن علي (عليه السلام) قال :

« عدوّ الرجل قد يكون خيراً من صديقه ، لأنّه يهديه إلى عيوبه فيجنبها »[2] .

ويقول أحد الفلاسفة الأمريكيين :

« إنّ بعض كبار الشخصيات حينما يستند إلى مسند العزّة والقدرة يخدر وينام ، ولكنّه حينما يُحرّك بل يؤذى أو ينكسر يظفر في ذلك بفرصة التعلّم فيجلس في داره ويفتح عينيه على شخصيته ورجولته ، وبذلك يحصل على حقائق ناصعة ، يطّلع على جهله ويتحرّر من ربقة جنونه في رضاه عن نفسه ، وبالتالي يسلك سبيل الاعتدال ، وينال بذلك فنوناً من الحقائق والواقع .

إنّ العاقل قد يتّفق مع أعدائه ومعانديه ، إذ الوقوف على نقاط ضعفه يفيده أكثر مما يفيدهم ، وإنّ الجرح الذي يناله منهم سيندمل ثم يسقط جلد الجرح المندمل وكأنّ لا شيء ، وحينما يقترب أعداؤه إلى مرحلة النصر يمرّ هو من تلك المرحلة عابراً بسلام .

إنّ القدح أسلم وآمن من المدح من حيث الآثار والنتائج ، ولهذا فإنّي أبرأ من جريدة تتصدّى لمناصرتي ، وأحبّها حينما تصارحني ، فإنّي ـ في الحالة الثانية ـ

---

(١) غرر الحكم : ٧٦٥ .

(٢) غرر الحكم : ٧٦٥ .

سأطمئن إلى توفيقي نوعاً مّا دون الحالة الأولى ، حينما يكتبون فيّ الكلمات المعسولة أرى نفسي مجرّداً أعزل بلا سلاح ولا صيانة أمام أعدائي وجهاً لوجه .

بل بصورة عامّة : كل شرّ ما لم يحطّمنا وينكبنا بنكبته فهو خيرٌ لنا كما كان سكنة جزيرة ساندويج حينما يقتلون أعداءهم يظنّون أنّ قوّة أولئك القتلى تحلّ في قاتليهم ، علينا نحن أن نعتقد أيضاً أنّ قوّة معاندينا ستتحوّل إلى نفوسنا في نهاية الأمر »[١] .

إنّ من أضرّ الصّداقات صداقة الجاهلين والحمقى ؛ فإنّه يؤدّي إلى تأخّر الإنسان وربّما إلى شقائه وتعاسته ، وقد يكون الخطر والضرر الذي يصيب الإنسان من ناحية صديقه الأحمق أكثر من الخطر الموجّه إليه من قبل عدوّه ، فإنّ الصديق باعتباره مورد ثقة لا يستعد الإنسان للدفاع عن نفسه بالنسبة إليه ، فمن الممكن أن يفاجأ على حين غفلة ، ولا يستيقظ إلاّ بعد أن انسدّ بوجهه طريق العودة ، في حين أنّ الإنسان أمام عدوّه يتّخذ حالة الدفاع لمواجهة الخطر المحتمل ، ويكون على استعداد للمقابلة .

وقد تكون المعرفة الناقصة وإرادة الخير معها هي التي تجرّ الصديق إلى طرق مغلوطة ، ولكن ـ لقلّة المعرفة ـ ربّما يتّفق أن يوصي باتّخاذ قرار يوجب المتاعب والإنكسار لأصدقائه جهلاً لا عمداً .

وبالنظر إلى ذلك فإنّ المحبّة والوفاء في العلاقة والرابطة بين اثنين لا يكفيان لانتقاء الأصدقاء ، بل ينبغي أن نجعل علمنا بميزان عقولهم ومعارفهم في الدرجة الأولى من الأهميّة . ولذلك فإنّ أولئك الذين يبرأون من اجتذاب مودة البلهاء إليهم يُعدّون في عداد العقلاء المدبّرين .

وقد جاء في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« لا تصحبنّ من لا عقل له »[٢] .

---

(١) بالفارسية : فلسفه اجتماعى : ٣٩١

(٢) غرر الحكم : ٨٠٠ .

وقد عرّفنا الإمام الباقر (عليه السلام) بالعناصر غير المرغوب فيهم الذين لا يستحقون الصداقة والمعاشرة ، ونبّهنا إلى النتائج الضارّة لهكذا ارتباطات لا معقولة فقال :

« لا تقارن ولا تواخ أربعة : الأحمق والبخيل والجبان والكذاب : أما الأحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرك ، وأمّا البخيل فإنّه يأخذ منك ولا يعطيك ، وأمّا الجبان يهرب عنك وعن والديه ، وأمّا الكذاب فإنّه يصدق ولا يصدق »[1] .

إنّ الفكر الناقص وغير الناضج ، وعدم الالتفات إلى عواقب الأمور يؤدّي بالإنسان إلى التلوّث وأخيراً إلى الشقاء والتعاسة ، وكثيرا ما رأينا أُناساً ينعطفون انعطافاً ليّناً أمام دعوة أصدقائهم الحمقى الذين يحاولون أن يجعلوهم مثلهم ويشاركوهم في جرائمهم ، وباشتراك هؤلاء في مجالس المعاصي يلوثون سعادتهم ويسقطون في حضيض الضلال .

ومن الممكن أن يدرك هؤلاء أنّهم يُجرّون من قبل أصدقائهم إلى طرق خطرة ولكنهم يخافون أن يُتّهموا بالتعصّب وعدم الهمّة ، ولردّ هذه التهمة عن أنفسهم يخضعون لتبعيّتهم ويستسلمون لطلب أصدقائهم الفاسدين من دون أيّة مقاومة ، ويسرحون على صخرة الحياة والخجل منهم وينحدرون إلى أعماق هوة الرذيلة وفساد الأخلاق .

وسيأتي اليوم الذي يدركون فيه خطأهم في ذلك التقليد الأعمى بلا تعقّل ولا تدبّر ؛ ولكنّ يا للأسف ـ أنّ هذه اليقظة والانتباهة إنّما تتحقق بعد ما قد خلّف مراحل طويلة من عمره ، وأفسد حياته في سواد وظلام . وربّما امتدت حالة الغفلة والغفوة لديهم حتى نهايات حياتهم ، وانتهت إلى الحسرة الأبدية عليهم .

---

١) بحار الأنوار ١٥ : ٥٢ ط قديم .

والقرآن الكريم يقول عن لسان المتحسّر الضالّ يوم القيامة : ﴿ **يا ويلتا ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً** ﴾[1] .

وأمير المؤمنين يعرّفنا بجماعة ليسوا أهلاً للمعاشرة وينبغي الإحتراز عن الإرتباط بهم فيقول :

« لا تصحبنّ أبناء الدنيا فإنّك إن أقللت استقلوك ، وإن أكثرت حسدوك »[2] .

وفي (غرر الحكم) عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« لا تصحب من يحفظ مساويك وينسى معاليك »[3] .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :

« لا تؤاخ من يستر مناقبك وينشر مثالبك »[3] .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« لا تصحب المالق فيزيّن لك فعله ، ويودّ أنّك مثله »[5] .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :

« من لم يصحبك معيناً على نفسك فصحبتُه وبال عليك إن علمت »[6] .

الحيطة والحذر في الصداقة

إنّ رعاية حدود الصداقة وموازينها والأخذ بجانب الحزم والاحتياط من منطق العقلاء ودأب المدبّرين ، والإفراط في الصداقة وتجاوز حدود الاعتدال فيها من الممكن أن يؤدي إلى نتائج تحتوي على الحسرة ، وتسبّب ندماً مؤلماً ؛ إذ أنّ أواصر الوحدة وحرارة المحبة لا تثبت في جميع الأحوال والأوضاع والظروف ،

---

(١) سورة الفرقان : الاية ٢٨ .

(٢،٣،٤،٥،٦) غرر الحكم : ٧٠٧ ، ٨١١ ، ٨٢٧ .

فلعلّ بعض الحوادث أو تصادم المصالح والمنافع تسبّب في ظهور الاختلاف في العلاقة بين الطرفين ، فيكدّر صفو سماء المودّة الصافية فيجعلها مظلمة سوداء قاتمة .

ربّ حبّ بحرارة وشوق انجرّ إلى عداء حادٍ وخشن وغضب وانتقام ، والصديق السابق بما له من اطّلاع على نقاط ضعف صديقه وأسراره صدمه بضربات بلا رحمة ، في حين أنّه لم يكن وقوع هكذا اختلاف مؤلم في العلاقة بين الطرفين ممّا كان يمكن توقّع حدوثه .

بينما العلاقات المعقولة وفي حدّ الاعتدال غالباً ما تبقى ثابتة بالإضافة إلى عدم اشتمالها على أيّ خطر . وبالنظر إلى هذه الجوانب الظريفة نرى الإمام الصادق (عليه السلام) قد منع من الإفراط في مراتب المحبة والمودّة في الصداقة إلى حدّ إفشاء الأسرار الخاصّة :

« لا يطّلع صديقك من سرّك إلاّ على ما لو اطّلع عليه عدوّك لم يضرّك ، فإنّ الصديق ربّما كان عدوّاً »[1] .

ويقول أحد علماء الغرب :

« وإذا تجاوزنا هذه المرحلة يأتي دور موضوع كيفية العشرة والصداقة مع الأصدقاء ، هناك كثير من الناس لا يزالون مضطّربين قلقين ، يفضون بأخصّ أسرارهم إلى أصدقائهم ، فما أن تنقطع أواصر الصّداقة والمحبة حتى ينتهي الأمر إلى العداء ، وبالسلاح الذي أعطى من قبل من أسرار صديقه يدمّره تدميراً .

ويخطىء آخرون من طريق آخر : فهم لا يألون جهداً في العداء مع أعدائهم ، وبعد لأي من الزمن حينما تتقشّع سُحب الغضب والكدر وتهمد نيران العدوان ، يحترقون بنار الألم والحسرة والخجل على ما قاموا به من عمل »[2] .

---

(١) وسائل الشيعة ٨ : ٥٠٢ ح ٦ عن مجالس الشيخ الطوسي .

(٢) آغوش خوشبختى : ٦٦ .

علينا أن نعمل هنا بكلمة الإمام علي (عليه السلام) المليئة بالحكمة إذ قال :

« أحبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا ، وأبغض بغيضك هوناً مّا فعسى أن يكون حبيبك يوماً مّا »[1] .

الرّياء والمراء

لعلّكم قد واجهتم في المجتمع أُناساً يندمجون مع كل أحد ويتلقّونه بكل شوق وحرارة ، وإنّما هم يحاولون من خلال ذلك أن يلفتوا أنظار الناس إليهم ، وبذلك يرفعون من قيمتهم في المجتمع ، ومع أنّ قلوبهم تخلو من العاطفة والمحبة يخفون حقيقتهم تحت ستار من الحبّ والعاطفة ، ويتوسّلون بالملَق وحسن الخلق المصطنع ويرون المراءاة والمظاهرة بالقيم الواقعية وسيلة يتوصّلون بها إلى إقناع المجتمع على حسب المقتضيات الزّمنية . وهذه الظاهرة تشمل كلّ سلوكهم وأفعالهم وأعمالهم وأفكارهم ، وهم ينسون أنّ الفضائل النفسانية الإنسانية تفضل على نظرة الآخرين بالنسبة إلى الإنسان ألف مرة ، وليس الأوّل يساوي الأخير ولا يدخل معه في القياس أبداً .

وحينما يرى الإنسان أن كلّ محاولات هذه الجماعة بدل أن تصرف في سبيل تلبية نداء الضمير والوجدان ، تصرف لإشباع أهوائهم النفسية ، حينذاك يدرك جيّداً كيف أنّ هؤلاء مصابون بغريزة المراءاة لم يتخلّصوا منها .

إنّ نظرات الآخرين بالنسبة إلى الإنسان لا تصل من الأهمية إلى حيث يكون لها الأثر في سعادة الإنسان ، ويجب أن لا نفرط في تقييم نظرات الناس وأحاسيسهم ، بل أن نتوقف في تقييمها على حدّها المعقول ، ونتفهّم أن أصول السعادة متمكّنة في ضمير الإنسان نفسه ، لا في نظرات الآخرين ، وإلاّ فلو

(١) وسائل الشيعة ٨ : ٥٠٢ .

اعتاد الإنسان على فكرة الاهتمام بآراء الآخرين ونظراتهم بالنسبة إليه لأصبح أسيراً بل عبداً لآرائهم ونظراتهم ، وفقد استقلاله وحريّة نفسه .

ثم إنّ أحكام الناس بعضهم بالنسبة إلى البعض الآخر تستند في الأكثر إلى المنافع الشخصية المغرضة ، وتتغيّر على أساس اختلاف الظروف والمقتضيات الزمنية . ونحن إذا تذكّرنا هذه النقطة المهمّة أدركنا جيّداً مقياس أحكام الناس بهذا الصدّد .

وعلى هذا فلو اختار الإنسان في الحياة طريقاً صحيحاً لا يرتضيه الآخرون ، بل يجعلونه هدفاً لنقدهم الباطل بسبب اتّخاذه ذلك النهج الموضوعي ، فلا ينبغي أن يصاب بألم ثقيل بفعل مقالاتهم الباطلة .

كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال :

« لا يسوؤنّك ما يقول الناس فيك ، فإنّه إن كان كما يقولون كان ذنباً عُجّلت عقوبته ، وإن كان على خلاف ما قالوا كانت حسنة لم تعملها »[١] .

ويقول (برتراند راسل) :

« إنّ الخوف من أفكار الآخرين ـ كسائر أقسام الخوف ـ يمنع من النموّ والرقيّ ، فهو شاق عاق ، وما دام هذا القبيل من الخوف فعاليّة فإن الحصول على أيّ عظمة أو تقدّم اجتماعي صعب جدّاً ، بل محال في هذه الحالة أن يحصل للإنسان تحرّر الفكر والروح والذي منه تنشأ السعادة الواقعية ، إذ أنّ الشرط اللازم للسعادة أن تكون طريقتنا في الحياة تبتنى على دوافعنا الذّاتية لا أن تكون منوطة مشروطة بالميول الزائفة للآخرين وسليقتهم »[٢] .

وكتب الباحث الأمريكي (ويليام جون ريلي) بهذا الشأن يقول :

---

(١) غرر الحكم : ٨٢٠ .

(٢) بالفارسية : شاهراه خوشبختى : ١٥٩ .

« لا أحد أكثر خواءً وفراغاً وفقداناً للشخصية من أولئك الرجال الراضين عن أنفسهم بينما هم أُناس مشكّكون مردّدون لا على حرارة ولا برودة ولا على جفاف ولا بلل ، بل هم دائماً يفكّرون فيما يقوله الآخرون بشأنهم ، ولذلك فهم دائماً بصدد أن يقوموا بأعمال يرتضيها الآخرون .

هؤلاء الأفراد يضحّون في الحقيقة بشخصيّتهم وإرادتهم فداءً لميول الآخرين . إنّكم إذا سمحتم لأنفسكم أن تكونوا تحت نفوذ الآخرين وتأثيرهم فسوف لا تكون لكم الجرأة على القيام بأيّ عمل ، ولا توفّقون لشيء ولا تحظون ولا تسعدون .

طبيعي أن ليس لهذا الكلام مفهوم يعني أن يغضّ الإنسان بصره عن الاقتراحات النافعة والمفيدة والمخلصة ولا يفيد منها ، بل ينبغي أن يتذكر الإنسان دائماً أن يتقبّل تلك الاقتراحات التي يراها أكثر قيمة وفائدة ، والتي تبدو فيها حلول أكمل وأصح ، فيعمل بها ، فإنّكم إن أنتم تابعتم الأماني الخاصة للآخرين دخلتم بذلك إلى هرْج ومرْج في الشؤون الاجتماعية . فكونوا ثابتين على ما لكم من أفكار ترونها وتعتقدون بأنّها مفيدة ونافعة ، وبذلك تكونوا على راحة واطمئنان وقوة معنوية واستقلال فكري .

إنّ متابعة أغراض الآخرين وقراراتهم تغير الميول الواقعية لكم وأفكاركم القيمة ، وتسلبكم حريتكم واستقلالكم الفرديّ وشخصيتكم وإرادتكم بتمام معنى الكلمة ، ولا تستطيعون أن تكونوا أنفسكم أبداً ، وإذا افتقدتم حريتكم الفكرية افتقدتم كلّ شيء .

إنّ العقل الجماعي والرأي العام والأوضاع والأحوال العامّة متغيرة بل مختلفة إلى حد التناقض ، فكلما ألححتم للحصول على موافقة الرأي العام لم تصلوا إلى نتيجة ملموسة ، وكلما قلّلتم من الإصرار على ذلك ولم تستسلموا لهم ولم تلتفتوا إليهم استسلم لكم الرأي العام . فمن طبيعة العالَم أنّه يثني على الرجل ذي الجرأة والشهامة على اتّخاذ القرار ، والذي يتمتع بإرادة قوية حاسمة

صارمة »[1] .

حالة الوحدة والإنزواء

إنّ من علل الوحدة والإنزواء والإنزعاج من معاشرة الآخرين هو ظهور الشعور بظنّ السوء في النفس البشرية ، ممّا يسبّب توقف النموّ العاطفي والاجتماعي للإنسان ، وتتبدّل معه أحلام المعايشة السلمية إلى كابوس موحش مع إحساس بالعجز عن ذلك ، كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنّه قال :

« من لم يُحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد »[2] .

وكتب عالم النفس المعروف (شناختر) يقول :

« يحبّ كل أحد أن يختلط مع الآخرين ، ويأمل أن يكون بين المجتمع محبوباً سعيداً محظوظاً مُلفتاً للنظر ، ولكن حينما لا تقضى هذه الحاجة يخيّل إلى النفس أنّ الفرار من الناس أسهل من المعايشة معهم . في حين أنّ الحقيقة غير هذا ، فلو كان الفرار من المعايشة والمعاشرة يسكّن الألم بصورة مؤقّتة لم يكن ليقضي الحاجة الغريزية والميل الطبيعيّ فينا ، فهو لا يعالج الداء .

وللإنزواء والفرار من الناس مراتب ودرجات قد تصل إلى حدّ أن يترك الشخص أصدقاءه وأُسرته والعالم كله ويعتزلهم في ناحية خائباً خاسراً ، ولكن من حسن الحظّ أنّ أكثر الناس غير الاجتماعيين لا يصلون إلى هذه الدرجة من سوء الظن والتشاؤم والاعتزال .

كنت أعرف مهندساً ذا درجة عالية في الدراسة ، وهو أستاذ كامل في فنّه ، ولكنّه كان في المصنع مع العمّال الذين هم تحت أمره في غاية الجفاء

---

(١) بالفارسية : تفكر صحيح : ١٢٢ .

(٢) غرر الحكم : ٧١٢ .

والخشونة ، كان يأكل وحده ولا يشارك الآخرين في أحاديثهم وأنسهم ، ولا ترتسم على شفتيه ابتسامة أو مزاح ، ولا يسمح لأحد بالنقد . ونحن كنّا نعلم أنّه في قرارة نفسه متألم من وضعه هذا ، ويأمل أن يتمكن من أن يتحدث إلى الآخرين ويشاركهم في الطعام والضحك ، وأن يعاملهم كأصدقاء بل كإخوة !.

وحينما حقّق الأستاذ عالم النفس فيه وفي أحواله وأوضاعه ، علم أنّ هذا المهندس يشك ـ من حيث لا يشعر ـ في طاعة عمّاله له ، ويتصوّر أنّهم لا يرونه أهلاً لأن يكون رئيسهم ، وعليه أن يحمل نفسه عليهم بالشدّة والخشونة »[1] .

الكتاب ، صديق قيّم

ويمكننا اختيار صديق قيّم لنا عند وحدتنا ، ذلك هو « الكتاب » والتفكر في أمور تورث نموّ الفكر وتساميه ، من خلال الإمعان في آثار كبار الرجال الماضين ، نطّلع من خلال ذلك على مستوى علومهم وقيمتهم الحقيقية ، ونفيد من تعاليمهم .

إنّ التقدم والرقيّ العجيب الذي قام به الإنسان في مختلف العلوم والفنون ليس نتيجة طفرة فجائية ، بل هو ناتج من تجاربه طيّ القرون المتمادية ، التي انتقلت إلى الأجيال التالية من خلال الكتب والرسائل ، مع أنّ شخصيات المفكّرين قد اختفت في ظلمات التاريخ ، إلاّ أنّ خلاصة أفكارهم وآثارهم بقيت محفوظة في حصار « الكتب » .

فأنتم بدراسة هذه الآثار كأنّكم تعبرون فواصل القرون وتتعرفون على تلك العناصر الكريمة التي لم يبق منها اليوم أعيانها ، ولكنّكم بالبحث في زوايا آثارهم بإمكانكم أن تصلوا إلى حقائق ناصعة .

ومن مزايا مطالعة آثار العلماء هو أن كلّ أحد ـ سواء كان ثريّاً أو فقيراً ـ

---

(١) بالفارسية : رشد شخصيت : ١١١ .

بإمكانه أن يتمتّع بمقابلة أولئك الشخصيات الكبار على السواء ، ويقضي فصولاً من أوقاته في مقابلة أولئك الأبطال الكبار ، وبكلمة : كلّ من حصل على شهادة القراءة بإمكانه أن يقابل هؤلاء . وبالمطالعة يمكن أن ننقذ أنفسنا من ألم الوحدة بكل سكون وراحة .

كما في (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :
« من تسلّى بالكتب لم تَفُتْه سلوة »[1] .

وفيه عنه (عليه السلام) أيضاً قال :
« من خلا بالعلم لم توحشه خلوة »[2] .

ويقول أحد العلماء الأوروبيين :

« إنّ الإنسان بمقتضى فطرته يهرب من الوحدة وينزعج من العزلة ، ويريد دائماً أن يختلط مع إخوانه وأحبائه ويعاشرهم ، كأنّه ناقص في وجوده وكأنّ هناك خطوطاً أو خيوطاً لا ترى تربطه بالآخرين لا قرار له بدونهم . ولا شك أنّ الكتاب خير مؤنس وصاحب ، فإنّ صحبة الكتاب تذهب بنا من محيط الناس العاديّين إلى عالم من الأفكار والتصوّرات العالية ، وتقابلنا بكبار مشاهير الرجال ومعارفهم .

بل لا صاحب ولا مؤنس لأيام الوحدة أفضل وأوفى من الكتاب ، فإنّ مصاحبة أبناء الزمان لا تخلو من أضرار من حيث محاولتهم لجرّنا معهم حيث ميولهم وأهواؤهم ، وبالتالي فإنّهم يجرّوننا إلى وديان الفساد ، بينما الكتاب يعظنا كشيخ مجرّب محنّك ، وهو بكلماته الحكيمة يطرد نفوذ الأهواء عن نفوسنا » .

ويقول (تايلر) :

« إنّ الكتاب هادٍ للشباب يجرّهم نحو الفضائل والشرف ، فإنّ دور

(١، ٢) غرر الحكم : ٦٣٦ .

الشباب مزيج من الغرور والهيجان . وهو للشيوخ تسلية تحرّرهم من محنة التعاسة والشقاء ، فإنّ الشيخوخة دور الوحدة والوحشة في الحياة »[1] .

وإنّ مطالعة تاريخ حياة العناصر التي أحدثت في العالم العمليات التغييرية النافعة فغيّروا مجريات بل مصائر البشر ، إنّ ذلك لا يخلو من أثر في تزكية النفس ، فإنّ من الممكن أن يكون ذلك يفيد الإنسان في معرفة حقيقة الحياة ، ويمنحه نماذج قيّمة من المزايا الروحية .

إنّ دراسة الحوادث التاريخية وأطوار سلوك الشخصيات الخالدة ، لو كانت ممتعة جاذبة تحدث في قارئها الشوق إلى المطالعة ، فذلك غالباً بسبب ما لها من ارتباط بأفكار القائمين بتلك الحوادث .

وكما أنّ من الممكن الإطّلاع على السلوك الأخلاقي لكل أحد من خلال التعرّف على أحوال أحبّائه ومصاحبيه ، فإنّ نوع الكتب التي يختارها كل أحد ويحبّها تمثّل قناةً يمكن الإطّلاع من خلالها على أسلوب تفكيره وعمق نفسه .

وكما أنّ علينا أن نكون متنبّهين في اختيار الأصدقاء للإبتعاد عن أخطار الإرتباطات والإتّصالات غير المناسبة ، كذلك علينا أن نكون في اختيار الكتاب يقظين واعين ، فليس كل كتاب يليق للقراءة ولا لصرف الوقت عليه ، فكثير من هذه المطالعات لا تفيد شيئاً ، بل إنّ بعض الأفكار المسمومة المبثوثة في بعض الكتب بإمكانها أن تسمّم كثيراً من الأرواح والنفوس الطاهرة ، لا سيما الشباب والذين لم تستقرّ في نفوسهم الأسس والمباني الأخلاقية ، فنفوسهم مستعدة لتقبّل أيّ تصميم أو هندسة ، هؤلاء يستسلمون لمحتويات الكتب بسرعة ومن خلال ذلك يُسحبون إلى السقوط في طرق الضلال والضياع .

ومن المؤسف أنه قد شاعت في عصرنا هذا تلك الكتب الخاوية الفارغة الضّالة والمضلة ، والتي لا تخفى آثارها الضارّة ونتائجها المشؤومة للشباب وعلى

---

(١) بالفارسية : در آغوش خوشبختی : ٤٦ ـ ٤٨ .

الجميع ، هذه الكتب هي بمثابة قُطّاع الطرق المختبئين ليهجموا على قلوب الشباب وأفكارهم ، ويسارعوا إلى تفتيت الفضائل الإنسانية وتوهين أسس العقائد لدى الشباب قرّاء تلك الكتب .

في الأعم الأغلب نرى أنّ من جملة وسائل التسلية لفئة كثيرة من الشباب هي الكتب الرذيلة والرخيصة ، ولذلك فإنّهم يوماً بعد يوم يزدادون اتّجاهاً إلى الجوانب المادية للحياة ، ولا يهمّ هؤلاء محتوى الكتاب من حيث التربية والتعليم ، بل الأساس لاختيارهم الكتاب عدد من المواضيع القصصية الغرامية المسكرة .

وطبيعي أنّه حينما لا تختار المطالعات على أساس الدراسة والدّقة والملاحظة بكل دراية وبصيرة ، وكانت فائدة القارىء من مطالعته التسلية والبحث عن الأهواء ، فإنّما تصبح هذه القراءة سبباً للضلال وفساد الأخلاق ، وهدر الطاقات البنّاءة .

يقول عالم النفس الغربي (ريموند بيج) :

« على الشباب أن يدرسوا نوعية ما يقرأون ؛ فإنّنا اليوم قلّما نواجه عقولاً وأفكاراً راقية بينما نرى أنواع المنشورات الأسبوعية والشهرية وغيرها تمثّل منابع مختلف القراءات للشباب .

حينما يختار الفتيان والفتيات الكتب الخفيفة الفارغة والخاوية للمطالعة ، فإنّهم بالتدريج يفتقدون ذائقة التعرف على ما هو أقوم وأجمل وأعلى وأنبل ، فإنّ هذه الكتب السيئة تثير عواطف الغضب والعصبية للقارىء ، وتقرّبه إلى هوّة نهايتها مهاوي فساد الأخلاق ، وهي توهن إرادة قارئها وتحدث لديه التعويد على عدم الجدّية في الأفكار ، وبكلمة : تبدّل الحياة المعنوية لدى قارئها إلى حياة رذيلة رديئة »[1] .

---

(١) بالفارسية : ما وفرزندان ما : ٨٣ .

إذن فقراءة الكتب القيمة المفيدة بالإضـافة إلى أنّها تمنـح قارءهـا وضوحـاً خاصاً في بصيرته ، من الممكن لها أن تفتح فصلاً جديداً في حياة البشر ، وتجعل سلسلة نشـاطـاتهم وفعّـاليـاتهم ومجـاهـداتهم في نهج جـديـد يخلق من نفـوسهم شخصيـات نافعـة مثمرة ، ومـا أكثر أولئـك الأفراد من المجتمـع البشري الذين اكتسبوا قواهم الأخلاقية والروحية ودرايتهم ومعارفهم من هذه المنابع الفيّاضة ، وبذلك اندفعوا إلى الأعلى ونحو المجد الأنبل .

يقول (غاس هود) :

« إنّ ميـلي الـطبيعي إلى مـطالعـة الكتب أنقـذت سفينـة حيـاتي في أوائـل عمري من الغرق في أمواج الجهالـة وفساد الأخـلاق ، في حين أنّ من كـان مثلي محروماً في سنيّ الـطفولـة عن نعمة مـراقبة الـوالدين وإخـلاصهم ، قلّما يتّفق أن ينجو من أمواج الضلال والضياع .

كـانت كتبي هـذه تمنعني من التلوّث بـالقـمار والخمـور ، والتـردّد عـلى المجالـس غير المتنـاسبـة . وحقّـاً إنّ من يكتسب الكـمال من الأفكـار السـاميـة والكلمات القيّمة لكبار الرجال ، فمحـال أن يرغب في معـاشرة الأشرار والأرذال والأنذال وأن يصاحب الأوباش »[١] .

***

---

(١) بالفارسية : أخلاق صموئيل : ١٢٤ .

الثقة بالنفس ؛ ثقة بالحقّ

* من حق الإنسان التوفيق في الحياة .
* الاتكال على الآمال الخدّاعة .
* من الدروس التي علمها الرسول الأكرم (ص) .
* لا ثقة للمتشائمين .
* الإسلام والاستقلال الذاتي .
* المسؤولية الفردية .
* بماذا نقيس الأعمال ؟ .
* القياس بالنفس .
* آثار التوكّل على الله .

من حقّ الإنسان التوفيق في الحياة

إنّ ما حظي به الإنسان من التقدّم والرقيّ المحيّر والمثير للإعجاب في جميع الشؤون الفنية والاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك الانتصارات اللامعة لكبار الرجال في تاريخ العالم ، إنّما حصلت في ظلّ الثقة بالنفس والنشاطات المستمرة ولا يقدر أحد أن يصعد إلى أعلى من الحدّ الذي هو فيه بدون الثقة بالنفس ، فما لم يكن لأحد ثقة بنفسه وبقدرته لم يقدر على أيّ عمل ، وإنّما في ظلّ الإيمان بالموفّقية نستطيع أن نصل إلى أهدافنا ، فإنّ الإيمان بالموفّقية هو الخطوة الأولى في طريق التوفيق ، إذ العمل الذي يعمله الإنسان إنما هو حصيلة إرادته وثقته ونظرياته وآرائه ، فلو كانت هذه الأمور لديه ناقصة قاصرة كانت نتائج أعماله أيضاً ناقصة قاصرة .

لا ينبغي أبداً أن نحدّد أفكارنا في الحدود الواسعة أو الضيّقة للأعمال ، بل بصرف النظر عن صغرها وكبرها علينا أن نتابع كل عمل بالثقة بالنفس وفي غاية العناية والإخلاص ، حتى نهاية ذلك العمل . هناك في مختلف المجتمعات أفرادٌ هم صانعوا أنفسهم يفيدون من مزاياهم الباطنية وذخائرهم الروحية لتحقيق الأهداف الإنسانية السامية ، وكلما استفيد من هذه المبادىء الإنسانية الشريفة نبعت أكثر من ذي قبل ، هذه الإفادة من تلك الخصائص النفسية في مواقعها هي التي جعلتهم في عداد الرجال الكبار البارزين المتميّزين ، وأدّت إلى الإنتصارات اللامعة والموفّقية لهم في مختلف مراحل أعمارهم .

إنّ خيبة الأمل وضعف النفس يسبّبان الجمود فالسقوط ، وإنّ الذين لا

يثقون بإرادتهم وعملهم ، ويعلّقون آمالهم للحصول على السعادة المادية والمعنوية على غيرهم ،ويشعرون بحاجة إلى ذي قدرة ليكونوا في ظل حمايته ، إنّ هؤلاء توصد في وجوههم أبواب الموفّقية ، وأمواج الحياة تتقهقر بهم .

إذا استقرّ في ذهن أحدنا عدم الثقة بنفسه والذي ينشأ من الإيمان بعجزه عن القيام بأعماله ، فإنّه لا يقدر على أن يدخل في أي شيء ، ولا أن نأمل له الرقي والكمال .

ما أكثر الاستعدادات التي انطفأت وهي في مهدها على أثر قلة الثقة بالنفس ، وما أكثر الأماني والآمال الوضّاءة والبنّاءة التي بقيت عقيمة وبلا نتيجة لقلّة الثقة لو كان الاستعداد من المستوى المتوسّط ولكن يصاحبه ثقة بالنفس لا تنهزم لكانت الموفقية التي تحصل بذلك أكثر بكثير من الاستعداد العالي ولكن في وجود متزلزل لا ثقة له ؛ ذلك أنّه لا يتمكن من أن يبذل قدرة يستطيع بها أن يقاوم المعوّقات والعراقيل ، ولا يتمكن من أن يبذل الطاقة والسعي المستمر الضروريّ واللازم لأن ينقذ نفسه من مشكلة معقّدة .

كثير أولئك الذين كانوا من حيث الاستعداد في المستوى المتوسط ، ولكنهم تقدموا بما لهم من روح الثقة بالنفس في الحياة ، واكتسبوا انتصارات لامعة ، وفي المواقع الحرجة حيث اقتضت الضرورة لجأوا إلى ما في ضميرهم من قوى باطنية أصيلة للتحرّر من الأخطار ، ولذلك فقد بقوا مصونين منها .

والمشاكل المعقّدة لا تحدث تغييراً لهؤلاء في مصائرهم ، ذلك أنّ النفس المصمّمة تحدث في مخّ صاحبها قوة إيجابية ثابتة ، وكلّ ما كان يقلّل من الإرادة الإيجابيّة كان بطبيعة الحال يقلّل من القوى السلبية التي هي نقطة نقيض للنشاط والثقة بالنفس .

الذي تنبع الإرادة الصارمة من ذاته سيطرد الأفكار السلبية بكل قوة ولا يتقبّل الضعف والعجز الكاذب بالنسبة إلى نفسه ، ولا يمكن ردّه عن الطريقة

الصحيحة التي اختارها بأيّة وسيلة ، ولا يمكن صرفه عن هدفه الذي يؤمن به ، وهو يؤمن أن الله سبحانه لم يحرم أحداً من منابع الموفّقية والسعادة ، وأنّ هذا العجز والحرمان إنّما هو وليد أفكار البشر أنفسهم ، فمن حقّ الإنسان الموفّقية ، ومن القطعيّ وصول الإنسان إلى هدفه فيما إذا كان ذا عقل إيجابيّ بنّاء وكان يتابع هدفه بإيمان وانتظام .

يقول العالم الغربيّ (الدكتور ماردن) :

« إنّ الإيمان والثقة بالنفس قوة مبدعة ، وعدم الإيمان قوة سلبية مُوهنة ومخرّبة بل محطّمة وقاتلة .

إنّ الشعور بالثقة بالنفس ينفي ويطرد التزلزل وعدم الثبات ، ويمكّن الإنسان من أن يتقدم إلى الأمام من دون توقّف وتلكّؤ وبدون صرف قوى زائدة وبكل متانة وثبات . إنّ جميع المخترعين والمصلحين والسّياحين والكاشفين والفاتحين كانوا ذوي ثقة وإيمان باستعداداتهم وقدراتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم ، وفي إزاء هؤلاء لو استعرضنا شخصية العاجزين والمنكسرين المنهزمين لتوصّلنا إلى أنّ أكثرهم كانوا لا يتمتّعون بالثبات لعدم الثقة بأنفسهم .

نحن لا ندري ما الذي أودعه الله في أولئك الأشخاص الذين هم الاستعداد التامّ للقيام بمهامّ الأعمال الكبرى ، وإنّما نعلم أنّ الثقة المطلقة للإنسان بتوفيقه في عمله دليل بارز على استعداده التامّ ، وأنّ من جهزّه الله بسلاح الإيمان والثقة المطلقة بنفسه ، سيساعده ليتوفق في أعماله أيضاً . فلا تحرموا أنفسكم من الثقة بها ولا تسمحوا للآخرين بأن يشككوكم بها ، فإنّ أساس جميع التوفيقات الكبرى ، فإن تضرّر هذا الأساس تحطّم ما عليه من البنيان أيضاً ، وإن بقي هذا الأساس سليماً بقيت أبواب الآمال مفتوحة بوجوهنا »(١) .

---

(١) بالفارسية : پيروزى فكر : ٨٣ .

إنّ أسلوب الفكـر مسري ، ولـه أثـر كثير في حيـاة الإنسـان ومختلف العلاقات الاجتماعية ، فلو كانت تسود أفكـاركم الجرأة والثقـة لكنتم تصحبـون معكم الثقة والطمأنينة أينما قدمتم وخـطوتم وحللتم ،وكذلـك العكس ، أي لو كانت الحالة الثابتة لأفكاركـم حالة الوسـوسة والـتزلزل وكـانت ثقتكم بأنفسكم بلغت درجة الصفر ، فلا محالة ستكونون تلقّنون غيركم الضّعف والعجز أيضاً .

لبعضنـا استعدادٌ تـام من أجل أن يسمّم الفضـاء والجوّ الـذي يحيط به ، وينفّذ الشك والترديد في الأذهان المستعدة للسعادة والتحرّر ، إنّ الناس السلبيّين كالحشيش في مزرعة المجتمع لا شغـل لهم سوى تضعيف معنـويات الآخـرين ، وطبيعي أنّه إذا كثر في محيط مّا هؤلاء الأفراد فليس أنه لا تنمو السعادة والتوفيق هنالك فقط بل تنعدم هنالك الثقة بالنفس والإرادة الحـاسمة ، وينتفي الميـل إلى العمل أيضاً .

ومن نـاحية أخـرى : تصبـح الحيـاة بصـورة لا تـطاق لأولئـك النشـطين والمتحـركين المضـطرين بأن يكـونوا عـلى اتصال بهؤلاء السلبيّـين بصورة مبـاشرة ومنتـظمة ، وإذا ابتعـد أولئك عن هؤلاء فكـأنّه قـد ارتفـع عن كـواهلهم حمـل ثقيل .

إنّكم تـواجهون في المجتمـع فئة أخـرى قد تعـوّدوا على « ضعف النفس » بحيث لا قدرة لهم على أن يتّخذوا « القرار الثابت » حتى بشأن أبسط الأعـمال ، وحتى أنّهم في اللحـظات الحسّـاسـة التي تستـدعي أن يتّخـذوا فيهـا قـرارات لا يعدلون عنها ، ومن الممكن لتلك الأوضاع والأحوال أن تغيّر مجرى حياتهم ، مع ذلك تراهم هنالك يصابون بالتزلزل وعدم الثبات بحيث لو سمعوا أقلّ ملاحظة أو نقد من أيّ أحد بدّلوا قرارهم ولو كان صحيحاً منطقياً .

إنّ وسواس العجز وعـدم التوفيق يبعث عـلى الإستسلام لأفكـار الآخرين وتلقيناتهم بلا أيّ قيد أو شرط ومن دون الدّقـة في تشخيص صحة تلك الأفكـار وسقمها ، وحتى أنّهم يتركون أعمالهم التي بدأوا بها .

ولا ريب أنّ هـذا العيب والنقص الروحي الكبـير لا يثمر سـوى التـوقف والجمود في محيط دائرة محدودة من الحياة .

وكلّما كانت ثقة الشخص نفسه قويّة كانت ثقة الناس به أوسع وأشمـل ، وإنّ أثر أيّ أحد على غيره يرتبط بمدى ثقته وإيمانه هو بنفسـه ، فإنّكم إن كـانت لكم ثقـة بأنفسكم وكنتم مطمئنّـين من صحة عملكم استـطعتم أن تجتـذبـوا إلى أنفسكم ثقة من تقابلونه وترتبطون به في ذلك العمل ، وبمحض مـا تنثلم ثقتكم بأنفسكم ويتسرّب التردد والتشكيك إلى أذهانكم فإنّكم ستغيّرون بالـطبع اعتـماد الآخرين وثقتهم بكم أيضاً .

وبكلمة : إنّ كلّ حركة منكم بـأيّ من الحالتـين الثقة أو الـترديد ستعـود اليكم ردود فعلها من قبل الآخرين .

الإتّكال على الآمال الخدّاعة

إنّ الثقـة بالنفس والاعتـماد على السعي المتـواصل في سبيـل الوصـول إلى هـدف السعادة من أكـبر عوامـل الموفّقيـة ، ولكن الإتّكـال عـلى الآمـال التي لا أسـاس لها ، وتـرسيم الأماني التي لا تتحقّق في صفحـة الضمـير ، بـدل السعي والفعالية ، إنّما ذلك ابتعـاد عن واقعيات الحيـاة . إنّ الأحلام الحلوة والخيـالات الخـدّاعة قـد تترك من الآثـار في أعماق روح الإنسـان ما يغـرق الإنسـان فيهـا ، ويبقى بعيداً عن إدراك الحقائق ورؤية الواقع ، وهكذا أناس لن يبلغوا السعـادة والكمال أبداً .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :

« اكذبِ الأمل ولا تثق به فإنّه غرور وصاحبه مغرور »[1] .

إنّ من أخطار الإتكال على الآمال الخدّاعة غير المتناسبـة إحداث عقـدة في

---

(١) غرر الحكم : ١١٣ .

نفس الإنسان تتواجد بعلّة خيبة بعض الآمال .

وهكـذا يرى الإمـام أمير المؤمنـين علي (عليـه السلام) حـدوث الخيبة في الآمال من عوامل تواجد عقدة نفسية في إحدى كلماته حيث يقول :

« ذل الرجال في خيبة الآمال »[١] .

وعلماء النفس كـذلك يـرون خيبة الأمـل من العوامـل المهمـة في حـدوث الشعور بالحقارة وانعدام الثقة بالنفس ، ويقولون :

« لعلّه ليس هنـاك أيّ عامـل يلحق الضرر بقيمة شخصيـة الإنسان مثـل النكسات واللوم على أثرها ، فإنّ النكسة تبعث على أن يرى الإنسان نفسه أقـلّ من الآخرين ، حينما يواجه الإنسان فشلاً يفكّر في أنّه أقـلّ من الآخرين وأذلّ ، إنّ الفشل يذهب بالثقة بالنفس ويبدّلهـا باليـأس والقنوط . وعـلى هذا فـالأطفال والشبيبة حينما ينهـزمون ويفشلون بصـورة مستمرة ستحـدث فيهم عقدة الحقـارة ويرون أنفسهم حقراء »[٢] .

من الدروس التي علّمها الرسول الأكرم (ص)

إنّ من أساليب رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) لبناء الإنسان هو تنمية روح الإتكال على الأعمال في أتباعه ، فالمسلِمُون اتّصفوا في ضوء تعـاليم قائد مدرسة الهداية والإرشاد النبـويّ بالثقة العميقـة والهمّة العـالية وعـزم راسخ وأهداف سامية ، من دون أن يركبوا أمواج الشهوات وتخدعهم الميول والأهواء ، ثم كانوا في أعمالهم دائماً يستعينون بمبدأ الخيرات الله سبحانه .

روى الـشيـخ الـكليـني في (الكـافي) بـسنـده عـن الإمـام الصـادق (عليه السلام) قال :

---

(١) غرر الحكم : ٤٠٥ .

(٢) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ٢٤٧ ـ ٢٥٢ .

« اشتدت حال رجل من أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقالت له امرأته : لو أتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألته . فجاء إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فلما رآه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله » فقال الرجل : ما يعني غيري . فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت: إنّ رسول الله بشر فأعلمْه . فأتاه ، فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله » حتى فعل الرجل ذلك ثلاثاً .

ثم ذهب الرجل فاستعار معولاً ثم أتى الجبل فصعده فقطع حطباً ، ثم جاء به فباعه بنصف مدّ من دقيق ، فرجع به فأكله ، ثم ذهب من الغد فجاء بأكثر من ذلك فباعه ، فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى معولاً ، ثم جمع حتى إشترى بكرَين وغلاماً ، ثم اشترى حتى أيسر ، فجاء إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) : قلت لك : من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله »[1] .

وكتب العالم الشهير (صموئيل اسمايلز) يقول :

« إنّ الثقة بالنفس أساس لكل فلاح ولكل تقدم، لو تزيّنت بها أكثرية أمّة لأصبحت تلك الأمّة كبيرة مقتدرة ، ولا سرّ لرقيّها وقدرتها سوى تلك الخصلة الكريمة ، ذلك أنّ عزيمة الإنسان تقوى مع الثقة بالنفس وتضعف بالإعتماد على الآخرين .

إنّ المساعدات التي تصل الإنسان من غيره في الغالب تذهب بمتابعته للأعمال وتوهن ما عنده من قوة جهادية وكفاحية ؛ فإنّ الإنسان لا يجد في هذه الحالة موجباً للسعي والمحاولة ، ولا سيما إذا تجاوزت المساعدات الخارجية عن

---

(١) أصول الكافي ٢ : ١٣٩ ط آخوندى .

حدّ اللزوم والضرورة فعندئذٍ تضعف في الإنسان شبكة أعصابه وتموت فيه روح العزيمة والمُضاد .

إنّ أفضل الشرائع والقوانين تجعل الإنسان مختاراً في الحياة وتمنحه الحرية ، لكي يستند إلى نفسه ويدير بنفسه شؤون حياته . بينما يتصور البشر أنّ على عاتق القوانين أن تضمن له الراحة والسعادة ، لا سلوكه ومساعيه هو .

لو تدبّرنا قليلاً لرأينا أنّ ما ننسبه من المفاسد أو النواقص إلى أمّة من الأمم أو شعب من الشعوب ، هي في الحقيقة مفاسد تمكّنت في وجود عدد من أفراد تلك الأمة ، وما لم تتغيّر طبائع تلك الأمة وروحياتها وأردنا أن نمنع من ظهور أو وجود تلك المفاسد من خلال القوانين وبسببها ، لأخرجت رأسها مرة أخرى من ناحية أخرى أو جانب آخر »[١] .

ويقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

« مَنْ لَمْ يُنْجِدْ لَمْ يُنْجَدْ »[٢] .

وعنه (عليه السلام) قال :

« من عجز عن أعماله أدبر في أحواله »[٣] .

ويقول أحد المفكّرين الغربيين :

« إنّ الطبيعة لا تسمح لأيّ شيء بالبقاء في محيطها إلّا إذا كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه ويساعدها . وإنّ تكوين أيّة نجمة وتعينّ مدارها وثباتها في ذلك المدار ، والشجرة الراكعة التي تنقذ نفسها من شرور الرياح العاصفة ، ومنابع الحياة في كل حيوان ونبات ، كل ذلك مظاهر من روح الثقة بالنفس .

أمّا نحن فنُشبه جماعة بلا انتظام لا يلتزم كل واحد منهم بحدّه ، ولا

---

(١) بالفارسية : اعتماد بنفس : ١٤ ـ ١٦ .

(٢) غرر الحكم .

(٣) غرر الحكم .

يوظّف أيّ واحد منهم نبوغه في فكره ولا يغور في غمار ذاته ، بل يخرج يديه ليطلب شربة ماء من أيدي الناس .

أمّا شبابُنا فلو اقترنت بدايات كفاحهم في الحياة بعدم التوفيق فإنّهم ينهزمون في أنفسهم ، ولو أصيب شاب تاجر بالكسر في تجارته عدّه الناس في الهالكين ، ولو درس من يتمتع بنبوغ عال في إحدى الكليات ولم يوظف بعد إكمال دراسته في مدة أعلاها سنة كان هو وأصحابه يرونه على حق أن ييئن من حظّه ويقنط حتى آخر عمره ! .

إنّ شابّاً معانداً من (ورمونت) أفضل من مئة من هؤلاء الظرفاء المدنيين ، حيث يجرّب جميع الحرف تقريباً طول سنين عديدة بصورة رتيبة ، فمثلاً يتّخذ مزرعة فيحرثها ويزرع ، ويتركها ليصبح بائعاً متجوّلاً ، ويترك ذلك ليكون مديراً لمدرسة أطفال ، ويدعها ليصبح واعظاً دينيّاً ، يتم يتعهد بسكرتارية جريدة ، ثم يشتري قطعة أرض وهكذا . . كلما سقط عن شيء تلقّى الأرض بيديه ورجليه كالقطّ الذّكي فقام بلا إصابة .

هذا الشاب يتقدم مع الزمن ، ولا يخجل لعجلته في اختيار الأعمال ، فإنّه لا يرضى بتأخير في أمور معيشته وحياته ، بل هو يفيد من كل دقيقة منها ، فله بدل الفرصة مئات الفرص ، دع الرّواقيّين يفتحوا أبواب المواهب بوجه الإنسان ويقولوا له : إنّه ليس شجرة تهتزّ لكل ريح ، بل له القدرة على أن يخرج من مختلف الضغوط سالماً ، وهو بفضل قوة الثقة بالنفس تظهر له قدرات جديدة »[1] .

مع أنّ الثقة بالنفس من أكبر الفضائل الأخلاقية وأنفعها ، ولكن علينا أن نتنبّه إلى أنّ لا تلتبس هذه الفضيلة الأخلاقية بالنخوة والرضى عن النفس ، فإنّ بين الرضى عن النفس والنظرة الواقعية فواصل بعيدة جدّاً .

---

(١) بالفارسية : فلسفهء اجتماعى : ٣٢٤ ـ ٣٢٨ .

إنّ الـذي يثق بنفسه أكـثر من مستوى طـاقته والحـدّ المعقول ، ويغـالي في ذلـك ويبالـغ فيه ، ويسلك سبيـل الإفراط والجـزاف في رضاه عن نفسـه ، فهو مصاب بالنخوة والغرور ، وفي عالم الغرور سيرتكب أخطاءً كثـيرة ، فإنّ المغـرور يعتمد على إمكاناته وقدراته الخيالية ، وعلى أثر عدم رؤيته أو مسامحتـه في التقييم الواقعي للمشاكل لا يعدّ نفسه ولا يجهّزها لمقاومتهـا ، ولهذا فهـو حين احتكـاك التجارب لا يقدر على إثبات حنكته ولياقته .

وعـلى العكس منه الإنسـان ذو النـظرة الـواقعيـة فـإنّـه يكـون نـاظـراً في العـواقب ، وهو يتمتـع برؤيـة متفائلة طبيعيـة سليمة ، وللوصـول إلى المقاصـد والأهـداف يقيّم قواه في بـدء العمـل بكـل دقـة ، فـلا يتجـاوز حـدود قـدراتـه وطاقاته .

لا ثقة للمتشائمين

كما أنّ من له ثقة بنفسه تنمو فيه طاقاته وقدراتـه ، وهو بـذلك يتمكّن من أن يعيش سعيداً حرّاً وينـال الرّقي والتقـدم ، كذلـك من كان متـأثراً بـالأفكار السلبية فإنّه تضعف فيه قواه البنّاءة بل ينعدم فيه النشاط والفعّالية .

والذي يئن دائماً من سوء الزمان ومشاكل الأمور وضغط الحياة يفتح عـلى نفسه أبواب الفشـل وخيبة الأمـل ، وبدل أن يتصرف في مصـيره بإرادتـه يصبح أسيراً بيد الأحداث ، وأمواج الحياة تتقهقر به إلى الوراء ، وسوف لا يتمكن من أن يقترب إلى آماله وأمانيه .

النفسية السلبية من الخصائص البارزة للذين يعوزهم الثقة بأنفسهم .

يقول علماء النفس :

« قد يوجد من المتشائمـين مَن يردّ من يـرجو منـه شيئاً لقلة ثقتـه بنفسه ، فهم غير مطمئنين بأنفسهم ، بل يروا فيهـا عوزاً ونقصـاً ، غير واثقـين بأنّهم إذا

حول إليهم عمل من الأعمال أو طُلب إليهم ذلك استطاعوا أن يقوموا بـه ، فهم يخافون أنّهم إذا أجابوا بالإثبات لم يستطيعوا أن يخرجوا من عهدة ذلك العمـل ، ولم يتفهّم الآخـرون عدم قـدرتهم عليه ، فتكـون النتيجة أن يقـل قدرهم لـدى النـاس . فهم لذلـك يؤطّرون أنفسهم بكلمـة « لا » وهم بذلـك يحافـظون على أنفسهم ، فإنّهم إذا قالوا «لا» أراحوا أنفسهم .

إنّ المتشـائم يرى كـل شيء من جانبـه السلبيّ ، ولـه الجـانب السلبيّ في كيفيـة سلوكه ونـظرته بـالنسبة إلى الأشخـاص والأشياء ، ولـذلك فهـو قلّما يلتذّ بشيء أو شخص ، وهو دائماً ينتقد ويتابع العيوب ويبحث عنها وعن النقائص ، وهو في كل ذلـك يتكبّر عـلى غيره ، يتنفّـر من الأفكار القـديمة ولا يثق بـالأفكار الحديثة .

وللمتشائمين نظرة مخالفة بل عداوة مع من لا يعرفونه ، وإذا واجهوا أُناساً في مجمع لأول مرّة لم يقبلوا عليهم إلّا بتكلّف شديد .

وقـد تترسّـخ هذه الحـالة في بعض النـاس بحيث لا ينظرون إلى أحـد إلّا بسوء ، وينتقدون كل فكر ونظرية قبل أن يصلوا إلى ماهيّتها ، ولذلـك فهم قلّما يصادفون أحداً .

وإنّما يتّجهون إلى من يشبههم ، وذلك حيث يتصورون أنّ صـداقتهم مع أولئك يبعث على نشر أفكارهم ونظرياتهم وعقائدهم فقط »[١] .

الإسلام واستقلال النفس

إنّ حبّ الاستقـلال الشخصي ينبـع من عمق الشعـور البشري ، وهـذه الحاجة الفطرية إنّما تقضي فيها تأسست أساليب العمـل على أسـاس هذه الغـريزة الفطرية .

---

(١) بالفارسية : روانشناسى براى زيستى : ٢٠٠ .

إنّ الإسلام ينظر إلى مبادىء الميول الإنسانية بنظرة صادقة ونزيهة ، وليس أنّه لا يأمر بقهر الدوافع البنّاءة والميول الأصيلة الذاتية ولا ينهي عن ظهورها في ميدان الشعور فحسب ، بل يستمدّ منها للرقيّ نحو الأهداف الإنسانية السامية ، ولكنه بلحاظ واحد يجمع بين النظر إلى القوى المحركة من جانب وإلى الأصول التي تحكم تلك القوى بالنظم والانضباط من ناحية أخرى .

بهذه الرؤية الشاملة يكون بالإمكان أن نجعل النفس الإنسانية في موازنة سليمة من مختلف جوانبها ، وأن نوظّف قواها في ظروفها المناسبة والنافعة ، كي يتمكن الإنسان من أن يخطو خطوات ثابتة وقوية على مدارج الكمال ، **ويصرف** طاقاته المتراكمة في سبيل تأمين **الهدف** الأساسيّ للحياة والحصول **على المقام** اللائق للإنسان .

إنّ الرقيّ والتقدم من الأهداف الإنسانية ، والبشر حيث قواه محدودة ومحال عليه أن يصرف كل ما لديه في سبيل الوصول إلى المقاصد الدنيئة ومع ذلك يبقى له مجال للتجوال في سبيل الكمال ، ويتمكن من أن يجد السبيل إلى العالم العلوي معرفة وارتباطاً .

إنّ الإستجابة الدائمة والمستمرة للدوافع الدنيئة هي العامل المهم في سقوط الإنسان ، ويشكل جداً مع هذه الحالة أن يبدي من نفسه نشاطاً وفعالية مهمة في الترفّع نحو الأمور القيّمة .

إنّ الإسلام يعبّىء القوى الإيجابية في الإنسان لمقاومة المشاكل ، ليقف في الحوادث الشديدة ويسيطر على كل شيء بمتابعة الكفاح ضدّ العوائق والعراقيل ، وكذلك ليبقى ثابتاً أمام الأقوياء يحافظ على مكانته ، وهكذا ترتفع همم الإنسان ويصبح ذا قوة روحية قويمة وعجيبة .

إنّ شرف الإنسان واستقلاله رهين بان يصرف في معترك الحياة همةً تكفي للمهام ، ويحل مشاكله بالثقة بالنفس ، وإنّما يتحقّق هذا الأمل فيها إذا أوقف الإنسان بكل قواه على قدميه في سبيل تأمين السعادة المادية والمعنوية لنفسه .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال :

« من رقى درجات الهمم عظّمته الأمم »[1] .

إنّ من يفتقد الثقة بنفسه واستقلال شخصيّته فهو يفتّش عن مستند يستند إليه ويستظل بظلّه في مشاكل الحياة ، إنّما هو كالطفيّليات التي تحلّق بفروعها اللطيفة حول الأشجار المرتفعة ، لتبقى من خلال ذلك وفي ظل تلك الشجرة مصونة من أذى الأعاصير والحوادث .

من الممكن أن تنتهي النفس المتشائمة إلى عبودية ذليلة أمام الأقوياء ، وإذا احتقر الإنسان نفسه هكذا افتقد شخصيته بالمرّة ، وسيفتقد قدرة اتّخاذ القرار فإنّه سيصبح تابعاً لا يملك نفسه ولا حرّيته ، وما دام هذا الأسلوب من الفكر يسيطر عليه فمحال أن يتمتع بالمزايا الإنسانية .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« من احتجت إليه هِنت عليه »[2] .

المسؤولية الفردية

إنّ التوصّل إلى السعادة المعنوية الأبدية في النظام الإسلامي يتوقّف على عمل الشخص لنفسه ، بل إنّ المسؤولية الفردية تشكل أساس التعاليم الإسلامية ، والتكاليف التي وضعها على عاتق الإنسان في جميع الشؤون الدينية والدنيوية يجب أن تؤدّى بالعمل المباشر ، وعلى الأساس نفسه يبتنى الثواب والعقاب ، فالقرآن الكريم ينبّه إلى ﴿ **أن ليس للإنسان إلاّ ما سعى** ﴾ و ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[3] و ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن ، فلنحيينّه حياة طيبة ، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[4] . وفي

---

(١) غرر الحكم : ٦٦١ .

(٢) غرر الحكم : ٦٦٨ .

(٣) سورة المدثر : الآية ٣٧ .

(٤) سورة النحل : الآية ٩٧ .

هذه الدنيا أيضاً إنّما يستوفي الإنسان نتائج أعماله :

ففي (نهج الفصاحة) عن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

« من عمل سوءً يجزيه في الدنيا »[1] .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال :

« من يزرع خيراً يحصد رغبة ، ومن يزرع شرّاً يحصد ندامة »[2] .

وكتب الفيلسوف الأمريكي (أمرسون) يقول :

« إنّ العالم بمثابة جدول ضرب أو معادلة رياضية كيفما يعادلونها تعتدل وتتوازن ويكون جوابها واحداً دائماً ، إنّنا أيّ طريقة نختارها لحلّ مسألة رياضية فإنّ أعداد النتائج ستكون واحدة لا محالة ، والطبيعة بسكوتها تفشي كل سرّ بطريقة متقنة ، وتجازي كل جريمة ، وتثيب على كل فضيلة .

إنّ ما نسمّيه نحن عقوبة إنّما هي حاجة عالمية يطالع بموجبها في كل مورد الكلّ في قميص الجزئي ، تماماً كما لو نرى دخاناً نعلم بأنّه قائم من نار ، ولو نشاهد يداً ورجلاً علمنا بجسد وراءه ، كذلك كل عمل يستتبع جزاءه معه ، أو قل إنّه حسب القانون الذي تحدّثنا عنه يستكمل نفسه من طريقين : الأول : التفاعل في الطبيعة الواقعية لنفس الفعل والعمل والثاني : الطريقة العلنية لظاهرة . والكيفية العلنية هي التي تسمّى الجزاء والعقاب . العقاب الذاتي يرى بالعين المجرّدة في الشيء نفسه ، والعقاب الكيفيّ يرى ببصيرة الفهم .

هذه العقوبة الخاصة من الممكن أن تبدو بعد أعوام عديدة من وقوع الحادثة ، ولكنها تستتبعها وتلازمها حتماً ، إنّ الجريمة والجزاء أغصان شجرة واحدة ، والجزاء ثمرة تنضج وتظهر فجأة من باطن زهرة اللذّة التي سترتها

---

(١) نهج الفصاحة : ٥٩٢ .

(٢) نهج الفصاحة : ٦٢٢ .

وغطّتها »(١) .

بماذا نقيس الأعمال ؟

إنّ الإسلام قد نظر إلى الدوافع الذاتية الأصيلة التي تدفع الإنسان نظرة موضوعية أصيلة ، وبنى الأعمال على أساس « النيّة » وقال : « الأعمال بالنيّات » .

لكل عمل جانبان ولكل منهما حساب مستقل على حدة ، فمن الممكن أن يكون عمل خيراً من جهة ولا قيمة له من جهة أخرى، فهنا يجب أن ينظر إلى ما حمل فاعله عليه من الدوافع النفسية والروحية ، وأنّه أيّ هدف كان يتابعه في نظامه العقائدي والفكري .

إن حكمنا في هذه الموارد يستند إلى القيم الخاصة الاجتماعية والخارجية للعمل ، ولا موضوعية لنيّة الفاعل من هذا المنظار ، فلا يفترق لدينا أن يكون هدف المحسن من إحسانه الرياء والمنافع المادية ، أو يكون له في عمله دافع قيّم ، وأن تكون هناك نية طاهرة نزيهة في قالب عمله . فالعمل الصالح في النظام الاجتماعي هو ما يكون نافعاً للمجتمع ، ولا علاقة له بما فيه للفرد من تكامل معنوي ، وأنّه بادر إلى ذلك العمل بتأثّر من أيّ عامل أو دافع ؟ .

بينما في نظام الله لا ينظر إلى كميّة العمل ، بل الذي يتقبّله الله تعالى هو كيفية العمل وأثره النفسي والذاتي في شخص الفاعل ، هنا الحساب يتبع ما بين الفعل والفاعل من الرابطة ، وبأيّ نية وهدف أقدم على ذلك العمل ، فلو كان قد بادر إلى ذلك العمل الصالح بدافع الرياء فإنّ نفسه لم تتقرب بذلك إلى الله تعالى بل ابتعد وتنزّل ، ولا يكفي لتلقي العمل صالحاً لديه أن يكون مفيداً للمجتمع فحسب .

---

(١) بالفارسية : فلسفهء اجتماعى : ٣٧٨ .

بل العمل الاجتماعي المفيد إنّما يكون نافعاً بالنظر إلى التكامل المعنوي فيما إذا كان ملكوتيّاً في القصد والنيّة ، وكانت الروح خارجة عن حصار الرياء والأهواء إلى الصفاء والخلوص .

فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدّين** ﴾[1] .

وفي (نهج الفصاحة) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) :
« إنّما الأعمال بالنيّات »[2] .

على هذا الأساس الثابت والمعينّ تتعينّ درجة قبول الأعمال وقيمتها ، فالعامل الذي يسبّب رفع الدرجات وقبول الأعمال هو الهدف الطاهر والشريف الملحوظ فيه طلب رضا الله سبحانه وتعالى وعزّ وجل .

وإنّ أثبت سمة لثبات الإيمان بالله هي النيّة المعنوية ، وعندئذٍ يتّصف العمل بالقيمة والمزيّة الخاصة ، وسيكون صاحب هذا العمل مورد لطف الله وعنايته وحمايته ، ولا يخرج هذا الملاك القيّم والقويم والقوي عن حدود عمل الإنسان وتحمّله وإدراكه وإحساسه وعواطفه .

إنّ الذي لم تسطع أشعة الله على روحه فهو خالٍ من الإيمان والإخلاص ، إنّما يدفعه إلى القيام بالأعمال الميول النفسانية والشهرة الفانية ، إنّه يبدأ عمله خلواً من روح الحقيقة وينهيه ليحترموه مثلاً ويروه ذا فضائل إنسانية طاهرة .

هذا الهدف غير القيّم يكون السبّب في ردّ عمله ، ولا قيمة لعمل هذا الفرد في محضر الربّ ، ولا تعود عليه منه عائدة سوى ذلك الهدف المحدود الذي كان يهدف إليه .

---

(١) سورة البيّنة : الآية ٤ .

(٢) نهج الفصاحة : ١٩٠ .

أمّا الذين يتمتّعون بالثقة بأنفسهم ويعتمدون على أعمالهم فلا يشعرون بحاجة في أنفسهم إلى الرياء ، فالرياء إنّما هو من دأب من لا عمل لهم أو لا ثقة لهم بأنفسهم ويعانون من مرض نفسي .

وفي (غرر الحكم) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بشأن هؤلاء :

« لسان المرائي جميل ، وفي قلبه داء دخيل »[١] .

وفيه عنه (عليه السلام) قال :

« الافتخار من صغر الأقدار »[٢] .

ويقول العالم النفسي الشهير (شاختر) :

« من الوسائل التي نتوسّل بها لجلب انتباه الآخرين عند الفشل وخيبة الأمل وعدم التوفيق ، هو الإطراء في الثناء على أنفسنا ، نتصوّر الأعمال التي نحبّ لو كنّا نعملها والموّفقيات التي نأمل لو كنّا نحصل عليها ، وكأنّها كانت وحصلت ، فننسبها إلى أنفسنا، أو نقنع من أنفسنا أن نتحدّث دائماً عن الأفعال التي عملناها وأن نعظّمها مهما كانت صغيرة وحقيرة بدلاً عن الأعمال التي لم نعملها والموفّقيات التي لم نحصل عليها .

هذا النمط من الناس ينخدعون بجزافاتهم ويرضون عن أنفسهم مخدوعين بحيث تفوتهم أية فرصة للسعي والموفقية . ولو كان الثناء على النفس يريح القائل من عذاب عدم الموفّقية في الأعمال وعدم اجتذاب انتباه الناس إلى نفسه ، فيخدع بذلك المستمعين بصورة مؤقّتة ، فإنّ ذلك لن يعالج الداء الأصيل .

إن من يستطيع أن يعمل الصالحات ويكون موفّقاً في ذلك ويحصل بذلك على موقعية في قلوب الآخرين فلا حاجة له إلى الثناء على نفسه ، فهو بدل ذلك

(١،٢) غرر الحكم : ١٠٦ ، ٦١٠ .

يسعى ويعمل ، ويحصل كل يوم على أصدقاء أكثر وموفّقية أكبر »[1] .

ويقول (شوپنهاور) :

« إنّ الثناء على النفس يولّد الإنزعاج لدى الآخرين ، فهو من جانب قد يشتمل على شيء من الكذب والتزوير ، ومن جانب آخر هو ينشأ من الجهل والحماقة ، إنّ من يتحدث عن صفة خاصة بصورة مستمرة قد يكون هو فاقداً لها . واعلموا أنّ الذين يتحدثون دائماً عن موفّقياتهم ومظاهر عقولهم وتدبيرهم وقواهم يفتقدون كل هذه المزايا ، ولا ينبغي أن ننسى أنّ الكذب والقول الجزاف سوف لا يدوم كثيراً حتى ترتفع الحجب والستائر عن وجه الحقيقة ، وحينئذٍ يفقد المرء كل مكانته ووجاهته »[2] .

القياس بالنفس

إذا كان الشخص ملوّثاً فإنّه يقيس سلوك الآخرين وأعمالهم على أساس مقاصده ونيّاته الملوّثة وغير النزيهة ، كما في (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« الرجل السوء لا يظنّ بأحد خيراً ؛ لأنّه لا يراه إلاّ بطبع نفسه »[3] .

وهذه هي حقيقة علمية ، يقول عنها علماء علم النفس :

« حينما تمتلىء الدنيا بعواطفنا وميولنا وأفكارنا ، فمن المقطوع به أنّنا ننظر إلى كل شيء منها بنظرتنا الشخصية ، وكأنّ أحاسيسنا تظلّل على رؤوس الكائنات ، فالعواصف تصيب باليأس والقنوط ، والنسيم الغضّ الطّري يورثنا الرضا والسكون ، وهكذا فنحن نرى الطبيعة من نافذة عواطفنا وأحاسيسنا ،

---

(١) بالفارسيه : رشد شخصيت : ٩٢ .

(٢) بالفارسية : أفكار شوپنهاور : ٩٢ .

(٣) غرر الحكم : ١٠٤ .

وحسب أحاسيسنا من الممكن أن نرى الهرّ حيواناً محبوباً ظريفاً أو حيـواناً مؤذيـاً مزعجاً . العواطف والأحاسيس تغيّر الدّنيا التي نعيش فيها بصورة كلية .

يعلم الحقوقيـون والقضاة أنّـه قلما يتّفق أن يشهد الشهـود لحـادثـةٍ بسيـطة ساذجة شاهدوها من قريب ، بشهادة واحدة تماماً ، حتى بالنسبة إلى الأمـور التي لا تثير فينا العاطفة نشاهد جيداً كيف تختلف أفكارنـا وأنظارنـا ، فبالأولى حينـما تكون الحادثة عاطفية أيضاً فإنّ نتائج أذهاننا ستكون مردّدة أو مشكوكة »[١] .

آثار التوكل على الله

إنّ الثقـة بالنفس ليست أنّها لا تنافي الاتكال على الله تعالى فقط ، بـل إنّ الاعتماد على ربّ العـالمين والاستمـداد من القدرة الإلهيـة الأزليّة سيؤدّي إلى قـوّة النفس والشخصية .

إنّ المؤمن مع تمتّعه بثقته بنفسه واستقلال شخصيته ، ومـع إفادتـه من كل الإمكـانيات التي هي تحت تصرّفـه بصورة تـامّة ودقيقـة ، ولا يفوّت عـلى نفسه فـرصة ، مـع ذلك لا يحصر روحـه بين العلل والعـوامـل المـاديـة ، ولا تتـوقف إنسانيته على المادة ، بل إنّ التعالي والتسامي إلى القمة مفتـوح عليه ويـرى عمله أبعد من حدود المادة ، فهو يربط بين نشاطاته وفعّالياته وأهداف الحياة العالية .

إنّ من يطمئن قلبه بالإيمان فإنّ اعتماده وثقته سيكون بالله تعالى الذي بيده تدبير كل الأمور وحده لا شريك له ﴿ **ما يفتـح الله مِنْ رحمة فـلا مُمْسك لهـا وما يُمسك فلا مرسل له من بَعْدِهِ ، وهو العزيزُ الحكيم** ﴾[٢] .

إلى أين يتمكن أن يلجأ البشر فيكون خارجاً عن حـوزة قدرة الله تعـالى ؟ إنّ اللجوء إلى ما سوى الله لا ينتج سوى الذلّة والحقارة ، وأنّى لمخلوق عـاجز لا

---

(١) بالفارسية : روانشناسي براي همه : ٢٥٩ .

(٢) سورة الفاطر : الآية ٢ .

منجا ولا ملجأ له إلاّ الله بل هو فقير في كل شيء إليه ولا يملك من أمره شيئاً ، كيف له أن يمتلك أمر غيره ؟ .

وعلى هذا فلا شيء أفضل وأجمل من أن يعيش الإنسان في كنف لطف الله وحمايته ، الذي بيده تدبير جميع الأمور . إنّ العبودية والخضوع أمام الله في الضرّاء والسرّاء، والإعتقاد الجازم الراسخ بسيادة القدرة المطلقة الإلهية فوق جميع القدرات والعلل والعوامل المادية ، يترك في نفس المؤمن آثاراً عجيبة من الطمأنينة بحيث لا يفتقد قيمته وثقله أمام أيّ حادث ، ولا يضطرب ولا يقلق لأيّ شيء كبيراً كان أو صغيراً .

وإذا سلّم الإنسان نفسه وإدراكه إلى الحقّ سبحانه امتلأت روحه من الإذعان بطاعة الله والتسليم له حسب ظرفيّته ، فلا يرتفع أنينه من الحوادث الأليمة ، ولا يغترّ ولا يسكر ببلوغ مناه ، وبكلمة : كلّ ما يورث الآخرين غروراً وتيهاً لأنفسهم لا يؤثّر فيه أثراً غير مرغوب فيه ، وبما فيهم من عزيمة راسخة وروح ملىء بالإيمان والطمأنينة فهم لا يستسلمون لليأس والقنوط ، وهو منشأ كثير من الفشل وخيبة الأمل والهزائم والنكسات .

إنّ الاتّكال على الله لن يؤدّي إلى العجز أو الضعف والوهن ، بل هو ثقة واعتماد يوثّق قوة الإرادة ، ويقطع جذور أي وسوسة أو تردد من القلوب .

إنّ الكفاح الدائم والمستمر للرجال الإلهيين ضد عوامل التخريب والانحراف في المجتمع والأفكار المنحطّة فيه ، مع أنّه كان في أوضاع ومحيط غير مساعد ، ولكنّه كان يستمدّ من الحقيقة اللامحدودة ، فهم كانوا يستعينون بهذا المدد اللامرئي لتنفيذ برامجهم الإصلاحية وإرشاد العباد إلى نهج الرشاد ، وحيث كانت لأرواحهم ارتباط غير منقطع بقدرة الله الأزلية ، فإنّهم كانوا يتابعون أهدافهم حتى المرحلة النهائية بكل صراحة وقاطعيه .

ليس للثقة بالنفس بدون الاتكال على الله أن تنقذ روح الإنسان في الأحوال الحرجة والمنهكة للقوى من الألم والقلق والإضطراب ، فإنّ الشدائد

والعوامل المعاكسة في الحياة تهزم روح العاري من الاعتماد على الله والذي لا تتجاوز بصيرته عن حدود الماديات ، وهو بهذه الحالة لا يتمكن من أن يخطو أية خطوة في مدارج الكمال وأن يدرك الحقائق الكبيرة حتى لو كانت بيّنة واضحة ، وربما أصيب بألم ثقيل من حادث غير جليل .

إنّ ملاحظة كيفية روحية المسلمين الأوائل في صدر الإسلام تثبت لنا هذا المعنى ، إذ كانوا هم أفضل نموذج للاعتماد على الله والتوكّل عليه .

لا يمكننا أن ننسب العجز والوهن والحالة السلبية واللااعتناء ، إلى من كان دأبهم السعي والتضحية في سبيل العقيدة ، والفعالية والنشاط الدائم بهدف بناء مجتمع جديد سعيد ، في تلك الأوضاع الشديدة جدّاً .

أولئك الذين تربّوا في تلك المدرسة الإسلامية الأولى النشطة ، لم يسيطر عليهم حالة عدم الثقة أبداً ، وهذه الإرادة الثابتة المطمئنة هي التي فتحت عليهم طريق التقدم ، بحيث أحدثوا ذلك المجتمع الوحيد الذي لا نظير له في التاريخ .

* * *

على كل أحد أن يقيّم موقعه في الحياة ، ويعرف أنّ ما اختاره من طريق في الحياة هل هو إلى خير وسعادة أم إلى الشقاء والنكبات . وبالتعرّف على الحاجات النفسية نستطيع أن نكافح ضد العوامل التي توجب اضطراب التوازن الرّوحي ، وأن لا ندع تلك العوامل والظروف تجتمع وتتكاتف على ضرر الإنسان . أمّا بعد أن علمنا بأنّ النقص مسيطر على وجود إنسان مّا فما لم يتعينّ منشأه فليس بالإمكان العلاج القطعي .

إنّ أفضل شيء للمصابين بعدم الثقة والذين يخافون أن يبدأوا بأيّ عمل مخافة أن لا يوفّقوا فيه لو بأدوا فيه ، هو أن يدرسوا عوامل هذا النقص الرّوحي ؛ إذ من الضروري اللازم لعلاج أيّ مرض في المرحلة الأولى أن نتعرّف

على علله وعوامله ، ومن خلال ذلك نتمكّن من أن ننفذ إلى أعماق وجودنا ونجد بذلك مفاتيح العلاج .

ولا شك أنّه مع ثبوت عدم سلامة حالات شخص مّا ، فبنسبة السعي في اجتثاث تلك النواقص تعود إليه توفيقات كثيرة ، ولا ريب أن ظرفية الإنسان وقدرته تسع الكفاح ضد العوامل النفسية المضادة والمعاكسة للكمال .

إنّ كل عادةٍ سيّئة علامة عن ضعف إرادة حصل للإنسان على أثر تكرار عمل مّا ، حتى أصبح مرضاً مضرّاً مزمناً . وتغيير العادة وإن كان يبدو لأوّل وهلة مشكلاً جدّاً ، إلاّ أنّه بالتمرين والتدريب والممارسة المستمرة من الممكن أن تغيّر مجرى العادة ومسيرها بحيث تختلف عن العادة السيّئة السابقة . وإنّ الانتصار على أيّة عادة ضارّة للبلوغ إلى السجايا النفسية الطاهرة ، لهو انتصار كبير .

وفي (غرر الحكم) عن علي (عليه السلام) قال :

« بلغة العادات الوصول إلى أشرف المقامات »[1] .

***

(١) غرر الحكم : ٣٣٥ .

الخوف والرجاء

* غريزة الخوف .
* لا الجبن ولا الوقاحة .
* عدم المعرفة برموز الحياة .
* تركيب الخوف والرجاء في الإنسان .
* ضعف الإرادة .
* الشجاعة بمعناها الواسع .
* الرياء صورة من الخوف .

غريزة الخوف

إنّ الخوف من الغرائـز الأساسيـة ، وهو جـزء من الكيفيات البـديهية لأيّ موجود حيّ ، تعرض له هذه الحالة حينما يواجه خطراً . في كفاح الحيـاة ، حينما يقع الإنسان على مفترق طـرق : الفرار أو الإنعدام أو الإصابة ، يمنحه الخـوف دافعاً كافياً لترجيح جانب الحياة ، إذن فالهـدف من الخوف هـو السعي في سبيل النجاة من المخاطر .

لـو كان الإنسـان ما قبـل التاريـخ لا يحترز من مختلف المخـاطـر ، لم يكن بإمكان العنصر البشري أن يستمر في الحياة .

لا تصحّ هذه الحالة فيما إذا كانت حياة الإنسان مهـدّدة بالخـطر فقط ، بل كلّما كان الإنسان في معرض إصابة مّا وجد الخوف دافعـاً له لـلابتعاد عن مـوقع الخطر. وقد أثبتت التجارب العامّة أنّ خطر الوقوع تحت سلطة الآخرين أكثر شيء يوجب الخوف في البشر ، والخـوف الذي يصيب الإنسان من ذلك من الممكن أن يشلّ حركة الإنسان لعدة شهور أو سنين .

هذا الخوف في الحقيقـة ينشأ من مخـاطرة شخصيـة الإنسان ، والـذي يقع موقع هـذا التهديـد يشعر بـأنّه سـلب اختيـاره لاتّخاذ القـرار ، وسيضطر إلى أن يستمد من غيره كيفية سلوكه في الحياة .

وكلّما كان التلقين النفسيّ فيه بافتقاده شخصيته أقوى وأشد ، آلمته وحشته أكثر ، وقد تصل هذه الحالة إلى مرحلة الجنون .

وما يقولون من أنّ الخوف من الغرائز الذاتية وهو مفيد لاستمرار الحياة إنّما هو فيما إذا لم يخرج عن حدّ الاعتدال ، أمّا إذا أفرط فيه فهو مُضرّ قطعاً ؛ فإنّ الخوف الخيالي الذي هو نوع من الوسوسة وتوهّم التعاسة والشقاء والألم قبل وقوعه ، فهو نوع مرض من نفسي مؤلم ومعذّب، يوهن الذهن ويضعف الفكر، وقد دلّت دراسات الأخصّائيين على أنّ كثيراً من الناس يفتقدون سلامة أنفسهم بأثر من هذا العامل ، ليس هذا فقط بل قد يضرّهم أكثر من ذلك إن كان هناك شيء أكثر قيمة من صحة الإنسان وسلامته .

فكثيراً ما رأينا أنّ أزمات الخوف الشديد أصبحت سبباً لموت الفجأة ، فمن الممكن لخوف فجائي أن يزلزل ميكانيزم الحياة في الإنسان فيوقّف حياته .

وقد تكوَن حالة الخوف والوسوسة مقدمة لمرض نفسي شديد ، ومسبّباً عن تحوّل شديد في نفس الإنسان ، وإلّا فإنّ الإنسان الطبيعي لا يصاب بهذه الحالات بهذه السرعة ، بل يتعادل في نفسه في كمال الوعي واليقظة .

وقد يصاب بعض الناس بوحشة مبهمة مجهولة المنشأ والمصدر ومن دون أن يقدروا على أن يبيّنوا ممّ يخافون ، ومن دون أن يطلع أقرب الناس إليهم على الألم الخفيّ الذي يعانونه ، طبعاً هذا الخوف من مميّزات دور الطفولة ، وكل من خلّف دور الطفولة فقد قضاه بقليل أو كثير من حالة الشك والخوف في نفسه حتى بلغ دور التمييز والتشخيص ، ذلك سواء شاء أو أبى .

وبالتالي فإنّ هذا العيب الكبير يُعدم عناصر الموفقية والرقيّ والتقدم في الإنسان ، ويقلل من نشاط الفكر والبدن وفعّاليتها ، وله آثار في جميع الأعمال التي تتحقق على يد الإنسان .

عدا عن أنّ هذا الخوف لا ينفع شيئاً ، وسواء تحققت تلك المخاطر أم لا ، فإنّ هذا الخوف لا يعود منه على الإنسان سوى إتلاف الوقت وتقليل القوى البدنية والمعنوية ، ولا يُبقي فيه لحين مقابلة الشدائد والمشقّات أيّة قدرة أو جرأة على المقاومة .

إنّ حالة الخوف والهلع تظهر في أشكال وصور عديدة ومختلفة ، كما يقول الدكتور (كولز) :

« أليست لك ثقة بنفسك ولا ترى نفسك قادرة على مواجهة شدائد الحياة ؟ ألست تشكو من خجل شديد ومؤلم ؟ أفهل تتألم في الاجتماعات وإذا قابلت من لم تكن تعرفه من قبل تصاب بالتشويش والاضطراب ؟ ألست مرتاحاً حتى تكون وحدك ؟ إذن فأنت خائف . .

هل تشعر بأنّ الناس يرونك غير فاهم ؟ فهم لا يفهمونك جيّداً ولذلك فهم يخالفونك ، هل تفكر في الماضي وما فات منك وتتأمّل كثيراً ؟ هل تشعر بالتقصير والذنب بالنسبة إلى شيء أو شخص معيّن في الماضي السحيق البعيد ؟ .

هل تفكر دائماً فيما حولك وأنت قلق لما يحدث لك ؟ هل يؤثّر فيك كلام الناس ولو كان باطلاً ؟ هل تخشى إذا غضبت واشتعلت فيك نيران الغضب من أن لا تسيطر على نفسك وتعجز عن إخماد لهيبه ؟ هل أنت منزعج من معاشرة الناس وتتعصّب للشيء كثيراً ؟ هل ترى لنفسك مشكلة في إيجاد العلاقة والرابطة بينك وبين الآخرين ؟ أجل ، هذه كلها صور مختلفة من الخوف »[1] .

إذا كان الشخص مصمّماً على الصّرامة والقاطعية بالنسبة إلى ما يلتزم به من أصول وقواعد في الحياة ، فإنّه سيتحمّل الشدائد والمصائب بروح شجاعة ، ويحارب المشاكل ، ولا يجرؤ اليأس والقنوط على أن يجد له مكاناً في نفسه .

ربّ أُناس ذوي إمكانات وطاقات كامنة كان بإمكانهم أن يكتسبوا بها موقعاً حسّاساً في المجتمع ، وكانت لهم القدرة الكافية لطرد روح الخوف عن نفوسهم ، ولكنهم لعدم الشجاعة الكافية لديهم لم يتمكنوا أن يبدأوا بالسعي اللازم في هذا المجال ، ولذلك فقد بقوا غير منفتحين .

---

(١) بالفارسية : غلبهء برترس وخستگى : ٦٤ ، ٦٥ .

إنّ ما يسبّب خروج أزمّة الحياة من يد الإنسان هو أن يبقى بلا تكليف أو بـلا تصميم أو يتخذ قـرارات ناقصـة ، وإن إتلاف الـوقت بالفكـر في سـوانـح وحوادث من الممكن أن لا نواجهها أبداً ، خطر حاضر لا يجبر بشيء .

يقول (شكسپير) :

« من يخاف لسعة النحل فإنّه لا يستحق أن يمتلكه » .

إنّ طـرد الخوف والتصـوّرات الواهيـة من الـذهن ، وتبـديلهـا بـالأفكـار والآمال الصحيحة ، من الممكن لكل أحد في كل زمان ومكان ، ولكن مهما كان الشخص قويّاً في قراراته وكان هدفه كريمـاً عاليـاً مع ذلـك قد لا يتمكن من أن يعـدم بعض العـادات دفعـة واحـدة ، بـل ينبغي دفـع هـذه العـادات بصـورة تدريجية ، ولا يكفي في ذلك أن يطلع الإنسـان على أنّ خيـالاته هـذه لا أساس لها ، بل يجب أن يقوم بنشاط وفعّالية فكـريّة مستمرة للدفاع عن شخصيتـه أمام هـذه الخيالات ، ولتغيـير مجاري الأفكـار المؤلمة ، ولا بـدّ أن يفتح نـوافـذ فكـره للأفكار الإيجابية ، وهكذا تتهيّأ الأرضية لاكتساب الموفّقيات الكبيرة .

كما أنّه ما لم يضغط أحد على زرّ المصباح الكهربائي فـإنّه لا يتّقـد ، وما لم يضغط عليـه مرة أخرى لا ينطفىء ، على الإنسان إذا استـوعبت ظلمة الـوحشة روحه أن يوقد مصباح فكره على أضواء الحياة ليتحرّر خاطره من ثقل الخـوف في غير محلّه .

إنّ من يبتلي بكثير من الأفكار الواهية حتى في جزئيـات الأمور ، عليـه أن يدرس هذه الأفكـار التي تذهب بتـوازن ذهنه وروحـه ، ليدرك أنّـه لا يمكن أن يتحقق أي عمـل بالخـوف والهلع ، بل يجب أن يجـد السبيل إلى ذلـك العمل ، وعِـوضاً عن التصـورات الباطلة عليـه أن يغرس فسـيل الأمل والـطمأنينـة في حديقة روحه ، ثم يهتم بتربيتها وريّها كبستانيّ ماهر .

لا ريب أنّ الخـوف والوحشـة من نتائـج الخيال البشري ، ولا وجـود لـه خارج ذهنه ، وحينما يدرك الإنسان هذه الحقيقة يقدر على أن يتغلب على الخوف

إلى حدّ كبير ، فيحصل على السكون والراحة .

لا الخوف ولا الوقاحة

« الفضيلة » في علم الأخلاق هي الحدّ الوسط[1] بين الإفراط والتفريط ، و « الشجاعة » فضيلة بين الوقاحة والتهور وبين الخوف والجبن ، فمن كان بعيداً عن الخوف والوقاحة كان شجاعاً . وإنّ اكتشاف المنابع الحيوية القيمة واكتشاف القارات . . كل ذلك رهين لشجاعة الشجعان ، والعلوم كذلك تكاملت من خلال ذلك .

وبصورة عامة فإن الطاقات الروحية عامل أصلي في رقيّ الإنسان وتقدّمه ، ومن كان في ساحة الحياة يتمتع بروحية أقوى كانت توفيقاته أكثر .

لولا الشهامة لما كانت الثورات الفكرية والاجتماعية تنتج شيئاً ، وإنّ الدور الذي تؤدّيه هذه المزيّة الرّوحية في التطورات المادية والمعنوية للبشر ، وما حصل للإنسان من نتائج التجارب العملية ، تفرض الإذعان على أكثر البشر قتاماً في النظرة وتشاؤماً ، ويؤكّد ذلك ما يجري أمام أعيننا من مظاهر نفاذ قدرات الرّجال الإيجابيّين .

إنّ كبار رجال التاريخ الذين قد أدّوا دوراً مؤثّراً في إنقاذ أممهم ، فأنجوهم من الأوضاع والظروف المضنية ، كانوا بصورة عامة أناساً متحركين ذوي شهامة ، بل إنّ تكامل هذه الصفة تؤدّي إلى نموّ سائر الاستعدادات أيضاً .

وعلى هذا فمن المسؤولية الأخلاقية على كل أحد في قبال نفسه أن يعتني

---

(١) نظرية الحدّ الوسط في الأخلاق هي النظرية القديمة اليونانية الإسلامية ، وهي مورد مناقشة ونقض وإبرام بين العلماء المسلمين ولا سيما المتأخرين منهم فكثيرمنهم لا يذعن بها ويقول بدلها بميزان الشرع كما هو المنقول عن الشهيد الصدر (قده) المعرب .

أكثر فأكثر باكتساب هذه المزيّة الأخلاقية الكبرى التي هي من أنفع الفضائل ، فإنّ ما يجب أن يحل من مشاكل ، وما يجب أن يتحقق من أعمال ، وما يمكن أن ينتج من نتائج ، أصول كل ذلك منوطة بالشجاعة الفردية ، مهما كان ذلك يختلف من فردٍ لآخر .

ما أكثر الإقتراحات والنظريات الإصلاحية والآراء العملية والنافعة التي تصل إليها أفكار كثيرين من الناس ، ولكن لا تبرز من حجب أفكارهم بسبب ما فيهم من حالة الخوف والوحشة ، إنّهم في الحقيقة واجدون للكفاءة واللياقة والاستعداد التام ، ولكنّهم تعوزهم روح الشهامة ، فمع ما لهم من إيمان تام في كثير من الأحيان بأصالة آرائهم ونظرياتهم واقتراحاتهم وابتكاراتهم الفكرية ، مع ذلك ليست لهم الشهامة اللازمة ليبرزوا نظريّاتهم بكل طمأنينة وسكون .

وإذا اقتضت الضرورة أن يعرضوا تصميماً أو أطروحة على الآخرين استعجلوا فيها واضطربوا ، وكأنّهم لا يحسنون الظن بأنفسهم بل يتّهمونها بشيء . وحتى في المباحثات العلمية أو الاجتماعية بمحض ما يواجهون برأي مخالف يختارون التقاعد عن آرائهم من دون أقل دفاع عنها بل يعتذرون ممّا قدّموا من دلائل ، مهما كانت آراؤهم أكثر منطقية وأقوى استدلالاً من الآخرين وكانت مبتنية على أسس صحيحة ومتينة .

إنّ العلل والعوامل التي تسبّب لهذه الحالة في الأشخاص ، يجب أن ندرس وتبحث فما لم تُعرف تلك العوامل لن يجدوا سكوناً في أفكارهم ولا شهامة في أنفسهم . من الممكن أن يكون الشخص في دور طفولته ذا أمل وهمة عالية ، إلّا أنّ بعض الحوادث منعت من نموّ تلك الطاقات ، أو قد يكون الأولياء والمربّون له هم الذين قمعوا فيه تلك الأفكار النافعة المفيدة غفلة وجهالة .

وإذا علمنا أنّ قوة بنّاءةً في شخص مّا أصبحت ضعيفة موهونة لأمر مّا ، فمن الممكن أن نفتّش عن طريق علاج من الطرق الأساسية ، فإن استطاع هو أن يطرد عن وجوده ما استولى عليه من الخوف الباطل ، تزايدت طمأنينته وثقته

بنفسه تدريجيّاً كذلك ، وإنّما يكون من آثار قوة الشهامة البنّاءة أن تنعدم حالة التردد والوسواس في النفس ، ويعوّض عنها بالأمن والسكون .

الجهل برموز الحياة

إنّ إحدى العوامل الأساسية التي توجب شدّة القلق وتبدّله إلى خوف خطير ، هو الجهل وعدم الإطلاع برموز الحياة . إنّ الرجل الشهم يعلم جيداً أن حياة البشر خليط بأنواع الشدائد والمصائب ، فكلما واجه مشكلة حافظ على برودة أعصابه ودمه .

لهذا السبب يقال أنّه لا بدّ أن يعدّ الإنسان نفسه لتحمّل الحوادث قبل أن يواجهها ، فإنّ الإنسان إذا فكّر في الحوادث قبل وقوعها استطاع أن يتحضّر ويتجهّز لتقبّلها نوعاً مّا ، وحينئذٍ فإذا تحقّقت الحادثة سوف لا يكون لها أثر كبير عليه ، على العكس ممّن لم يكن مستعداً لتقبّل بعض الحوادث فإنّه إذا وقعت لواقعة كانت عليه كضربة ثقيلة فجائية تقع على هامته ، فتغيّر من أوضاعه كل شيء . إنّ الغفلة عن احتمال وقوع الحادث تجعل منها حوادث موحشة مميتة ، أمّا الاستعداد لتقبّل الحوادث فيسبّب في أن يفكر الإنسان في مراحل من الممكن أن تؤثّر في تعديل آثارها ونتائجها ، وأن تمهّد الدرب لمقابلتها ومقاومتها .

يقول (وولتر) :

« يجب على الإنسان أن يتقدم في طريق الحياة بضرب السيف والسلاح ، ولا يستسلم للموت إلّا والسلاح بيده ،إنّما أولئك هم الناس العجزة والقاصرون في أفكارهم الذين يسقطون بعواصف الحوادث ، وإنّما هم الضعفاء الذين تراهم يشكون دائماً من مصائب الحياة وشدائدها ومشاكلها . ما دمتم متردّدين شاكين محتملين لوقوع حادثة مّا ، وما زال لكم الأمل في رفع وقع تلك الحادثة فلا تبدوا من أنفسكم الضعف والوهن ، بل قاوموا الحوادث ثابتين مهما أمكن »[1] .

(١) بالفارسية : افكار شوپنهاور : ٩٧ .

إنّ المعرفة والإطّلاع على كيفية الحوادث من الطرق الأساسية لتقليل الخوف بشكل عام ، والإنسان يقل عليه ضغط ما فيه من خوف باطل بالتدريج موازياً لتقدم العلم ورقيّ المعرفة لديه وتكامل عقله ونموّ رشده ، ولهذا فإنّ كثيراً من العوامل التي كانت في مختلف أدوار حياة البشر أسباباً لخوفه حينما كان وحشياً أو نصف وحشي ، لا معنى للخوف منها لمن يتمتع اليوم من الناس بثمار تكامل العلم ورشد العقل .

لقد أثبتت التجارب أنّ نفس المعرفة تبدّل الوحشة المحطّمة بالطمأنينة والسكون ، وعلى أساس هذه الحقيقة الواقعة يرى جميع علماء النفس أن نفس معرفة الشيء المجهول والتعرف على سبب ظهور الخوف المؤلم مقدمة ضرورية لعلاج الخيالات الموحشة والاضطراب الفكري والقلق .

ولا ينبغي أنّ ننسى نقطة مهمّة هنا هي أنّ الخوف القديم وإن قلّ كثيراً بتقدم العلوم ، لكنّه من ناحية أخرى حدثت أنواع جديدة من الخوف والفزع مكان الخوف القديم متزامنة مع ما حدث في حياة الناس من التطورات الصناعية الجديدة ، ففي المجتمعات الصناعية التي تشكلت من أفراد لا يعرف بعضهم الآخر لا يزال سكّانها يستوحشون يوماً بعد يوم بالرغم من تمركز الناس وكثافة السكّان ، ويحرمون من الإقتراب والتآلف والتعارف بين أرواحهم ، قد تبدّلت المعايشة والمعاشرة التي كانت تسود علاقات الناس بالأمس إلى الشعور بالغربة والوحدة ، فكثافة السكّان وتمركزهم أحدث فيهم الابتعاد الروحي والاغتراب فيما بينهم ، ومع أنّهم يعيشون مقتربين لا يعرف بعضهم الآخر من قريب وبصورة عميقة جذرية ، وعند اللزوم يبخلون عن عون الآخرين ومساعدتهم .

وإنّ التنكّر للعواطف ، وللعدل والإحسان ، والابتعاد عن التكاليف والتقوى ، يسبّب الخوف والذُعر ، فالخوف ـ في الحقيقة ـ من التبعات التي يعاقب الإنسان بها بسبب انحرافه عن مسيرة الفضائل .

يقول أحد المفكّرين الأمريكيّين :

« إنّ أيّ نقص للمحبة أو المواساة في الروابط الاجتماعية والعلاقات يوجب جزاءً شديداً ، هو ـ كما سنرى ـ الخوف والذّعر ، فما دامت لي مناسبات حسنة مع أقربائي أو أقراني فإنّه لا يصيبني أيّ شيء عند لقائهم ، بل نفوسنا تتلاقى فيما بينها وفقاً لما يسود في الطبيعة من الاختلاط والامتزاج والانتشار والتفاعل ، كما يتلاقى الماء بالماء ، ويختلط الهواء بالهواء . ولكن بمحض ما يعدل أحدنا عن البساطة والسذاجة والوضوح ، ويبدأ السعي للانفصام ، فمثلاً يتأذى خاطر جاري لأنّي لم أرض له شيئاً رضيته لنفسي ، فإنّه يبتعد منّي بمقدار ما ابتعدت أنا عنه ، فعيونه لا تفتش بعدُ عنّي ، وتبدأ الحرب بيننا ويظهر فيه الإنزعاج ويكمن فيّ الخوف .

وجميع أنواع الظلم الاجتماعي أعمّ من أن تكون عامّة أو خاصّة ، وجميع مظاهر اكتناز الثروة والقوة ، كل ذلك سيقع مورد انتقام في الطبيعة ، فأينما يظهر خوف يوجد فساد ، وهذه هي أكبر موعظة للخوف . إنّ الخوف ضبع يفتّش عن الأموات فحضوره علامة عن وجود ميتة . إنّ الخوف قد نفذ منذ قرون في قوانيننا وطبقاتنا ، وهو منذ قرون أيضاً قد أظلّ بظلّه على حكوماتنا أيضاً ، وليس وجود هذا الحيوان المشؤوم بلا سبب ، بل بالتحقيق إنّه يؤكّد وجود ظلامات يجب أن ترفع وتزول »[1] .

الخوف والرجاء في فطرة الإنسان

قد تركّب في فطرة الإنسان « الخوف والرجاء » وهما يولدان مع الإنسان وينموان معه ، فالخوف من المرض والألم والفقر والضعف ، شعور ينشأ من باطن الإنسان ، ومن جانب آخر هو يأمل في الأمن والراحة والدّعة والتمكّن و . . وكلّما تحققت أمنية نبتت أمنية أخرى في قلبه وملأت مكان الأمنية المقضيّة .

إنّ الخوف والرجاء معاً يرسمان لنا أفكارنا وأهدافنا وأبعاد الحياة ، والإنسان يختار طريقه في الحياة وفقاً لنوعيّتهما ومستواهما ، فالذي قد أشغل فكره

أمل المال والقدرة والمقام يرسم أهدافه على هذه الأسس ، فهو يقدم على أعمال يأمل أن توصله إليها ، ويصرف همته في اختيار الوسائل التي يأمل أن يصل بها إلى آماله تلك في أسرع وقت ممكن .

أمّا الذي قد حرّر نفسه من قيود هذه الميول وضغوطها ، لن يصرف قواه في سبيل هذه الأهداف من دون أي قيد أو شرط ، إذ هو يملك نفسه وهو متحرر عن عبودية هذه الميول والأهواء والمشتهيات .

والإسلام باستناده على الخوف والرجاء ، يرفع عن كاهل نفس المؤمن ثقل ذلك الخوف الذي لا أثر له في تغيير حقيقة الأمر وإنّما هو ثقل على عاتق نفس الإنسان ، فإنّ الخوف الذي لا يقلّل شيئاً من الواقع المرّ خوف باطل ، وهكذا قد حرّر نفس المؤمن من الخوف من أمور الأرض والتعلّق بمتع الحياة الزائلة ، وهو يحمل الإنسان على السعي في سوم العمل ، وينفي كل أمل ضآل مضل عن ضمير الإنسان ، وهكذا يمنع النفس عن الضلال ولكي ينطلق الإنسان نحو حياة قيمة أخرى ، ولا يعتمد أي شيء سوى قدرة الله الأزلية .

الإسلام يرى أنّ أيّاً من عوامل الرعب العادي ليس هو الضار والنافع ولا مدد له من نفسه ، ولذلك فهو لا يستحق الخوف ، وإنّما يستحق الخوف ذلك القاهر فوق عباده الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وهو اللطيف الخبير ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فقال :

﴿ قُلْ مَنْ يرْزُقكم من السماء والأرض ؟ أمْ مَّنْ يَمْلكُ ٱلسَّمْعَ وٱلأبْصارَ ؟ ومَنْ يُخْرِجُ ٱلحَيَّ مِنَ ٱلمَيْت ، ويُخْرِجُ ٱلمَيّتَ مِنَ ٱلحَيّ ؟ ومَنْ يُدبّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُون الله ، فَقُلْ أَفَلا تَتَّقون ﴾[1] .

ومن جانب آخر حيث يمدّ الإنسان عينيه طبعاً إلى كثير من النعم واللذائذ الجسدية ، لذلك لم يحرم الإسلام أحداً من المتع واللذائذ الطاهرة والنزيهة ، ولم

(١) سورة يونس : الآية ٣٠ .

يقسره على الإنصراف عن أمور الدنيا ، ولكنه يحاول أن يصرف أمله بالقيم الكاذبة إلى الآمال والقيم الواقعية الحقّة ، وهو ينبّه الإنسان إلى أن لا تخدعه المتع الفانية ، وأن لا يغرق في الشهوات الفانية ، بحيث يحرم من المتع الحقيقية الخالدة ، ويقوده دائماً إلى أن يطلب رضا الله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

إنّ ما ورد في التعاليم الإسلامية من التأكيد على الخوف من الله تعالى يرجع في الحقيقة إلى المخافة من عاقبة أعمال الإنسان نفسه ، وهذا الخوف ليس غير ضار فقط بل فيه فوائد كثيرة ومنافع واسعة تشمل جميع أعمال الإنسان . إنّ الخوف من العواقب المؤلمة للأعمال السيّئة يزيد في حزم الإنسان وحيطته وحذره ، ويؤدّي إلى تنظيم الغرائز الضارّة وانضباطها ، ويجعل من الإنسان موجوداً منتظماً جدّاً .

إنّ الرجاء من الله سبحانه ورحمته الواسعة من دون الخوف منه ، يؤدّي إلى مفاسد كثيرة .

إنّ الإنسان إذا كان قلبه فيّاضاً بالأمل بالله تعالى ، كان يبادر إلى ارتكاب أيّ عمل بلا وجل وهو لا زال يأمل ويرجو ، ومن الممكن أن يغرق في الضلال بكل أعماله ولا يقل شيء من أمله .

إذن فعدم وجود الخوف من الله تعالى يؤدّي إلى الضلال في الأعمال ، ولهذا نرى الأوامر الدينية قد أكّدت على أن يكون الإنسان في منزلة بين الخوف والرجاء ، ففي حين هو يأمل رحمة الله الواسعة يخاف عقوبة أعماله ، وحينئذٍ فهو لا يصاب بالغرور من أعماله الصالحة .

روى (الفيض الكاشاني) في موسوعته الأخلاقية (المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء) عن الإمام الصادق (عليه السلام) (والظاهر أنّه عن كتاب

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٣ .

(مصباح الشريعة) المنسوب إلى الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال :

« الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً وإليه راجياً ، وهما جناحان للإيمان ، يطير بهما العبد المحقّ إلى رضوان الله ، وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده والخوف طالع عدل الله باتّقاء وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس »[1] .

إنّ العامل المحرّك للمسلّحين بسلاح العلم والإيمان الذين يخافون جزاء الله العادل ، العامل المحرّك لهم في عملهم بالأوامر الإلهية ، هو نفس إطاعة أوامر الله ونواهيه . إنّ الخوف من عواقب الأمور بمثابة الإنذار بالخطر إذ يحمل الإنسان على أن يفكر في الوقاية ، ويجرّه إلى رعاية جميع جوانب مسؤولياته ، ويردعه عن التلوّث بأرجاس المعاصي ، ويكون السبب في أن يلاحظ الإنسان في كل حال سعادته الواقعية الحقيقية في الآخرة .

والقرآن الكريم يرى أنّ العلم مادّة الخشية من الله تعالى تلك الخشية التي تبصّر المؤمن المتّقي بمخاطره : ﴿ **إنّما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[2] .

ولا شك أنّ العلم الذي يجعل الإنسان في عداد العلماء عند الله ، ويكون وسيلة لطهارة الباطن وتزكية النفس ، هو العلم الذي يوظّف في سبيل تكامل النفس ، ويقود العالم إلى عبادة الله والتوجّه إلى قدرته المطلقة ، هذا العلم لا يدع العقل والوجدان يتلوّثان بالآثام ، بل هو من أهمّ أسباب يقظة الفكر للتفكير حول خلقة نظام الوجود وتذكّر عظمة الله تعالى :

﴿ **الَّذين يَذْكُرُونَ الله قِياماً وقُعُوداً وَعَلى جُنُوبهم ، وَيَتَفكَّرُونَ في خَلْقِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلأَرْضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ ، فَقِنا عَذابَ**

---

(١) المحجة البيضاء ٧ : ٢٨٣ .

(٢) سورة الفاطر . الآية ٣٥ .

آلنّار ﴾[1] .

بل يرى القرآن الكريم أنّ الهداية والبصيرة أيضاً من بركات حالة الخشية من الله تعالى :

﴿ **سيذكّر من يخشى** ﴾[2] .

سألت عائشة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : يا رسول الله ! قول الله : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾[3] . أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا ، ولكنّ الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبّل منه[4] .

وروى الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن الصادق (عليه السلام) قال :

« معناه : خائفة أن لا يُقبل منهم »[5] .

إنّ الخوف المذموم الضار هو الخوف الناشيء من الضعف والعجز ، والذي ليس غير محرّك الإنسان إلى الإقدام المفيد بل هو مانع من التقدّم والرقيّ ويسد سبيل السعادة على صاحبه ، ولذلك فقد كان أئمة الإسلام يحاولون أن يحرّروا أتباعهم حسب برامج تربوية من أسر الخوف الباطل الذي يزلزل عزيمة الإنسان وإرادته ويعدم اعتماده على نفسه وثقته بها ، وذلك بالإفادة والاستعانة من قوّتي العقل والإيمان في المؤمن .

لما عزم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على المسير إلى

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩ .
(٢) سورة الأعلى : الآية ٩ .
(٣) سورة المؤمنون : الآية ٦١ .
(٤) الميزان ١٨ : ٥٠ نقلاً عن الدر المنثور
(٥) الميزان ١٨ : ٥٠ .

الخوارج تقدم إليه بعض دهاقين دساتيق الطريق وقال : يا أمير المؤمنين إن سرت في هـذا الوقت خشيت أن لا تـظفـر بمـرادك ، من طـريق علم النجـوم . فقـال (عليه السلام) :

« أتـزعم أنّـك تهـدي إلى السـاعـة التي من سـار فيهـا صُرف عنـه السوء ، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حـاق به الضرّ ؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن واستغنى عن الإستعانـة بالله في نيـل المحبوب ودفع المكروه ، وتبتغي في قولك للعامـل بأمـرك أن يولّيـك الحمد دون ربّه ، لأنّك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضرّ !! .

ثم أقبل (عليه السلام) على الناس فقال :

« أيها الناس إيّـاكم وتعلّم النجوم إلاّ مـا يُهتدى بـه في برّ أو بحـر ، فإنّها تدعو إلى الكهانة والمنجّم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحـر كالكافر والكافر في النار . سيروا على إسم الله »[1] .

هكذا أمر أمير المؤمنين عسكره أن يسيروا إلى جبهة الحرب متّكلين على الله تعالى ، من دون أن يعتد بهذا الكلام الذي لا أساس لـه ولا أن يرتب أثـراً على تنبّؤاته . وكانت العاقبة أن انتهت الوقعة بانكسار الخوارج وانتصار جيش الإمـام (عليه السلام) .

وفي (غرر الحكم) يعلّم الإمام (عليه السلام) أصحابه في إحـدى كلماته قائلاً :

« إذا خفت صعوبة أمـر فاصعب لـه يذلَ لـك ، وخادع النـاس عن أمثاله يَهُن عليك »[2] .

ويقول علماء النفس :

---

(١) نهج البلاغة ١ : ١٠٥ ط الصالح .

(٢) غرر الحكم : ٣١٩ .

« في حياتنا اليومية نلاقي كثيراً من الناس ممّن قعد بهم الخوف ، وقد سمحوا للخوف أن يأخذ منهم هذا المأخذ .

ما أكثر أولئك الذين امتنعوا عن الإشتراك والمساهمة في الفعّاليات والنشاطات الاجتماعية على أثر خوفهم وحذرهم ، ولذلك فقد تخلّوا عن حمل ثقل المسؤوليات مقهورين لذعرهم .

كثير من الطلاب يسألون أساتذتهم رعباً ورهبة ، ويستولي عليهم ذلك في الإمتحانات أيضاً بحيث لا يستطيعون معه أن يبيّنوا أو يكتبوا ما كانوا يعلمونه ، ونرى كثيراً من الناس لا يعترفون بأخطائهم لخوفهم ، وهناك كثير من الناس لا جرأة لهم على أن يقولوا «لا» أي يخافون أنّهم لو امتنعوا بحق عن الطاعة غير المفترضة يحدث لهم شيء يرهبونه .

هذا النوع من السلوك يبعث على أن يفسح المجال للخوف بأن يسيطر على الإنسان ، فيقلّل من قدرته للتفوّق والتغلّب على الخوف نفسه تدريجياً ، وتزداد مشاكله اليومية يوماً بعد يوم .

وكل أحد في حياته يحتاج إلى الشجاعة والشهامة بشكل وآخر ، والأفضل أن تحصل هذه الجرأة في الطفولة ، فمن أراد أن يكون له بلوغ رشيد كان عليه أن يخلق في نفسه الجرأة والشجاعة ، وإذا حصلنا على الشجاعة في وجودنا في حينها فإنّها تزداد حينما نحتاج إليها .

علينا أن نعمل بكل ما هو ضروري ولازم للتفوق والتغلّب على الخوف والرعب ، فإنّه تّتفق لكثير منّا توفيقات للقيام بمهام أعمال امتنعنا عن القيام بها على أثر الخوف الخفي أو الظاهر .

فمثلاً قد اتّفق لكم فرص في الصفّ لتساهموا في إلقاء الكلمات ولكنكم لم تفعلوا ذلك ، لأنّكم خفتم أو هبتم ، أو أن صاحبكم قد تقدم إليكم في ذلك باقتراح كان يختلف مع ما تقبلتموه أنتم من أصول أو قواعد ومقرّرات ولكنكم خوفاً وحذراً من أن يتألم منكم صاحبكم لم تصرّحوا له بالنفي «لا» أو أنّكم

ارتكبتم خطئاً وأنّكم لم تعترفوا بـه خوفـاً وخجلاً ورعبـاً ، كل هـذا من الخوف والرعب .

فلو عـرفتم ذلك وعملتم مـا كان ينبغي أن تفعلوه ، استـطعتم بذلـك أن تخلقوا أو تنمّوا في وجودكم الشجاعة ، وهذه هي طـريقة إيجـاد الشهامـة ، وكلما كرّرتم هذه العملية زدتم بها على شجاعتكم شيئاً فشيئاً ، وبـذلك تتمكّنـون من أن تتغلّبوا على خوفكم ورهبتكم ، وبحصولكم عـلى الجرأة الـلازمة واستقـرارها فيكم تقدرون على حلّ مشاكلكم »[1] .

والبشر اليـوم على الـرغم ممّـا حصـل عليـه من الإنتصـار عـلى الكثـير من العوامل الطبيعية فهو في وحشة دائمة مستمرة من المستقبل والمرض وخيبـة الأمل والإنكسار في الحياة .

ومـا أكثر الأدمغـة النشطة والمبـدعة التي أصـابها الخـوف والرعب والـذعر والرهبة من الحوادث والمواضيع التي تتعلق بالحياة والمعيشة ، وبالتالي أصابها ذلك بالجمود والركود ، وما أكثر الآراء الأصيلة والإبداعات القيّمـة التي دفنها الخـوف تحت غبار النسيان .

وفي (نهج الفصاحة) عن الـرسول الأكـرم (صلى الله عليـه وآله وسلم) أنّه قال :

« شرّ ما في الرجل شحّ هالع وجُبن خالع »[2] .

ضعف الإرادة

إنّ ضعف الإرادة وليد الخوف اللامعقول ، ومن الممكن أن تصبـح حالـة الشك والتـردد مقدمة لخوف عميق ، وأينما حلّ الوسواس والتـردد خـرج الإيمان

---

(١) بالفارسية : روانشناسى براى زيستي : ٢٩٩ .
(٢) نهج الفصاحة : ٣٨٢ .

من ذلك الميدان ، ولذلك فإنّ الذي لم يصل إلى حدّ الإيمان الكامل يصبح دائماً مورداً لهجوم سهام الشك والتردد ، ويصبح التزلزل والتردد من خصائصه العادية ، بينما المؤمن لا يصاب بالتزلزل والتردد ، ولا يجد الخوف المؤلم منفذاً إلى علمه وعقله .

إنّ الإنسان المؤمن الفيّاض قلبه من الإيمان والخلوص ، والذي هو مرتبط بقدرة الله ارتباطاً لا ينقطع ، هو أقوى من أيّة قدرة فاسدة ، فلو اضمحلّت قواه المادية أمام قوى الباطل وأصيبت بالإنكسار والفشل ، فإنّه لا يجد نفسه وحيداً لا ملجأ له ، إذ هو متّكل بكل وجوده على قدرة الله العظيمة ، وهو يهتدي بهداه .

ومن العناصر الأصيلة في العقيدة الإسلامية أنّه يتمكن من إرشاد الضّالين إلى الصراط المستقيم ويستولي على كل ضلال وضياع في نفس الإنسان ، والإنسان المؤمن بالإستعانة من القدرة الإلهية الأزلية يستطيع أن يسيطر على مختلف القوى المادية ، وهي ليست القوى الوحيدة في واقع الحياة .

ومن هنا نرى أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) في كتابه إلى أهل مصر مع مالك بن الأشتر النخعي يصفه لهم بالشهامة والقوة المعنوية فيقول :

« أمّا بعد ، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيّام الخوف ، ولا ينكُلُ عن الأعداء ساعات الرّدع ، أشدّ على الفجّار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مَذْحِج ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق ، فإنّه سيف من سيوف الله لا كليل الظُّبّة ولا نُابِي الضّريبة »[1] .

وفي وقعة « صفين » حين تصرّف عساكر معاوية في « الشريعة » فمنعوها عن أصحاب علي (عليه السلام) ، حاول أمير المؤمنين أن يحلّ المشكل عن طريق المفاوضات ويتّقي فيها القتال ما أمكن ، ولكنّ معاوية الذي كان يرى

---

(١) نهج البلاغة : ٤١١ ط الصالح الكتاب ٣٨ .

استيلاء عسكره على الماء نصراً كبيراً له انتهز الفرصة ولم يرضخ للمفاوضات ، ولذلك فقد بقي أصحاب علي (عليه السلام) في ضائقة من المياه ، ولهذا وقف (عليه السلام) بينهم خطيباً وقال :

« قد استطعموكم القتال ، فأقِرّوا على مذلّة وتأخير محلّة، أوروّوا السيوف من الماء تُرووْا من الماء ، فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين ، ألا وأنّ معاوية قاد لُمّةً من الغواه وعمس عليهم الخبر حتى جعلوا غورهم أغراض المنيّة »[1] .

هذه الخطابة النارية أثارت في نفوس الجنود عاصفة بل ثورة فوّارة ، وفار في عروقهم دم الشهامة والشجاعة ، فدفعوا عن الشريعة عسكر معاوية بحملة واحدة واستولوا عليها ، ثم سمحوا ـ بكل عفو وبغاية الفتوة ـ لأعدائهم أن ينتفعوا من الماء حسب حاجتهم إليه .

الشجاعة بمعناها الواسع

ولا ينبغي أن نرى الشجاعة محصورة بميادين الحرب ، بل يمكننا أن نراها في مراحل الحياة ، وأن نفيد منها كذلك .

وبشأن قيمة هذه المزيّة الروحية يقول الدكتور (ماردن) :

« أنت بحاجة إلى شجاعة إن كنت تلبس ملابس قطنية بينما أصدقاؤك يلبسون الماهوت ، وأنت بحاجة إلى شجاعة إن كنت تعيش بفقر معه تقوى وصبر في حين أن الآخرين يكتنزون الثروة زوراً وتزويراً ، أنت بحاجة إلى شجاعة إن كنت تقول « لا » في حين أن كلّ من معك يقول « نعم » أنت بحاجة إلى شجاعة إن كان الآخرون يكتنزون الثروة بنقضهم لعهودهم المقدّسة وأنت تؤدّي وظيفتك بسكوت . أنت بحاجة إلى شجاعة من أجل أن لا تبدي

---

(١) نهج البلاغة ١ : ٨٨ ط الصالح . الخطبة ٥١ .

من نفسك خلاف ما أنت عليه بل تبديها على ما هي عليها وعلى عِلّاتها « سقط عديم » أي أنت بحاجة إلى شجاعة من أجل أن تتحمل الإنكسار والإستهزاء .

والشاب الذي يخاف في بدء أمره أن يبدي للآخرين ما هو يفكّر فيه ، سيخاف في نهاية الأمر حتى من التفكّر فيما يريد .

ما أكثر وحشتنا من الإقدام على أعمال وفق ما نريد ، ونريد أن نعيش كما يعيش الآخرون ، فمثلاً يجب أن يكون الزيّ والملابس ، والسكنى ، والسيارة ، وكل شيء على وفق الموديل الحديث ، وإلّا فنشعر بالطرد من المجتمع ، وتلزمنا الجرأة لئلا يرضخ الرجل ويركع في المجتمع أمام ما يتعصّب له العامّة والسوقة ، وليعصي ولا يتابع ما هو مرسوم ولكنّه يضرّ بالصحة والأخلاق »[1] .

أجل ، إنّ عدم الإعتداد بأرباب القدرة والتزوير وحتى الخلفاء الغاصبين الطاغين المستبدين ، كان من الخصائص البارزة لمن تربّى في مدرسة الإسلام التربوية ، بحيث أنّهم كانوا يحافظون على قواهم المعنوية والروحية حتى في أشدّ الظروف (وإن كان في بعضهم انحرافات من ناحية أخرى) .

فقد نقل المحدّث القمّي في (سفينة البحار) عن (الكشكول) للشيخ البهائي نقلاً عن (إحياء العلوم) للغزالي ، روى أنّه : قدم هشام بن عبد الملك حاجّاً أيّام خلافته فقال : إيتوني برجل من الصحابة . فقيل : قد تفانوا . فقال : فمن التابعين . فأتى بطاوس اليماني . فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلّم عليه بإمرة المؤمنين بل قال : السلام عليك ، ولم يُكنّه ، ولكن جلس بإزائه وقال : كيف حالك يا هشام ؟ .

فغضب هشام غضباً شديداً وقال : يا طاوس ؛ ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما صنعت ؟ فازداد غضبه وقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين ولم تكنّني ، وجلست بإزائي وقلت : كيف أنت يا هشام .

---

(١) بالفارسية : أسرار كميابى : ١٤ .

فقال طاوس : أما خلع نعلي بحاشية بساطك ، فإنّي أخلعها بين يدي ربّ العزة كل يوم خمس مرّات ولا يغضب عليّ لذلك . وأمّا قولك « لم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين » فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب وأمّا قولك « لم تكنّني » فإنّ الله عزّ وجلّ سمّى أولياءه فقال : يا داود ، ويا يحيى ، ويا عيسى ، وكنّى أعداءه فقال « تبّت يدا أبي لهب » وأمّا قولك « جلست بإزائي » فإنّي سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول :

« إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام » .

فقال هشام : عظني . فقال طاوس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) :

« إنّ في جهنّم حيّات كالتّلال ، وعقارب كالبِغال تلدغ كلّ أمير لا يعدل في رعيّته » ثم هرب ![1] .

الرياء صورة من الخوف

إنّ الرياء انعكاس من حالة الخوف الخفيّ في ضمير المرائي ، والشهامة تنقذ الإنسان من أسر هذا الرياء ، وتربطه بالحقيقة والواقع .

ويقول (والدو إمرسون) :

« لنتّخذ في أنفسنا حالة حربيّة ، ودعنا نثير في كياننا الشجاعة والاستقامة ، وعلينا أن نعمل بمظاهر ذلك في ساعات السكون والراحة والدّعة في معيشتنا وذلك بالتزام قول الحقيقة ، أوقفوا الكرم الكاذب في استضافة المزيد من الضيوف ، وألجموا هذه المظاهر من الحبّ الكاذب ، ولا تعيشوا بعد اليوم

---

(١) سفينة البحار ٢ : ٩٥ عن الكشكول نقلا عن الإحياء للغزالي .

كما يعيش الناس المخدوعين والخادعين المخـالطين لنـا والمعاشرين معنـا ، وقولـوا لهم : أنـا عشت إلى اليوم متقيّـداً بالمحـافظة عـلى ظواهـر المجامـلات ، ولكنّني قرّرت منذ الحين أن أكون من أبنـاء الحقائق ، واعلمـوا أنّي فيها يـأتي من عمري سـوف لا أطيع أيّ قـانون أقـل من القانـون الأزليّ الأبدي ، فـإن استـطعتم أن تحبّوني كما أنا فإنّي سـأعيش بسرور أكثر ، وإلاّ فـآمل أن يصـل يوم استحقّ فيـه حبّكم لي . إنّي أعتقـد بقداسـة ما في ضمـيري وما يكـون سبباً لسرور الضمـير وموافقاً لحبّ القلب فإنّي سأعمل به ليل نهار وبكل اقتدار .

لعلّكم تقولون : إنّ هذا السلوك ثقيل على الأصدقاء . وأنتم صادقون في ذلك ، ولكنّنا لا يمكننا أن نضحّي بحرّيتنا وقدراتنا وطاقـاتنا فـداءً لحساسيّتهم ، وقد يصل الوقت الذي يتعقّل فيه الناس في أمور الحيـاة ، وحينما يـدخلون حوزة الحقيقة المطلقة فإنّهم سيرون ويعتقدون بصحة عقيدتي اليوم ، وسيكون ذلـك لا محالة »[1] .

إنّ نسبة الشهامة إلى الاستعداد الذاتي كنسبة الإرادة إلى القابلية والطاقة ، فكما أنّ الإنسان مهـما كانت لـه قابليـة وإمكانيـة القيام بـأعمال مـا لم يستمد من إرادتـه فإنّـه لن يتوفّق للقيـام بأيّ عمـل ؛ كذلـك من كان قـويّ الإدراك حـادّ الذهن والفكر فما لم يقترن استعداده الذاتي بالنشاط والفعالية والشهامة لن يصـل إلى أيّ هـدف قيّم وكبـير . والشجـاع لا يتحـدّث عن الضعف إذا وقف أمـام الشدائد والمشاكل ، بل يتحمّل مصائب الحياة ـ التي لا بدّ منها ـ بـروح الرجـولة والتضحية والفداء .

المضـطّر المسكين من كـانت آمالـه طـوالاً من دون أن تكـون لـه شهـامـة لتحقيقها . يعلم العلماء والمفكّرون جيّـداً أنّ علينا أن نخـرج أنفسنا من حـدود الآمـال والأماني وأن نقـترب مهما أمكن من العمـل ، وإلاّ فإنّ الضعف والـوهن يبدل الأمور الممكنة إلى أمور غير ممكنة في نظر الإنسان .

---

(١) بالفارسية : فلسفهء اجتماعى : ٣٢٥ .

وعلينا أن نلتفت إلى أنّه كما علينا في بعض مواقف الحياة أن نقف ونحارب ، كذلك علينا في بعض المواقف الأخرى أن نرجح التراجع والتنازل على المنازلة والصراع ، إنّ أولئك الذين يقرّرون أن لا يبدو وهناً من أنفسهم ولا يحترزوا من المخاطر حفظاً لشؤونهم الشخصية ، من الممكن أن يحافظوا بذلك على شؤونهم ويبلغون بذلك إلى آمالهم ، ولكنهم لا يحتفظون بحياتهم .

إنّ أبرز ما يقوم به الأبطال هو أنّهم يثبتون أنّهم منتصرون متغلّبون على الخوف ، وأنّهم يقاومون الخوف بما أوتوا من قدرة وقوة من دون أن يقلّلوا من قيمته في استمرار الحياة .

من الممكن أن يحصل الإنسان من خلال عدم إظهار الخوف على توفيقات وأن يستثمر من ذلك بعض النتائج ، وذلك يرتبط بمستوى نشاطه وفعّاليّته للامتناع عن إظهار الخوف ، ولكنه قد يكون يبدأ بسعي متواصل لإنجاز عمل مُحال ، وحيث لا يصل إلى هدفه يرى نفسه لا كفاءة له ، وبالتالي يفقد ثقته بنفسه ، أضف أنّه يهدر كمية كبيرة من طاقاته وقدراته كان من الممكن أن توظّف في مواضع أخرى فتفيد وتثمر .

روي عن الإمام الحادي عشر أبي المنتظر يقول :

« . . وللحزم مقداراً فإن زاد عليه فهو جبن وللشجاعة مقداراً فإن زاد عليه فهو تهوّر »[1] .

هناك تفاوت واختلاف بيّن وأساسيّ بين حالة الخوف وبين التدبير والحزم ، ينبّه إلى ذلك أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فيقول :

« إذا كان القدر لا يُرد فالإحتراز باطل »[2] .

وعنه (عليه السلام) قال :

« إذا اقترن العزم بالحزم كملت السعادة »[3] .

---

١) بحار الأنوار ١٧ : ٢١٨ ط قديم

(٢، ٣) غرر الحكم : ٣١٥ .

ويقول (برتراند راسل) :

« إن المخاطر تحيط بالحياة ، والإنسان العاقل يتجاهل منها ما لا بدّ منه ، وما منه بدّ ومفرّ يحتاط منه بدون تهيج العواطف والأحاسيس . أنتم ليس بإمكانكم أن تفرّوا من الموت ولكن يمكنكم أن تفروا من الموت بلا وصية ، إذن فاكتبوا وصيّتكم ، ولا تنسوا أنّكم تموتون حتماً . إنّ الاحتياط المعقول شيء غير الخوف تماماً ، فالاحتياط حكمة والخوف عبودية .

إن كنتم لا تتمكّنون من أن تجتنبوا الخوف فحاولوا أن لا يظن أطفالكم ذلك بكم ، بل حاولوا أن توسّعوا آفاق نظراته لتمنعوا من أن يصاب في المراحل الآتية من الحياة بالشقاء ، هذه هي الطريقة الوحيدة من أجل أن تصنعوا منه رجلاً متحرّراً في هذا العالم .

فيما يحاول الفكر أن يكتشف السلوك الصحيح يشكل الخوف آفة وقلقاً واضطراباً ، إذن فنحن بحاجة إلى أن نتمكن من تنبّؤ حدوث الشرّ من دون الشعور بالخوف ، فنوظّف عقولنا للإجتناب عمّا يمكن الاجتناب منه ، إذ علينا أن نتعامل مع الشرور التي يمكن اجتنابها بروح الشجاعة المحضة »[1] .

الشيء المسلّم به هو أنّ ليس بالإمكان أن نتوفّق في حلّ مشاكل الحياة بالخوف والاضطراب،بل نحن بحاجة إلى خاطر مرتاح ونفس قوية وروح شهمة حتى نتمكن من حلّ عقد الشدائد ، والذي يكون فكره في معرض أن يتصوّر الكابوس الرهيب يرى العالم مظلماً رهيباً .

والذين يفتقدون الشهامة لا يدرون إلى من وأين يلجأون في أعاصير الحياة وهم على خطر أن يبادروا إلى الإنتحار من أجل أن يتحرّروا من عذاب الخوف والرعب .

تمّ الكتاب بعون الملك الوهّاب

والحمد لله ربّ العالمين

١٢/١٢/٤٠٨ هـ ق .

---

(١) بالفارسيه : درتربيت ٨٣و ٢٠١

المحتـــويات

***